كشـف المُخبَّا عن فنون أوربا



أحمد فارس الشدياق

كشف المُخبَّا عن فنون أوربا

كشف المُخبَّا عن فنون أوربا

تأليف
أحمد فارس الشدياق



كشف المُخبَّا عن فنون أوربا

أحمد فارس الشدياق

رقم إيداع ٧٢٢٨ / ٢٠١٤
تدمك: ٩ ٧٦٤ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: خالد المليجي.

المحتويات

مقدمة ٧
من مالطة إلى إنكلترة ١١
السفر إلى فرنسا ١٦٥
الكلام على لندن أو لندرة ٢٤١
فصل في الستي ٣١١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحصى كل شيء كتابًا، وأعد للمتقين جزاءً حسابًا، وألهم ابن آدم أن يضرب في الأرض ويكدح لنفسه كدحًا، ويجوب مناكب البلاد ويسعى ليدرك نُجْحًا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بهرت آيات نبوته الناظرين، وبزغت شمس دينه فأَفَل منها سها الكافرين، ونادى بالحق فزهق الباطل وامَّحَى طَلَلُه، وأنذر فأرهب، وبشر فأرغب، وطاب مقاله ومقوله، وخير من دعا وأمر، ونهى وزجر، ووعد فأنجز، وقال، أطنب أو أوجز، وأرشد فهدى، وأجدى من اجتدى، صلاة وسلامًا دائمين، متلازمين متلائمين، وعلى آله وعترته، وأصحابه وعشيرته، ما سرى الساري، وطلعت الدراري.

«أما بعد» فإن الأسفار طالما ذكرها الذاكرون، وبالغ في وصفها الواصفون فمدحها من عَلَت مروءته، وسمت همَّته، وذمَّها من قصر عنها، ولم يجنِ منها، فمنهم من شبه صاحبها بدر إن لم ينقل لم يكن في التيجان منضودًا، وبهلال إن لم يسرِ لم يَصِر بدرًا مشهودًا، ومنهم من زعم أنها الحاملة على الذُّل، المضيعة لحسب المرء والموقعة له في الضُّلِّ، والخمول وعدم الشَّكْل، وإن الشيء إنما يَرْزُن إذا كان في مستقره، حتى عرفوا الظلم أنه وضع الشيء في غير مقرِّه، ومعلوم أن محل العرب مباين لمحل العجم، فكأن أحد الفريقين إذا جاوز محله فقد ظلم، إلى غير ذلك من تناقض العبارات والاعتبارات، كما جرت بذلك عادة البلغاء في المحاورات؛ إذ كل حكم وقضية من القضايا الجارية أطالوا فيها المقال، وجالوا فيها من حيث لا مجال، كاعتزال الناس والانفراد عنهم، والمخالطة لهم والأخذ منهم، فبعضهم آثر الأول، ووَدَّ لو يقضي عمره على قُنَّة جبل، وبعضهم شبه الزحام، بمنهل عذب لذي الأُوَام، وأمثال ذلك لا تُحصى، ولا تعد ولا تستقصى، فكان الركون إلى ما

قالوا، والمعوَّل على ما فيه جالوا وأطالوا، غير هادٍ وحده سبيلًا قويمًا، ولا شافٍ كليمًا، إلا إذا امتحن الناقد اللبيب بنفسه أي الفريقين أصدق قيلًا، وأهدى سبيلًا، واطلع على ماذا حملهم على الذم والقدح، والثناء والمدح، ومَازَ المعلم من المجهل، والخالي من المعضل، فهو حينئذ خبير وأي خبير، غير مفتقر إلى ناصح منهم ومشير.

والحاصل أن لكل امرئ شأنًا يعنيه، ومطلبًا هو مُقْتفيه، وأن ما قضى الله يكون، سواء أذمَّ الذامون أم مدح المادحون؟ هذا وقد كنت في عنفوان شبابي، وجدة جلبابي، وإزهار سني، وازدهار ذهني، لَهِجًا بالسفر والاغتراب، والترحل عن الوطن والأصحاب، إلى بلد يَنْضُر فيه غَرْسي، وتطيب فيه نفسي، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبسًا، وأُلْفِي، إذ الدهر لي موحش، خليلًا يصادقني مؤنسًا، حتى أدتني أعمال حابطة، إلى جزيرة مالطة، فألْفَيتها لا كما أَمَّلْت، وكَابَدت منها ما لا يفي بما عنه ترحَّلت، فعنَّ لي أن أُظهر ما بطن منها، وأكشف مخبأها لمن رغب فيها أو عنها، فألفت فيها كتابًا سميته «الواسطة في معرفة أحوال مالطة»[1] ثم لما رأيت أن هذا الشرح لا يروي غليلًا، ولا يشفي عليلًا؛ لكونه مقصورًا على وصف الجزيرة، وهي من الصغر بحيث لا تمكن الواصف من أن يطيل فيها من القول مأثوره، أو يضيف إليه فوائد تاريخية خطيرة، ظل خاطري حائمًا على مورد التأليف، وقلبي هائمًا بسِفْرٍ طريف، إلى أن مكنتني التقادير الممكنة، بعد لبثي على تلك الصخرة الدَّرِنة، نحو أربع عشرة سنة، من السفر إلى بلاد الإنكليز المتمدنة، فاغتمنت هذه الفرصة عجلًا، وظننت أني أدركت أملًا، وعوَّلت على أن أشفع تأليف الواسطة برحلة يعظم وقعها، ويعم نفعها، فصرت أقيد ما عنَّ لي من الخواطر في وصفهم وسَنَح، وتارة أنقل من الكتب ما ليس فيه للفكر مسرح، وللطرف إليه مطمح، فإن شئونهم متشعبة، وأحوالهم مستغربة، وأنحاءهم شتى، ومقاصدهم تستغرق وصفًا ونعتًا، ويعلم الله أني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب، وأدركت فيها من الرغائب، كنت أبدًا منغص العيش مكدره، كمن فقد وطره، ولزمته معسره، لا يروقني نضار ولا نضرة، ولا نعمة ولا مسرة، ولا طرب ولا لهو، ولا حسن ولا زهو، لما أني كنت دائم التفكر في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن، والبراعة والتفنن، ثم تعرض لي عوارض من السلوان، بأن أهل بلادنا قد اختصوا بأخلاق حسان، وكرم يغطي العيوب ويستر ما شان، ولا

[1] اكتفينا في هذا المشروع باختيار الجزء الخاص بكشف المخبا عن فنون أوروبا.

سيما الغيرة على الحرم، وصون العرض عما في هذا الصوب يذم، ثم أعود إلى التفكر في المصالح المدنية، والأسباب المعاشية، وانتشار المعارف العمومية، وإلى إتقان الصنائع، وتعميم الفوائد والمنافع، فيجفل ذلك السلوان، وأعود إلى الأشجان.

كذا كانت حالة السيد الأكرم المؤنس، أمير الأمراء حسين باشا من أمراء تونس، فإنه لبث في باريس مدة طويلة، وخواطره ببلاده أبدًا مشغولة، فكان يلازمه الأرق، والهم والقلق؛ حتى مكنه اليوم الباري تعالى من تحسين تلك الحاضرة، وإمدادها بالمرافق الوافرة، فلله الحمد على بلوغ إِرْبه، وحصول مطلبه، فإن تبهية الأمصار الإسلامية أشهى إليَّ والله من كل أمنية، كيف لا، وعن المسلمين كان أخذ التمدن والفنون في الأعصر الغوابر، وكانوا قدوة في جميع المناقب والمفاخر، والمحامد والمآثر، وهذا التفكر والأسف، والتفكن المستأنف، كثيرًا ما حملني على الإضراب عن التأليف، لعلمي أن كلامي فيه لا يكون إلا دون التأريف، والتعريف، وأنَّى لمثلي أن يدرك جميع ما عند أولئك الناس من الاختراع، والأحداث والإبداع، إلا أن رغبتي في حب إخواني على الاقتداء بتلك المفاخر، هي التي سهلت عليَّ هذا الخطب، وأطالت باعي القصر، فأمسكت القلم من بعد إلقائه مرارًا، وتوكلت على الباري المعين أن يكشف لذهني ما عنه توارى، ومدني إلى فكري ما شط عنه مزارًا، وحررت هذه الرحلة وسميتها «كشف المخبا عن فنون أوروبا» وذلك لأني لم أقتصر فيها على شرح ما عند الإنكليز وحدهم من الفنون، بل استطردت إلى وصف غيرهم أيضًا والحديث ذو شجون.

وليكن معلومًا عند القاري، والسامع والداري، أني في كل ما وصفت به الإنكليز والفرنسيس وغيرهم من أهل أوروبا، لم يمل بي هوى ولا غرض بغضًا أو حبًّا؛ إذ ليس لي خُذْل مع أحد منهم ولا ضلع، ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع، وإنما رويت عنهم ما رويت، وحكيت ما حكيت، بحسب ما ظهر لي أنه الصواب، فلا ينبغي أن يحمل قولي على ضغن أو إغضاب، وأعوذ بالله من أن أبخس الناس أشياءهم، فأتعمد القول فيما شانهم وساءهم، إلا أنه لا ينكر أن الإنسان محل النقص والمعيب، وأنه قل من ينظر إلى نفسه بعين المصيب، وكذا كنت أقول للإنكليز، فلم يكن أحد منهم ينكر قولي أو ينسبه إلى التعجيز، ثم إني بعد الفراغ من تحرير الرحلة المشار إليها عرضت عوارض كثيرة، وأحوال خطيرة، كحرب أميريكا وبولاند مثلًا، وكزيادة في عدد سكان الممالك أو في أعمالهم مما استعظمه الناس وصار لهم شغلًا، من جملة ذلك ما جرى من الممالك الإسلامية من التحسين والتنظيم، والترتيب والتتميم، إلا أني رأيت إيداعها في الرحلة نصبًا مستأنفًا،

وشغلًا لا ينتهي ولا يُستوفى، فصرفت عنه صفحًا، وصدفت كَشْحًا؛ إذ حوادث الدهر، أكثر من أن يحصرها ذكر، أو يحيط بها زَبْر.

من مالطة إلى إنكلترة

(١) مرسى مسينة

أقول بعد الحمد لله إنه في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من أيلول سنة ١٨٤٨م سافرنا من مالطة إلى إنكلترة، وبعد نحو ساعتين غابت عنا أرضها، ولكن لم أقل كما قال الشريف الرضي:

وتلفَّتَت عيني فمذ خَفِيَت　　　عنا الطُّلول تلفَّت القلب

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا أرض جزيرة صقلية، وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد أرسينا في مرسى مسينة، وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد، فكانت تطلق المدافع عليه ويأتيها جوابها من القلعة؛ فلذلك لم نقم بها إلا بعض دقائق.

(٢) نبذة عن صقلية

ويقال: إن سكان صقلية الأقدمين كانوا من إسبانيا، وكان يقال لهم سيكاتي، ثم قدم إليها الأطروسكان من إيطاليا في سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد، ثم استوطنها الفينيقيون واليونانيون، ثم جاء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها إلى أن أخرجهم منها الرومانيون.

وفي سنة ٨٢١ للميلاد فتحها المسلمون، وجعلوا مقر الحكومة في بالرمو، ولبثوا فيها مائتي سنة إلى أن أخرجهم منها الأمير روجر الروماني، وفي تاريخ الرومانيين

لغيبون أنها فتحت في زمن المأمون في سنة ٨٢٣، وزعم بعض المؤرخين أنها كانت متصلة بالأرض ففصلتها الزلازل المتتالية.

(٣) نابولي مدينة العواجل

وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الإثنين بلغنا نابولي، وهي مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهي والحظ والمتنزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة، وفيها عدة كنائس حسنة، وأحسن طرقها حيث الحوانيت العظام الطريق المسمى توليدو، ولولا أن مملكة نابولي عرضة للزلازل لكانت أحسن بقاع الأرض لخصبها واعتدال هوائها.

(٤) من شيفتافكيه إلى ليفورنو

ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا إلى شيفتافكيه في صباح الثلاثاء فأقمنا فيها ساعات، وليس فيها شيء يقر العين، ثم سافرنا منها يوم الثلاثاء وقد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا إلى ليفورنو في صباح الأربعاء، وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولي لكنها من داخل أكبر، وطرقها أوسع، وبناؤها من الآجُرِّ المحكم، وديارها شاهقة إلا أنها ليس لطرقها ممشى على الجوانب للناس، وكذا هي مدينة نابولي ومرسى ليفورنو حسن، وفيها ملهى وعدة أعلام ومدارس لليهود، ويقال: إنه أعظم مدارس لهم في أوروبا، ومكتبة موقوفة، وهي ذات أشغال وتجارة وأهلها نحو ٧٦٠٠٠، وفي القرن الثالث عشر لم تكن إلا قرية حقيرة.

(٥) جينوى مدينة الصروح

ثم سافرنا منها إلى جينوى فبلغناها فجر الخميس، وهذه المدينة مشهورة بكثرة الصروح العالية والديار الشاهقة جدًّا، وفيها قصور كثيرة من المرمر وبساتين ناضرة وفاكهة طيبة، وهي في نجوة من الأرض متفاوضة الوضع، وطرقها أضيق من طرق ليفورنو، ولهذا كانت عواجلها أقل من تلك، إلا أن الشمس لا تستحكم في مسالكها لكثرة شرفات الديار المائلة، فكأنها مبنية من أصلها لحجب الشمس، وفيها حوانيت بهيجة ولا سيما حوانيت الصاغة، ولها قنطرة قديمة شاهقة جدًّا إذا نظرت منها إلى الحضيض هَالَكَ ارتفاعها، وفيها الفاكهة الطيبة والخبز النظيف ومحل قهوة في غَيْضَة أنيقة، وهي في الحقيقة نزهة للناظرين وما أشبهها إلا بدمشق، وليس على من يدخلها أن يدفع شيئًا.

كان تأسيسها في سنة ٧٠٧ قبل الميلاد، وكانت في زمن دولة الرومانيين حافلة غناء، وفي القرن الحادي عشر امتدت تجارتها بحرًا وبرًّا، وفي مدة الحرب الصليبية — وذلك نحو سنة ١٠٦٥ — صارت مُضَاهِئَة لفينيسيه في الغنى والثروة؛ حيث كانت موردًا للعساكر التي كان يراد تجريدها إلى البلاد المشرقية، ثم وقع فيها من الفتن والتحزب ما أضعف دولتها، فدخلت في حماية دولة فرنسا، ثم في عهدة شارلكان — أي كارلوس الخامس الشهير — فاستخلصها من الفرنسيس وصارت تتحزب مع إسبانيا عليهم، وفي سنة ١٧٩٦ استولى عليها الفرنسيس أيضًا، وفي سنة ١٨٠٠ حاصرهم فيها الإنكليز والروس وعساكر أوستريا حصارًا شديدًا فاضطروا إلى تسليمها، ثم رجعت إلى عهدة فرنسا، وفي سنة المهادنة وهي سنة ١٨١٤ سلمت لملك سردينية.

(٦) مدينة مرسيلية

ثم سافرنا منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا مرسيلية في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة، ولهذه المدينة مرسى عظيم يسع ألفًا ومائتي سفينة ولا يزال مشحونًا بالبواخر، ولكثرة ورود المراكب إليها قطعوا خليجًا من البحر ووصلوه به، وفيها عدة مكاتب وملهى يعد من أحسن ملاهي أوروبا، وبستان للنباتات ومكتبة موقوفة ومصرف فسيح — أعني البورس — وفي ضواحيها أكثر من خمسة آلاف دار، ولها تجارة واسعة مع المشرق وإفريقية وأميريكا وإنكلترة والبحر الأسود، كان تأسيسها في سنة ٥٩٩ قبل الميلاد، وكانت في الزمن القديم ملحقة بولايات الرومانيين ومنها توصلوا إلى فتح فرنسا.

وفي هذه المدينة محالٌّ عظيمة للقهوة مغشاة حيطانها وسقوفها بالمرايا والنقوش والتماثيل، وأمامها مصاطب يقعد عليها الناس وإن لم يشتروا شيئًا منها، وأهل المدينة يصرفون فيها أكثر أوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب منها محلًّا خاصًّا، وفي بعضها ترى قيانًا حسانًا يغنين وهن كاشفات الصدور، وعند ملهاها عدة ديار تسكنها المومسات يدعون الغادي والرائح، وهي وسخة الحارات والأطراف لكنها بهية الحوانيت والديار مبلطة الطرق، وليس في ديارها مراحيض، وإنما يجمعون أقذارهم في وعاء إلى أن يأتي رجل معه عجلة وعليها برميل كبير، فيناولونه الوعاء فيفرغه في البرميل، وما يجمعه فيه فإنه يبيعه لتدميل الأرض، ولا أعرف مدينة أخرى بهذه الصفة، ومنهم من يقذف بالأقذار أمام البيوت ليلًا؛ فلهذا يشم الماشي في أكثر طرقها رائحة كريهة، وماؤها في بعض الديار أُجَاج، ولعدم الاكتفاء به نهروا إليها نهرًا كبيرًا من مسافة نحو ستين ميلًا،

فأحوج ذلك إلى أن ينقبوا له بعض الجبال، ثم بنوا عليه جسرًا عظيمًا يشتمل على ثلاثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض، وفي كل صف خمسون قنطرة، وارتفاع أعلاها من الحضيض نحو مائة وعشر أذرع، وعرض الماء الجاري فيه تسع أذرع ونصف في علو مثلها، وجميع أحجار هذا الجسر ضخمة جزيلة، وبعد إجراء هذا النهر كثرت عندهم الحياض والعيون ووفرت الفاكهة والبقول، وصارت بساتينها في غاية الرَّيْع والنضارة.

وفي هذه المدينة عدة عَرَصَات محفوفة بالشجر يتمشى فيها الناس، وتضرب فيها آلات الطرب العسكرية، وفي أحد هذه المماشي حوانيت تفتح خمسة عشر يومًا في السنة، تجمع إليها جميع التحف والطرائف، وأكثر الباعة فيها بنات حسان، فإذا مررت بحانوت حرت بين أن تنظر إلى الباعة أو إلى البياعة، وفيها يوجد أيضًا محال للعب والغناء واللهو، ومشاهدة غرائب الأشياء مصورة على خارج المحل دليلًا على وجود أعيانها في داخله.

وقد أخبرني من يوثق به أنه شاهد فيها امرأة ورجلًا قد عصب على عينيها بمنديل لكيلا تبصر الحاضرين، ثم جعل يأخذ من بعضهم خاتمًا ونحوه ويجعله في كفه مطبقة عليه، ثم يسأل المرأة عما بيده فتجيبه ولا تخطئ، وأنه أخذ مرة درهمًا قيمته عشرون فرنكًا وسألها، فقالت: في يدك درهم قيمته عشرون فرنكًا، فقال: ويحك ليس في هذه البلاد درهم على هذا الضرب، فقالت: بلى، ولكنه من ضرب الصين، وكان كذلك.

وسألها مرة أخرى عن درهم فرنساوي، فأجابته بأنه يساوي كذا وقد ضرب في عام كذا، فلما سمعت ذلك أعظمته لما أنه كان أول مرة طرق مسمعي، ثم لما شاهدته عدة مرار بمرأى العين في باريس ولندرة سقط اعتباره من بالي؛ إذ تحققت أن مع السؤال الذي يلقيه الرجل على المغمض العينين ينبهه على نوع ذلك الشيء المسئول عنه بلحن من القول لا يدركه إلا هو، وعلى كل حال ففي التلقين والتلقن حذق ودربة، وفي الجملة فإن مرسيلية إنما يستحسنها من قدم إليها من البلاد المشرقية لا من باريس ولندرة.

ثم سافرنا من هذه المدينة في الساعة الرابعة يوم الأحد في سكة الحديد، فكان البحر عن شمالنا والجبال والغياض عن يميننا، فلم يكن منظرًا أبهج منه، وأظن أن بلاد فرنسا أكثر بلاد الدنيا غياضًا وحدائق.

وكثيرًا ما كنا نسير في حافلة المجد نحو ساعة ونصف بين الأُجم، والسبب في تكثيرها احتياجهم إلى الوقود، بخلاف بلاد الإنكليز فإن أكثرها سهول ومروج وحقول لاستغنائهم عن الحطب بفحم الحجر، وفي فرنسا الجنوبية تنبت جميع الأشجار المعروفة عندنا، وذلك كالتين والبرقان والعنب والزيتون والليمون مما هو معدوم في بلاد الإنكليز،

غير أن كروم العنب عندهم لا تبلغ في النمو والكبر كروم الشام، وفي مسافة الطريق دخل الرَّتَل في قبوة مظلمة منقورة في الصخور، فسار فيها نحو عشر دقائق فكان أمرًا عظيمًا لمن لم يرَ مثله من قبل.

(٧) مدينة ليون

ثم بلغنا مدينة ليون بعد سفر نحو أربع ساعات لم يغب فيها عن أبصارنا ذلك المنظر الأنيق، وهذه المدينة وسخة الطرق والأزقة غير أنها حسنة الموقع، وحوانيتها واسعة عظيمة، وفيها معامل لثياب الحرير والقماش وحريرها مشهور، فأما الشريط ونحوه فإنه يصنع في صنت إتيان، ولها مماشٍ حسنة وملهى عظيم ومكاتب عديدة ومدرسة ملوكية، ومحكمة جليلة هي من فاخر البناء، ومكتبة موقوفة ومتحف وبستان للنباتات، وعدد أهلها نحو ٣٣٠٠٠٠، وفيها يجتاز نهران أحدهما يقال له: «رون» والثاني «صون»، تسير فيهما بواخر مشحونة بالبضائع والميرة، وتمر على جملة مدن من بلاد فرنسا، ثم يلتقيان ويصيران نهرًا واحدًا ممتدًّا إلى بحر مرسيلية، ولا تكاد تمضي سنة من دون أن تزخر شواطئه على الأرضين، وقد طغى في هذه السنة حتى كانت الناس تسير في شوارع المدينة في قوارب، فهدم كثيرًا من البيوت والجسور، وأهلك كثيرًا من الماشية والناس، وأتلف الغلال فيما جاوره، فانتحى سائر سكان فرنسا إلى إمدادهم وإغاثتهم، واقتدى بهم الإنكليز أيضًا، وعلى هذا النهر جسور من حديد وحجر وعدة مغاسل للنساء.

(٨) إلى باريس

ثم سافرنا منها في الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء في حافلة المجد المعروف بالدليجانس، فبلغنا برجًا في الساعة السادسة من اليوم الثاني، ومنها سافرنا في سكة الحديد إلى باريس فوصلنا إليها في الساعة الرابعة من صباح الخميس، وسيأتي وصف هذه المدينة بعد فراغي من وصف إنكلترة إن شاء الله.

وإنما أقول هنا إنا لما وصلنا إليها كانت السياسة جمهورية؛ إذ كانوا قد خلعوا الملك لوي فيليب عن الملك، ففر بنفسه وأهله إلى بلاد الإنكليز ملجأ الفارين ومأمن القارين، ومع ما حصل فيها وقتئذ من الشغب وسفك الدماء فلم يكد الإنسان يتميز المفجوع من أهلها من المغبوط، فإن منتزهاتها بقيت غاصة بالناس.

(٩) إلى كالي

ثم بعد أن لبثنا يومين في باريس سافرنا في سكة الحديد إلى كالي أو كالس، وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاء الواقع في السابع والعشرين من أيلول، فبلغناها بعد الساعة السابعة مساء.

وكالي هذه إحدى فُرَض فرنسا المقابلة لإنكلترة، وهي دون بولون، وكانت سابقًا تحت استيلاء الإنكليز أيام حروبهم مع الفرنسيس، وبقيت في أيديهم مائتين وثلاث عشرة سنة، ثم استرجعها الفرنسيس في عصر الملكة ماري سنة ١٥٥٨م.

فلما بلغها الخبر أظهرت من الحزن الشديد ما قيل إنه كان سبب موتها، وقالت: «أموت وفي قلبي اسم كالي مكتوبًا.» فكانت كالي عندها أخت حتى عند الفراء، وبقيت نورماندي وأنجو ومين وطورين وبواتو وبريتاني وغيرها بيد الإنكليز نحو سنة ٢٩٢.

(١٠) السفر إلى لندرة

وأوفق لنا أن وجدنا باخرة معدة للسفر إلى لندرة فركبنا فيها وسارت مَاخِرَة بنا، وأول ما دخلت في نهر التامس انحجبت عنا الشمس واكتسى الجو سحابًا، وكان يومًا ماطرًا مظلمًا يقضي بالأسف على شمس مالطة.

وهذا النهر يختلط بالبحر الملح وتسير فيه الشمس نحو خمس ساعات إلى لندرة، والسفر فيه بهيج من جهة أن السفينة تسير فيه سيرًا خفيفًا لا اضطراب فيه، وترى فيه من البواخر الصاعدة والمنحدرة ما يشغل الخاطر، وله عند الإنكليز شأن عظيم، ويحكى عن الملك جامس الأول الذي ألحق حكومة مملكة سكوتلاند بإنكلترة أنه لما نقم على أهل لندرة أشياء أنكرها، أراد أن ينتقل ديوانه منها، فقال له ضابط البلد ويقال له بلغتهم «مير»: «إذا كان لا بد من ذلك فلا تنقل نهر التامس معك.» وهو كلام بليغ يشير إلى أن أهل المدينة ربما يستغنون عن الملك بوجود هذا النهر؛ لأنه من أعظم الأسباب الميسرة للتجارة، ولولاه لما حصلت لندرة على هذه الثروة والسعة، والمأكول والمشروب في هذه السفن التي تنقل الركاب من فرض بلاد فرنسا وأكثرها للإنكليز غاليان جدًّا، فإن قنينة الشراب في تلك الفرض تساوي فرنكًا، وفي السفن ستة فرنكات، وقس على ذلك.

(١١) إلى بلدة «وير»

ثم لما بلغنا لندرة أخذت أثقالنا إلى الكمرك وفتشت، فلم يجدوا فيها ما يوجب الأداء إلا أنا أدينا على كل صندوق وكل حاجة مستقلة نحو خرج وغيره نصف شلين، ثم تبوأنا محلًّا في إحدى الديار، وبعد أن استرحنا سافرنا منها في سكة الحديد إلى بلدة «وير» بقصد المسير منها إلى القرية التي يسكن فيها الدكطور «لي» الذي اعتمدته الجمعية لأن يكون معارضًا ترجمتي بالأصل الذي أترجم منه.

وكان للمذكور شهرة عظيمة عند الإنكليز في معرفة اللغات الشرقية، وكان في مبدأ أمره نجارًا، ولكنه أكب على العلم وقد فات الثلاثين سنة فحصل معلومات غير يسيرة، غير أنه لم يتمكن من اللغات التي حاولها، وسيأتي ذكره بعد هذا.

وحيث كان اسم القرية المذكورة مكتوبًا على أثقالنا، فلما بلغ الرَّتَل إليها وضعوها في الموقف ونحن لم نشعر بذلك، وبقينا سائرين فيها حتى إذا وقف الرَّتَل مرة ثانية سألنا عنها فأخبرنا بأنا تجاوزناها بنحو ثلاثة أميال، فرجعنا إليها مشاة، فوجدنا حاجاتنا سالمة، فسرت في طلب شيء للأكل فلم أجد فيها مطعمًا، فقلت لأحد الوقوف: ألا نجد طعامًا هنا؟ قال: هلم معي، فأخذني إلى الجزار؛ وذلك لأن مرادف لفظة الطعام عندهم يستعمل غالبًا في اللحم.

قلت: إني أريد شيئًا آكله؛ فدلني على حانوت بقربه، فتوجهت فلم أجد إلا الخبز، قلت: ما الخبز وحده أريد، فدلني على دكان آخر، فذهبت فوجدت به الفطير فقط، فعدت خائبًا، ولقيت بعض الشرطة فقلت له: ألا تهديني إلى محل للأكل؟ فدلني على موضع زعم أنه شهير يقصده جميع المسافرين، فتوجهت فوجدت صاحبته امرأة ضخمة فظة تحاول إظهار السيادة والإمارة في وجه قاصديها، فسألتها: هل عندك ما يؤكل؟ قالت: ما عندي سوى البيض، فتبلغنا بما عندها، ورجعنا إلى الموقف حتى جاء الرَّتَل الذي يسير إلى «رويستان» وهي قرية جامعة.

وقد ذكرت هذه الحادثة هنا دليلًا على ما يرى من الفرق بين بلاد الإنكليز وفرنسا، فإن القرى الحافلة في هذه ولا سيما التي يقف فيها المسافرون يوجد فيها كل ما يشتهي الإنسان من المأكول والمشروب، وحين كنا نسافر فيها وتقف حافلة المجد كنا نرى النساء يتسابقن إلينا حاملات لأطباق الفاكهة الطيبة ويعرضنها على السَّفْر، وكنا نجد أيضًا في المطاعم كل ما تشتهيه الأنفس.

(١٢) «بارلي» قرية الدكطور «لي»

ثم سرنا إلى رويستان ومنها إلى قرية «بارلي»، وهي على بعد ثلاثة أميال منها، فبلغناها في الساعة الحادية عشرة ليلًا، فتوجهت إلى دار الدكطور «لي» فوجدته مستعدًّا لتلقي الأحلام السعيدة، فقال لي: قد كتبت إليَّ الجمعية تخبرني بقدومك فينبغي أن تذهب الليلة لتبيت في خان القرية، فبتنا فيها وفي الغد كتب إلى الجمعية يخبرهم بأنه أكرم مثواي، وعُني بإنزالي منزلًا مريحًا فشكروه على عنايته، وكانت مدة سفري من مالطة إلى هذا المنفى ثمانية وعشرين يومًا.

(١٣) أحوال إنكلترة على وجه الاختصار

ثم قبل الشروع في الترجمة وفي ذكر شيء من أحوالي، ينبغي هنا أن أقدم كلامًا في أحوال إنكلترة على وجه الاختصار؛ فإن تفصيل ذلك مرجعه إلى كتب التاريخ والجغرافية، فأقول: إن الرومانيين كانوا يسمونها «بريتانيا»، وفي اللاتيني المتعارف تسمى «إنكليا»، وفي لغة أهلها «إنكلاند» ومعنى لاند: أرض، وحين يذكرون بريتانيا فإنما يعنون بذلك إنكلترة ووالس وإرلند، وهي منقسمة إلى اثنين وخمسين كونيا أي ولاية، منها اثنتا عشرة ولاية هي الأصول، وأشهر مدنها: دوفر، ونرويش، وهل، ونيوكاستل، وليفربول، وبرستول، وفلموث، وبليموث، وبورتسموت، وأكسفورد، وبرمنهام، ومنشستر، وشيفلد ونوتنهام، وكمبريج، ويورك، وباث، وشلتنهام، وهي كثيرة معادن الحديد والفحم والقصدير والرصاص والنحاس، وحيواناتها ضليعة حسنة الصورة، وبها مراعٍ واسعة ومروج نضيرة، وفيها نحو خمسين نهرًا تصلح للسفر أشهرها التامس، وجبالها قليلة لا يبلغ أعلاها أكثر من مائة ذراع، وطول الجزيرة كلها لا يزيد على ثمانمائة ميل، وعرضها في بعض الجهات ثلاثمائة وفي بعضها أقل.

وقبل فتح الرومانيين لها لم يكن عنها خبر يعتمد على صحته، وقد غزوها مرتين، وذلك في سنة ٢٦ و٥٥ للميلاد، وكان عدد أهلها حينئذ نحو مليون، وفي سنة ١٨٥١ بلغ عددهم ١٧٤٥٢٢٦٢، وعن غيبون أن الرومانيين كانوا يحسبون بريتانيا مغاصًّا للؤلؤ، وهو الذي دعاهم إلى فتحها، وبعد حرب أربعين سنة استولوا على أقصى أطراف الجزيرة.

وعدد من ولد فيها وفي والس في سنة ١٨٥٤ بلغ ٦٣٤٥٠٦ أنفس، وعدد من مات ٢٣٨٢٣٩، وفيها ١١٠٧٧ أبرشية، ويقال: إنها كانت في الزمن القديم متصلة بأرض فرنسا.

ونقلت من جرنال التيمس: أنه يوجد في إنكلترة وإرلاند أربعة وخمسون قاضيًا في المحاكم العليا تبلغ وظيفتهم ٢٤١٨٠٤ ليرة، وثلاثمائة وخمسة وتسعون قاضيًا في المحاكم الأدنى تبلغ وظيفتهم ٢٩٢٦٦٣ ليرة، فتكون جملة القضاة ٤٤٩، وجملة وظائفهم ٥٣٤٤٤٧ ليرة، قال: ولكبير القضاة عشرة آلاف ليرة في كل سنة، ولقاضي محكمة الاستدعاء ستة آلاف، ويوجد في بريتانيا ١٨٥٨٦ من القسيسين المنتمين إلى الكنيسة المتأصلة و٥٨٥٢١ من قسيسي الكنيسة المتفرعة، وسيأتي بيان الفرق بينهما، و١٠٩٣ من قسيسي الكنيسة البابوية، و١٤٧٧ من طلبة علم اللاهوت، والمدرسين فيه، فتكون الجملة ٣٠٦٤٧ وعدد فقهاء الشرع ١٨٤٢٢ ما عدا ١٦٧٦٣ ما بين وكيل دعوى وكاتب صكوك ونحو ذلك، وعدد الأطباء ١٨٧٢٨ ما عدا التلامذة الذين دخلوا في سلك المتطببين و١٥١٦٣ ما بين جراح ودوائي، ويضاف إليهم أكثر من ألف ومائة من معالجي الأسنان، و٤٣٠ صانعًا لآلات الجراحة، فأصحاب هذه الحرف الثلاث أعني القسيسية والفقهية والطبية، ومن يتعلق بهم وينضم إليهم يبلغون ١١٠٧٣٠، وعدد المؤلفين وأهل الأدب ٢٨٦٦ منهم أربعمائة وستة وثلاثون مؤلفًا يكتبون لناشري الكتب، و١٣٠٢ ما بين كاتب وناشر.

وعدد أهل الصنائع الظريفة ٨٦٠٠ من جملتهم الرسامون، وعدد المدرسين في العلوم أربعمائة وستة وستون، وعدد المهندسين ٣٠٠٩، وجملة المشتغلين بالتعليم والتخريج ١٠٦٣٤٤ منهم ٣٤٣٧٨ رجال و٧١٩٦٦ نساء، وفي عداد الأول ٢٣٤٨٨ يعلمون في المكاتب، و٤٣٧١ يُعَلِّمُون مطلق التعليم، و٣١٤٩ يعلمون الموسيقى، و١٥٣٠ يعلمون اللغات، و٥٥٤ يعلمون الهندسة، وفي القسم الثاني أعني النساء ٤١٨٨٨ يعلمن في المكاتب، و٥٢٥٩ يعلمن مطلقًا، وبالتعليم ٢٦٠٦ يعلمن الموسيقى، ويوجد أكثر من ألفين من اللاعبين واللاعبات في الملاهي، فمن الرجال ١٣٩٨، ومن النساء ٦٤٣، ومن أهل الموسيقى الرجال ٣٦٦٨، ومن النساء ٤٣٢، وعدد الذين هم في الخدمة المدنية ٧١١٩١، من سن عشرين سنة فصاعدًا منهم ٣٧٦٩٨ في خدمة الإدارة المدنية، و٢٩٧٨٥ في خدمة دواوين الميري، و٣٧٦٨ في خدمة دولة الهند ومقامهم في بريتانيا.

(١٣-١) قرية المتاعب وترجمة التوراة

ثم إني أخذت في أن أذهب إلى الدكطر «لي» في كل يوم لأترجم التوراة ثم أعود إلى منزلي ملازمًا له، فلم تمض عليَّ أيام حتى عيل صبري؛ لأن هذه القرية التي قدر الله أن أسعد الناس بترجمتي فيها كانت من أنحس قرى الإنكليز، على أن جميع قراهم لا تَلِيط بقلب الغريب لما سيأتي.

ولم يكن فيها للأكل غير اللحم والزبدة المخلوطة بالجزر والخبز المخلوط بالبطاطس والجبن واللبن المذيق والبيض والكرنب، وذلك يغني عن ذكر ما هو معدوم فيها، على أن هذه اللوازم إنما كانت نفاية ما يوجد في المدن، ومن عادة الإنكليز أن يكون لهم بالقرب من القرى بليدة يباع فيها ما يلزم لهم من المأكول والمشروب والملبوس والأثاث، فيذهب إليها الفلاحون مرة في الأسبوع ويشترون ما يلزمهم، وقد يمر على البيوت ليلًا رجل ينفخ في البوق تنبيهًا على ذهابه إلى تلك البليدة فمن شاء أن يشتري شيئًا كلفه به وجزاه على ذلك، وقد يمر أيضًا تجار بعجلات فيها نحو البن والشاي والسكر، أو يكون معهم راموز هذه الأشياء ليبعثوا منها للمشتري من حوانيتهم، وبمثل هذه الأسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل الإنسان ما لا بد له لقوام عيشه.

أما محار البحر والسرطان والأنكليس وهذا الذي يسمونه «البسترا» وهو أطيب ما يُؤكل عندهم، وهو في شكل البرغوث وأكبر من السرطان فلا وجود لها البتة، وأما السمك فلا يرد منه إلا مرة في كل ثلاثة أشهر، على أن جميع أصناف سمكهم مسيخة إلا صنفًا منها يقال له «سمن» وهو طيب لكن لا بالنسبة إلى سمك بلادنا، وقد يضعونه في الثلج ليلًا ويعرضونه للبيع نهارًا، فربما كان عمر السمكة بعد صيدها أطول منه قبله، ولكن ربيب الثلج هذا لا وجود له إلا في المدن.

(١٣-٢) فقراء الإنكليز وأغنياؤهم

ومن قدم إلى لندرة ورأى فيها تلك الحوانيت العظيمة والأشغال الجمة والغنى والثروة، حكم على جميع الإنكليز بأنهم أغنياء سعداء، ولكن هيهات فإن أهل القرى هنا كأهل القرى في الشام، بل هم أشد قشفًا، وكثيرًا ما تقرأ حكايات تدل على بؤسهم وقشف معيشتهم مما لا يقع في بلاد أخرى، فمن ذلك حكاية عن حائك شكا حاله إلى إحدى النساء المخدومات فقال: «يا سيدتي إني حائك، وإن لي امرأة وثلاثة أولاد بقوا من عشرة

فجعت بهم، ودخلي من كدي الليل والنهار لا يزيد على سبعة شلينات في الأسبوع، ولكن عليَّ أن أعطي منها شلينًا واحدًا لأجل النول، وأربعة في الشمع الذي أسهر عليه، فقالت له: وكيف تعيش على هذا الدخل القليل؟ قال: على قدر الإمكان.

ألا وقد مضى علينا ستة أشهر لم نشتر فيها رطلًا واحدًا من اللحم، بل لا نقدر على مشترى الحليب إلا بالجهد، فجل طعامنا إنما هو الشعير وحساء الماء، وقد يكون لنا في بعض أيام الآحاد إدام من البطاطس. أما أنا فلا أبالي فإني قد ألفت البؤس والضنك، ومذ سنين عديدة لم أعرف شيئًا من الدنيا سوى الكد والكدح المبرح على قلة الأجرة، ولكن همي بالأولاد وبأمهم النحيفة.» ا.هـ.

فقوله: إنه لم يقدر على شراء الحليب مع كونه في الريف أرخص الأشياء بالنسبة إلى غيره يغنيك عن مزيد البيان فيما يكابده هؤلاء الناس، وكثيرًا ما تقرأ أيضًا في صحف الأخبار عن أناس تركوا أولادهم من الإملاق أو ماتوا من الجوع والبرد أو النوم على الأماكن الندية القذرة أو اعْتَفَدُوا فماتوا جوعًا.

نعم إنه يوجد مستشفيات وملاجئ يقوم بها الأهلون إمدادًا للفقراء والعاجزين ونحوهم إلا أنها ربما كان عدد من فيها لا يقبل الزيادة، أو كان اللبث فيها ضنكًا أو الدخول إليها صعبًا ونحو ذلك.

وقد يبلغ من فقرهم أنهم يتركون أطفالهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مصروفها، وأعرف في القرية المذكورة أولادًا كثيرين لم يتعمدوا مع أنهم من أتباع الكنيسة المتأصلة التي توجب المعمودية، ولا تأذن لمن مات غير معمد أن يدفن في مدافنها فتنزله منزلة المنتحر.

وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الأرض قد دحاها الله تعالى لأن تكون ملك الأمراء والأشراف فقط، فيستأجرها منهم أناس مأمونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها؛ فلهذا لن تجد في القرية أحدًا ذا رواء ورياش إلا مستأجر الأرض، وقسيس القرية، على أنه لا يلي شيئًا من أمور أولاده الروحيين سوى الخطبة فيهم يوم الأحد؛ لأنه يستخدم تحت يده قسيسًا يعطيه نحو ثمانين ليرة في السنة ويلقي عليه أحمال الكنيسة، وهذا المبلغ هو دون وظيفة طباخ الأسقف في بلاد الإنكليز، فعلى هذا القسيس أن يعمد أولاد الرعية، وأن يدفن الموتى منهم، ويزوج أحداثهم، ويعود مرضاهم وغير ذلك.

وعدد ملاك الأرض في إنكلترة نحو ستين ألف عيلة لا غير، وقلما يذوق هؤلاء المساكين اللحم، فجل أكلهم الخبز والجبن، فجزار القرية لا يذبح شاة أو بقرة إلا مرة

في الأسبوع، ولا يبيع من اللحم إلا نصف رطل أو ربعه، وإذا ذبح شاة فلا يسلخها ويجزر لحمها إلا بعد يوم، والبقرة بعد يومين أو ثلاثة، نعم إنه قد يربي أحدهم خنزيرًا في دويرته ويذبحه ويتخذ لحمه كالقورمة التي تتخذ في بر الشام، ويطعم منه في أيام الآحاد، ومن كان ذا يسر قليل اشترى قطعة لحم في يوم السبت وطبخها وتبلغ بها عامة الأسبوع باردة؛ إذ ليس تسخين الطعام مألوفًا عندهم، فهم أحرى أن يأكلوه بائتًا منذ أيام من أن يسخنوه، ولما طلبت من المرأة التي كنت نازلًا عندها تسخين طعام بقي لي من الغداء، لم تكد تفهم مني إلا بعد شرح وتفسير، وراح كل منا يتعجب من صاحبه.

(١٣-٣) مصاعب الريف

وليس في القرى مواضع للهو والحظ، وإذا أرادوا اللهو عمدوا إلى أجراس الكنيسة يضربونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب، ومن الحظ عندهم أن يجلس الرجل مع امرأته ينظران إلى الخنانيص التي يربيانها، أو إلى ما يزرعانه من خسيس البقول في عرصته، فإن لكل منهم في الغالب بضع أذرع من الأرض أمام بيته يزرع فيها نحو الفجل والكرنب وما أشبه ذلك، ولولا ذلك لكانت عيشتهم شرًّا من عيشة البهائم.

وقد ترى في القرية دكانًا فيه نفاية ما يباع من الشمع والصابون والسكر والبن والشاي، وبيتًا حقيرًا يُباع فيه شيء من البصل والبطاطس والحلويات الرديئة والتفاح المسيخ، تنظرها من طاقة البيت، ولو اشتريت ذلك جميعه لما بلغت قيمته خمسين قرشًا، وفي أوان الشتاء لا يمكن للإنسان أن يخرج من منزله لاستنشاق الهواء، وذلك لكثرة الوحل في الطريق، فقد يمكث عدة أيام رهين بيته، وليس في القرى خيل أو حمير أو بغال أو عواجل تُكرى، فليس إلا مركوب النعل، وقد يكون لبعض المتشبعين عجلة يحركونها بأرجلهم إذا أرادوا أن يذهبوا من قرية إلى أخرى، فتجري بهم من دون حصان ولا حمار، وبعضهم يكون له عاجلة صغيرة مفتوحة يجري بها حصان صغير، فمثل ذلك لا يدفع عليه شيء للميري، فأما العواجل المعتادة والخيل فلا بد من الأداء عليها كما سيأتي بيانه في محله.

وكنت كلما اضطررت إلى المؤنة ذهبت إلى البليدة ماشيًا، ومرة اضطررت إلى أن أذهب في التابوت الذي ينقل فيه الدمان، لكنه كان فارغًا، وعلى فرض أن يسكن غني إحدى هذه القرى فلا يمكنه أن يتنعم بغناه؛ إذ لا يجد فيها إلا ما يجده الفقير، إلا أن يجلب مؤنته من لندرة وغيرها، ويعلم الله أني مدة إقامتي في تلك القرية المشئومة لم

يكن لي هم إلا بتحصيل لوازم المعيشة، فكنت أجلب بعض القَطَاني من كمبريج وبعض النقل من رويستان والمزر من لندرة في سكة الحديد، ولكن لما وجدته غاليًا اقتصرت عن جلبه، فاستولى عليَّ ضعف المعدة ووهن في رُكَبي لم أحس به في عمري قط، فإن مِزْر القرى رديء؛ إذ ليس منه إلا ما ينبط بالمنبطة دون المرعى في زجاج، وهو كالدواء سواء إلا إنه غير نافع، وقد غُشي عليَّ مرة في دار الدكطور «لي» وأنا أترجم، فأمر خادمته بأن تتداركني بكسرة خبز مشوية.

أما الصيف فإنه وإن يكن غير مزهق إلا أنه منغص؛ لعدم وجود البقول المرطبة فيه، ولعوز الفاكهة كما ستعلم، ولا سيما أن أكثر شرب أهل الريف إنما هو من مناقع من ماء المطر، وأكثرها يعلوه الطحلب، فإذا نشفت عمدوا إلى الآبار — وهي قليلة — يدخرونها إلى الحاجة، وهي أيضًا من المطر، إلا أن الإنكليز قلما يشربون الماء فإنهم يستغنون عنه بالجعة، وقد مضى علينا في الصيف نحو شهرين لا نذوق فيهما شيئًا من الفاكهة والخضرة إلا ما ندر، وفي شهر نيسان انقطع عنا المذيق الذي كنا نشتريه لأجل القهوة؛ لأنهم كانوا يسقونه الخنازير ولا يبيعونه، فاضطررنا إلى أن نتوسل بإحدى النساء لتشفع فينا عند صاحبة البقرة في إمدادنا كل يوم بما يكفي للقهوة فقط، ففعلت ثم جاءت مبشرة لنا بقبول خالص شفاعتها في المَذِيق، وأن صاحبة البقرة رضيت بأن تبيعنا كل يوم بنصف بني تفضلًا وتكرمًا، فأوسعناها شكرًا وثناء ومطأطأة رأس وانحناء.

وفي هذا الشهر المبارك لم يكن يوجد شيء من الفاكهة ولا من البقول، وكانت البصلة الصغيرة تباع ببيني، مع أن الحقول كلها كانت ناضرة زاهية، فالمار فيها هو كراكب البحر وهو ظامئ.

(١٣-٤) مزروعات الإنكليز وثمارهم

وأكثر ما يزرع الإنكليز في حقولهم إنما هو القمح والشعير واللفت والبطاطس، وأصل جلب هذه إليهم من أميريكا في سنة ١٥٨٦، فأما البقول فيزرعونها في عرصات الديار لمؤنتهم فقط، وهي قليلة جدًّا، ولما كان جل علف البقر من اللفت، كان لحمها ولبنها لا يخلوان من طعمه.

وإذا زرعوا البقول فلا بد وأن يضعوا معها شيئًا من الملح والجير ويكثرون من تدميلها، فلهذا لا تكون زكية، إلا أنها تنمو نموًّا فاحشًا، فإن الفول قد يعلو مقدار

قامة الربعة، وكذا اللوبياء والقمح والشعير والرشاد يبلغ أطول من ذراع، ونحو ذلك الخس والنعناع والكرفس، وقد تبلغ الكرنبة قدر الجرة الكبيرة، وتكون التفاحة أو الإجاصة نحو البطيخة الصغيرة، وقس على ذلك البصل والكراث حتى إن الحيوانات البرية والبحرية تكبر عندهم غاية الكبر، فإن السرطان يكون في قدر رأس الآدمي، وقد وُزِنَ مرة ديك حبشي فبلغ أربعين رطلًا، ورطل الإنكليز نحو ١٥٠ درهمًا، وكان ارتفاعه ثلاثة أقدام.

وأصل جلب الجزر إلى هذه البلاد كان من هولاند، ولم ينبت هنا قبل سنة ١٥٤٠م، ولكنه لم يكن أولًا في هذا الكبر، وأصل جلب القنبيط كان من جزيرة قبرس، وكان منذ ستين سنة يرسل منه من هنا إلى بلاد البورتوغال على سبيل الهدية والطرفة، ويحرثون على الخيل والبقر جميعًا، وحين يزرعون القمح وغيره يمدون خيطًا من أول الحقل إلى آخره حتى تأتي الأقلام مستقيمة.

وفي كثير من البقاع يخافون عليه من آفة تعرض له من الدود؛ فيزرعون بينه حشيشًا سميًّا ليقتل الدود، فإذا حصدوا القمح حصدوا معه الحشيش أيضًا وباعوه على حدته، وربما أُغفل فبقي مختلطًا بالقمح وطُحن معه، فقد قرأت في كثير من صحف الأخبار أن كثيرًا ماتوا من الخبز، وهذا هو أيضًا سبب وضعهم الملح مع البقول، فأعجب لقوم يطبخون طعامهم بلا ملح ويملحون مزروعاتهم ويسمونها.

ومما لا ينبت عندهم شجر البردقان والليمون الحلو والحامض وقصب السكر، والموز واللوز والفستق، والتين والمشمش والخوخ، والدراق والصنوبر والتمر والرمان، وهذا الأخير لا يعرفون ماهيته، والصبار والآس والزيتون والبطيخ، والقثاء والباذنجان والباميا والملوخية، والحمص والعدس والماش، وقَلَّ وجود الخرشف والخيار والسفرجل، وشجر التوت لا يرى إلا للفرجة، والطيب من فاكهتهم إنما هو الإجاص والتفاح، وقد يكبران حتى تملأ الواحدة منهما الكف.

وهذا الأخير يدوم الشتاء كله في المَطَامِر، ولكن يباع في القرى على قلة، وأصل جلبه إليهم كان من بر الشام وذلك في سنة ١٥٢٢م، فأما البردقان فيرد إلى المدن الكبيرة من إسبانيا وبرتوغال وكذا العنب، وقد يربون شجرهما في بيوت من زجاج، ويسخنونها بالنار؛ لأن حرارة هوائهم لا تكفي لإنباتهما: ولكن يكون سعره أغلى من سعر المجلوب إليهم، وما ينبت في غير هذه البيوت من العنب فإنه يبقى حثرًا وهو ما لا يونع، ويبقى حامضًا صلبًا.

وعندهم ثلاثة أصناف من الثمار أو أربعة كحب الآس عندنا وهي قليلة الجدوى، ولا سيما كونها لا تقوى على الرياح فأقل نسمة تذهب بها، وكذلك عندهم ثلاثة أصناف أو أربعة من البقول لا توجد عندنا وهي أيضًا تافهة.

ويحق لي أن أقول بعد الاختبار والتحري: إن جميع ما ينبت في بلاد الإنكليز هو دون ما ينبت في فرنسا في الطيبة والزكاء، وجميع ما ينبت في هذه هو دون ما ينبت في بر الشام، وما أرى العلة في ذلك سوى كثرة السِّرْقِين في الأرض، وقلة الحرارة في السماء، نعم إن جميع ما ينبت عندهم هو أكبر جرمًا مما ينبت عندنا كما تقدم، ولكن شتان ما بين الكبر والطعم، إلا أن الإنكليز يتنافسون في كل شيء ضخم.

أما أنواع الرياحين والزهور والأشجار غير المثمرة فكثيرة عندهم، وعنايتهم بها أشد من عنايتهم بالبقول المأكولة، على أن جل أزهارهم لا عرف له، غير أني رأيت عندهم جملة أنواع من الزهور ذكية الرائحة مما هو في مالطة لا رائحة له أصلًا، وكثيرًا ما يذكرها المؤلفون منهم في كتبهم وتلهج بها النساء في محاوراتهن، حتى إن إحداهن سجنت مرة فكانت صواحبها يهادينها بباقات من الزهر، وفي أعياد ميلادهن يطرفن به، فيغني ذلك عن طرف القماش والجواهر، فهي في الواقع صلة الرحم وسبب الوداد، وإذا رقصت امرأة في ملهى وأعجبت الحاضرين نقطوها بباقة، وعلى ذكر التنقيط يعجبني قول ابن المعتز في مليح جدَّر:

يا قمرًا جدر لما استوى　　فزاده حسنًا فزدنا هموم
كأنما غنى لشمس الضحى　　فنقطته طربًا بالنجوم

قلت: وأهل اللغة أهملوا هذا الحرف بهذا المعنى، والضمير في زاده يرجع إلى التجدير المفهوم من الفعل، وهو رد على الحريري حيث منع أن يقال جدر بالتشديد لكونه ليس للتكثير.

(١٣-٥) أرض إنكلترة

أما أرض إنكلترة فكلها سهل محروث مزروع تشبه أرض البقاع في الشام، فلن ترى فيها بقعة واحدة بورًا، فكأنها جميعًا لرجل واحد ذي عيال في كونها لا يغادر منها محط قدم من دون منفعة، فلا ترى إلا غياضًا وحقولًا ومزارع ومروجًا وديارًا، والظاهر أن

بلاد الإنكليز أعظم حرثًا وأعمر من بلاد فرنسا، وكل شيء فيها من نام وحيوان، تراه في غاية الريع والنمو، وكنت قبل حضوري إليها أحسبها كلها جبالًا لما كنت أسمع من شدة بردها، فإذا هي قاع صفصف، وقرأت في بعض الأخبار أن قيمة ما تحصل من غلالها في سنة ١٨٤٧ بلغت ٥٤٠٠٠٠٠٠ ليرة، وقس على ذلك سائر السنين.

وأحسن بقعة في الأرض يغادرونها مرعى للضأن ومسرحًا؛ فلهذا كان لحم الضأن عندهم فاخرًا جدًّا، ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فإنهم يحتاجون إلى جلب الجلود من الروسية والغرب الأقصى، وثمن ما يجلبونه منها يبلغ في السنة ١٥٠٠٠٠٠٠ ليرة يذهب نحو نصفها في عمل الأحذية، والباقي في غير ذلك.

(٦-١٣) بين إنكلترة وفرنسا

وفي بعض الصحف أن في كل من إنكلترة وفرنسا يربى نحو خمسة وثلاثين مليونًا من الغنم، ومن كل من العددين يحصل قدر من الصوف متساوٍ، إلا أن غنم فرنسا يحصل من لحمها أقل مما يحصل من تلك، وقد يبلغ الحاصل من إقليم شستر من الجبن مبلغًا وافرًا، وما يحصل من لبن البقر في فرنسا يبلغ مليون ليتر، ثمن كل ليتر نحو عشرة صنتيم، وما يحصل من لبن البقر في إنكلترة يبلغ ضعفي هذا القدر، ويباع بضعفي قيمة ذلك، والإنكليز يربون ثمانية ملايين من الماشية في أحد وثلاثين مليون جريب، والفرنسيس يربون عشرة ملايين في ثلاث وخمسين مليون جريب.

وجزارو فرنسا يذبحون في السنة غالبًا أربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كيلوغرام، والإنكليز يذبحون مليونين، ولا يذبحون من العجل قدر ما يذبح عند أولئك.

والحاصل في فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك، ومن اللحم أربعمائة مليون، ومن الحرث مائتا مليون، والحاصل في إنكلترة من الحليب أربعمائة مليون فرنك، ومن اللحم خمسمائة مليون، فيكون الحاصل من كل بقرة في إنكلترة من اللبن واللحم فقط أكثر من الحاصل من البقرة في فرنسا من اللبن واللحم والحرث معًا، هذا ما نقلته وفيه نظر.

(١٣-٧) ما يجلبه أهل إنكلترة

ومع خصب أرضهم وكثرة غلالهم كما بيناه آنفًا فإنهم يجلبون كثيرًا من المأكول والمشروب من البلاد الأجنبية، فقد قرأت أنه في مدة ستة أشهر جلبوا من البقر ١٢٢٣٧ رأسًا، ومن الغنم ٢٩٢٦٨، ومن البيض ٥٦٤٥٤٧٤٥ بيضة، وفي سنة ١٨٥٠ جلبوا من الجبن ٢٧٠٠٠ طن، وفي سنة ١٨٤٨ جلب من أرلاند من البقر اثنان وثمانون ألفًا وخمسمائة واثنان وتسعون رأسًا، ومن الغنم مائة ألف وثلاثمائة وستة وستون، ومن الخنزير ثلاثمائة وواحد وثمانون ألفًا وسبعمائة وأربعة وأربعون، وقيمة ما جلب من البطاطس في عام واحد بلغت نحو عشرين ألف ليرة، وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني، وبهذا يتبين لك ما يلزم لأعالي هؤلاء القوم وأسافلهم.

وفي الحقيقة فإن إنكلترة قد ضاقت بأهلها، ولهذا يهاجر منها في كل سنة نحو مائتي ألف وخمسين ألفًا، وأحسن أقاليمها في النضارة والريع إقليم «كنت»، وفي كثر أشجار الفاكهة «دوفنشير» وإذا دخلت حمى «ششير» فهرول.

(١٣-٨) حيوانات الإنكليز

أما حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضخامة، منها الخيل وهي نوعان: ضليع ضخم وهو ما يستعمل في جر الأثقال فترى الحصان كالبرج المرصوص، ويحمل أربعمائة رطل من أرطالهم وثمنه مائة ليرة، والثاني: خفيف ممشوق وهو للركوب والسباق، أو لجر عواجل العظماء، وربما سار في الساعة ثمانية عشر ميلًا، ويقولون: إن خيلهم أعتق من خيل العرب، وإن يكن أصل بعضها من تلك، ويقال: إنه في زمن الملكة اليصابت لم يكن في جميع مملكة إنكلترة أكثر من ألفي فرس، وبقرهم تعظم في عظم جواميس مصر، ولحمها طيب إلا أنه كثير الدم، وهي حسنة الخلقة والشكل، وكذلك غنمهم تسمن سمنًا فاحشًا، وهي أيضًا مليحة ولكن ليس لها ألايا كغنم الشام، ولعلها هي النوع الذي يقال له: القهد، والهر عندهم ظريف وهو أحرى بأن تحلق الحواجب على فقده من هر قدماء المصريين، أما الحمير فإنها قبيحة وغير فارهة على قلة وجودها، ولا وجود للبغال عندهم، وندر رؤية المعزى.

ومما منَّ الله به على هذه البلاد أن ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلًا ولا سوام أبرص ولا ابن آوى يعوي في الليل، ولا نمس يأكل الدجاج، ولا بعوض يمنع من النوم،

ولا براغيث في الربيع إلا نادرًا. ويكثر عندهم الجُرْذان تسمع شقشقتها وهي تجري تحت مخشب البيوت، وكذا البق لكثرة الألواح في منازلهم، قال في أبجدية الأوقات: هذا الجرذ الأسمر الذي يسمى جرذ نوردي غلطًا هو أعظم رزيئة في ديارنا، وأصل مجيئه إلينا كان من بلاد العجم وبعض البلاد الجنوبية في آسية كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره؛ حيث قال: إنه في سنة ١٧٢٩ زحفت أسراب جرذان لا تحصى من البراري الغربية إلى أسطراخان، حتى لم يمكن ردها بوجه ما، وفي أواخر القرن السادس عشر زحفت حتى دنت من باريس، إلا أن كثيرًا من جهات فرنسا لم يزل خاليًا من هذه البلية.

(١٣-٩) فائدة في عمر الحيوان

قال بعضٌ: إن الحصان يعيش من ثماني سنين إلى اثنتين وثلاثين سنة، والثور ٢٠، والبقرة ٢٣، والحمار ٣٣، وأصل نتاجه في بلاد العرب، والبغل ١٨، والشاة من الغنم ١٠، والكبش ١٥، والكلب من ١٤ إلى ٢٥، والخنزير ٢٥، والعنز والحمام ٨، والقط ١٠، والوز ٢٨، والببغاء من ٣٠ إلى ١٠٠، واليمام من ٥٠ إلى ٢٠٠، هكذا نقلته وهو غريب، فإن الحمام واليمام من جنس واحد.

وقال آخر: الدب يعيش ٢٠ سنة، ونحوه الكلب والذئب والثعلب من ١٤ إلى ١٦، والأسد نحو ٧٠، والقط في الجملة ١٤، والأرنب ٧ سنين، والفيل قد يعيش ٤٠٠ سنة، والخنزير ٣٠، والكركدن ٢٠، والفرس من ٢٥ إلى ٣٠، والجمل نحو ١٠٠، والبقرة ١٥، والضأن قلما يجاوز ١٠ سنين، والوعل يعمر طويلًا، والدلفين ٣٠، والنسر قد يعيش ١٠٤ سنين، والغراب ١٠٠، والسلحفاة ١٠٧، ونوع من الحيتان اسمه والس ولعله الدخس يعيش ١٠٠٠ سنة.

(١٣-١٠) بناء الإنكليز ومساكنهم

أما بناؤهم فمن الآجُرِّ الأحمر والأبيض، وقد يصبغون خارج الديار أو يُكَلِّسونه، ثم يرسمون عليه خطوطًا تبديه كأنه حجارة مربعة متساوية لا يدركها إلا من دنا منها وترسمها، وتبقى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة، فإنها لما كانت هدفًا للدخان والضباب لم تلبث أن تسود كما سنذكر ذلك إن شاء الله، ولهم في تجديد الأبنية مهارة غريبة، وذلك أنهم إذا أرادوا مثلًا هدم دار هدموا أولًا أسفل جدرانها، وأسندوا القائم

منها بعضائد، ثم بنوا الأسفل فربما نجز الهدم والبناء في وقت واحد، وبعض البيوت يبنون خارجها كالسفينة من قطع خشب يعارضون بعضها ببعض، ثم يطينونها، وربما كانت تلك الأخشاب قديمة.

وفي الجملة فإن بيوت الفلاحين حسنة مهندسة، غير أن القديم منها ربما يكون أصغر من سطحه، فإن السطوح عندهم على ثلاثة أنواع؛ الأول: من ألواح المكاتب التي يتعلم عليها الخط وهي للديار الكبيرة، والثاني: من الخزف وهو للبيوت الوسط، والثالث: من التبن. فهذا يكون قبيح المنظر، وهو يرقع كما يرقع الثوب، ويقولون: إنه أحسن من غيره شتاء وصيفًا، فإنه في الشتاء يمنع البرد ويرد الثلج، وفي الصيف يمنع الحر.

ولا يكون السطح عندهم إلا مُسَنَّمًا، والفاصل بين ألواح الزجاج في الشبابيك أكثره قضبان رصاص بدلًا من الخشب، وربما كان الزجاج قطعًا صغارًا كالكف مربعة ومخمسة فيكون للعين أنيقًا، وحيث كان في السابق ضريبة للميري على الطيقان إذا زادت عن ثمانية، كان الناس يتحاشون من مجاوزة هذا القدر، ولكنه الآن أبطل، تمتعًا بنور الله وهوائه، ولكن قام مقامها ضريبة أخرى، وكل دار لا بد وأن يكون فيها عدة مواقد للنار، وأَسِرَّتهم كلها من خشب لا من حديد، والغالب أن أرض منازلهم تكون مفروشة باللبد أو البسط من الزرابي، وأثاثهم بين بين، وقَلَّ أن ترى عندهم من الصور إلا صورة كبير العائلة، وصورة الخيل في السباق، أو صورة أرانب وكلاب.

أما بيوت الأغنياء والمترفهين فلا شيء أجمل منها؛ لإحكام بنائها وحسن ترتيبها، وحيطانها من داخل مغشاة بالورق الفاخر المنقش، وطيقانها محكمة الوضع، كبيرة قطع الزجاج، وهو يقارب البلور في الصفا والبريق، ودرجها وأرضيتها من الخشب المتين، ولهم إسراف زائد في الأثاث، فإن أسرتهم وموائدهم وأصونتهم وكراسيهم وخزائن كتبهم كلها من الخشب المسمى بالماهيكون، وقد تبلغ قيمة ذلك في الجملة نحو ٥٠٠ ليرة، ومع ذلك فلن ترى لسيدة الدار حليًّا من الألماس أو شالًا من الكشميري، وهي عكس عادتنا، ومن إسرافهم أن يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش أو الزرابي الفاخرة وفوقها الكتان النفيس يدوسون عليه، ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب، حتى إن الفرنسيس إذ ذكروا مرحاضًا على هذه الصفة قالوا: إنه مرحاض إنكليزي، وكنت مرة ضيفًا لأحد بخلائهم فلما أصبحت طلبت الكنيف فدللت عليه، وإذا هو في غاية الزخرفة والإحكام حتى إني أحجمت عن فتحه واستعماله، وخطر ببالي حينئذ ما قاله بعض الظرفاء في بخيل أنفق على كنيف له سبعمائة درهم قد استدانها: «ليت شعري ما الذي يريد أن يخرأ فيه.»

وإجارة المسكن للغريب إنما تكون بالأسبوع، ولا بد أن يخبر أهل المنزل قبل خروجه بأسبوع؛ فإذا علموا ذلك تهاونوا في خدمته، وإذا استأجر أحد مسكنًا في دار من مستأجر الدار وفرشه، وكان المستأجر لا يؤدي غلة الدار إلى مالكها، حق للمالك أن يستولي على كل شيء في الدار، ثم إن البناء في الأصل كان من الخشب والطين، ثم من الآجُرِّ، ثم من الحجارة غير المهندمة، فلما تمدن الناس وتبحروا في الصنائع صار من المرمر.

(١٣-١١) نبذة عن استخدام الحجر في البناء

والبناء من الحجر عُرف عند أهل صور من القديم ثم اشتهر عند جميع الأجيال، ولم يعرف في إنكلترة قبل سنة ٦٧٠م، وكان المحدث له راهبًا اسمه بناديكتوس، وأول جسر بني منه في هذه البلاد كان في سنة ١٠٨٧م، أما البناء من الآجُرِّ فإنما عُرف عن الرومانيين، وفي سنة ٨٨٦م أمر ألفريد ملك الإنكليز باستعماله، وفي سنة ١٥٩٨م استحسن تعميمه، وكان بناء لندرة إذ ذاك من الخشب غالبًا، وأما الزجاج فيقال: إن أول من تعلم صنعته أهل مصر؛ فإنهم أخذوها عن هرمس، وقال بلينيوس: بل كان اختراعه في سورية، وكان له معامل في صور من القديم، وقد ذكره الرومانيون في عهد طيبيريوس، وعلم من أنقاض بمباي أن الزجاج كان في طيقانها سنة ٧٩ قبل الميلاد.

وأول ما اشتهر اتخاذه في أوروبا كان في إيطاليا، ثم عرف في فرنسا، ثم في إنكلترة، وفي سنة ١١٧٧ استعمل في ديار بعض الأعيان ولكنه كان مجلوبًا، ويفهم من كلام فلتير أن أول من شهره في بلاد الإنكليز رجل من فرنسا، وذلك في سنة ١١٨١، وفي سنة ١٥٥٧ أنشئ له معمل، وفي سنة ١٦٣٥ أكسب رونقًا وصفاء، وفي زمن وليم الثالث أتقن إلى الغاية.

(١٣-١٢) عاطلو الإنكليز

ومن سوء التدبير في بلاد الفلاحين أنه لا يقام في القرية من الشرطة إلا واحد، فلذلك يكثر فيها الحريق والسرقة، فإن أهل القرية إذا لم يستخدمهم مستأجر الأرض يبقون معطلين متنزعين إلى ارتكاب كل شر، فيعمدون إلى إحراق أكاديس القمح والحشيش المكدسة في الحقول في ليلة ذات ريح؛ فتسري النار إلى بعض البيوت وليس من يطفئها،

ثم لا تلبث أن تلاشيه بالكلية وتسري إلى غيره، فربما احترقت القرية كلها في ليلة واحدة، وفي مدة شهرين من إقامتي بتلك القرية وقع خمس عشرة حريقة في أكداس الغلال، وكان سبب ذلك من هؤلاء المعطلين عن الشغل تشفيًا من غيظهم من مستأجر الأرض، ورأيت آثار قرية كانت تشتمل على خمسين بيتًا احترقت بأجمعها في ليلة واحدة، بل إن كثيرًا من هؤلاء الفجار ينهبون الكنائس، وقد يدخلون الديار من مداخن المواقد النافذة إلى السطح ويسرقون ما قدروا عليه، وفي كل ليلة قبل النوم يوصي المخدوم خادمه والمخدومة خادمتها بإطفاء النار والنور.

أما العاجزون والسُّقط فإنهم يمكثون في المستشفى ويقوم بنفقتهم القادرون من الرعية، فإن الحكومة لا تنفق شيئًا على المستشفيات ولا على تصليح الطرق ولا على ترتيب الشرطة أيضًا، إلا أن أكثر الناس يستنكفون من المكث في المستشفى كما ذكرنا سابقًا.

وقد تقرر عند الإنكليز جميعًا أن التصدق على الفقراء يحملهم على الكسل والتواني، فما يعطون فقيرًا إذا مروا به ولو كان عريانًا اعتمادًا على وجود هذه المستشفيات. ويمكن أن يقال: إن أكثر فقرهم هو من انهماكهم في شرب المسكرات؛ فإنك ترى منهم فقراء كثيرين بأخلاق من الثياب، ومهما يكسبوه ينفقوه في الجعة، ولا يزالون يَكْرَعون منها حتى تجحظ عيونهم وتنعقد ألسنتهم عن الكلام، ولا يزالون يلهجون بذكرها فهي عندهم في الشتاء للتسخين وفي الصيف للترطيب، ومع ذلك فهم بالنسبة إلى أهل المدن الجامعة أصحى وأعف، كما أنهم أسخى منهم وأكرم، وهذه خطة عامة في جميع البلاد، فإن أهل المدن لما كان احتياجهم إلى أسباب المعيشة والرفاهية أكثر كان الكرم فيهم أقل، وذكر الطبيب بوخان أنه عرف في زمانه نساء بعن أولادهن بالجعة.

ثم إن الإنكليز طالما افتخروا بهناء العيش داخل ديارهم، وهو عبارة عن أمرين: أحدهما: التمتع بكل ما يلزم للإنسان في معيشته، والثاني: ترتيب وضع الأشياء المتمتع بها، وهو أن يكون لكل شيء موضع خاص به، ولكل موضع شيء، فمن غسل يديه مثلًا في طست على مائدة ثم تناول المنشفة من جانب المائدة من دون أن يغادر موضعه ويفتش عليها، فقد اتصف بأنه متهنئ، وقس على ذلك.

(١٣-١٣) من مفاخر الإنكليز

والحق يقال: إن الإنكليز في ذلك أعظم الناس ترتيبًا وأحكمهم وضعًا للأشياء، وكأنهم إنما ورثوا هذه الخلة كابرًا عن كابر، ومن تعود على هذه الحال عندهم فلا يمكنه أن يتهنأ بعدها في معيشته في البلاد المشرقية، قالوا: وعلى هذا الأصل بنيت بيوتنا، بحيث إذا تبوأها أحد لا يحب أن يخرج منها، ولا سيما وضع مواقدهم؛ فإنها تسع من الفحم ما شئت، وبذلك يحصل لهم الدفء في الشتاء وهو من ألزم ما يكون، وعندهم نحو ثمانمائة ألف دار مفردة يقال لها: «كوتاج»، لا يمكن لغيرهم من الناس أن يعيش في مثلها حالة كونها منفردة.

فأما دعواهم بأن مَبَاقِلهم مريعة غضة بحيث تكفي لكل ما يلزم لهم، وأن أثاثهم وأدواتهم وافية بالمراد حتى لا يمكن للشهواني أن يقترح شيئًا زائدًا عليها، فليست في محلها، فقد مر بك أن كثيرًا من البقول والفاكهة لا ينبت عندهم، ويمكن أن يقال إن ذلك غير ضائر من لم يتعود عليه، فأما من جهة الأثاث فإن جميع سكان أوروبا المتمدنين مشتركون فيه، على أنهم محرومون من كثير من الملاهي والفرج.

(١٣-١٤) منابر إنكلترة وغيرها

هذا؛ وكما أن أرض إنكلترة كلها محروث عامر، كذلك كانت شطوطها بأجمعها مرصعة بالمنابر والأعلام لهداية السفن، فإن في سواحلهم مائتي منارة لا تزال أنوارها متقدة الليل كله، وجملة المنابر التي في سواحل فرنسا الشمالية والغربية ٨٩، والتي في هولاند ٢٦، ومصاريف منابرهم تؤخذ في رسم يجعل على السفائن المشحونة التي تمر بها وهو يختلف، وقد يبلغ في السنة مائتين وخمسين ألف ليرة ينفق نحو ثلثيه في لوازمها ويدخر الباقي لأجل ترميمها.

وأعظم منارة بنيت في إنكلترة مما يجدر بأن يعد من عجائب الدنيا منارة أدسطون وذلك في سنة ١٦٧٠، ولكن طُمَّ عليها الماء في إحدى السنين فأبادها رأسًا فلم يبقَ منها سوى قطعة سلسلة من حديد.

وأول منارة عُرفت في الزمان القديم المنارة التي بنيت على صخر فاروس قبالة الإسكندرية، وكانت من المرمر الأبيض العجيب الصنعة، وذلك في عهد بطليموس فيلادلفوس ملك مصر سنة ٢٨٢ قبل الميلاد، فكان النار يوقد في قُنَّتِها دائمًا لهداية

السفن إلى مرسى المدينة المذكورة حتى قيل: إنها كانت تُرى من مسافة مائة ميل وهو مظنة للإنكار، ويقال: إن مصاريفها بلغت ٣٠٠٠٠٠ ليرة إنكليزية بحساب أن الدراهم كانت من ضرب مصر، وقد عدت من عجائب الدنيا السبع، وبلغت من الشهرة والعجب بحيث إن اسمها أطلق على كل منارة بنيت بعدها إلى يومنا هذا تقريبًا.

وفي تاريخ مصر لعبد اللطيف البغدادي أن بعض ذوي العناية ذكروا أن طولها ٢٥٠ ذراعًا، وأن بعضهم قاسها فوجدها ٢٣٣ ذراعًا، وهي ثلاث طبقات؛ الطبقة الأولى: مربعة وهي مائة ذراع، والطبقة الثانية: مثمنة وطولها ٨١ ذراعًا ونصف ذراع، والطبقة الثالثة: مدورة وطولها ٣١ ذراعًا ونصف ذراع، قال: «وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر أذرع.»

(١٣–١٥) عجائب الدنيا

وعجائب الدنيا فيما عده بعضهم ما عدا ما ذُكر هي أهرام مصر، والموزليوم وهو قبر بناه أرطيمسيا لموزلوس ملك قاريا، وهيكل ديانة ابنة جوبيتر، في أفسوس، وأسوار مدينة بابل وحدائقها المتدلية، وصنم الشمس من نحاس في رودس، ويقال له: قولوسوس وصنم جوبيتر، وقيل: إن جوبيتر هو هُبَل عند جاهلية العرب، قلت: ومن العجب في هذه العجائب أنهم لم يعدوا منها سد الصين؛ فقد قال فلتير: إن دورته مسافة ألف وخمسمائة ميل مرتفعًا على جبال شامخة ومنحدرًا في أماكن وعرة المرتقى، وعرضه في جميع هذه المواضع عشرون قدمًا، وارتفاعه أكثر من ثلاثين، وهو أعظم من أهرام مصر في القدر والمنفعة، بناه أهل الصين حاجزًا بينهم وبين التتر، وذلك في سنة ١٣٧ قبل الميلاد.

(١٣–١٦) هواء إنكلترة

أما هواء إنكلترة فإنه كثير التقلب يختلف في اليوم الواحد مرات، وبينما يكون الجو مصحيًّا والسماء نقية إذا بالغيم قد طبق الأفق وتراكم حتى تحسب أنه لم يكن شمس قط.

وقد يبلغ درجات الهواء في يوم ثلاثين، وفي غده خمسين، ومع ذلك فلا يصح أن يحكم عليه بأنه وخيم ولا سيما على من ألفه، فإن الغالب على بنية الإنكليز الضلاعة

والشدة، وإن كثيرًا منهم يعمرون فوق المائة سنة، وفي مدة ثلاث سنين مات في إنكلترة ووالس ٢٦٦ شخصًا وعمرهم من المائة فصاعدًا، ومات رجل في كورة «هولي وود» وقد بلغ من العمر مائة وثلاث عشرة سنة، وبقي متمتعًا بجميع حواسه، وأوصى وصية مبينة، ولم يعرف المرض إلا قبل موته بساعة واحدة.

ومتى تم لهم صحو يوم تام رأيت الناس جميعًا يلهجون بمحاسنه ويذكرون بهجته، فهو عندهم عيد وموسم، وفي الحقيقة فإنه إذا انجلى الغيم وظهرت الشمس لم يكن شيء أبهج من ذلك، فإن بلادهم كلها مروج وغياض كما ذكرنا سابقًا، وقد ترى في الأشجار المتصافة ألوانًا مختلفة، وترى الحقول كأنها بسط من سندس أخضر، ولا يخفى أن هواء الرستاق والريف أصح وأسلم من هواء المدن الكبار التي يكثر فيها الدخان والعفونات والأقذار، إلا أنه لا يمكن الخروج في الريف شتاء حين تكون المسالك وحلة، فلهذا يمكن أن يقال: إن أهل المدن أكثر حركة ورياضة من أهل الأرياف.

وبذلك تحصل الموازنة ما بين طيب هواء هؤلاء ووَخَامَته عند أولئك، وقد سبقت الإشارة إليه، فأما من ابتلي بالسل والربو أو ضيق الصدر فلا يصح له مقام في هذه البلاد أيًّا كان، وكما أن لياليهم في الشتاء تكون طويلة جدًّا، فإن النهار إذ ذاك عبارة عن ثماني ساعات كذلك تكون في الصيف قصيرة جدًّا فإن النهار في شهر حزيران يكون ست عشرة ساعة ونصفًا، فيكون الليل كله كالشفق إلا أن يلبس الجو الغيم والدُّكْنة.

ولنذكر لك جملة من الكلام على الهواء هنا لتتخذها قانونًا تقيس عليه، فأقول: إنه في الثاني عشر من شهر تشرين الأول أحوج البرد إلى إيقاد النار، وكنا نرى أهل القرية كلهم يصطلون، فحذونا حذوهم، وبقيت الشمس أيامًا عديدة لا تُرى إلا لمحًا، وكانت تطلع في الساعة السادسة وتغرب في الخامسة، ولا يكاد يكون بعد غروبها شفق، وفي الواقع فإن النار عندهم تقوم مقام الشمس، فإنهم ينشفون عليها الثياب، ويتلذذون بالنظر إليها، ولا سيما إذا كانت ذات لهب، وقد بلغت منهم ألفتهم بها بحيث إذا جلسوا في الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد، ويؤثرونه على الجلوس عند الشبابيك.

إلا أنه من يجلس عند الموقد فلا بد له من أن يغسل يديه ووجهه في اليوم مرارًا، حتى إن غِلالته تتسخ من أثر الفحم من تحت ثيابه، وفي الرابع والعشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع في الساعة السابعة وتغيب قبل الساعة الخامسة، وفي السادس من تشرين الثاني كانت تطلع عند الثامنة وتغيب بعد الرابعة.

وفي هذا الشهر يكثر وقوع الضباب، فيأخذ بالكظم إذ المشي فيه لا يخلو من بعض أذى بالبصر، ويسمون هذا الشهر «نحار الأعناق»، وقبل عيد الميلاد كان صحو عظيم،

فكانت الشمس ترى عامة النهار، ولم يكن البرد يحوج إلى الاصطلاء، وإنما كنا نوقد النار لمجرد الارتياح لرؤيتها كما هي عادتهم، وفي السنة الثانية قبل العيد المذكور أصحت السماء مدة يومين كاملين، فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها إلى غروبها، ولكن وقع برد شديد جمدت منه المياه حتى في الآنية، فلم يكن كب السلحفاة مانعًا له كما قال صاحب القاموس، وكانت الأولاد تَطْفِر على المناقع والبرك كما تطفر على الصخرة الصماء، وإذا كسرتها تشققت عن ألواح كلوح الباب.

والتزحلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى إن البرنس ألبرت زوج الملكة يطفر مع خواصه في موضع خاص به، وحين يتزحلقون يلبسون نعالًا كالقباقيب، وهو عندهم من الأمور الرياضية، وكنا نرى الصقيع على وجه الأرض كأنه ملح مرشوش، وكان الماء يجمد على زجاج الطيقان، وإذا ألقيت منه على الأرض لم يلبث أن يجمد أيضًا، أما المطر فلم يقع إلى وقت الميلاد إلا رذاذًا، وقلما ينزل في غيره أيضًا سحًّا كما ينزل في بر الشام ومالطة، وإذا انقطع عنهم شهرًا فأكثر لا يستسقونه بالأيدي كما يفعل المالطيون؛ لأن ثراهم لا يزال نديًّا من المطر السابق، وأكثر وقوعه في الخريف والربيع، فأما الرعد فقد مضى الشتاء كله ولم نسمع له قصفة، وإنما سمعناه في أيار والشمس حارة.

وكان شهر نيسان أبرد من آذار، وفي أواسطه سقط ثلج وبرد شديد، وكان آخر آذار أبرد من أوله، فقد احتجبت فيه الشمس أيامًا متوالية، وفي أوائل العام الثاني غطى الثلج وجه الأرض والسطوح ورءوس الشجر، ولم يكن البرد شديدًا كما يكون عند سقوط الصقيع، ويقال: إن كثيرًا يهلكون في الطريق حينئذ إذا لم يكونوا خبيرين بها فيقعون في مهواة على حين غفلة فيعطبون، وربما سقط الثلج على الشاء في الحقول فتضل الطريق، وقد سمعت أن امرأة سقط عليها الثلج وهي تحت شجرة تستذري بها فلم يمكنها التحول من موضعها، فلبثت فيه بضعة أيام، حتى جاء من أخرجها منه وقد سقطت أصابع يديها ورجليها وبقيت بعد ذلك حية، ويقال: إن بقاء الثلج في المزارع أيامًا نافع للزرع، ولا شيء أشق على الماشي من المشي عليه حين يذوب بخلاف ما إذا كان متلبدًا.

وللإنكليز لهج عظيم في محاوراتهم وكتبهم بمحاسن أيار لانكسار حدة البرد فيه، إلا أنه في الواقع من أنحس الشهور؛ وذلك لانقطاع الفاكهة والبقول فيه إلا ما ندر، وفي أوله تدور الصبيان والبنات يغنون ويجتدون من أهل البيوت والمارين في الطرق، وكان قدماء الإنكليز يرقصون فيه في الحقول والمزارع، ويجعلونه يوم مسرة وطرب حتى إن

السفلة في لندرة يعيدونه إلى الآن فيتخذون نحو شجرة ويرقصون حولها في الشوارع، وفي أوائل شباط يطوف الأولاد أيضًا يغنون لفالنتين، وهو يوم تزاوج الطيور، وفيه تتهادى الشبان والشواب بالرسائل والأشعار على طُرُوس مزخرفة.

ومن أول شهر حزيران إلى العشرين منه حصل حر يقرب من حر مالطة، فكانت الشمس تبدو من أول النهار إلى آخره، ثم اكفهر الجو ودَهَم البرد ووقع المطر الغزير، وحين يشتد الحر يبلغ ثمانين درجة — إنكليزية — وغاية البرد عشرون، وأبرد الرياح عندهم هي الشرقية ثم الشمالية، أما الغربية فلا تكاد تأتي من دون مطر، والغالب حينئذ أن تنكسر سَوْرَة البرد، ويعقبه دفء مغر بالكسل والعجز حتى يود الإنسان أن تعود الريح الباردة وإن أطارت عنه الثياب، وبما مر بك من تقلب الهواء عندهم تعلم أنه لا يحسن أن يترجم إلى لغتهم قول بعضهم من قصيدة يمدح بها الملكة، وهو:

تلوي الرياح مثاني الرمل عاصفة   حتى تُصيب أراضيها فتعتدل

وهو نظير قول المتنبي:

إذا أتتها الرياح الهوج من بلد   فما تهب بها إلا بترتيب

لكن بيت المتنبي سالم من الضرورات، وقلت أنا من قصيدة طويلة:

ما أَنْ يحيل حُئولٌ في هوائِهم   هوى نفوسهم عن مَذْهَبِ الخِيَرِ

إشارة إلى أن تقلب الهواء عندهم لا يغير طباعهم عن فعل الخير، و«الخير» بالكسر الكرم والشرف والأصل والهيئة، وفي الحقيقة فإنه عند شدة البرد هنا لا يفكر الإنسان إلا في الاصطلاء، ولا تزال تسمع من كل من تلقاه لفظة البرد، وإذا تفوه بها فرك يديه، وتأفف ليدل على صدق ما يقول ولا سيما النساء، حتى إنهم ربما قالوا ذلك في يوم لا برد فيه، فكأن ألسنتهم مرنت على ذلك، وكثيرًا ما ترى أيضًا وصف البرد والنار في كتبهم، ويسمون المرأة «رفيقة الموقد» والإضافة بتقدير «عند»، وقد جرت العادة عندهم بأن لا يحرك النار إلا مَنْ كان من أهل البيت أو من طالت ألفته بهم.

وفي الجملة فإن النار أليفهم مدة ثمانية أشهر في السنة، وبهذا تعلم أنهم لا يرون في وصف الجنة نعيمًا؛ لأن الإنسان إذا كان مقرورًا لا يشتهي أن يسمع بذكر المياه والظلال والأشجار، بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطرمة، ومواقدها محتدمة، وخَضَبها معتد، وحطبها منضد، وفحمها مؤبد، ومسعرها مخلد، فهنيئًا للمصطلين، وطوبى للمستدفئين، أليس أن عبادة النيران في بلاد الفرس نشأت عن البرد، كما قال ابن صاره في المعنى:

أُحِلَّ لنا تركُ الصيام بأرضكم — وشُرْبُ الحُمَيَّا وهو شيء محرَّم
فرارًا إلى نار الجحيم فإنها — أَرَقُّ علينا من شلير وأرحَمُ
لئن يَكُ ربي مُدْخِلي في جهنم — ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

(١٣-١٧) المناخ وحياة البشر

ثم إنه لا يخفى أن أهل البلاد الحارة يكونون أذكى ذهنًا وأسرع فهمًا من أهل البلاد الباردة، إلا أنهم لا يكون لهم جَلَدٌ على الأعمال الشاقة؛ لغلبة الترهل عليهم، ولا عظم همة لمباشرة المساعي الخطيرة، ولا يمكن أن يلحقوا أهل البلاد الباردة في العز والغنى، إلا أن يكون لبعض البلاد مزية خاصة بوجود المعادن وغيرها كبلاد الهند مثلًا، أما سكان البلاد الباردة فيتحملون مشاق الأعمال ويستطيعون إدمان السعي، ويعمرون أكثر، ولهذا كان جل الفاتحين والغازين من الشمال، وكأن جزيرة العرب مستثناة من هذا الحكم، إلا أن أيامهم في الشتاء تكون قصيرة جدًّا، فيضطرون إلى العمل ليلًا، وربما كتبت أيديهم من شدة البرد.

وفي كتاب منسوب إلى أرسطو أن أهل البلاد الحارة يعمرون أكثر من أهل البلاد الباردة؛ لأن الحرارة الطبيعية يتأتى حفظها في الأولى أكثر من الثانية، ولا أرى قوله مطابقًا للواقع إلا أن يحمل قوله البلاد الباردة على معنى المفرطة في البرودة، والبلاد الحارة على معنى المعتدلة في الحرارة.

(١٣-١٨) اختراع ميزان الهواء

ولنختم الكلام على ميزان الهواء بما لا يخلو من فائدة فنقول: إن أصل اختراعه فيما علم كان في إيطاليا، وفي سنة ١٦٢٦ ألف صنطوريا الطبيب في بدوى كتابًا وادعى فيه أنه مخترعه، وادعى أيضًا هذه الدعوى رجل من هولاند اسمه كرنيليوس دريبل، وبعد البحث والتدقيق علم أن الأول سبق إلى الدلالة على اتخاذه، وأن الثاني عرف خواصه من قبل أن يسمع شيئًا عن ذاك، ونقلت من بعض الكتب أنه حسبت أيام السنة في مدينة ويانه على مدة خمس وسبعين سنة، فكان في خلال السنة من أيام الصحو ١٢٧ يومًا، ومن أيام الضباب ٧٥، ومن المطر ١١٠، ومن الثلج ١٣٥، ومن الرعد والبرق ١٩، وأقول إن هذا القدر من أيام الضباب هو أكثر مما يقع بلندرة، فإن جُلَّه هنا إنما يقع في شهر تشرين الثاني.

(١٣-١٩) معادن إنكلترة

أما معادن إنكلترة فأشهرها القصدير والصفر والحديد والفحم، وهذان الأخيران أقنى وأنفع لهم من سائر المعادن النفيسة؛ إذ لولاهما لم يتأتَّ لهم إنشاء ألوف من البواخر ومن سكك الحديد ومن الغاز وغير ذلك، وليس كل البلاد التي فيها معادن الذهب والفضة أغنى من غيرها؛ فإن من المعادن ما تقوم نفقة استخراجه بفائدته، فلا يحصل منه نفع إلا مجرد الافتخار بوجوده، وإنما العمدة على سهولة إيشائه وقلة مصروفه، وأكثر ما يوجد الذهب في إفريقية ويابان وجنوب أميريكا، وهذا الأخير عثر عليه الإسبانيول في سنة ١٤٩٢، ومن ذلك التاريخ إلى سنة ١٧٣١ جلب منه إلى أوروبا ستة آلاف مليون شذرة قيمة كل منها ثمانية ريالات أميريكانية.

ويكثر وجوده أيضًا في جبال أورال بالروسية، ويوجد منه معدن في كورنول، وفي وكلو بإرلاند، وأكثر ما يأتي الإنكليز من الذهب فإنما هو من أوستراليا وكاليفورنيا، قيل: إنهم يجلبون منه في كل سنة عشرين مليون ليرة، وأول من اطلع عليه في الأولى إدورد هرغافس وذلك في سنة ١٨٥١، فأطلع أرباب الحكم على ذلك طمعًا في الجائزة فأجازوه، وولوه خولية أرض الميري، ومن جملة ما وجد فيه قطعة ذهب إبريز بلغت مائة وستة أرطال، ووجد أيضًا في موضعين منها إلى غاية تشرين الأول سنة ٥٢ «٢٥٣٢٤٢٢» أوقية إنكليزية، أو مائة وخمسة أطنان أي طنلاته، وبلغت قيمة الذهب الذي بعث منها إلى الخارج نحو تسعة ملايين ليرة، ومن ذلك الوقت تتابع وروده إلى بلاد الإنكليز.

ويحتمل أن في أوستراليا معادن أخرى كثيرة وكنوزًا جزيلة لم تكتشف إلى الآن، فمتى كُشفت تكون داعية لعجب أهل الدنيا، وهذه الجزيرة هي أكبر جزيرة في المسكونة، وأصغر أرض قارة، فإنها دون أميريكا بنحو ستة أضعاف، وكان استعمار الإنكليز إياها بعد انفصال أميريكا عن بلادهم، وفي سنة ١٨٥٤ بلغ عدد أهلها ٢٣٦٧٩٨ نفسًا وهي أقل بلاد الدنيا إناثًا.[١]

(١٣-٢٠) نبذة عن أميريكا

فأما «أميريكا» فأول من كشفها رجل من جينوى اسمه كرستوفر كولمبوس، وذلك في سنة ١٤٩٢، قيل إذا صارت مملكة الدول المتحدة بأميريكا مأهولة كهولاند فتكون تسع تسعمائة مليون من الناس، وهذا القدر هو نصف قدر سكان المسكونة وأهلها الآن سبعة وعشرون مليونًا،[٢] وحين كان الإنكليز يبنون مجلس الشورى بلندرة، كان الأميريكانيون مشتغلين بتمدين بلادهم فأنشئُوا سبعة وعشرين ألف ميل وخمسمائة ميل لسكة الحديد،[٣] بلغت نفقتها نحو ثلاثمائة مليون ليرة، وفي غضون ذلك أنشأ الإنكليز تسعة آلاف ميل، كلفتهم نحو المبلغ المذكور، والذي ورد إلى خزنة الدول المتحدة في سنة ١٨٥٧ من جميع موارده، بلغ نحو ثمانية وعشرين مليون ريال ونصف مليون، وكان المبلغ الفاضل فيها نحو عشرين مليونًا، وبلغت مصاريف الدولة سبعين مليونًا، وكانت محال البوسطة في سنة ١٨٢٧ سبعة آلاف، فصارت في سنة ٣٧ «١١١٧٧»، وفي سنة ٤٧ «١٥١٤٦»، وفي سنة ٥٧ «٢٦٥٨٦»، وكان مواضع امتدادها طولًا في سنة ٢٧ «١٠٥٣٣٦» ميلًا، وفي سنة ٣٧ «١٤١٢٤٢»، وفي سنة ٤٧ «١٥٣٨١٨»، وفي سنة ٥٧ «٢٤٢٦٠١»، وفي المملكة المذكورة تسعة آلاف رتل لسكة الحديد، وهو عبارة عن إجراء رتل واحد لكل ثلاثة أميال.

[١] وفي سنة ١٨٨٠ بلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠٠٠٠٠ نفس.

[٢] في هذه السنين تقدمت أميريكا تقدمًا غريبًا حتى بلغ عدد سكانها الآن ٥٢٠٠٠٠٠٠ نفس.

[٣] وفي سنة ١٨٨٠ صار طول سكك الحديد في أميريكا ٩٠٠٠٠ ميل، وإيراد الدولة في السنة المذكورة بلغ ٣٣٣٠٠٠٠٠٠ ريال، والمصاريف بلغت ٢٦٠٠٠٠٠٠٠ ريال، وعدد دواوين البوسطة بلغ ٤٠٨٥٥ فانظر إلى هذا الفرق وتعجب.

ووجدت في كتاب آخر أن طول سكك الحديد في أميريكا كان في سنة ٥٧ «٢٤٤٦٦» ميلًا، وأنه في سنة ١٨٢٨م وهي أول سنة ابتدءوا فيها بهذه المصلحة، لم يكن عندهم إلا ثلاثة أميال، فانظر إلى هذا الفرق.

أما كاليفورنيا فكان كشفها في سنة ١٥٣٥م، وكانت في سنة ١٨٤٦م تابعة لأعمال مكسيكو تحت استيلاء دولة إسبانيا ثم استولت عليها الدول المتحدة، وكان كشف الذهب فيها سنة ١٨١٧م، وقيل: إنه كان معروفًا قبل هذا التاريخ لبعض أشخاص ولكن كانوا يكتمونه، وهذه اللفظة محرفة عن لفظتين في اللغة الإسبانيولية، معناهما الفرن الحامي، ولا يبعد أن يكون ذلك عربيًّا فإن كالي محرف عن قالي من قليت اللحم ونحوه، وفورنيا من الفرن، وقيمة ما يخرج من هذا الصقع في السنة يبلغ خمسة ملايين، وبلغت قطعة الذهب من ذلك إلى خمسة وعشرين رطلًا، فكان الرجل يسعد من كَدِّه وقميصه لم يتسخ، ويحكى أن الدول المتحدة لما بلغها خبر وجود الذهب في هذا الإقليم أرسلت حاكمًا إليه فما كان منه بعد وصوله إلا أن حمل المعزقة وأقبل يحفر عن الذهب مع الحافرين.

(١٣-٢١) عودة إلى معادن إنكلترة وصك أموالهم

قال بعضهم: أما معادن إنكلترة فكثيرة وغنية، فقد عدَّ طاخيطوس من جملتها الفضة والذهب، وفي عهد الملك جامس الأول كشف معدن رصاص استخرج منه كثير من الفضة، ويوجد في «كورنول» أكثر من خمسين معدنًا للنحاس، ونقلت من بعض الإحصائيات الصحيحة أن جملة ما خرج من معدن الذهب من بلاد الإنكليز من سنة ١٨١٦ إلى سنة ٤٦ بلغ خمسة وتسعين مليونًا.

وقيل إن أول ضرب الدنانير عندهم كان في سنة ١٢٥٧م، وأول ضرب الدنانير الرائجة المحكمة كان في سنة ١٣٤٤م، وكان ضرب الجيني في سنة ١٦٧٣م، وكان مبلغ ما ضرب من النقود في أيام الملكة إليصابت ٥٨٣٢٠٠٠ ليرة، وفي أيام جامس الأول ٢٥٠٠٠٠٠، وفي أيام جورج الثاني ١١٩٦٦٥٧٦، وفي أيام جورج الثالث ٧٤٥٠١٥٨٦، وفي أيام جورج الرابع ١٠٨٢٧٦٦٣، وفي زمان الملكة فكطوريا وذلك من سنة ١٨٣٧م إلى سنة ٤٨ «٣٩٨٨٦٤٥٧»، ويقال: إن طبع الدراهم والدنانير من مخترعات ليديا — من بلاد الأناطول — وذلك في سنة ٨٦٢ قبل الميلاد.

أما الفلوس فقد ذكرها أوميروس في سنة ١١٨٤م قبل التاريخ المذكور، والذهب الإنكليزي فيه اثنان وعشرون قيراطًا من الذهب، وقيراطان من النحاس، ويقال: إن حبة

الذهب يمكن تقسيمها إلى ثمانية عشر مليون جزء ظاهرة، ويمكن أيضًا تطريقها ومدها حتى نصير خمسًا وستين إصبعًا مربعة، وإن الصفحة تصير إلى جزء من ثلاثمائة من أجزاء الإصبع، ويذهب بها حتى إلى جزء من عشرة ملايين، وأول استعمال خيوط الذهب كان في إيطاليا وذلك سنة ١٣٥٠م.

ولما كان هذا الجوهر ألين جميع الجواهر وأصفاها كان لا يستعمل إلا مخلوطًا بالصفر أو الفضة، ونقلت من جرنال التيمس سنة ١٨٥٢م أن مبلغ نقود الفضة والذهب في الدنيا بأسرها قيمته أربعمائة مليون ليرة منها مائتان وخمسون مليونًا فضة والباقي ذهب، ونقلت من غيره أيضًا أن مبلغ الذهب الذي كان متداولًا في سنة ١٨٤٨م في الدنيا بأسرها كان ستمائة مليون ليرة، وأن الإمداد السنوي كان من ثمانية ملايين إلى تسعة، وأنه لسبب كشف معادن الذهب في أوستراليا وكاليفورنيا صار الذهب المتداول الآن يبلغ أكثر من ثمانمائة مليون.

فمن كاليفورنيا خرج من سنة ١٨٤٩م إلى سنة ١٨٥٣م خمسة وستون مليونًا وتسعمائة ألف، ومن أوستراليا خمسة وثلاثون مليونًا وذلك من سنة ١٨٥٤م إلى سنة ١٨٥٦م.

أما معدن الفضة فقيل: إن أحسن ما عرف منه ما كان في لاباز وذلك سنة ١٦٦٠م، فكان من لينه وحسنه يقطع كالبلور، وفي سنة ١٧٤٩م أرسلت قطعة منه إلى بلاد إسبانيا فبلغت ٣٧٠ رطلًا، وحفر عن قطعة في معدن بنورويج، وأرسلت إلى متحف كوبنهاغن فبلغت ٥٦٠ رطلًا وقيمتها ١٦٨٠ ليرة، وكانت آنية الفضة نحو الأقداح والمغارف تعد في سنة ١٣٠٠م في بلاد الإنكليز من الإسراف، ووجودها في البلاد المذكورة إنما يكون مختلطًا بغيرها من الجواهر.

أما معدن النحاس فقد مر ذكره في كورنول، ويقال: إن أعظم معادنه في مملكة السويد، ويقال أيضًا: إن الحبة من هذا الجوهر إذا حلت في محل النشادر تجزأت إلى أكثر من اثنين وعشرين ألف جزء.

أما معدن الحديد عندهم فيستخرج منه في كل سنة أكثر من ثمانمائة طن، ويقال: إنه أول ما عرف وجود الحديد كان على جبل إيداي وذلك في سنة ١٤٣٢ قبل الميلاد، وزعم اليونانيون أنهم أول من عثروا عليه، كما أن أهل فينيقية أول من عثر على الزجاج، إلا أنا نعلم من التوراة أن أول من قان الحديد طوبال قاين.

وقال آخر: «إن تجارة الحديد عند الإنكليز كما هي الآن من إبداع هنري كورت؛ لأنَّا قبل سنة ١٧٨٣ كنا نجلب جل لوازمنا من الحديد المصنوع من سواحل بحر البلتيك،

ولم تكن طريقة لصنع هذا الجوهر الذي يصدق عليه أن يسمى جوهر الجواهر سوى تطريقه بمطارق ضخمة ثقيلة، بعد إحمائه في فرن، وهو أسلوب قديم يجري مع قدم أيام الخرافات.

وما عدا ما كان يتبعه من التعب والكلال فكان يلزم له أجم كثيرة لتفي بالوقود اللازم لإحمائه، وحيث لم يكن عندنا منها ما يكفي، كان لا بد لنا من استجلابه من الروسية والسويد؛ حيث الأجم كثيرة، والحديد يسهل صنعه بالنسبة إلى هذه الديار وإلى سعره فيها، فكانت معادننا الجزيلة تبقى معطلة، إلى أن قام هنري كورت المذكور وأعمل فكره الثاقب في اختراع طريقة تكثر بها منافع هذا المعدن، وتقل الصعوبة في صنعه، فأداه الاجتهاد والتبحر إلى إحداث فرن هواء بواسطة لهيب النار المنبعث من فحم الحجر، فكان يحمي به الحديد وهو تبر ويصفيه، ثم يجعله قضبانًا مسبوكة من دون فحم ولا مطرقة، ولكن لم يتهيأ له إتقان هذا الحمل إلا بعد أن أنفق عليه عشرين ألف ليرة، ومنذ ذلك الوقت استغنينا عن حديد السويد والنورويج.

ثم لم تمض أربع عشرة سنة حتى صار ما يصنع منه في بلادنا قدر ما كنا نجلبه من بحر البلتيك، ثم صار ما يُصنع منه على هذا المنوال موازيًا لمائتي ألف طن، منها خمسون ألفًا ترسل إلى الخارج، وهذا القدر هو ما كنا نفتقر إلى جلبه سابقًا من البلاد الأجنبية، وقد صنع منه في سنة واحدة من هذه السنين المتأخرة في معمل بوالس أكثر مما كان يصنع منه قديمًا في جميع المملكة بضعفين، فَأَعْظِمْ به من اختراع يعد من أعظم الأسباب الموجبة لثروة هذه البلاد ولاستقلالهم بأعمالهم؛ إذ لولاه لم يتأتَّ إنشاء سكك الحديد والبواخر وغيرها، ولا يخفى ما في ذلك من المنافع، فهو لنا بمنزلة إبرة المغنطيس لكشف الدنيا الجديدة، فما أجدر مخترعه بأن يحسب ندًّا لواط، وما أخلق بلادنا بأن تظهر كونها ممنونة له على ممر الأيام.» إلى أن قال: «ومع أنه أنفق في هذا العمل الجليل عشرين ألف ليرة، ومهد لبلادنا طريقة فاقت بها على جميع الممالك، لم تجازه على ذلك بل عاملته بالكنود، على أنه تحقق وثبت أن ما أكسبها من فوائد هذا الاختراع يبلغ ستمائة مليون ليرة، وأفاد أيضًا مؤنة ستمائة ألف من الصناع.» ا.هـ.

وقد كان الرومانيون في الزمن القديم يصحفون قعور سفنهم بالرصاص، وكان ثمنه إذ ذاك أغلى مما هو الآن بأربعة وعشرين ضعفًا، ويقال: إن أحسن صبغ للشعر هو ما يتخذ من الرصاص، لكنه في نفس الأمر سم.

أما فحم الحجر فإن أهل بريتانيا الأقدمين كانوا يستعملونه، وإن لم يذكر ذلك الرومانيون فيما ذكروا من أحوال هذه الجزيرة، وأول كشفه كان في نيوكاستل سنة ١٢٨٤ وزعم بعضٌ أنه قبل هذا التاريخ.

وكان قد منع أولًا من استعماله بدعوى أنه مضر بالصحة، حتى إن الحدادين كانوا لا يوقدون إلا الحطب، وفي سنة ١٣٨١ اتخذ كأنه صنف من أصناف التجارة، فصارت الناس تجلبه من المحل المذكور إلى لندرة، ثم عم استعماله فيها وذلك في حدود سنة ١٤٠٠، فأما في جميع إنكلترة فلم يعم قبل سنة ١٦٢٥، ويوجد منه معدن في نورثمبرلاند في سهل فسيح، امتداده ٧٢٣ ميلًا مربعًا، وقريب منه سائر الأماكن، والموجود منه في والس فقط يكفي إنكلترة على المعدل الذي ينفق منه الآن ألفي سنة.

والمنصرف منه في بريتانيا في كل سنة ٢٥٠٠٠٠٠٠ طن، وفي سنة ٥٧ وصل إلى مرسى لندرة نحو ١٥٠٠ سفينة مشحونة بالفحم، وبلغت كمية ما ورد إليها منه بحرًا وبرًّا ٤٣٦٨٧٠٨ أطنان، والمستخرج منه من درهام ومن نورثمبرلاند يبلغ في السنة ١٤٠٠٠٠٠٠ طن يصرف منها في لوازم لندرة ٦٠٠٠٠٠٠، وفي لوازم البلاد الخارجية ٢٥٠٠٠٠٠، وقدر ذلك لأجل الغاز، والباقي في مهمات أخرى.

وقال آخر يوجد في إنكلترة وإرلاند ٤٠٠٠ ميل مربع تحتوي على معادن فحم لم تكشف بعد، ومسافة جريب واحد سمكه ثلاثة أقدام يوازي ما يخرج من فحم ١٩٤٠ جريبًا من الأجم والغِياض، ومعادن الفحم المفتوحة الآن في دربي تبلغ ٢٤٠ معدنًا يعمل فيها ٢٠٠٠٠ نفس، ومعادن يورك شير تبلغ ٣٤٣ معدنًا، ويوجد أيضًا في سكوتلاند معادن كثيرة منها محفور ومنها غير محفور.

وقيل: إن أصل استخراج الفحم كان في بلجيك في سنة ١١٩٨، ثم عرف في إنكلترة، والذي يخرج منها يبلغ خمسة أضعاف أكثر مما يخرج من غيرها من أي أرض كانت، وما يحصل من مسافة ١٢٧٥ كيلومتر مربعًا من بلجيك يبلغ ٥٠٠٠٠٠٠ طن، وما يحصل من مسافة ٢٥٠٠ من القياس المذكور في فرنسا لا يزيد على ٤٦٠٠٠٠٠ طن، وكان المنصرف من الفحم في فرنسا في سنة ١٧٨٠ «٤٠٠٠٠٠» طن، وفي سنة ١٨٤٥ «٦٠٠٠٠٠٠».[٤]

[٤] وفي سنة ١٨٧٨ بلغ مقدار الفحم الحجري الذي استخرج في فرنسا ١٧٠٩٦٥٢٠ طن.

أما القصدير فوجوده في بلاد الإنكليز من قديم الزمان، وأول من اتجر فيه معهم أهل فينيقية؛ لأنهم هم أول من عرف خاصية إبرة المغنطيس، ومن قبل أن غزا القيصر يوليوس هذه الجزيرة كان الرومانيون واليونانيون يسمعون بوجود جزيرة جهة الشمال توجد فيها معادن هذا الصنف، وكانوا يسمونها «كستيريدس»؛ أي جزيرة القصدير، وبقيت هذه التجارة مقصورة على الفينيقيين أحقابًا عديدة، وكان اليونانيون كثيرًا ما يبعثون إليهم جواسيس ليتعرفوا أي بَرٍّ ينزلون فلم يقدروا، والذي يبعث من هذا الصنف إلى البلاد الخارجية يبلغ في السنة ألفًا وخمسمائة طن غير مصنوع، وثمن المصنوع والصفائح منه ٤٠٠٠٠٠ ليرة.[٥]

(١٣-٢٢) إبرة المغنطيس

أما استعمال إبرة المغنطيس في هداية السفن فلا يعلم بالتحقيق في أي عصر ابتدأ، وإنما يعلم أن خاصية ما في جذب الحديد والفولاذ كانت معروفة لقدماء اليونانيين، وأن استعماله في السفر كان معروفًا لأهل الصين من عهد بعيد، فإنهم كانوا يهتدون به في أسفارهم إلى يابان والهند وجزيرة العرب، ولا يبعد أن اشتهاره في أوروبا كان كاشتهار صناعة الطب في كونه أخذ عن العرب؛ إذ لم يعرف شأنه فيها إلا بعد أن فتح المسلمون غوثا بإسبانيا، إلا أن العلم به لم يكن تامًّا، ويحتمل أن العرب أخذته عن أهل الصين، ويقال: إن علم هؤلاء به في أرجح الظن كان سنة ٢٦٣٤ قبل الميلاد، وهنا محل للبحث إلا أن اليسوعيين الذين جعلوا دأبهم التنقير عن علوم أولئك القوم وعن عادياتهم، وكذا كلابروت النمساوي العالم البارع، ومستر دافس، كلهم حكوا ما يدل على استعمال أهل الصين هذا الحجر في ذلك التاريخ.

ثم لما كانت الإفرنج تسافر إلى بلاد المسلمين مدة الحرب الصليبية كانوا يذكرون وجود هذا السر الغريب في تلك البلاد، وكان من جملتهم الكردينال فتري وفنسنت دوبوفاي، قيل: وكانت العرب تهتدي به في البر، ولم تشهر معرفة استعماله في أوروبا إلا في سنة ١٢٦٩، فأما الانتفاع به فلم يشهر إلا في القرن الرابع عشر، وأول من أجرى ذلك رجل من نابولي اسمه فيلافيوجبوجا، وقال آخر: إن حجر المغنطيس لم يشهد ذكره

[٥] وفي سنة ١٧٨٩ بلغت قيمة القصدير المصنوع الذي أرسل من إنكلترة إلى الخارج ٣٥٠٠٠٠٠ ليرة.

في كتب الإنكليز قبل أيام إدورد الثالث، وكان يسمى حجر السفر، وأول سفينة سارت بهدايته كان في سنة ١٣٣٨، أما رسم النقط فلم يعلم مخترعه، وزعم الفرنسيس أنه من مخترعاتهم، وأن رسم النقط الأربع الأصلية إنما هو رسم عما يقال له: «فلور دولي»؛ أي زهر السوسن.

ولكن هنا بحث فإن زهر السوسن إنما رسم عما يسمى بالعربية موسالا — لعلها مسلة — وكانت العرب تتخذها لدلالة الإبرة.

(١٣–٢٣) اختراع الكومباس

فأما اختراع أداة الإبرة المسماة عند الإفرنج بالكومباس، فإنه كان من رجل من فينيسيا يقال له: مركوس باولوس، وذلك في سنة ١٢٦٠، وبعضهم عزاه إلى فيلافيوجيوجيا المذكور، وزعم آخرون أنه كان معروفًا في الصين في سنة ١١١٥ قبل الميلاد، وكأن ذلك سهو، نعم إنه كان عندهم آلة تتحرك بنفسها مصوبة إلى الجنوب لهداية المسافرين برًّا وبحرًا فظنها الناس الآلة المعروفة، قال: وقد ثبت أن المذكور هو الذي استنبط تعليق هذه الإبرة كما نراها الآن، وذلك سنة ١٣٠٢، فأما وضع الصندوق لها وكيفية تركيبها به فمن اختراع أحد قسيسي الإنكليز ويقال له: وليم بارلو وذلك سنة ١٦٠٨.

ولنختم كلامنا على المعادن بذكر الألماس فنقول: إنه وجد في معدن هذا الجوهر ببرازيل حجر زنته ١٦٨٠ قيراطًا، وأرسل إلى ديوان البورتوغال فَقُوِّمَ بمائتين وأربعة وعشرين مليونًا «من الريالات»، وقَوَّمه بعضهم بستين مليونًا لا غير، وزنة حجر الألماس الذي عند قيصر الروسية ١٩٣ قيراطًا، واشترى ملك فرنسا حجرًا كانت زنته ١٠٦ قراريط، وفي سنة ١٨٥٠ جلب الإنكليز حجرًا من الهند زنته ٨٠٠ قيراط، إلا أنه لجهل الرجل الذي قطعه نقص حتى جاء ٢٧٩ قيراطًا وقدره كالبيضة، وقيمته مليونا ليرة، وفي هذه الأيام الأخيرة جلب حجر من برازيل زنته ٢٥٤ قيراطًا، يذهب نصفه في القطع.

(١٣–٢٤) سكك الحديد في بلاد الإنكليز

أما مصلحة سكك الحديد في بلاد الإنكليز فهي أعظم المصالح التي شغلت منهم خواطر الأغنياء والمستربحين والمستنبطين، فإن مجموع رأس المال الذي وضع فيها يبلغ مائة مليون ليرة، ومجموع رأس المال الذي وضع في أشغال القطن أربعون مليونًا، والذي في

أشغال الصوف ثمانية عشر، والذي في الحديد أحد وعشرون، والذي في الحرير ستة عشر مليونًا، ومجموع رأس المال الذي وضع في أشغال الحديد في بلاد الدول المتحدة ثلاثون مليونًا.

ويحكى عن رجل من الإنكليز أنه كان في أول أمره بَزَّازًا خاملًا، فتعاطى أشغال هذه السكك فحصل له توفيق فيها ونجاح، وما زال يزيد نجاحًا حتى استغنى غنى لم يذكر مثله في التواريخ قط، فيقال: إنه صار يتولى أشغال خمسين ألفًا من الصناع يعملون تحت يده، قلت: والذي فاق في شهرة الغنى في التواريخ القديمة رجل من أهل رومية يقال له: كاسيليوس أزيدوروس، قيل: إنه ترك عند موته ٤١١٦ عبدًا و٣٦٠٠ ثور، و٢٠٠٠٠٠ ألف رأس من البهائم، وثلاثة ملايين ليرة، وحيث تسمع بأن رجلًا بمفرده غني جدًّا، فاحكم على كثيرين بأنهم فقراء جدًّا.

ثم إنه لما نَشَّم بعض المحترفين من الإنكليز في إنشاء سكك الحديد، ولهج بها المتكسبون، لم يكن أحد يصدق أنها تصل إلى ما وصلت إليه، بل كان كثير يستخفون بها ويسخرون ممن وجه همه إليها، فقد كتب في بعض صحف الأخبار منذ عشرين سنة ما نصه: «أما هؤلاء المصطرفون الذين يخيل لهم أن ينشئوا سكك الحديد في جميع جهات المملكة حتى يستغنى بها عن السفن والعجلات والعواجل والمحامل وغيرها مما يركب الناس فيه برًّا وبحرًا، فإنا ننزلهم — وتصوراتهم هذه التي هي أضغاث أحلام — منزلة من هو غير جدير بأن يشغل به الخاطر.»

وأول سكة أنشئت في البلاد المذكورة كانت في نيوكاستل وذلك في أوائل القرن السابع عشر، ولكن كانت قضبانها من خشب، وكان المقصود منها إنما هو نقل الفحم عليها من المرفأ، ثم أنشئت سكة أخرى في ويت هافن وذلك في سنة ١٧٣٨، وأعظم سكة أنشئت بعدها كانت في كلبروك دال في سنة ١٧٨٦، ثم كان أعظم السكك وأطولها سكة ليفربول ومنشستر بدئ بها سنة ١٨٢٦، وفتحت في سنة ١٨٣٠، ومن ذلك الحين شرعت جماعات كثيرة في إنشاء سكك متعددة في إنكلترة وفرنسا وبلجيك وغيرها، وفي سنة ١٨٢٤ كان الرَّتَل المسمى بالناقل يسير في الساعة ستة أميال، وفي سنة ٢٩ كان صنف آخر يسمى «الشاروخ» يسافر خمسة عشر ميلًا، وفي سنة ٣٤ كان صنف يسمى «طيار النار» يسير عشرين ميلًا، وفي سنة ٣٩ سار صنف يسمى: «نجم الشمال» سبعة وثلاثين ميلًا.

والآن فإن الناقل يسير سبعين ميلًا، وكان في مبدئها ينفق عليها من الفحم أكثر مما ينفق الآن بخمسة أضعاف، وقس على ذلك سائر المصاريف، وقد عُلِمَ من خلاصة مجلس

الشورى المنوط به إقرار هذه المصلحة، أن الحصص الأصلية وما يلحقها من الاستقراض الخاص بجماعات سكك الحديد الكائنة في بريتانيا بلغت ثلاثمائة وستة وثلاثين مليونًا من الليرة، وبلغ عدد المسافرين في المملكة المذكورة في بعض السنين ٥٣٦٧٤٠٤ تحصل منهم، ومما أخذ أيضًا على البهائم والرسائل ٥٤٢٤٦٠٥ ليرات، وعدد مجموع سكك الحديد فيها بلغ مائتين واثنتين وعشرين سكة تجري أسلاك التلغراف في ثلثيها.

وفي سنة ١٨٥٠ تحصل من إيراد هذه السكك في جميع أوروبا ٢٣٣٠٠٠٠٠ ليرة، وكان نصف ذلك من إيراد سكك بريتانيا، وهذا جدول أطوال السكك المعروفة في الدنيا:

	ميل
في بريتانيا	٧٨٠٣ إلى سنة ٥٤
في أمريكا	٣٨٠٠ إلى غاية سنة ٤٨
في جرمانيا	١٥٧٠ إلى غاية سنة ٤٨
في هولاند	٢٠٠ إلى غاية سنة ٤٨
في بلجيك	١٠٩٥ إلى غاية سنة ٤٨
في فرنسا	٢٢٠٠ إلى غاية سنة ٤٨
في إيطاليا	١١٥ إلى غاية سنة ٤٨
في الدنيمرك	١٠٦ إلى غاية سنة ٤٨
في كوبا	٨٠٠ إلى غاية سنة ٤٨
في الروسية	٥٢ إلى غاية سنة ٤٨
في هند الشرق	٥٠٠ إلى غاية سنة ٤٨
في مستعمرات الإنكليز	١٠٠٠ إلى غاية سنة ٤٨

والميل عبارة عن ١٨٦٠ يارد، واليارد عبارة عن نحو ذراع ونصف.[٦] وفي سنة ٥٦ امتدت سكك الحديد في بريتانيا إلى ٨٠٥٤ ميلًا أنفق فيها ٢٨٦٠٠٠٠٠ ليرة: ومنها

[٦] منذ تأليف هذا الكتاب ازدادت السكك الحديد في أوروبا ازديادًا عظيمًا، ففي إنكلترة وحدها بلغ طولها لغاية سنة ١٨٨٠ مسافة ١٨٠٠٠ ميل كلفت ٧١٧٠٠٣٤٦٩ ليرة، وحملت من الركاب في ظرف سنة واحدة نحو ٦٠٠٠٠٠٠٠ نفس، وفي أميريكا بلغ طول السكك المذكورة ٨١٧٢٥ ميلًا، وفي إيطاليا

أكثر من خمسين ميلًا في صخور منقورة، ومساحة تلك الأميال ٥٥٠ ياردًا مكعبًا، ويوجد لهذه السكك خمسة آلاف مزجية، وهي الآلة التي يقال لها «إنجن»، وفي كل سنة تسير الأرتال ثمانين مليون ميل، ومصروف المزجيات من الفحم في كل سنة مليونا طن، وفي خدمة الجمعيات القائمة بهذه المصلحة تسعون ألفًا ما بين رئيس ومرءوس، وفي سنة ٥٤ كان عدد من سافر في هذه السكك أحد عشر مليونًا، واستفيد منهم أكثر من عشرين مليون ليرة، وهو نحو ثلث إيراد الدولة.

والمصروف من الحديد على تبديل القضبان والأدوات في كل سنة عشرون ألف طن، ويقطع أيضًا للوازمها نحو ثلاثمائة ألف شجرة، وكل رتل يحمل في مجمل الحساب مائتي شخص، وبلغ ما أعطي لأصحاب الأرض تعويضًا لهم عما أُخذ من أملاكهم نحو سبعين مليون ليرة، وأسلاك التلغراف ممتدة ٧٢٠٠ ميل، ويلزم لها من سلك الحديد ما طوله ٣٦٠٠٠ ميل، وعدد المستخدمين في التلغراف ثلاثة آلاف وكل واحد من خمسين من أهل إنكلترة يتوقف معاشه وقوام أمره على هذه السكك.

وقال آخر: بلغ الحاصل من إيراد سكك الحديد في بريتانيا في سنة ٥٧ ثلاثة عشر مليونًا، وذلك بحساب فائدة ٤ في المائة.

وقال آخر: كان في أواسط سنة ٦٠ «١٢٧٤٥٠» رجلًا مستخدمًا في سكك الحديد في جميع المملكة والمشروع فيها الآن يستخدم فيه ٥٣٩٢٣ فتكون الجملة ١٨١٣٧٣ وعدة المواقف ٣٦٠١.

ثم رأيت بعد ذلك في بعض صحف الأخبار أن طول سكك الحديد في مملكة بروسية بلغ في سنة ٥٩ «٣١٦٢» ميلًا، وأن رأس المال الذي عين لذلك ٤٤٠٨٠٠٠٠ ليرة، فيكون ١٣٩٤٠ ليرة على كل ميل، وبلغ عدد المسافرين في السنة المذكورة — ما عدا العسكر — ١٩٢٧٩٦٦٨، ومقدار البضائع التي نقلت فيها ١١٩٠٤٧٦١٠١٢ طنًّا، ومقدار ما تحصل منها ٥٣٩٩٤٤٠ ليرة، أعني ١٧٠٧ ليرات من كل ميل، هذا ما تيسر لي نقله من الكتب ومن صحف الأخبار.

وأقول إني سمعت من غير واحد أن أعظم سكة في إنكلترة هي التي يسافر بها من لندرة إلى برستول، أنفق في إنشائها نحو ستة ملايين ليرة، وإيرادها في كل شهر مائة

٥٠٩٨، وفي جرمانيا ١٩٧٧٣، وفي فرنسا ١٣٨٧١ بلغ إيرادها في السنة المذكورة ٣٦٢٣٥٤٠٨ ليرات إنكليزية، وقس على ذلك ازدياد السكك في بقية ممالك أوروبا.

وخمسون ألف ليرة، ثم إن الرَّتَل الذي يقف في عدة مواضع يسير في الساعة نحو عشرين ميلًا، فأما الرَّتَل المخصوص فإنه يسير أكثر من خمسين، وهو يمر كالبرق الخاطف، فإذا نظرت إليه هَالَكَ أمره، وربما وقفت له الأرتال البطيئة خشية المصادمة.

والمحسوب أن الجُعْل على كل ميل في المحل الأول قرش ونصف، وفي الثاني قرش، وفي الثالث نصف قرش، ومما مر تعلم أن منشئي هذه السكك جماعات يخرجون مالًا من ملكهم ويشتركون فيها دخلًا وخرجًا، فإذا أراد أحد منهم أن يبيع حصته فيها اشتراها آخر، ولباس المستخدمين فيها كلباس الشرطة بل أحسن، وفي طول السكة يقيمون رجالًا يتعهدون القضبان ويحافظون على تنظيف الطرق، فقد يتفق أن بعض الأعداء يكسر قضيبًا منها، فيكون في ذلك هلاك نفوس شتى.

ومما ينبغي أن يلاحظ هنا أن الأرتال الفرنساوية أقل عرضة للمصادمة والخطر من الأرتال الإنكليزية، فكل يوم تسمع في بلاد الإنكليز عن عَطَبٍ عرض لأحد الأرتال، ولهذا كانت الشيوخ والعجائز عندهم يأنفون من السفر فيها، ويؤثرون السفر في بعض مراكب البر على قديم عادتهم، وسبب كثرة هذه الأخطار عندي هو أن مديري المزجيات كغيرهم من أبناء جنسهم في الانهماك في شرب المسكرات، فيشربون وهم مباشرو الآلة حتى يعزب عنهم الرشد والصواب.

ففي سنة ٥٦ هلك في هذه السكك في بريتانيا مائتان وواحد وثمانون نفسًا وأصيب نحو أربعمائة، وذلك ما بين مجروح وأرب، وقس على ذلك خطر السفن، فقد تلف لهم في السنة المذكورة على سواحل المملكة فقط ألف وتسعمائة وتسع وخمسون سفينة، والمعلوم من مجمل الحساب أنه يفقد لهم في كل شهر مائتا سفينة، ومع ذلك فهم أغنى الناس جميعًا فتعجب.

(١٣–٢٥) أرتال الإنكليز والفرنسيين

وألاحظ أيضًا أن الإنكليز إذا عملوا شيئًا فإنما يراعون فيه وجه الكسب والمصلحة فقط، والفرنساوية يضيفون إلى ذلك راحة المسافرين ورونق المحل والتفاخر، فإن المحل الثاني في أرتال الإنكليز لا يشتمل إلا على مقاعد من خشب، إذا قعد عليها الإنسان بضع ساعات أَلِمَ غاية الألم، فأما عند الفرنساوية فإنها تكون شبه الأريكة، يقعد عليها المسافر ما قعد ولا يمل، وقس على ذلك البواخر، ومواقف الأرتال في فرنسا أحسن منها في إنكلترة غالبًا وأبهج، وفي بعضها مطاعم عظيمة يجد الإنسان فيها كل ما يشتهي، بخلاف مواقف

الإنكليز؛ فإن ما في مطاعمها كريه، ولا سيما القهوة؛ فإنها عبارة عن حسا القطاني؛ ولهذا كان أكثر المسافرين من الإنكليز يتزودون من بيوتهم ما يلزم لهم مدة السفر، ويأكلون وهم قاعدون في العواجل، وقَلَّ منهم من يتغدى في المطاعم، وما أرى الحق إلا معهم، فإن تلك المطاعم فضلًا عن غلائها ربما أورثت الآكل هَيْضَة تمنعه عن السفر.

(١٣-٢٦) محل للمفقودات

وفي كل من هذه المواقف يكون محل للحاجات التي ربما ينساها المسافرون هناك لسبب العجلة أو الذهول، فتبقى هناك محفوظة حتى إذا علم صاحبها ردت عليه في الحال، وإلا أبقيت فيه سنتين، ثم تباع ويوزع ثمنها على خدمة الموقف، ولا سيما الذين أصيبوا منهم في أبدانهم، واتفق مرة لرجل أن نسي كَوَاغِدَ مالية بمائة وخمسين ليرة، فلما عرف اسمه ردت عليه، واتفق لي أيضًا أني كنت نسيت خُرْجًا في كالي، ولما استقر بي المقام في القرية تفقدته، وعلمت بأنه بقي هناك، فكتبت إلى مدير الموقف فيها، فلم يلبث أن أرسله إليَّ.

ويحسن هنا أن نذكر ما يناسب المقام مما أورده البخاري في باب اللُّقَطة من صحيحه قال: حدثني محمد بن بشَّار حدثنا غُنْدَرٌ حدثنا شُعْبَةُ عن سَلَمَةَ قال: سمعت سُوَيْدَ بن غفلة قال: لقيت أُبَيَّ بن كَعْبٍ — رضي الله عنه — فقال: «أخذت صرة فيها مائة دينار فأتيت النبي ﷺ فقال: عرفها حولًا، فعرفتها فلم أجد من يعرفها، ثم أتيته، فقال: عرفها حولًا، فعرفتها، فلم أجد من يعرفها، ثم أتيته ثلاثًا، فقال: احفظ وعاءها وعددها ووكاءها فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها.» ويُروى «استمتع بها» بحذف الفاء، قال ابن مالك في التوضيح فيه: «حذف جواب إن الأولى، وحذف شرط إن الثانية، وحذف الفاء من جوابها، فإن الأصل «فإن جاء صاحبها أخذها، وإن لم يجئ فاستمتع بها»، والتعريف: ذكر اللقطة والضالة وطلب من يعرفها.» انتهى ملخصًا من شرح شواهد التحفة الوردية للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادي، فيكون مديرو المواقف على هذا آخذين بهذا الحكم إلا أن في الأمر بتعريف الضالة من الفضل ما فاتهم.

(١٣-٢٧) خلق الإنكليز وصفاتهم

أما خَلْق الإنكليز فالغالب على الرجال الشقرة وتوسط القامة مع الضلاعة والقوة وشدة العصب وزرقة العيون وصغر الأنوف، والظاهر أن الشقرة لا تتوقف على البرد وحده، وإنما أخص أسبابها الدم، فإن أهل جبل لبنان ليس لهم صفاء هذا اللون الذي يرى في هذا الجيل، والغالب في عليتهم امتداد القامة والرشاقة، ثم إن الحسن هنا في الرجال منقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: في العسكر، فإنهم ينتخبون ممن حسن وجهًا واعتدل قدًّا، ويلحق بهم الشرطة. الثاني: في خدام الكبراء والأمراء، فإن السيدات يتنافسن في الغساني ولا يتناولن شيئًا إلا من يد مليح، وإن يكن الشيء المتناول قبيحًا. الثالث: في الكتاب الذين تستخدمهم التجار المثرون وأصحاب المحترفات والمثابات الحافلة؛ حيث يكثر تردد الخواتين للشراء وغيره، فإن ذلك أدعى إلى حملهن على الإسراف.

وما عدا هذه الأنواع الثلاثة فَقَلَّ أن تبصر مليحًا، فأما في باريس فلم ألحظ ذلك إلا في دكاكين اللحامين؛ حيث تنتاب الخوادم الشابات لشراء اللحم، والذي يظهر لي في الجملة أن رجال الفرنسيس أجمل من نسائهم ومن رجال الإنكليز، وأن نساء هؤلاء أجمل من رجالهم ومن نساء أولئك، ومن العجب أن الإنكليز قد يبلغ أحدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا في رأسه ولا في عارضه، وإنما يغلب عليهم في هذه السن الدرم والدرد، أعني: سقوط الأسنان، وعندي أن أعظم أسباب الشيب في الأصل هو الهم والخوف من ظلم الولاة وذي الإمرة، فإن أحد الإنكليز إذا كان يملك مثلًا مليون ليرة لم يخشَ أن أميره بل ملكه ينفس عليه بذلك، لا بل يتباهى به ما شاء لاعتقاده أن غناه وغنى أمثاله موجب لغنى الدولة وشرفها، ولا يخشى أيضًا أن يتطاول عليه في حقوقه أحد ممن هو أعلى منه فإن الجميع في الحقوق متساوون، وأن القاضي والجرنال عتيدان لكل من الغني والصعلوك والنبيه والخامل، وحسبك أن بعض باعة الشراب أقام دعوى على دوك كمبريج ابن عم الملكة، فما وسعه إلا الحضور بين يدي القاضي.

ثم الغالب عليهم أيضًا الكلوح والعبوس، ولا سيما أهل القرى، وإن يكن جوهم أصفى من جو أهل المدن؛ وذلك لأن في المدن كثيرًا من الملاهي والملاعب ومن العازفين بآلات الطرب، فمتى سمعت الأم الموسيقى أخذت طفلها ورقصته عليها أو غنت له، فيدرب بذلك فيغرس فيه حب الطرب والخفة والبشاشة، فأما البلاد الخالية من ذلك فلا بد وأن ترى وجوه أهلها عابسة باسرة وطباعهم بليدة.

(١٣–٢٨) نساء الإنكليز

أما نساء الإنكليز فلونهن البياض المشرب بحمرة، وعيونهن شهل أو زرق في الغالب، وشعرهن أسود غالبًا وإن اشتهر خلافه إلا في حواجبهن فَقَلَّ أن تكون حالكة، وأسنانهن أحسن مما يظن في أمثالهن ممن رُبِّي في البلاد الباردة، وقد زين بسطاطا القوام، والذلف أي: صغر الأنف، والبلج وامتلاء الساعدين ولطف اليدين ومشق الأصابع، وبالعنق ورقة الشفتين وإسالة الخد، وشعر أهدابهن وحواجبهن لا كثير ولا قليل، ولا مزية لهن في الصلوتة على غيرهن، وهي أحسن نساء الإفرنج قاطبة صفاء لون ونعومة بشرة وأعضادًا وترائب وأعناقًا، وقد ذاكرت كثيرًا ممن رآهن ورأى غيرهن فكلهم فضلهن، إلا أنهن جد وطويلات الأقدام في الغالب، وغير سود الأجفان وأحداقهن غير مركبة فوق زئبق كما قال أبو الطيب وسبب الأول عندي تعرضهن للبرد في الصغر فإن ترائبهن لا تزال مكشوفة.

وفي الجملة فلم أرَ شيئًا يصدق على نساء هذه البلاد أكثر من قول صاحب القاموس: الشوهاء الجميلة والعابسة ضد، ولكن في جعل ذلك من الأضداد نظر. وجميع الإنكليز يعجبون بحسن الأسنان وهو أول ما يذكرون من الصفات المستحبة ويشبهونها بالدر كما نشبهها نحن، ويعجبني قول ابن النبيه فيها:

وما كنت أدري قبل لؤلؤ ثغرها بأن نفيسات اللآلئ صغارها

وقد كرر هذا المعنى بقوله:

ولم أرَ قبل مبسمه صغير الجوهر المثمن

إلا أنهم لا يخصون الفلج بالاستحسان ولا يشبهون العيون بالسيوف بل بالألماس ولا الجيد بجيد الغزال، وإنما يصفونه بالبياض وربما شبهوه بالمرمر، ولا يشبهون الثدي بشيء وإنما يصفونه بالامتلاء والاستدارة، ولا يتغزلون بالخال على أن النساء يضعن أمثاله أحيانًا، ولا بالهزمة في الخد وإنما يستحسنون النونة في الذقن، ولا يشبهون المرأة بالشمس ولا بالقمر بل بالنجم، وعندي أن أشوق شيء في الوجه الفم والعينان لكونهما يتحركان فيحركان الوجد، ولا أرى الحق مع من قال أحب منها الأنف والعينانا، بل الحق ما قاله الآخر: يا ليت عيناها لنا وفاها، ولعل الرواة حرفوا المصراع الأول أو لعل الراجز حكى واقعة الخال، ثم إن النساء في بلاد الإنكليز هن اللواتي يباشرن خدمة الديار غالبًا

أما الرجال فلا يكونون في خدمة إلا عند الكبراء، وكثيرًا ما ترى جارية حسناء زاهرة تامة الأوصاف تخدم سيدة من السَّعَالي، وإذا طرقت الباب وخرجت الجارية لتفتحه حسبتها هي المخدومة وأدهشك جمال وجهها عن وجه سؤالها.

ولنساء القرى خصلة ذميمة وهي أنهن يشرقن بِنُخَامَتهن، وهذه تقابل خصلة نساء فرنسا في لحسهن أصابعهن بعد أكل الحلواء ونحوها، ويقابلها من خصال أهل المشرق التجشؤ وهو حباق المعدة، غير أن خصلة الفرنساويات أقل أذى؛ لأنها لا تكون إلا عقب الأكل ومدتها لا تطول، وجمع النساء اللاتي استخدمناهن كن يلمسن شعورهن ووجوههن وأيديهن وسخة، ويغسلن وجوههن وأعناقهن ويمسحنها بالخرق التي يمسحن بها آنية المطبخ.

والخصلة الأولى رأيتها في لندرة أيضًا، وقد سمعت أن نساء فرنسا المتظرفات لا يغسلن وجوههن بالصابون مخافة أن تَمْجُل بشرتهن، وإنما يغسلن بماء النخالة مع أن صابون فرنسا أحسن من صابون الإنكليز، ويقال: إن أهل فرنسا الأقدمين — وكان يقال لهم الغال — هم أول من عملوا الصابون في أوروبا، وكان الناس من قبل ذلك يغسلون ثيابهم بالماء فقط إما بأن يدعكوها بأيديهم أو بأرجلهم، ولم يعمل في لندرة قبل سنة ١٥٢٤، والمحسوب أن كل واحد من أهل بريتانيا يلزم له سبعة أرطال من الصابون في كل سنة، فعلى هذا يكون اللازم منه لأهل لندرة وحدهم تسعمائة طن، وجميع الإفرنج لا يغسلون أيديهم بعد الطعام غير أن الكبراء منهم يغمسون أصابعهم في صحاف يؤتى بها أمامهم على المائدة ثم ينشفونها من دون صابون، وربما تمضمضوا وألقوا فيها الماء من أفواههم بحضرة الضيوف، وكذلك تفعل النساء وهو عندي أقبح من عدم الغسل.

ومما يكره في نساء الإفرنج تربية أظافرهن حتى تأخذ حدها في الطول، وترك شعورهن في القفا منفشة مشعثة فمتى نزعت إحداهن غطاء رأسها رأيت شعرها كشعر المقشعر، وإن إحداهن تلعب بجرو كلب بحضرة الناس وربما نزا عليها ولحس ترائبها ووجهها.

ونساء الأكابر يستصحبن كلابهن في العواجل، وعندهن صنف من الكلاب يقعدنه في أحضانهن ويسمى كلب الحضن، وإني أحمد من نساء الإفرنج عمومًا، ومن نساء الإنكليز خصوصًا أنهن لا يستعملن الصبغ ولا التزجيج،[٧] فكما خلقهن الله يبدون، ولا

[٧] التزجيج: تنحيف الحواجب.

يتباهين بكثرة الحلي والجواهر، فغاية تصنعهن إنما هو في تصفيف شعورهن وتغيير ملابسهن بحسب الزي المستعمل.

فأما نساء الفرنسيس فإنهن أكثر زهوًا وعجبًا من جميع نساء الإفرنج، وقد كانت النساء هنا يرسلن على طلاهن سوالف مجعدة، تفعل ذلك منهن الطويلة الشعر عجبًا به، فصرن الآن يسوينه منسرحًا على أَقْوَادهن اقتداء بالملكة إلا ما ندر، ومثل هذه العادة في القلة عادة المرافد، وللنساء على الرجال مزيتان؛ علوية صيفية، وسفلية شتائية، فالأولى: اتخاذهن الظلل وقاية لهن من الشمس، أو لبرانيطهن خشية أن تتصل ألوانها، وهي في الواقع عبارة عن ظلل، والثانية: اتخاذهن القباقيب ذات الشُّسُوع في الشتاء، فتراهن يخضن بها الوحول والثلوج، وهي مصلصلة تحت أحذيتهن، وغطاء رءوسهن البرنيطة، وذلك مطرد في جميع البلاد بخلاف نساء فرنسا، فإن لكل نساء إقليم فيها غطاء مخصوصًا، وأكثر ما يهمهن من اللباس الجوارب والأحذية، فأما الثياب فالغالب أنها من الشيت، ومع ذلك فإذا كان للمرأة أربعة قفاطين منه فهي الحظية.

والحق يقال: إن نساء الإنكليز على غاية ما يكون من التقشف والقناعة، فإن أقل شيء من الملبوس يرضيهن، ومن المطاعم يكفيهن، ولا يستعملن الدخان ولا النشوق كبعض نساء الفرنسيس، ولا هن مثلهن أيضًا في كونهن ينكرن مزية الرجال على النساء، فمهما تكن المرأة شريفة من الإنكليز تعترف بأن الله تعالى خلق الرجال قوامين عليهن، وإذا أهديت إحداهن منديلًا أو حذاء أو نحو ذلك استعظمت الهدية، وبالغت في وصف محاسنها، وكررت الثناء عليك حتى تتوهم أنك صرت رابعًا لحاتم طي وهرم بن سنان وكعب بن أمامة، فأما إذا نظرن شيئًا من الجواهر النفيسة سواء أتحفن به أو لا فيا للعجب ويا لمنتهى الأرب، واستعظام الهدية — ولو قلَّت — صفة عامة لعليتهم وسفلتهم، فقد كانت سيدة ما تكرمت علينا بست ثمرات من الخرشف، فلما قابلتها في اليوم الثاني شكرتها على ذلك، فقالت: إني وزوجي أهديناها، فكأنها قالت: إن عليك أن تشكره أيضًا كما شكرتني، والحق يقال: إن ذلك في أكثر الأحوال أولى من سكوت العرب عن نطق كلمة واحدة تفصح عن الشكر.

وقد كنت أرى من النساء العُبْل الحسان ذوات البشر الناعم والغضاضة الرائعة من تنصب حر وجهها لحر الشمس في الصيف بأن تعزق الحقول وتحمل الأحمال الثقيلة، وتحصد وتبذر وتجمع المحصود وتحتطب وما أشبه ذلك، وفي شهر حزيران حين يقطع الحشيش ترى نساء كثيرة يجمعنه، وحين يحصدن الزرع لا يعملن بنص التوراة في

سِفْر الأحبار، فإنهن يحصدن الأرض من تحته، ومع هذا الشقاء فلا تزيد أجرة المرأة في اليوم على نصف شلين، وهو بالنسبة إلى غلاء بلادهم بقيمة قرش عندنا، فكنت أقول في نفسي: ما أرخص الجمال في هذه البلاد، وما أقسى قلوب الرجال الذين يحوجونهن إلى هذا الابتذال، أو لعلهم يريدون صبغ هذا البياض النقي بوَرْس الشمس أو سُحْمَة الضباب.

فلو برزت سواعدهن يومًا	لشاعرنا لأنشد من ذهول
بربات الحقول يحق لي أن	أشبب لا بربات الحجول
ولو برزت ترائبهن ليلًا	لصدر الدولة القَرْم الجليل
لقال: خذوا حظايا الكُرج عني	فدى الصَّلِفَات عند ذوي الخمول

وفي الجملة، فلا شيء أرخص من الجمال في هذه الديار.

هذا؛ ولما كان لون البياض عامًّا في الرجال والنساء في هذه البلاد كانت المرأة السمراء محببة إلى الرجال جدًّا، والرجل الأسمر محببًا أيضًا إلى النساء جدًّا، وهذه الطائفة المعروفة عندهم باسم جبسس وهو صنف من نور بلادنا وغجر مصر لولا دناءتهم لكانت علية الإنكليز تصاهرهم، وذلك لسمرة لونهم وكحل عيونهم، وقد كان الدكطر «لي» متزوجًا من إحدى هؤلاء الجبسيات، رآها مرة فأحبها لسمرتها وأحبته هي لبياضه فوعدها بأن يتزوجها بشرط أن تتهذب في مذهب النصرانية، فأجابته إلى ذلك فتأهل بها.

(١٣–٢٩) النَّوَر في إنكلترة

ومن الغريب أن هذا الجيل يعيش في هذه البلاد عيشة النور في بر الشام سواء؛ إذ ليس لهم مقر معلوم للإقامة، فمرة يسكنون الغياض، ومرة الخِصَاص، وبعضهم يأوي إلى نحو هودج يجره حصان فيجعل فيه رحله وأثاثه وهكذا يطوف في البلاد، وإليهم تنسب سرقة الدجاج والخيل أو في الأقل أذنابها والإنباء عن البخت، ولهم لسان خاص بهم، ويقال لشيخهم ملك إلا أنهم يخالفون تنورنا بكونهم غير مولعين بالطرب والرقص، وما ذلك إلا لكونهم مولودين تحت رقيع الإنكليز الكالح، ولما كان هؤلاء يعنتونهم في السكنى تنصر منهم كثير، فإن قلت: كيف يبصرون البخت والإنكليز لا يعتقدون بهذه الأمور؟

قلت: إن عامة الإنكليز على غاية من الجهل، فعندهم من التفاؤل والتشاؤم ما عند عامة بلادنا كما سنبين ذلك بعد.

وعن بعضهم أن «هولا الجبسس هم إحدى عشائر مصر الذين خلعوا عنهم نير الطاعة للترك حين غزوا بلادهم، حتى إذا فشلوا تفرقوا في الأرض، فكان أول ما ظهروا في جرمانيا، وذلك نحو سنة ١٥١٧، وحيث كان الناس إذ ذاك على جانب عظيم من الوساوس والأضاليل، وظنوا بهم علم بصر البخت، رحبوا بهم في كل مكان، وفي سنة ١٥٦٠ نفوا من فرنسا ومن غيرها أيضًا، إلا أنهم لم يزالوا موجودين في كل مملكة، وفي أيام شارلس الأول قتل ثلاثة عشر شخصًا من الإنكليز لاختلاطهم بهم، وأخرب مأواهم في نورووود وذلك سنة ١٧٩٧، وعوملوا معاملة البطالين التائهين، وقبل سنة ١٨٠٠ كان منهم في إسبانيا أكثر من مائة وعشرين ألفًا، ولم يزل منهم في هذه البلاد جماعات كثيرة، ومع اختلاطهم بغيرهم من الأجيال فإنهم لم يحولوا عن عاداتهم وأطوارهم وسحنهم، فهم أشبه باليهود.» ا.هـ. وقال آخر: «إن أصلهم من الهند، وإنهم يتكلمون بلغة من لغاتها، وإن حقيقة اسمهم زنكان أو جنكان.» انتهى.

ثم إن تحقق الحسن في السمر أو السود في عين الرائي لا يمكن من قريب، فأما البيض فإذا رأيت صفًّا منهم عن بعد توهمتهم كلهم ملاحًا؛ لأن البياض — كما قيل — شطر الحسن.

ويمكن أن يقال إن ذلك بالنسبة إلى ألفة النظر، وروى ابن عساكر عن خالد بن سفيان أنه قال: «عمود الجمال الطول، وبرنسه سواد الشعر، ورداؤه البياض.» قلت: فعلى هذا فقد اجتمع في مؤنث جيل الإنكليز العمود والبرنس والرداء، وقد تمحل بعضهم لأن فضل السود بقوله:

رُبَّ سوداء وهي بيضاء عندي ... فهي مسك إن شئت أو كافور
مثل حب العيون يحسبها النا ... س سوادًا وإنما هي نور

وقال غيره:

يكون الخَالُ في وجه قبيح ... فيكسوه المهابة والجمالا
فكيف يُلام عاشقها على من ... يراها كلها في العين خَالَا؟!

وهذه كلها من مغالطات الشعراء، والحق ما قاله البهاء زهير:

اسمع مقالة صب وكن بحقك عوني
إن المليح مليح يحب في كل لون

وقال آخر:

قالوا: تحب السواد قلت لهم: أحبه في الشعور والحدَق
قالوا: وتَهْوَى البياض قلت لهم: في الوجه والمِعْصَمَيْنِ والعنُق

ثم لا يخفى أنه لما كانت أسباب الفساد في القرى الصغيرة صغيرة لم تكن النساء هنا مائلات إلى الفحش والفسق كما هو شأن المدن الحافلة، ولهذا كان عيش المتزوج في بلاد الفلاحين من هذا القبيل أهنأ من عيش المتمدنين.

(١٣–٣٠) نساء الإنكليز ونساء الفرنسيس

والذي أتحققه أن عيش المتزوجين من الإنكليز في كلا الموضعين وإن لم يكونوا يحتفون بأزواجهم ويكرمونهن أمام الناس كما تفعل الفرنسيس، إلا أنهم أكثر إحصانًا منهم لفروجهم، وأوفر مودة ووفاء لهن في الحضرة والغيبة.

هذا في حق الأزواج، فأما في شأن الرجال والنساء مطلقًا، فإن رجال الفرنسيس أرفق وأحفى، فإن أحدهم ليؤثر راحة المرأة أيًّا كانت على راحة نفسه، فإذا تبوأ مثلًا مقعدًا في سفينة أو رتل، ودخلت امرأة ولم تجد لها محلًّا فاضطرت إلى القيام، قام من موضعه وأجلسها فيه، وكذا لو وقع منها منديل ونحوه بادر حالًا إلى مناولتها إياه، وعندهم كلمة مخصوصة لمثل هذه الأفعال، أما الإنكليز فلا مبالاة لهم بذلك، وكنت كثيرًا ما أرى رجالًا منهم يضغطون النساء والأولاد حتى يسبقونهن إلى موضع يتَبَوَّءُونه، فإذا دخلت النساء ظللن قائمات، وحين يسافرون في الأرتال أو الحوافل يتخيرون أحسن المقاعد، وربما أداروا ظهورهم للنساء غلاظة وسوء أدب.

نعم إن نساء الفرنسيس أكثر تَكَيُّسًا وتظرُّفًا في الظاهر من نساء الإنكليز، إلا أن هؤلاء جديرات بالإكرام من عدة وجوه، وفضلًا عن ذلك فقد يقال: إن زيادة تكيس أولئك أصلها من زيادة الإكرام لهن، وإنما هو جفاء غريزي في طبع الرجال، حتى إن

النساء اعتدن عليه، ولا يرين فيه نكرًا إلا إذا عاشرن الأجانب، وهذا هو ما تعنيه الإنكليز بقولهم: نحن خير من غيرنا بعولة، وغيرنا خير منا عشاقًا.

والفرنساوية يصفون نساء الإنكليز بأنهن عسر؛ أي يعملن بالشمال تعريضًا بكونهن لسن صنعًا كنسائهم، وهذا القول باعتبار صنعتي القلم والإبرة حق، فإن عامة الناس هنا لا يحسن الخياطة ولا التطريز ولا الكتابة، وإذا كتبت إحداهن رسالة شحنتها بالغلط والخطأ، مع أن لغة الإنكليز هينة المأتى بالنسبة إلى غيرها، ولكن هن معذورات في ذلك؛ إذ ليس في القرى مكاتب جيدة ومعلمون ماهرون، وربما اجتزئ عن المكتب بأن يتعلمن في الكنيسة يوم الأحد شيئًا من أصول الدين أو شيئًا من القراءة مما لا يُعبأ به.

وفضلًا عن ذلك فإن الولد متى أدرك وهو تحت حجر والديه لم يستغنيا عنه؛ لأنهما إما أن يستصحباه معهما إلى المزرعة ليعينهما على عملهما، وإما أن يبقى في البيت ليهيئ لهما طعامهما ويحفظ رحلهما وغير ذلك، فإن يكن والحالة هذه لوم على النساء فإنما هو على قاطنات المدن والقرى الجامعة، بل الرجال في هذه الأماكن لا يريدون إقبال نسائهن على القراءة والكتابة مخافة أن يشمخن عليهم كدأب نساء الفرنسيس، وما أحسن هنا ما قيل: «إن المرأة الفاضلة هي التي إذا قرأت خلتها لا تحسن العمل، وإذا عملت خِلْتها لا تحسن القراءة.» وعلم من الإحصائيات الرسمية أنه: «في سنة ١٨٥٥ كان عدد المتزوجين ٣١٥٠٤٧٠، فوجد في كل مائة امرأة أربعون قد وضعن على الطروس علامة الصليب بدل أسمائهن، ومن كل مائة رجل تسعة وعشرون رجلًا على تلك الصفة.» ا.هـ. قلت: والذين يعرفون أن يكتبوا أسماءهم ينبغي إسقاط ثلثيهم من عداد ذوي الدراية؛ فإن أكثرهم لا يحسنون كتب رسالة.

(١٣-٣١) عامة الإنكليز والكتاب المقدس

وهنا ينبغي أن يلاحظ أن عامة الإنكليز يقرءون التوراة والإنجيل بلغتهم، ولكن قَلَّ منهم من يفهمها، وقد جرى مرة ذكر ذلك بحضرة جماعة ادعوا بأنهم لا يفوتهم شيء من فهم الكتاب الأول، وأن سعادة بلادهم وغبطة أحوالها إنما تسببت عن ذلك، فقلت لهم: أما السعادة والغبطة فلست أباحثكم فيهما، ولا أسلم لكم بأنكم أسعد من غيركم، وأما الفهم فما أخالكم تفهمون ما تقرءون في التوراة، قالوا: سلنا عن شيء منها، فقلت: على شرط أن لا يسوءكم، قالوا: لا تخشَ من الإساءة فإن هذه البلاد بلاد الحرية، قلت: ما معنى الغُرْلة حين طلب شاول من داود أن يمهر ابنته مائة غلفة من أهل فلسطين،

فمضى داود وقتل منهم مائتين وجاء بغلفهم إلى شاول؟ فقالوا: لا ندري، فقلت: بل لا تدرون أيضًا كيف أن الرجل يمهر المرأة، فإن عادتكم بخلاف ذلك: قالوا: بين لنا هذا، قلت: ها هنا نساء وأخشى أن أفسر لكم معنى اللفظة فتنقبض النساء، قالوا: إذا كان ذلك كلام الله فلا حرج، ففسرت لهم حينئذ معناها، فما كان من إحدى النساء إلا أن أخذت الكتاب ورمت به الأرض، وقالت: «معاذ الله أن يكون هذا الكلام كلام الله.»

(١٣-٣٢) نساء الفلاحين

أما الخياطة والوشي فقد تقدم أن نساء الفلاحين لا يلبسن سوى الشيت، فلا حاجة إلى تطريزه، وكل واحدة منهن خياطة لنفسها، وإذا خطن تحت يد تاجر فقلما تُوَفَّى أجرتهن، وما عدا ذلك فإن كثيرًا من الآلات التي اخترعها الإنكليز صارت تغني عن اليدين، فأما الطبخ فإنهم لا يتفننون فيه طبعًا؛ لأن أحب شيء إليهم منه إنما هو الشواء، فطباخهم فيه إنما هو النار، ولما كان وقتهم كله مصروفًا في العمل وتحصيل الكسب لم يكونوا يرون ضرورة لصرفه في تعدد ألوان الطعام، وفي الجملة فإن الإنكليز يحق لهم أن يقولوا: إن بلادهم منبت النساء، ومعدن الأزواج، بمعنى أن من تزوج إحداهن فقد هنأه العيش، وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع الاقتصاد في النفقة وراحة البال من الأسباب الباعثة على الغيرة.

(١٣-٣٣) أخلاق الإنكليز وعاداتهم

أما أخلاق الإنكليز وعاداتهم فالواجب أن أمهد للقول فيها مقدمة وجيزة لإزالة الالتباس فيما يرد من بيان ذلك، فأقول: إن هذا الجيل ينقسم إلى خمس طبقات؛ الطبقة الأولى: الأمراء والوزراء والنبلاء وذوو المناصب السامية، ويلحق بهم الأساقفة. الثانية: الأعيان أو العلية، وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأملاكهم لا من معاطاة شغل أو حرفة، وليس لهم جلاء؛ أي لقب تعظيم. الثالثة: العلماء والقضاة والفقهاء، ويلحق بهم القسيسون والتجار أهل المراسلات. الطبقة الرابعة: التجار أصحاب الدكاكين والكتاب، وهم الذين يحتاجون إلى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف، ولكن من دون ابتذال ماء الوجه. الخامسة: أهل الحرف والصنائع والعملة، ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الأكبر.

فعادات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة للثانية، ولكن ليس بينها وبين الأخيرة من مناسبة أصلًا كما سيأتي، وعادات أهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا

اختلاف فيها إلا ما ندر، أما أهل الطبقة الثانية فإن لهم من وجه نزوعًا إلى الأولى بالنظر إلى العز والاستبداد، ومن وجه آخر ينزعون إلى الباقي بالنظر إلى الجنسية والألفة، والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهاة بما عندهم من الصنائع والأحكام والإذعان للقوانين التي بنيت عليها معاملات دولتهم ودواوينهم.

ولما كان أصحاب الطبقة الأخيرة هم الجمهور الأكبر — كما ذكرنا — وهم الحريون بأن يقال لهم بريتانيون أو إنكليز؛ لكونهم بقوا على قديم أحوالهم وأطوارهم، ولم يعرفوا غيرهم من الأجيال لا بالمعاشرة ولا بالمطالعة؛ وجب أن نقدم ذكرهم أولًا، فنقول: إن أول خُلَّة يراها الغريب فيهم هي عدم اكتراثهم له، ونفورهم منه، فلا يفرحون لفرحه، ولا يحزنون لحزنه، بل لا يُعنَى أحد منهم بشأن جاره، ولا يهمه أمر غير أمر نفسه.

فكل ذي حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته، ولا يَتَطَالَل إلى معرفة شيء غيرها، فالفلاح مثلًا لا يعرف شيئًا إلا ما آل إلى الحرث والزرع، والقَين لا يدري مما يحدث في بلاده سوى ما يختص برواج سعر الحديد والطلب على الأدوات المصنوعة منه، وهلم جرًّا إلى المهندس والطبيب، وإذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ما عمل وما سوف يعمل، ويمكن أن يقال: إن بهذه الخصلة استتب عز دولة الإنكليز وعظمت شوكتها؛ لأن الرعية لا تعترض ذوي الأمر والنهي في تدبيرهم، ولا تتطاول إلى معرفة ما تقتضيه سادتهم وأهل شوراهم؛ فلذلك قلما يحدث عنهم شغب أو فتنة، بخلاف أهل فرنسا، فإن كلًّا منهم يتطفل على أولياء الأمر فيهم، وهذا هو السبب في كثرة العساكر هناك وقلتها هنا، فإن جميع ما في بلاد الإنكليز من العساكر لا يزيد على خمسة وعشرين ألفًا، فإذا قسمتها على عدد الأهلين وهو سبعة عشر مليونًا ونيف كان كأنه قطرة في بحر.

ولقائل أن يقول أيضًا: إن لذلك — أي لعدم الفتنة — سببًا آخر، وهو فقرهم المانع لهم من الاشتغال بغير ما يكسبهم القوت الضروري، فإن هؤلاء النحل العسالة في خلية الاجتماع الإنساني إنما يعملون — كما قال بعضهم — لتسمين الزنابير البطالة، وهم أطوع خلق الله لأولياء أمورهم فلو نهوهم عن أن يناموا مع نسائهم لانتهوا، ويمكن أن يقال أيضًا: إنهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم وهم في هذه الحالة أسعد خلق الله، وأن جميع رسومهم وأحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير.

(١٣-٣٤) مصارف العسكر وجيوش أوروبا

وكيف كان فإن شقاءهم موجب لسعادة الدولة، وفقرهم زائد في غناها واقتصادها واستغنائها عن كثير من العساكر، فإن مصاريف العسكري الواحد هنا تبلغ في السنة مائة وسبعين ريالًا، وفي بروسية اثنين وستين، وفي الروسية ثمانية وستين، وفي أوستريا تسعة وسبعين، وفي فرنسا مائة وثلاثة عشر، أما في أميريكا فمائة وأربعة وثمانون ريالًا.

ويقال إنه يلزم لكل نفر من عساكر فرنسا وإنكلترة رطلان وربع رطل من الطعام، في كل يوم منها نحو ثلاثة أرباع خضرة والباقي لحم وخبز، فيبلغ ذلك في السنة ثمانمائة رطل، فإذا أضفت إلى ذلك مشروبه من الماء والقهوة والشاي والمسكرات يبلغ ألفًا وخمسمائة رطل.

ويقال أيضًا: إن أكثر ما تجهز عند الدول من الجيوش في العصر الحالي ما كان فيه لدولة إسبانيا مائة وخمسون ألفًا، ولبريتانيا ثلاثمائة ألف وعشرة آلاف، ولبروسية ثلاثمائة وخمسون ألفًا، وللدولة العلية العثمانية أربعمائة وخمسون ألفًا، ولأوستريا خمسمائة ألف، وللروسية خمسمائة وستون ألفًا، ولفرنسا ستمائة وثمانون ألفًا، وهم في هذا العصر أكثر وأول من كان عنده جيوش قائمة كما يرى الآن شارلس الثامن ملك فرنسا، وذلك سنة ١٤٤٥، وبه اقتدى شارلس الأول ملك الإنكليز، سنة ١٦٣٨، وحسب ذلك أولًا عند الإنكليز غير شرعي.

وبلغ مجموع العساكر الإنكليزية في سنة ١٨٥١ «١٧٨٦٤٥»، وبلغت مصاريفهم ١٣٧٢١١٥٨ ليرة.[٨]

وكانت العادة قبل حرب القريم أعني الحرب التي وقعت بين الدولة العثمانية ودولة الروسية في سنة ١٨٥١ أن يستخدم النفر من عسكر الإنكليز طول عمره، فكان كثير منهم يفتدون أنفسهم، وبعد خمس عشرة سنة يدعون بأن لهم حقًّا في أن يسرحوا، والآن فرض على المشاة خدمة اثنتي عشرة سنة، وعلى الفرسان خدمة عشرين سنة، ويوجد في عساكر الإنكليز نحو سبعة آلاف ومائة ضابط بشهرية وافرة، وللنفر من حرس المملكة

[٨] وفي سنة ١٨٨١ بلغ عدد عساكر إنكلترة المستوطنين فيها ٦٠٠٠٠ نفر، وجملة عساكرها النظامية الذين فيها وفي الخارج أيضًا ما عدا عساكرها بالأقطار الهندية ٣٠٧٠٠٠ نفر، وهذا العدد قليل بالنسبة إلى قوة عساكر بقية الدول.

نحو شلينين في كل يوم، ولكل من الفرسان شلين وثمن، وللمشاة شلين، وثمن رتبة أمير الألاي في الحرس تسعة آلاف ليرة، وذلك أن هذه المراتب في العساكر البرية معرضة للبيع عندهم، وهو من جملة الأحوال المختلة التي يجب إصلاحها، ومصاريف العساكر البرية تبلغ في السنة سبعة ملايين ليرة، ونحوها مصاريف البحرية ومصاريف ديوان المهمات الحربية ثلاثة ملايين.[٩]

(١٣-٣٥) من طبع الإنكليز

ومن طبع الإنكليز الرث وهو البلادة وقلة الفطنة، فلا تكاد أحداثهم تفهم شيئًا من كلام الغريب بينهم، بل الكهول أيضًا لا يعون ما يلقى عليهم إلا بعد الروية والتأمل، وشتان ما بينهم وبين الفرنساوية؛ فإن الحدث من هؤلاء يبتدر إلى الجواب كأنما قد درسه ودراه من قبل سؤالك إياه، ولو قلت: إن البريطاني القُحَّ ليس له من توعي العقل سوى نصف المكتسب ونصف الغريزي لما أخطأت، وتلك صفتهم من القديم؛ فقد روي عن شيشرون أنه قال: إن أبله الأسرى الذين جيء بهم إلى رومية هم الذين أخذوا من بريتانيا، والتمس من صديقه أطيقوس ألا يشتري فيما بعد منهم أحدًا، وذلك لبلادتهم وعدم أهليتهم لتعلم الموسيقى وغيرها من الفنون.

وروي أيضًا عن قيصر أنه قال: إن أهل بريتانيا جيل جاف متوحش أكثر ما يكون، وإن معظمهم لم يرَ الحنطة في عمره قط، وإن قوتهم إنما هو اللحم واللبن لا غير، ولباسهم جلود الحيوانات. ا.هـ. قلت: ليس معنى قوله: قوتهم اللحم أنهم كانوا يطبخونه، بل إنما كانوا يأكلونه نيئًا مملوحًا كما يظهر من رواية أهل التاريخ، فإنهم قالوا: إنه علم من دفتر حاكم نرثمبر سنة ١٥١٢ أن أهل الحاكم المذكور كانوا يقتاتون باللحم المملوح فكان جل طعامهم، وكذلك حشمه لم يكونوا يأكلون طول السنة سوى اللحم المملوح، وندر معه البقول أو الحبوب، فمن زعم أن «البيف ستك» — أعني شواء البقر المشرح — كان مستعملًا بإنكلترة من القديم فقد وهم، فإن هذا الغذاء المريء لم يعهد قبل شارلس الثاني؛ لأنه كان يحب الشواء من ظهر البقر.

[٩] وفي سنة ١٨٨٠ بلغت مصاريف العساكر البرية ١٥٥٤١٣٠٠ ليرة إنكليزية، ومصاريف العساكر البحرية ١٠٤٩٢٩٣٥ ليرة.

قلت وإلى الآن هم يحبون هذا الشواء غير ناضج، وربما قطر دمه في الصحفة، ويستطيبونه على سائر ألوان الطعام، ولكن من رأى أهل جبل لبنان يقطعون الهبر من الضأن ويأكلونه نيئًا كف عن لوم الإنكليز.

هذا؛ ومع تكرر ذكر مدن الشام على مسامعهم من المنابر في كل يوم أحد، ومع كثرة قراءتهم للتوراة والإنجيل، فلا يكادون يعرفون أين موقع دمشق مثلًا من الإسكندرية، ولا يتذكرون شيئًا عن صور وصيدا وبيروت وجبل لبنان، مع أنها مكررة في الكتابين المذكورين بما لا مزيد عليه.

والظاهر أن مصر أشهر عندهم وعند الفرنسيس أيضًا من الشام، وقد سألني مرة في أكسفورد رجل له سَمْتٌ ورُوَاءٌ فقال: «من أي البلاد؟» فقلت: «هُوْ؟» ولفظة هو استفهام بلغتهم، فقال: «آه من هو!» معتقدًا أن هو اسم علم على مدينة، ثم قال: «أتعرف في هو فلانًا» وسمى رجلًا قلت: أنا لست من مدينة هو، وإنما أنت سألت سؤالًا مبهمًا يصلح لأن يخاطب به أي إنسان كان، فإذا أردت الآن أن تعرف اسم بلادي فهي سورية، فقال أحد الجلوس بعد طول تأمل: «هل سورية مدينة كبيرة؟» إلا أن بلادتهم هذه مقرونة بشيء من سلامة الصدر وخلوص النية، كما أن فطنة الفرنسيس مقرونة بالمكر والمحال، وكما أن عامة الفرنسيس يحسبون كل غريب فيهم من إسبانيا ولا سيما إذا كان أسمر اللون.

كذلك عامة الإنكليز يحسبون كل غريب فيهم فرنساويًّا سواء كان أسمر أو أسود، وسواء كان على رأسه طربوش أو طرطور، هذا؛ ولما كانت خلة الجهل أبدًا ملازمة للفظاظة والخشونة كان لهؤلاء القوم منهما الحظ الأوفر، فإنهم يحدقون في وجه الغريب، ثم يتبعونه بقهقهة ويسخرون منه، ولا سيما إذا لم يكن يحسن النطق بلغتهم، على أنهم هم أنفسهم لا يحسنون النطق بها، فكلامهم كله لحن وخطأ.

أما غناؤهم فلا يمكن لذي ذوق سليم أن يطرب به، وقد سمعت أغاني الفرنسيس وسائر الإفرنج فوجدت بعضها يطرب ويشجي؛ لأن فيها مدًّا وترجيعًا، فأما أغاني الإنكليز غير التي يتلقونها من الطليانيين والفرنساويين في الملاهي فكلها نبر ودرج.

ومن طبعهم أنهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض، وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون في الساعة التاسعة، ويقومون صباحًا في الساعة الرابعة؟! كل ذلك حتى يأكلوا الفقع — أعني البطاطس — ويشربوا الفُقَّاع! وربما بقي الرجل سنين ولا يعرف جاره، وكذا أهل المدن.

وغاية محاورتهم إذا تلاقوا في الطريق أن يقول أحدهم: «طيب بطرس» فيقول الآخر: «طيب يوحنا»، وكنت إذا مررت بأحدهم يقول لي: «صباح حسن»، فأقول له كالصدى: «صباح حسن» وكنت أحسب ذلك تحية؛ لأن تحية الصباح عندهم «صباح طيب» فظننت أنهم يقيمون لفظة مقام لفظة، حتى سألت الدكطر «لي» فقال لي: «ليس ذلك من التحية في شيء، وإنما هو مجرد إخبار عن حسن الصباح.» وإذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد وأن يبتدئ أحدهما أولًا بوصف الهواء وصحوه أو برده، ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه أو ثالول في رجله أو اختلاج في عينه، فيقول السامع: «يحزنني ذلك جدًّا» ومتى اجتمعوا للمنادمة — وذلك لا يكون إلا في القرى الجامعة — ملئُوا كوبًا كبيرًا من الجعة، وجعل كل منهم يكرع منه كرعة، ويدخن في قصبة من الطين ثم يبصق فيملئون المكان بصاقًا وقذرًا، وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء وذكر البرد، ولا يكاد أحدهم يضحك ضحكًا طبيعيًّا، وإنما هو عبارة عن قهقهة، ثم يعقبها الكتم والعبوس، فما كان الضحك منهم إلا قوة من القوى، فهم يكتمونه ما أمكن مخافة أن تخرج معه تلك القوة.

ومن طبعهم أيضًا أن لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة، ولا تهاب الأولاد والديهم كما تهاب الأولاد عندنا؛ ولا يحن الوالدون أيضًا على أولادهم كما عندنا، ولذلك يقع كثيرًا أن الأب يقتل ولده، والولد يقتل أباه وأمه كما يأتي بيان ذلك، وقد يحدث عندهم مضاجعة الأب ابنته، وهو عند الفرنسيس أكثر، ولكن لم يبلغني أن ولدًا ضاجع أمه، وفي المدن الجامعة قد تتواطأ الأم وبنتها على الفحش والفساد، أو الأخت وأختها.

ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن أن يحولوا عنها — مع علمهم بأن جميع الإفرنج خالفوهم فيها — حلقهم لحاهم وشواربهم، حتى إن عساكرهم لم تتحلَّ بالشوارب إلا في الحرب الأخيرة، فليت شعري كيف يرى وجه الجندي محفوفًا منتوفًا كوجه المرأة؟! ليت شعري أي حسن للشباب أكثر من الشوارب، وأي حلية وكمال للشيخ أكثر من اللحية؟! وإذا حسن للشاب حلق شواربه فلم لا يحسن حلق حاجبيه؟ وأغرب من ذلك أن القضاة وأولي الأمر فيهم إذا جلسوا لفصل الأمور وضعوا على رءوسهم شعرًا أبيض عارية، وأرخوا منه نحو ذَنَبٍ معقود على قُذُلهم، فأخبرونا أيها الناس كيف يكون الحسن والهيبة في ذَنَبٍ ولا يكونان في لحية؟ لعمري إن الشيخ بلا لحية وشوارب أشبه بالقرد منه بالإنسان، والشاب بلا شوارب أشبه بالأنثى والخنثى منه بالرجل، فإنها من علامات

الرجولية ومما خلقه الله في الوجه من المحاسن الطبيعية، وإن يكن من عذر للعامة في حلق لحاهم فليس للقسيسين وغيرهم من أهل الكنيسة من عذر أبدًا، فإن رسل المسيح كانوا كلهم ملتحين، وكانوا يشربون عين الكأس التي يشربها هؤلاء، فكيف كانوا يفعلون؟

غير أني لا أقول بترك اللحية على حالها، فالأحسن أن تتحوف حتى تكون مستديرة، قال العلامة الشريشي: «وكان النبي ﷺ يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء، وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته ويأخذ ما زاد منها على قبضته.» قال الحسن بن المثنى: «إذا رأيت رجلًا له لحية طويلة ولم يتخذ لحية بين لحيتين كان في عقله شيء.» قال الشاعر:

إذا عظمت للفتى لحية   فطالت وصارت إلى سرته
فنقصان عقل الفتى عندها   بمقدار ما زاد من لحيته

ونظر يزيد بن مزيد الشيباني إلى رجل ذي لحية عظيمة، وقد تلففت إلى صدره، وإذا هو خاضب فقال له: «إنك من لحيتك في مؤنة.» فقال: «أجل» ولذلك أقول:

لعمرك لو يعطي الأمير على اللِّحَى   لأصبحت قد أيسرت منذ زمان
إذن لشفتني لحية من عصابة   لهم عنده ألف ولي مائتان
لها درهم للدهن في كل جمعة   وآخر للحناء يبتدران
ولولا نوال من يزيد بن مزيد   لصوت في حاجاتها الجَلَمان

وقال يعقوب الكندي لجارية كان يهواها: «إني أرى فرص الاعتياضات من المتوقعات على طالبي المودات مؤذنات بعدم المعقولات.» فنظرت إليه وكان ذا لحية طويلة فقالت: «إن اللحى المسترخيات على صدور أهل الركاكات محتاجات إلى المواسي الحالقات.»

وكان المأمون جالسًا مع ندمائه ببغداد مشرفًا على دجلة وهم يتذاكرون أخبار الناس فقال المأمون: «ما طالت لحية إنسان قط إلا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته، وما رأيت عاقلًا قط طويل اللحية.» فقال له بعض جلسائه: «ولا يرد على أمير المؤمنين قد يكون في طول اللحى أيضًا عقل.» فبينما هم يتذاكرون هذا أقبل رجل كبير اللحية حسن الهيئة فاخر الثياب، فقال المأمون: «ما تقولون في هذا الرجل؟» فقال

بعضهم: «رجل عاقل» وقال آخر: «يجب أن يكون هذا قاضيًا.» فقال المأمون لبعض الخدم: «عليَّ بالرجل» فلم يلبث أن أصعد إليه ووقف بين يديه فسلم، وأجاد السلام، فأجلسه المأمون واستنطقه فأجاد النطق، فقال المأمون: «ما اسمك؟» فقال: «حمدويه» قال: «والكنية؟» قال: «أبو علويه» ثم قال: «ما صنعتك؟» قال: «أنا فقيه أجيد مسائل الشرع.» فقال له: «نسألك مسألة» فقال الرجل: «سل عما بدا لك.» فقال له المأمون: «ما تقول في رجل اشترى شاة من رجل، فلما تسلمها المشتري ضرطت فخرج من استها بعرة ففقأت عين رجل، فعلى من تجب دية العين؟» قال: فنكت بإصبعه في الأرض طويلًا ثم قال: «تجب على البائع دون المشتري.» فقال المأمون: «وما العلة التي أوجبت الدية عليه دون المشتري؟» قال «إنه لما باعها لم يشترط أن في استها منجنيقًا.» فضحك المأمون حتى استلقى على قفاه، وضحك كل من حضر من الندماء، وأنشد المأمون:

ما أحد طالت له لحية   فزادت اللحية في حليته
إلا وما ينقص في عقله   أكثر مما زاد في لحيته

وكانت عائشة — رضي الله عنها — تقسم وتقول: «لا والذي زين الرجال باللِّحَى.» وجاء أنه قسم الملائكة، قلت: وأنا أقسم وأقول: لا والذي زين النساء بعدم اللحى. انتهى الكلام على اللحية، غير أنه علق بي منها شيء، وهو أنه ذكر في الصحاح ما نصه: «وفي الحديث أنه أمر أن تحفى الشوارب، وتعفى اللحى.» فكيف التوفيق بين هذا القول وبين قول الشريشي: إن النبي كان يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء؟

ومن الإنكليز من يرد فوق أذنيه خصلًا من شعر رأسه، فترى عينيه بارزتين بين قرني شعر، وقذاله يشبه جبهة الثور الناطح، فأما اتخاذ العارية من الشعر الأبيض فأصله — فيما قيل — إن لويس الرابع عشر كان رديء الشعر، فاتخذ له عارية يستر بها عوار رأسه، وكان إذ ذاك شيخًا، فاقتدت به أماثل البلاد، وسرت هذه العادة السخيفة إلى الإنكليز وهم في أكثر الأشياء مقلدون للفرنسيس، وقد وَهَى استعمالها الآن بالنسبة إلى الأُوَل، إلا في دواع معلومة وأحوال مخصوصة، منها يوم مبايعة الملك أو تهنئته.

ففي ذلك اليوم تتحلى كبراء دولته بهذه العارية ويقابلونه بها، ومنها وقت جلوس القاضي لتنفيذ الأحكام الشرعية كما مر، وفي محال اللعب والملاهي حين يحاكي اللاعبون واللاعبات من سلف من الملوك والملكات ترى هذه العارية على رءوس الأحداث من الرجال والنساء، وكأنها تزيد الحسن حسنًا، فكأنها مصداق على قول الشاعر: «كل شيء من

المليح مليح.» ثم لما أخذت هذه العادة في العقم نتج عنها ذرور الرماد الأبيض على رءوس خدمة الأمراء والعظماء، وأصل هذه أيضًا — فيما قيل — إن بعض المغنين كانوا يغنون في موسم صان جرمان بخارج باريس وبهم قرع، فكانوا يبيضون رءوسهم ليضحكوا الناس، ثم انتقلت هذه العادة — كغيرها من العادات — من العامة إلى الخاصة، وشاع استعمالها عندهم في سنة ١٦١٤، وفي سنة ١٧٩٥ جعل عليها ضريبة، وكانت حينئذ قد بلغت النهاية، فجعل على كل رأس جيني، ولم تزل إلى الآن.

والحاصل أن أعظم الأسباب التي تبقي استعمال هذه العادات السخيفة إنما هو حصول النفع منها لخزنة الدولة، فإنه حيثما وجد الربح وجد السداد والرشاد، ولو أن الديوان ضرب طَسْقًا على اللِّحى والشوارب لما وسع الناس إلا أن يقولوا: إن يد الرب على قلب الملك، ومن عادة العامة الملاكمة، ويقال لها «البوكس»، وفي محفوظي أن رفاعة بك — رحمه الله — ذكرها في قلائد المفاخر بلفظة «البوكسه»، وذلك إذا تخاصم اثنان أو تكاذبا فينزع كل منهما رداءه ويشمر عن ذراعه، ويصوب إلى وجه قرنه جمع كفه، ثم يأخذان في اللكام حتى يغلب أحدهما، وحينئذ ينهض الغالب المغلوب، ويأخذ بيده ويشربان الشراب كالمتوادين، والملاكمة للعامة بمنزلة المُسَايَفة للعِلْية، غير أن هذه محظورة يجب فيها الحد، وتلك مسكوت عنها، وقد كانت سابقًا بمنزلة الملهى في اجتماع الناس للتفرج عليها، وفي أواخر القرن الماضي كانوا يتعلمونها في المكاتب.

(١٣-٣٦) الإنكليز والتهافت على الشهرة

ومن طبع الإنكليز عمومًا التهافت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأي سبب كان ولا سيما في أسباب المعارف والعلوم، فإن من يعرف منهم مثلًا بعض كلمات من اللغة العربية ومثلها من الفارسية أو التركية فإذا ألف كتابًا بلغته أدرج فيه كل شيء يعرفه من غيرها؛ ليوهم الناس أنه لغوي وما عليه أن يكتب تلك الألفاظ على حقها أو يخطئ فيها، وفي عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الألقاب الطنانة، فيكتب له أنه من أعضاء جمعية كذا، وملخص كتاب كذا، ومحرر نبذه كذا، وخطيب مثابة كذا، وهلم جرًّا، ولو عصرت كتابه كله لما بلت منه صدى مسألة، وذلك لأنهم لا يأخذون اللغات عن أهلها، فمهما يخطر ببالهم في تأويلها يقذفوا به جزافًا من دون تحرج أن ينسبوا إليها ما ليس منها.

انظر إلى ريشردصون الذي ألف كتاب لغة يشتمل على لغته وعلى لغتي العرب والفرس، فأقسم بالله إنه لم يكن يدري من لغتنا نصف ما أدريه أنا من لغته، لا بل سَوَّلت له نفسه أيضًا أن ترجم النحو العربي، فخلط فيه ولفق ما شاء، فمثل للإضافة بقوله: «قدح فضة»، و«ملك كسرى»، و«رأس أمان» و«الغالب عجم»، و«غالب عجم»، و«كتاب سليمان»، و«نصرا عقبة»، وفسرها بأنها مثنى مضاف إلى العقبة و«نصروا عقبة»، «والنصرا عقبة»، و«النصروا عقبة».

وأورد حكاية من كتاب ألف ليلة وليلة عن ذلك الأحمق الذي قدر في باله أن يتزوج بنت الوزير، فلما بلغ إلى قوله: «ولا أخلي روحي إلا في موضعها» ترجمها بقوله: «لا أعطي الحرية لنفسي أي لزوجتي إلا في حجرتها»، وقوله أيضًا: «ولا أزال كذلك حتى تتم جلوتها» صحف «جلوتها»، «بجلدتها» فقال: «ولا أكف حتى يتم ذلها»، وعند قوله: «حتى يقول جميع من حضر» كتب في الحاشية «حظر»، وحضرة بمنزلة السمو في الإنكليزية، وقس على ذلك.

وإذا ترجم أحدهم كتابًا رقعه بما عَنَّ له، وسبكه في قالب لغته، فقد قرأت كثيرًا مما ترجم من كلامنا إلى كلامهم، فإذا هو مسبوك في قوالب أفكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قط.

وقرأت ترجمة منشور صدر من الملك في الحض على الجهاد من جملته: «ليس لعباد النبي من خلاص في هذه الدنيا ولا في الآخرة إلا بجهاد الكفار.» فانظر إن كان المسلمون يقولون إن النبي «معبود»، وما رأيت أحدًا تحرج من هذا التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر صال الذي ترجم القرآن، ومستر لان الذي ترجم حكايات ألف ليلة وليلة، ومستر برسطون الذي ترجم خمسًا وعشرين مقامة من مقامات الحريري، أما الأول، فقد ذكر فلتير أنه مكث بين العرب سنين عديدة، وأخذ عنهم علم العربية حتى تهيأ له ترجمة القرآن، ولست من ذلك على ثقة؛ إذ الظاهر من مقدمته للترجمة أنه لم يخالط العرب، وكيفما كان فهو من المحققين. وأما الثاني، فإنه لبث في مصر وعاشر علماءها وأدباءها. وأما الثالث، فإنه كان قد سار إلى الديار الشامية واستصحب بعض أهاليها.

وما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن علقمة لعمر بن عبد العزيز — رضي الله تعالى عنه:

خذا بطن هَرْشَى أو قفاها فإنه　　　كلا جانبي هرشى لهن طريق

فإن أحدهم لا يبالي أن يؤدي معنى الترجمة بأي أسلوب خطر له، فلو قرأ سبًّا في كلامنا مثلًا بأن قال أحد السبابين لآخر «يحرق دينه»، ترجمه بأن دينه ساطع ملتهب من حرارة العبادة والغيرة، بحيث إنه يحرق جميع ما عداه من الأديان، أي: يغلب هو عليها فهو الدين الحقيقي القاهر، كما ورد أن الله نار آكلة. وهكذا فليس لعمري علم لغتنا عندهم سوى سبب يتوصل به إلى النتف من غيرها كالعبرانية والسريانية، فإن هاتين عندهم أهم وأنفع، وناهيك أن دخل مدرس العبرانية في كمبريج ألف ليرة في السنة، ودخل مدرس العربية سبعون ليرة فقط، ومتى عرف أحدهم شيئًا من لغتنا طابقه على غيره من تلك اللغة، واستخرج منه فائدة تختص بالمطابق عليه.

وقد جرى مرة بحضور الدكطر «لي» ذكر أحد النمساويين، فقلت: إنه ذو دعوى لكونه نظم أبياتًا في لغتنا وشهرها في كتاب مطبوع مع أنها كلها لحن وزخارف، فلو كان ذا أدب لما تكلف النظم من دون معرفة قواعده وهو بعيد عليه، بل على جميع الإفرنج الذين لم يأخذوا عن العرب، قال: «كيف ونحن ننظم الشعر باليونانية واللاتينية ولم نخالط أهلهما؟» قلت: ها هنا فرق، وهو أن هاتين اللغتين كالأصل للغتكم فتتعلمونهما على صغر، أما العربية فهي أجنبية عنكم، قال: «إن الإنسان ليمكنه أن يتعلم أي لغة شاء كما يتعلمها الطفل.» قلت: ما هذا مذهبي، وإني أعطي كتبي كلها لأي إفرنجي كان إذا نظم بالعربية بيتين صحيحين بليغين، قال: «أنا أنظم لك الليلة ثلاثة أبيات.» فلما قابلته في الغد إذا به قد ناولني رقعة كتب فيها:

أَلَمْ تَرَ يا صاحِ بهذا علامة   بأن صار الأجنبي يجري كَرامة
وإن لم يكن هذا عَرُوضًا مُصَحَّحًا   فلا تُعطه أسفارك عامة
فإن كان ذا إذن صحيحًا وسالمًا   ستسلمه أجرًا أسفارك رامة

فلما قرأتها قلت له: فيها زخارف وخطأ، فسكت ساعة، ثم قال: أتدري ما الألف التي في قول امرئ القيس: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»؟ قلت: هي ألف التثنية عند بعض، فإن الشاعر خاطب صاحبين له، وذلك مستفيض في كلامهم، وعند بعض أنها مقلوبة عن نوع التوكيد، قال: «هذا كله تمحل وتعسف، وإنما هي مقلوبة عن الهاء من العبرانية، فإن اليهود يلحقون الهاء بفعلي الأمر والنهي دلالة على الطلب والتوسل.»

ثم بينت له بعد ذلك خطأ أبياته فما كان منه إلا أن قال: إن لغة العرب ليست مطبوعة كسائر اللغات، بل هي لغة مصنعة، متكلف فيها كثرة القواعد والضوابط،

بخلاف لغة أوروبا، وطفق يبين أنه يجوز في اللغة اللاتينية أن تقام حركة طويلة مقام حركة قصيرة نحو أن تجري لفظة «ماد» مجرى «مد» وغير ذلك، ثم سألني: «كيف تفعلون بـ«أل» في قولك: «الدين» فإنه اجتمع فيها ثلاثة سواكن، وأنتم تقولون إنه لا يصح اجتماع ساكنين؟» فقلت: «أين السواكن الثلاثة هنا؟» قال: «الألف واللام والدال.» وقال لي يومًا: «أتدري من أين اشتقاق الزناء؟» فقلت: «لا»، قال: «من العبراني؛ فإن زنى فيها بمعنى باع، فكأن الزانية تبيع نفسها للرجل.»

ثم سألني مرة أخرى: «أتدري ما أصل المدة في نحو آمن؟» قلت «لا»، فقال: «هي ألف من السرياني.» وقرأ يومًا «قومًا بطالين»، فقال: «البطال عند الصوفية في ثاني مرتبة العابد» فقلت: الأولى البطل، وقال أيضًا إن «يومنا» في قول العرب إلى «يومنا هذا» من السرياني وهو «يومنان».

وقد جرى لي معه وقت الترجمة عدة مناقشات ومجادلات لا بأس بإيرادها هنا وإن طال بها الكلام؛ فإنها عنوان على معرفة القوم لغة الشرقيين وخصوصًا العربية، منها أنه كان يحاول استعمال كلمة هوذا في كل موضع يجدها في الأصل أعني العبراني، فإنه لا يمتنع فيها أن يقال مثلًا لأن هوذا أو وهو هوذا وكان هوذا رجل وكان يظن أن إذا في قولنا: خرجت وإذا زيد بالباب لا تغني مغناة هوذا، ومن ذلك أنه كان ينكر قولنا مثلًا أحد الرؤساء بدل رئيس، ومن ذلك أنه كان يريد المحافظة على الأصل بالإتيان بقائلًا بعد قال، فإنه يقال فيه قال قائلًا مع أن هذا التركيب في لغة الإنكليز منكر، ولذلك كنا نجد في توراتهم وتكلم قليلًا لا قال قائلًا، وفي مثل قولنا ضرب لهم مثلًا كان يبدل ضرب بقال؛ لأنه كان يترجم في عقله لفظ ضرب إلى لغته فلا يجد له معنى سوى إيصال الألم.

وكان يبدل علم اعتقادهم برأي اعتقادهم ويزعم أنها أبلغ في المعنى وأن الاعتقاد ليس بمرادف للإيمان، فإنه إنما ينظر إلى أصل اشتقاقه وهو العقد، وهو غير مفيد معنى الإيمان، وكان يبدل ماء البحر بمياه البحر وهذا لا محظور منه إلا أن تبديله هوس وجزم بأن قولك في السؤال ما يكون لنا، أبلغ من ما عسى أن يكون لنا، وأن من ثم التي يؤتى بها للسببية غير كثيرة الاستعمال ولا تسد مسد ولهذا، وكان يزعم أن لفظة المعجزات ليست من كلام النصارى حتى وجدناها في نسخة رومية.

ومن أشد وساوسه تجنبه للسجع والتركيب الفصيح غاية ما أمكن، وحتى إنه زعم أن ما في الترجمة من قوله: خرجتم إليَّ بعصي كلص سجع وحاول تغييرها فلم يقدر فتركها وهو آسف، وكذا وهمه في نلت خيراتك في حياتك، وفي وكان هناك قطيع من

الخنازير كبير، فكان يقول هو من السجع الذي ينبغي مجانبته في كلام الله تعالى، وكان كلما رأى جملة تنتهي بالواو والنون أو بالياء والنون يقول: إنها مضاهئة لكلام القرآن فيبدلها، حتى إنه رأى هذه الجملة وهي: وأنتم على ذلك شهود، فقال: إن هذا الوقف يشبه وقف القرآن فمن ثم بدلها بقوله: وأنتم شهود على هذا، ووجد عبارة أخرى وهي: وما أولئك بعابرين من هناك إلينا، فقال: هذا التركيب فصيح فبدل عابرين بيعبرون، ولم أتعجب من تغييره وإنما تعجبت من أنه شعر بحسن هذا التركيب وزعم أن قولك مثلًا، وكان رجل اسمه فلان أخصر من قولك يسمى.

وكلما رأى في الأصل عبارة كثيرة الألفاظ مما لا داعي له قال: إن ذلك للتقوية، وإذا رأى فيه إجحافًا ولو مع إخلال المعنى، قال: إن فيه حذفًا للبلاغة، وكان يحاول أن يقال، واتفق أنه قال، واتفق أنه افتكر، فقلت له: هذه لا يصح استعمالها مع الأفعال التي لا تقتضي الندرة في الاستعمال، فلا يقال مثلًا جاءني فلان واتفق أنه جلس، فإنه لا ندرة في الجلوس بعد المجيء، فقال: وأين أنت من المحافظة على الأصل؟ والذي ظهر لي من أحواله أنه فضلًا عن كونه شديد التعصب للتوراة فإنه كان يتقي لوم خصمائه، فإنه كان ذا خصوم كثيرة إلا أنه لا حمق أكثر من أن يترجم من لغة إلى أخرى بعين الألفاظ والتراكيب؛ إذ لا يتصور بالبال أن لغة تطابق أخرى في التعبير، فكيف يمكن أن يقال بالعربية خرج الدخان من مناخر الله كما يقال بالعبرانية، أو أحشاء الله كما يقال باليونانية، وقد ذكرت ذلك لعدة من أهل المعارف منهم، وأنه من التعبير الغير اللائق بجلاله تعالى، فكلهم قاسه على وجه الله وعين الله ويد الله من دون فرق بين نسبة الأعضاء الحقيرة إليه وبين غيرها.

ومما أضحكني من الدكطر لي مرة أنه دعاني للغداء يومًا وكان ذلك في نحو الساعة الخامسة قبيل المغرب، فقلت له: قد تغديت في الساعة الحادية على ما اعتدته، فقال: هذا لا نسميه نحن غداء وإنما نسميه عجالة، فقلت: هذا عندك لأنك تتغدى وقت العشاء فأما عندي فهو الغداء بنفسه وعينه.

والدكطر «لي» هذا كان يدرس العربية في كمبريج، ولم يكن يحسن التكلم بها ولو بجملة واحدة، وكان ذا اجتهاد لا ملل معه، فكان يقعد على الكرسي للمطالعة أربع ساعات ولا يتحلحل عنه، وما أخال أحدًا غيره اشتهر بما اشتهر هو به في علم اللغات المشرقية، وتوظفه في كمبريج هو السبب الذي حداني إلى الحضور إلى هذه البلاد؛ لأن الجمعية لما استأذنت حاكم مالطة بواسطة وزير الأمور الخارجية في إحضاري لأجاور

المُومأ إليه، ظننت أن مكثي يكون في تلك المدينة، وهي وإن تكن لا تشوق أحدًا للسكنى فيها غير من يقصدها للتفقه في الفنون، إلا أنها على كل حال أحسن من القرى، وذاك كنت أدريه من قبل، إلا أن البواعث الحالية والدواعي الكونية أوجبت على الدكطر «لي» أن يُعَدَّى عن وظيفته فيها، ويلزم قريته وأن يكون قطع أنف عرفجة يوم الكلاب سببًا في سجن مستملي جان بن بشر قاضي بغداد.

ولم يكن شيء يسليني في تلك القرية سوى ترقب الشهر الذي يسافر فيه الدكطر المذكور إلى برسطول لأسافر معه؛ حيث قدر عليَّ أن أكون معه في كل مكان وزمان، غير أن المذكور توفي وأنا بباريس، وأعفاني الله تعالى من السفر معه إلى تلك الدار، فعفا الله عنه بمنه وكرمه.

(١٣-٣٧) مع شيخ العربية في أكسفورد

ثم لما حان الذهاب إلى برستول مررت بأكسفورد، وقصدت أن أرى خزانة الكتب فيها، فسألت بواب المدرسة عن شيخ العربية ليهديني لها، فأخذ يطالع في فهرسة المعلمين فلم يهتدِ إلى اسمه، فقلت له: كيف وأنت ملازم لهم لا تعرفهم؟ فقال: إن شيخ العربية لا يدرس بنفسه ولا يقرأ، ولكن له قارئ فإذا قرأ القارئ شيئًا يأخذ الشيخ في شرحه، أي في توجيهه إلى وقائع تاريخية تتعلق بذلك الموضوع، وفي تطبيقه على بعض اللغات كما سأبين لك عن قريب، ثم بعد طول بحث ومعالجة اهتديت إلى دار الشيخ فقابلته وسألته أن يريني المكتبة تفضلًا وتكرمًا، فأجاب إلى ذلك وسرنا معًا.

وأول كتاب فتحه كان بالخط الكوفي، وإذا في أول الصفحة لفظة «ألا» فقرأها «الا» وفسرها أنها الله، فتعجبت كيف أنه انخدع فهمه لسمعه لأنهم جميعًا يلفظون اسم الجلالة مرَّققًا هكذا.

وسألني مرة أستاذ آخر: «أتعرف لم دلت «في» على الظرفية؟» فقلت: لا. قال: «لأنها مشتقة من الفم الذي أصله فوه.» وهكذا يخمنون ويخرصون على معاني المفردات والمركبات في لغتنا، وهاك مثالًا على علم هؤلاء الأساتيذ وعلى شرحهم لكتبنا تَطَفُّلًا، فتصور مثلًا أن قارئًا يقرأ على الشيخ قول أبي تمام:

هِمة تنطح النجوم وجَدٌّ آلفٌ للحَضِيض فهو حضيض

فيقول الشيخ بلغته: «النطاح» مختص بالحيوانات التي لها قرون كالثور والتيس والوعل ونحوها وقد ذكر في التوراة مرات كثيرة، ويمكن أيضًا أن ينسب إلى ما ليس له قرن، فقد روى ليناوس — الذي قسم جنس الحيوان إلى سبعة أقسام — أن الحيوانات الجَمَّاء تتناطح بجباهها، وقد أطلقت العرب اسم الكبش على آلة من آلات الحرب، لما أنها تنطح الجدار، و«النجوم» معروفة، وقد كانت العرب تهتدي بها في أسفارهم قبل أن عرفت خاصية إبرة المغنطيس، ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في أوروبا من يشم لها رائحة، ثم لما فتحوا إسبانيا أو جزيرة الأندلس وذلك سنة ٧٥٠، أخذ عنهم العلم بعض من الإفرنج، ومنهم سرى في سائر بلدان أوروبا، وكان انقراض الملك من قرطبة سنة ١٠٣١ بعد أن دامت العرب فيها أصحاب أمر ونهي وسيادة نحو مائتين وخمس وسبعين سنة.

أما الألف واللام التي في النجوم فهي أداة التعريف، وهي في الطليانية والإسبانيولية «أل» للمذكر و«لا» للمؤنث، واللغة اللاتينية ليس فيها أداة تعريف، فأما اليونانية ففيها عدة أدوات، ويوجد في لغتنا ألفاظ كثيرة مبدوءة بهذا الحرف، منها ما هو عربي وذلك نحو «الكنا» (الحناء)، «والكحل»، و«القائد»، و«الجبرة» (الجبر)، و«القرآن»، و«القلي»، و«القرثيم»، أو «الكرزيم»، ومنها ما هو من لغة أخرى، فأما اللغة الإسبانيولية ففيها من هذا النوع ألفاظ لا تعد، فأما عدم النطق باللام من النجوم فلكون النون من الحروف الشمسية.

ثم إن أول من قرر طريقة سير النجوم حول الشمس وسير القمر حول الأرض، ونسبة بعضها إلى بعض، وعلة المد والجزر والنور والجاذبية والاعتمادية، الفيلسوف إسحاق نيوطون، ولد في سنة ١٦٢٤ ومات سنة ١٧٢٧، وكان ذا جِدٍّ ومثابرة على العلم لا تنظر، أما قوله: «جد آلف للحضيض»، فالحضيض هنا معناه الأرض، من تسمية الكل بالجزء وروده في التوراة كثير، وفحوى البيت أنه — أي الممدوح — ذو عناية بالأرض؛ أي بحرثها وإحيائها وإنشاء المدن فيها وتسوية الأحكام بين أهلها؛ لأن الأرض كثيرًا ما تذكر ويراد بها سكانها، وذلك أيضًا مستفيض في التوراة حتى إن هذا الممدوح صار أرضًا وخصبًا لقاصده.

فأما إن كان هذا الشيخ قد تلمذ لشيخنا الأكسفوردي المشار إليه فإنه يقرأ «الحديد» بدل الحضيض، وحينئذ فيكون تأويله عنده: وجد أي حظ أو أب، فإن الجد يذكر ويراد به الأب وبالعكس كما ورد في التوراة، آلف لاستعمال السلاح وقهر العدو، فإن الحديد

يراد به السلاح كله، وهذا الاستعمال أيضًا وارد في التوراة، وهكذا يمشي على انعكاس البيت بهذا العَضْد هو وتلامذته، وبعد انقضاء ساعة ونصف على تأويل هذا البيت يقومون وهم سامدو الرءوس عجبًا وفخرًا، ويظنون أن شيوخ الجامع الأزهر والأموي والزيتونة هم دون هذا النِّحْرير الذي عرف مولد نيوطون ووفاته واستيلاء المسلمين على الأندلس، وقد استبد هؤلاء الأساتيذ بهذه الدعوى، بحيث إنهم لا يوظفون الغريب في هذه المدارس، وإنما يسمحون له بأن يعلم أشخاصًا على حدتهم، فلا هم يتعلمون حق التعلم ولا يأذنون لغيرهم في أن يعلموا حق التعليم، وهذا الداء فاشٍ أيضًا في مدارس فرنسا مع استتباب المصالح فيها.

ولا بد لشيخ العربية عندهم أن يكون مطلعًا على اللاتينية حتى إذا جهل شيئًا من تلك عمد إلى هذه، فقور منها رقعة.

(١٣–٣٨) كمبريج وأكسفورد

واعلم أن كمبريج وأكسفورد هما مدينتان في بلاد الإنكليز، كل منهما يحتوي على نحو عشرين مدرسة وألفي طالب، ففي الأولى تعلم الهندسة والرياضيات والإلهيات، وفي الثانية علوم الأدب والفقه والمنطق والفلسفة، إلا أن منطقهم ليس كمنطق المتقدمين في علله وتعليلاته، ولا يمكن التعلم فيهما إلا بنفقة زائدة، وما أحد يقصدهما إلا أولاد الكبراء والأغنياء، ولا سيما أكسفورد، فهناك ترى طالب العلم شامخًا بأنفه مصعرًا خده كأنما هو طالب ملك الصين والهند، وأكثرهم يصرف همه في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهريًّا، فمتى حان يوم الامتحان عرف ما يريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل؛ إذ هي محصورة معدودة، فيجتهد في حفظها وترسمها، فإذا سردها عليه وأحسن سردها، أجازه بصك يذكر فيه أنه نال مرتبة المعلمين، وهي عندهم متنوعة.

ولكل من هذه المدارس أوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها، ويقال لكل منهم «فلو» وربما كان أيضًا من غير القسيسين، فإن كل من نبغ في علم من العلوم أُجري عليه الرزق من الوقف، فمنهم من له مائتا ليرة في السنة، ومنهم من له أكثر ولكن بشرط أن لا يتزوج، فمتى تزوج انقطع عنه رزقه، إلا أنهم لا يتزوجون غالبًا إلا بعد أن يحصلوا على معاش من خدمة إحدى الكنائس، وفي يوم معلوم من كل سنة يحصل نزاع ولكام بين طلبة العلم وبين الأهلين، وربما غلبت فيه الطلبة على قلتهم، ويسمونه يوم «الكون والتون»؛ وذلك لأن الطلبة يلبسون ثوبًا أسود كالقفطان، ويقال له: «كون»

والبلد بلغتهم «تون»، وفي كل من المدينتين مكتبة عربية، غير أن كتب أكسفورد أكثر، وعدة ما فيها من الكتب العربية وغيرها نحو ثلاثمائة ألف كتاب، وأعظم ما سرني فيها نزولي في محل كان يسكنه شكسبير، كذا قيل لي والله أعلم.

وفي مدة إقامتي كلها في كمبريج وهي أكثر من سنة، لم أسمع ولم أر من اللهو إلا قردًا وقرَّادًا يلاعبه، وكان القرد يضرب بالدف، والنساء والأولاد بل الرجال يجرون وراءه، ولم أرَ أحدًا منهم أعطاه شيئًا، ومرة أخرى رأيت امرأتين تعزفان بآلة طرب، فرميت لهما من الشباك بنصف شلين فاستكثرتاه.

ثم إن أكثر القائم بخدمة هؤلاء المدارس نساء وأكثرهن حسان، فتأتي المرأة في الصبح إلى محل أحدهم وهو في فراشه لتوقد له النار، وفي الليل تحضر له الشاي.

وكنت ذات ليلة عند أحدهم فأقبلت امرأة كأنها البدر الطالع، وقالت له: هل دعوتني يا سيدي؟ قال: لا، ثم دعاها لتحضر له الشاي، فتأملتها على النور وإذا هي نور آخر، وقد ذكرت ذلك لبعض المتورعين منهم، فأقر بأنه غير لائق، وإنما جرت به العادة ولا سيما أن هؤلاء النساء متزوجات ولا يذهبن إلى أزواجهن إلا عند نصف الليل.

وفي هاتين المدينتين عادة قبيحة في المبيع والشراء بخلاف عادة الإنكليز، وهي أن الباعة يبيعون الطلبة نسيئة، ويتقاضونهم ما هو فوق القيمة، فإذا أراد غريب أن يشتري شيئًا تقاضوه قيمة النسيء، إلا أن يكون الشاري عارفًا بأحوالهم فيقول: «إنما شرائي بالنقد.» وقَلَّ مَنْ يذكر له ذلك، وحيث كان هؤلاء الطلبة من ذوي الأيسار والإسراف كانت هاتان المدينتان أغلى من سائر بلاد الإنكليز.

(١٣–٣٩) تشاؤم الإنكليز وتفاؤلهم

أما ما عندهم من الطيرة والتفاؤل فقد ذكر صاحب الجرنال المسمى بأخبار العالم عدد ٦٧٤: أن الإنكليز يتطيرون من لقاء المرأة الحولاء ما لم تبادر بالكلام، فحينئذ تزول الطيرة، ومن السفر يوم الجمعة، وأن يكون المدعو في عيد الميلاد رابع عشر شخصًا، وأن يعارض سكينان وقت الغداء، وأن يمشي أحد تحت السلالم، وأن تبقى أغصان الميلاد في البيت بعد عيد «كندلماس» وإلا فإن إبليس نفسه يأتي ويأخذها.

قلت: أغصان الميلاد هي أغصان يقتطعونها ويزينون بها الغرف والبيوت ليلة عيد الميلاد ويقال لها «ميزلتو»، وهي عادة قديمة من عادات أعياد «الدرويدس»، وهم حكماء أهل بريتانيا في القديم وسيأتي ذكرهم.

قال: وإذا رمي بنعلين باليتين خلف من خرج من المنزل لمصلحة يرومها كان ذلك فألًا بنجاحه وتوفيقه، وهذا تستعمله خصوصًا علية الناس في بعض البلاد، ولا سيما عند الأعراس، وإذا قص الإنسان شعر رأسه مدة نمو القمر نما وجَثُل، ويتطيرون أيضًا من رؤية الهلال من شباك أو زجاج ونحوه، فإذا رأيته في الفضاء فاقلب ما في جيبك من الدراهم أو الفلوس، وتَمَنَّ خيرًا في الشهر القابل تنله، وأن يضع أحد ملحًا في صحفة غيره، وكذا لو قلب أحد وعاء الملح على المائدة، وأصل ذلك أن بعض المصورين الطليانيين صور العشاء الأخير ويهودا مبددًا للملح.

قلت: عادة أهل بلادنا إذا أبصروا الهلال أن يبرزوا له درهمًا ويقولوا: «جعلك الله شهرًا مباركًا.» فأما قلب الملح فهو عند العرب كناية عن الغدر والخيانة، وحفظه كناية عن حفظ حقوق المودة والعشرة، وقسمهم بذلك لتعظيمه، قال العلامة الخفاجي — وعليه قولي في خائن الإخوان:

لا يَعْرِفُ الخبزَ والمِلْحَ إذ يأكل في غيبته لحم أخيه

كذا نقلته ولعله قال: «يأكل لحم الأخ في غيبته» ليتزن البيت، وإذا انقلب الكرسي برجل عزب كان دليلًا على أنه لا يتزوج في تلك السنة، وهو غريب، فإنهم شبهوا المرأة بالكرسي، وهو عين ما عنته العرب بقولهم: «قعيدة الرجل امرأته.» وإذا تأجج لهيب النار وسمع له حس، استدل بذلك على نزاع ونقار يقع بين أهل البيت، وإذا طارت جمرة من النار ووضعتها عند أذنك وسمعت لها صوتًا، دل ذلك على قبضك دراهم.

ورؤية نحو عسكر متقسم إلى أجزاء في قدح دليل على سفر طويل ومشاق، ووقوع سكين على الأرض دليل على قدوم غريب، وإذا عزم الإنسان على سفر وأكل نصف بصلة وترك الباقي كان دليلًا على عدم توفيقه، وحك العين اليمنى دليل على البكاء، واليسرى على سرور غير متوقع ومعه ضحك، وإذا اختلجت الشفة العليا وأحكت كان ذلك علامة على قبلة، أو الذقن فعلى لحم طري، أو النحر فعلى اتخاذ منديل، أو الأذن اليسرى فعلى مدح يثني عليك به أحد، وبعكس ذلك الأذن اليمنى، أو الأنف فعلى شيء يغيظك، وكأنه ملحوظ به معنى الأنفة من الشيء وهو غريب، أو الكف اليمنى فعلى قبض دراهم، أو أخمص الرجل فعلى مخاطبتك رجلًا أجنبيًّا، أو الكوع فعلى رقودك في غير فراشك، ووضع مفتاح البيت على مائدة ونحوها، مؤذن بالشؤم، فالأَوْلى أن يعلق في مسمار أو وتد.

وإذا مات أحد وتيبست أعضاؤه حتى لم يمكن ليها كان الموت مفردًا وإلا فلا بد من أن يأتي على آخر، ونباح الكلب بما يشبه العواء تحت الشباك دليل على الموت، وكذا إذا حاولت هرة أن تدخل من الشباك، أو دبت الخنافس على الموقد، أو وقفت الساعة بحيث تكون نظيفة الآلات، وإذا عزم أحد على إدارة مصلحة وهبت الريح في غد يومه من الشمال، فإنه يفوز وينجح.

وإذا كسب دينارًا كسبًا هينًا بصق عليه ووضعه في كيسه، وهكذا يبصق عليه إذا كان أول دينار مكسوب صبيحة يومه، وإذا أهدى محب إلى محبوبه سكينًا أو مقصًّا فلا يلبثان أن يفترقا؛ فلا يقبل ذلك منه إلا أن يضعه على مائدة ونحوها أو أن يعطيه في مقابلة الهدية فلسًا، ووضع المنفخ على كرسي أو مائدة مورث للنزاع، وازدهار النار مساء دليل على قدوم صاحب المنزل مسرورًا، وعثار إنسان وهو مرتقٍ في الدرج يدل على الزواج، والإكثار من الضحك يعقبه البكاء، وصرف دينار بدراهم من دون قبض قطعة من الذهب دليل على إنفاق الدراهم عبثًا، وسقوط مشاطة شعر النساء في الماء يورث تساقط الشعر بخلاف ما لو وقعت في النار، والنظر في المرآة ليلًا مكروه إلا عند الاضطرار وهو مشهور عندنا أيضًا.

وابتلال ثياب المرأة وهي تغسل تطير بأن زوجها يصير سكيرًا، والشامة في العضد تيمن وبركة، وإذا احمر وجه الإنسان، كان علامة على أن أحد محبيه يذكره، وإذا شرق أحد بشيء قالوا له في معرض الكلام: «قد ارتكبت سرقة أو خيانة» ونحوهما، وهذا مستعمل أيضًا عند أهل الشام وهو طبيعي، وتأويلهم للأحلام قريب من تأويلنا، فالحلم بكلب دليل على صديق، وبحية أمارة على عدو، وبامرأة سيئة دليل على شر ومصيبة وقس على ذلك.

وفي أول ليلة من تشرين الثاني تشتري البنات جِلوزًا ويشوينه، ثم يكسرنه فإذا خرجت أول جلوزة مزوجة استبشرت صاحبتها بالزواج في تلك السنة، يفعلن ذلك ثلاث مرات وإلا فلا، ونحو منه أنهن يشترين رصاصًا ويذبنه في ملعقة من حديد ثم يفرغنه منها ضمن حلقة مفتاح إلى إناء فيه ماء، وكيفما تشكلت قطعة الرصاص في الإناء استخرجن منها فالًا على حرفة من يخطبهن، وفي تلك الليلة يملأن أفواههن ماء، ومعه شيء من حب شبيه بالحمص ويمتنعن من الضحك لئلا يخرج الماء ثم يخرجن إلى الطرق، وأول اسم يطرق مسامعهن فهو اسم الشخص الذي يقدم على الزواج، وحينئذ يمججن الماء.

وإذا شاء أحد أن يعرف إخلاص قلب إنسان عليه، يضع مفتاحًا في الإنجيل، ثم يربط الإنجيل بخيط على شكل الصليب، ويجعل حلقة المفتاح بارزة منه، ثم يتلو الآيتين السادسة عشرة والسابعة عشرة من الفصل الأول من سفر راعوث، فإذا دار المفتاح كان ذلك دليلًا على إخلاص قلب الشخص المضمر وإلا فلا، والزواج في شهر أيار شؤم، وإذا أراد أحد أن يفتح دكانًا أو يتعاطى مصلحة مهمة فلا يبدأ به يوم الجمعة، بل يوم الخميس أو السبت، وهذا التطير فاشٍ عند جميع رؤساء المراكب.

وفي السنة الكبيسة تلبس النساء ثوبًا أحمر تحت القفطان، وكلما أكثروا من أصناف الحلواء في رأس السنة زاد استبشارهم بخيرها وبركتها، وفي عيد الميلاد يصنعون نوعًا مخصوصًا من الحلواء يسمونه «كرسمس بودن» ويبقون منه شواية في الصوان تبركًا بها، وإذا مضى عليهم هذا العيد من دون أكل هذه الحلواء أوجسوا النغص والقلة سنتهم كلها، وإذا كانوا غائبين عن بلادهم ولم يقدروا على اتخاذها بعثوا إلى أهلهم يستهدون منها لُماظة فيبعثون لهم في كتاب بمثل قلامة الظفر، وفي ليلة ذلك العيد يوقدون شموعًا كثيرة ونارًا متأججة، ويزينون الغرف بتلك الأغصان التي تقدم ذكرها، ويظهرون الفرح والابتهاج، وإذا مشت امرأة من تحتها حق للرجال أن يقبلوها، وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر أيلول ويسمونه «ميكلمس» أي عيد ميكال يأكلون الوز.

وفي السادس من كانون الثاني يصنعون كعكًا مخصوصًا يسمونه كعك اليوم الثاني عشر، ومن أوهامهم أيضًا الاعتقاد بظهور روح الميت عند قبره، وهذا الوهم فاشٍ حتى عند عامة سكان المدن، فقد كنت أرى في كل ليلة بلندرة جمعًا عظيمًا واقفين عند إحدى المقابر لما شاع عندهم من أن روحًا تَرَاءَى فيها لبعض المارين في هيئة بشر بلباس أبيض، فأوجب انحشادهم هذا إحراق وجه المقبرة بالجير لنفي تردد الروح، أو لعله كان حيلة في منع اجتماع الطَّغَام؛ لأنهم حيثما اجتمعوا اجتمع الشر، ويوجد في لندرة موضع اسمه «هاتن كاردن» فيه عين ماء يزعمون أنه يجري منها دم في كل يوم عند نصف الليل، ولها قصة طويلة لا يمكن إيرادها هنا، ومن ذلك اعتقادهم بأنه متى احتضر شخص حضر في منزله روح يسمونه رصد الميت، فيسمع له قرع على الباب أو الحائط أو صوت نحو صوت جر السلاسل أو طنين الجلاجل، فإذا سمع ذلك منه ثلاث مرات كان الموت بعدها لا محالة.

ومن النوادر هنا أن رجلًا كان يماشي زوجته في بستان وهما يتحدثان، وفيما كان يكلمها أحست بكرب وانقباض، فقالت له: «تَنَحَّ عن هذا المكان فإني أظنه محضورًا.»

فتنحى عنه، ثم سأل عنه بعد ذلك فعلم أنه عند تحادثهما كان بالقرب منهما رجل يقتل نفسه، وقرأت في بعض صحف الأخبار أن رجلًا قتل ولدًا صغيرًا فقُضي عليه بالموت، ولما سئل عن سبب قتله إياه قال: «كنت أريد أن أتخذ من جمجمته مصباحًا ساترًا حتى أدخل البيوت ولا يراني أحد.»

واتفق في بعض السنين أن ظهر في السماء نور أبيض امتد من المشرق إلى المغرب خفيف المر، وكان كأنه هباء، ثم انتشر في عنان السماء كله، وظهرت عقب ذلك حمرة في الأفق، ثم كثر وعظم، فطفق أهل الدار التي كنت فيها يبكون ويضجون ويستغيثون، فسألتهم عن سبب ضجيجهم، فقالوا: إنها آية على المعامع والحروب، فقلت: «كلا بل هي آية على فساد البطاطس.» فانقلب بكاؤهم ضحكًا، وكانت تلك السنة رابع سنة مشئومة على غلة هذا النبات في إرلاند فكان الناس في هاجس عظيم لذلك؛ لأن جل طعامهم بل طعام الإنكليز أيضًا إنما هو منه، ثم أعقب تلك الآفة حميات ووباء؛ فمات أناس كثيرون، ورثى لهم كثير من الدول، فجاءهم إمداد منها، وأمدهم مجلس مشورة الإنكليز بعشرة ملايين ليرة. واعلم أنه قد يتشاءم الإنسان من مكان أو زمان ويتفاءل بغيرهما، ويكون ذلك مجرد وهم، مثاله أن يكون في محل لم ينتفع فيه إلا بوعود وأماني فيمل منه، وينتقل إلى آخر، فتتحقق فيه أمانيه، فيرى أن ذلك من يمن الانتقال، مع أنه لو بقي في المحل الأول لصحت له.

وفي بلاد الفلاحين بل وفي المدن الجامعة أيضًا نساء يدعين علم المغيبات بطرق مختلفة، منها التأليف بين أوراق اللعب المزوقة، وذلك بأن تصف إحداهن منها ثلاثة صفوف، كل صف يشتمل على سبع ورقات ثم صفًّا رابعًا من خمس ورقات أو خمسة صفوف كل منها يشتمل على خمس ورقات، ثم صفًّا آخر من اثنتين، وتضمر أن إحدى المزوقات الحمر كناية عن امرأة، وإحدى السود كناية عن رجل أسمر، وتنسب لكل الورقات المنقطة خاصية من البخت وضده، وتقابلها بتلك المزوقات التي عليها الإضمار، ثم تستخرج من تلك المقابلة دلائل على ما يحدث بعبارة لا تخلو من الإبهام والتوجيه.

(١٣–٤٠) عرافات ومنجمون

وقد اتفق وأنا مقيم في بيت قسيس من فضلاء الإنكليز أن حضرت عنده امرأة من هؤلاء، فقال لي: «ها هي الشيطان.» وذكر الاسم بالعربية فقالت: «كلا، ما أنا شيطان بل مبصرة البخت.» فسألتها أن تبصر لي بختي فألفت بين تلك الأوراق ثم قالت: ستكون سببًا في تسفير رجل أسمر إلى بلاد بعيدة، وإن امرأتك تأخذ في سفر طويل، ويكون حديث في شأنك بعد مدة وتحصل على هدية من الألماس وتذهب إلى جماعة عظيمة، ويدعوك رجل من سادة الناس فتسافر إليه ويحصل توفيق لولدك وينال هدية، وأن امرأة سمراء تساعدك على نوال إربك، وأن رجلًا أسمر يستدعيك إليه، وتعدل امرأتك عن السفر، ويحدث لك سفر غير متوقع مع رجل أبيض وامرأتك تأخذ هدية، وأن رجلين أسمر وأبيض يشتركان في تسفير امرأة، وأن سيدة زهراء يكون لها مداخلة في أمرك ولك صديقة من النساء سمراء.

وقد وقع ذلك كله إلا هذه الثلاث الأخيرة فإني لم أتحققها، وكثيرًا ما تذهب النساء المتهنات بالخدمة والممتحنات بالعشق إلى هؤلاء العرافات ويسألنهن عن أحوالهن ويعطينهن نصف ما تملك أيديهن، واتفق أن امرأة سافر عنها زوجها وانقطع خبره عنها مدة طويلة ثم بلغها خبر وفاته فتزوجت آخر، فلقيت عرافة فقالت لها العرافة: تعالي أخبرك بما لا تعلمين، ثم ذكرت لها من جملة كلام أن زوجها الأول حي وأنه عازم على الرجوع، فدخل الرعب في قلب المرأة فألقت نفسها في النهر، وقُدر لها أن بصر بها رجل كان على الشاطئ فبادر إليها وأنجاها من الغرق. وأخرى جُنَّت من تهويل عرافة عليها، فكانت تقول في حال جنونها مبصرة البخت الورق مبصرة البخت الورق.

ومنهن أيضًا من تبصر البخت برؤية الكف، وقد رأيت كتبًا مطبوعة في علم الكف والهيئة فيها من الأحكام نحو ما في كتبنا، ومنهن من تدعي إحضار الغائب وتشخيصه لعين السائل في مرآة ونحوها كما في مندل مصر، وفي أخبار العالم عدد ٦٩٤ من شاء أن يعلم ما يجري عليه في المستقبل من الشغل أو السفر أو الزواج أو تعاطي مصلحة فعليه أن يسأل المنجم داود ستلا المقيم في إدورد ستريت مادنلان بحيث يوقفه على يوم ميلاده وعلى جنسه ويرسل إليه اثنين وعشرين طابعًا، فإنه ينبئه بالتفصيل عن كل شيء سواء كان بالمكاتبة أو مشافهة.

وكذلك المنجم ملفيل وجوابه عن المسائل يكون نظمًا، وعلى السائل أن يرسل إليه اثني عشر طابعًا، وفيها من كان دأبه الشغل ومعه بعض شلينات ورام أن يتعلم حرفة

مكسبة في أسبوع واحد فقط فعليه بالمنجم كورتني فإنه يهيئ له وجهًا للعمل بما عنده من القليل حتى يمكنه أن يكسب من بعد ذلك من ثلاث ليرات إلى عشر وهو على هيئته، وهذه الحرفة هي من أكرم الحرف وقد باشرها المنجم منذ سنين وغبط بها، فلذلك يعرضها على الطالبين بحيث يحرز منهم ثلاثين طابعًا.

وفي بعض الأخبار ما نصه قد صار أهل لندرة الآن جديرين بأن يكونوا ضحكة لأهل الريف لاعتقادهم بالسحر والشعوذة، ولم يبقَ من داعٍ إلى الذهاب إلى بلاد الفلاحين لنسمع أن النساء اللواتي لا عيب فيهن سوى الفقر والهرم يستطعن أن يمنعن البقرة عن الحلب، ويعطلن المزارعين عن أعمالهم، ويجرون الراقد من فراشه من غير أن يحس به، فإن هؤلاء المدجلات المدلسات يوجدن الآن في لندرة مع كونها معدن المعارف والنور، وليس المترددون عليهن من سفلة الناس بل من أهل النباهة والإيسار، وحسبك دليلًا على ذلك ما جرى منذ أيام في ديوان كلدهال حيث أحضر بعض الشرطة امرأة من هؤلاء لكونها كتبت رقاع وعيد وتهديد إلى بعض التجار من ذوي الشأن، قال: ولما دخلت حجرتها وجدت عندها أربع نساء مترديات باللباس الفاخر أحسبهن من بنات التجار، فلما سألتها عنهن قالت: إنما قصدنني لعلمهن بأني أبصر البخت.

وقال آخر: شكا بعض الناس إلى قاضي سري بأن أحد معارفه يسمع في الليل ضجيجًا وعجيجًا وضرب مطارق فلا يقدر أن ينام، قال: فلما سرت إليه سألته عما يقاسي، فقال: إن الناس يفيضون في حديث فلانة امرأة فلان، قلت: وما بينك وبين زوجها، قال: لا شيء إلا كلمات دارت بيننا منذ سنة، قلت: وما يصنع بك الآن، قال: يبعث إليَّ أناسًا يضربون بالمطارق ويضجون ويزأطون الليل كله فما يدعني أهجع ولا أحد من الجيران ينام، قلت: أتعرف أسماءهم؟ قال: نعم، ولكن زوج المرأة هو الذي يغريهم بهذه الأذية، قال: فأحضرت الزوج وأخبرته بشكوى الرجل، فقال: جزاء وأقل جزاء، قلت: كيف؟ قال: لأنه يأتي كل ليلة إلى بيتي ويخطف امرأتي من الفراش ويخرج بها من الشباك، ويضبطها عنده إلى الساعة الرابعة بعد نصف الليل ثم يأتي بها منهوكة مدهوكة، قلت: ألا تخجل من أن تقول هذا الكلام وأنت شيخ، وأني لما لقيتك آخر مرة قلت لي: إنها عليلة فهل أفاقت الآن؟ قال: «لا ما دام الرجل يخطفها فلن تفيق أبدًا.» قلت: «قل لي ما يفعل وعليَّ عقوبته؟» قال: «وأي عقاب لمن له تسعة أعمار كالهر؟» قلت: «هل رأيته عيانًا يأخذ امرأتك؟» قال: «لا، لأني أكون راقدًا.» قلت: «هلا ربطت يديها إلى عنقك حتى تستيقظ عند ذهابها؟» قال: «لن ينفع في هؤلاء الناس حذر.» قلت: «ما السبب

الذي حملك على سوء الظن بهذا الرجل؟» قال: «ذلك الرجل المبارك الذي أراني وجهه؟» قلت: «من هو؟» قال: «هو الذي شفاها بعد أن عجزت عنها الأطباء.» قلت «كيف أراك وجهه؟» قال: «أخذ نعل فرس وأحماها حتى صارت كالجمر، ثم أغلق الشباك، ووضع النعل في ماء قذر، وقال لي: أي وجه ترى في الدخان؟ وأشهد أنه كان زوج المرأة ... إلخ.»

(١٣-٤١) الجريمة في بلاد الإنكليز

فأما ما يحدث في بلاد الإنكليز من تسميم الأزواج بعولتهن، والوالدين أولادهم وقتلهم وبالعكس، ومن الانتحار أعني قتل الإنسان نفسه، فأمر يهول وشرحه يطول، نعم إن الانتحار يحدث أيضًا في غيرها وأعظم أسبابه العشق والحرمان، إلا أنه بالنسبة إلى هذه البلاد لا يذكر، ولنورد لك نبذة من ذلك؛ لتقيس عليها.

حكى صاحب أخبار العالم أن رجلًا ذبح ثلاثة أطفال له بالموسى في وقت واحد، وكان أصغرهم رضيعًا، ثم ذبح نفسه، فلما سئلت زوجته عن ذلك، قالت: «إني غادرته مع الأولاد سليمًا معافى، فلما رجعت وجدتهم ثلاثتهن جثثًا مطرحة وزوجي إلى جانبهم ولا أعلم سبب ذلك.» وزعم بعض معارفه أنه قتلهم خوف الإملاق.

ومنها أن امرأة شكيت عليها بأنها قتلت أصغر أولادها، فعند الامتحان علم أنها قتلت من قبله سبعة، وأنه كان الثامن مع أنها كانت تتظاهر بالصلاح والتقوى وتذهب إلى الكنيسة في كل يوم أحد، وتلازم دراسة التوراة، ولما سئلت عن ذلك قالت: «قد قتلتهم خوف الإملاق.» ومنها أن رجلًا كان له امرأة وأربعة أولاد منها، وكان الرجل والأولاد منتظمين في سلك جمعية، من أصولها أنه متى يمت أحد من أعضائها يدفع لوارثه خمس ليرات، فطمعت المرأة في نيل الدراهم، حتى سمت زوجها وكان ابن خمس وخمسين سنة، وأظهرت أنه مات حتف أنفه فقبضت المبلغ المذكور، ثم سمت ابنها الأكبر وله من العمر ست وعشرون سنة، فمات وقبضت المبلغ، ثم سمت الثالث وسنه إحدى وعشرون سنة، فمات وقبضت المال، ثم سمت الرابع فمرض واستُدْعِي بطبيب، فلما أتى الطبيب علم أنه مسموم، فعند ذلك حصل البحث والتفتيش ونبشت جثث إخوته وشرحت، فتحقق أنهم كلهم ماتوا مسمومين. ومنها أن بنتًا سمت أمها لتستولي على أمتعتها، ثم أحرقتها ولما كانت باركة على صدرها جعلت أمها تناشدها وتتضرع إليها أن تبقي عليها، فقالت لها البنت: «لقد عشت أكثر مما يحق لك أن تعيشي.»

ومنها أن قسيسًا من أهل الكنيسة المتفرعة اسمه فوزستر في مدينة دكنهام، كان يقضي الفرائض الدينية لإحدى النساء المخدومات، فلما رأته غير أهل لوظيفته صرفته فمرض فأُخذ إلى المستشفى ثم شفي ورجع إلى بيته، وكان له امرأة وولد سنه نحو ست سنين، فقامت المرأة صباحًا لتهيئ له الفطور، وتركت الولد مع أبيه في الفراش، ثم بعد قليل رأت زوجها خارجًا إلى الطريق، فلما أبطأ عليها ذهبت لتنظر ولدها، فإذا به مذبوح بموسى. ومن ذلك أن رجلًا ذبح ابنته وواراها في حفرة، ثم ذبح أخاها وواراه معها أيضًا، وظل يأكل بذلك السكين الذي ذبحهما به مدة، ثم عُلم أمره، ولما قُضي عليه بالقتل فرح جدًّا! ومن ذلك أن امرأة من لمبث قتلت طفلًا لها وله ثلاث سنين ونصف، وأخته وهي بنت سنة ونصف. ومنها أن امرأة ذبحت ابنها فلما سألها القاضي قالت: «إنما قتلته صغيرًا لينال سعادة السماء.» وهذا كافٍ.

ومن العجيب أن مجلس المشورة بلندرة قد أصدر أمرًا مبرمًا بعدم أذى الحيوان غير الناطق، وبتأديب من يرتكب ذلك أو تغريمه، وقد بلغ عدد الذين آذوا الحيوانات في العام الماضي ٤٦٤ شخصًا، وبلغت غرامتهم نحو ٥٧٤ ليرة، وأرسل منهم عشرة نفر إلى دار التأديب؛ إذ لم تقبل منهم غرامة.

ورُئِيَ مرة رجل من نبلاء الفرنسيس يغري كلبه بمطاردة هرة فغرمه الحاكم عشرين شلينًا. ومع ذلك فلم يهمه حظر بيع السم منعًا لهذا الشر المتفاقم على الحيوان الناطق، وأن الولد إذا أخذ حاجة ليرهنها وهو دون البلوغ أو دون خمس عشرة سنة لا يقبلها منه المرتهن، ولكن إذا ذهب إلى دوائي ليشتري سمًّا أو مسبتًّا باعه، على أن بيع السم في فرنسا ومالطة محظور على أي كان إلا بإذن من الطبيب، فكأن العجماوات أنفع للدولة من بني آدم، وما أرى لذلك سببًا سوى هذا الأصل الفاسد الذي يعبرون عنه بقولهم حرية المتجر، أو لزوم السم للفلاحين في قتل الهوام — كما سبق ذكره — إلا أن مراعاة الجانب الأقوى في الأمر الذي يكون منه مفسدة ومصلحة ألزم وأهم. وهذه الحرية في المتجر هي التي سهلت للناس أن يغشوا كل شيء من المأكول والمشروب، وكل ما يصح فيه البيع والشراء — كما سيأتي بيانه — حتى إن صاحب الذوق السليم يؤثر المقام في بلاد الهمج بحيث يذوق شيئًا مما تنبته الأرض على حاله على أن يمكث بين قوم يعلمون عدد نجوم السماء ورمل البحار، وهم مع ذلك يأكلون ما يضر البهائم فضلًا عن البشر، وكل شيء جاوز القدر أضر.

وأقبح من ذلك أنه كثيرًا ما يحكم القضاة أو الجوري على مرتكب القتل بالجنون إعفاء له من القصاص، فتذهب الحكمة سدى في ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩)، أو في القتل أنفى للقتل، و«الجوري» هم اثنا عشر رجلًا يقع عليهم الاختيار، فيجتمعون مع القاضي لفصل الدعاوى، وهم على قسمين خاص وعام، فالخاص مؤلف من الفقهاء وذوي الوجاهة لفصل الأمور الخطيرة، ولكل منهم ليرة على كل دعوى، والعام مؤلف من أصحاب الدكاكين والحرف لفصل الأمور الحقيرة ولا إيراد لهم، وقيل: إن كلًّا منهم يأخذ ثلثي شلين بحسب ما تقرر في السابق، أعني عند رسم هذا الأمر، ومن امتنع منهم عن الحضور لزمه غرامة.

وأصل الجوري عرف في أيام الصكصونيين؛ وذلك أنه كان حدث نزاع بين واحد من الإنكليز وآخر من أهل والس، فعين ستة نفر من هؤلاء وستة من أولئك للنظر في أمرهما، ثم أثبتت إقامة الجوري في المجلة التي يسمونها «مكنا كارتا» كأنها من أعظم أسباب العدل والحرية، وللقاضي أن يثبط الجوري عن الأكل والشرب، وأن يمنعهم النور إلى أن يتواطئُوا على فصل ما، وقد غرم بعضهم لوجود فاكهة في جيبه من دون أن يثبت عليه أكلها، واتفق مرة أن بعض المسافرين في سكة الحديد طلب أَرْشًا فحكم الجوري بأن يُعطى ربع يني وهو عبارة عن خمسة أفلس، فأنكر عليهم القاضي هذا الحكم، وأعادهم إلى النظر فيه فعادوا ولم تتفق كلمتهم حتى مضى عليهم أربع وعشرون ساعة لم يطعموا فيها شيئًا، ثم خرجوا وهم يتظلمون من الجوع.

قال صاحب التيمس: «ليس من العدل أن يترك الإنسان أشغاله ويأتي لسماع ما يحدث بين الرجل وامرأته من التنافر والتهاتر.» ا.هـ. فقد عرفت أن هؤلاء الذين يأتون لإجراء العدل هم أنفسهم مظلومون، وقد يكون حكمهم أيضًا على غيرهم زائغًا، فقد قرأت في جرنال التيمس أن امرأة اسمها إليصابت جان وود، عليها طلعة الحشمة والاعتبار، وعلى ذراعها طفل رضيع، ادُّعي عليها بأنها سرقت شيلينين ونصفًا في إحدى العواجل، فثبت عليها الذنب، وحكم عليها بحبس ستة أشهر. وفيه أن امرأة طاعنة في السن ثبت عليها أنها سرقت ساعة وسلسلة قيمتهما خمس ليرات، فحكم عليها بحبس ثلاثة أشهر مع الأعمال الشاقة.

وإذا كان للمدعى عليه خصم من أفراد الجوري فله أن يستبدله، فإذا تواطئوا جميعًا على الحكم بقتل واحد ودونوا ذلك في صك، قال القاضي للمحكوم عليه: «قد حكم عليك الجوري الذين هم من أهل بلدك بأنك مستوجب للقتل، فبموجب شرع هذه

المملكة تؤخذ من هنا، ويجعل في عنقك حبل وتشنق إلى أن تخرج روحك، ثم تدفن مع أمثالك.» ا.هـ.

ويوم شنق المقضي عليه يكون فرجة للنساء، فيهرعن صباحًا من بيوتهن لمشاهدته، حتى تغص بهن الطرق، وهو دليل على شدة قلوبهن وجراءتهن، وقتل القاتل عندهم لا يكون إلا بهذه الصورة، وفي أحوال كثيرة يقوم التغريب مقامه، وإذا أذنب أحد في بلاد الفلاحين حبسه الشرطي إلى أن يمر القاضي بذلك فيقيم هناك مدة، وترفع إليه الدعاوى، وفي إنكلترة ووالس ستون قاضيًا، ونحو ستمائة دار للقضاء، وثلاث وثلاثون خزنة مال — وقد مر في أول الكتاب عَدد القضاة ومُرَتبهم — ومنع القصاص بالقتل في بعض الجرائر كان مما أحدثه سر روبرت بيل في سنة ١٨٢٤، ثم منع على أي جريرة كانت ثم عمل به في بعض الأحوال.

قال الفاضل غولد سميث إنه: «يوجد في بلادنا من المقضي عليهم في سنة واحدة أكثر مما يوجد في نصف أوروبا، فلا أدري هل سبب ذلك كثرة قوانيننا أو تعدي أهل بلادنا؟! ولعل ذلك مسبب عنهما معًا، فإن أحدهما ينتج الآخر.»

وفي بعض صحف الأخبار «إنا نرى الجرائر الآن قد تكاثرت، وسبب ذلك الدَّرء بالشبهات، فإن الذين يثبت عليهم القتل ونقب الديار يعاقبون بالنفي لا غير، فإذا انقضت مدتهم رجعوا شرًّا مما كانوا من قبل.» على أن المصروف على تغريب هؤلاء المنفيين في كل سنة يبلغ نحو أربعة وخمسين ألف ليرة، قال: وعدد أصحاب الجرائر التي دربوا فيها من قتل وسرقة مما يوجب سجنهم عليها نحو ثمانين ألفًا، وهو أكثر من عدد العساكر ومصروفهم ضعفا مصروف هؤلاء، قلت: وفيه نظر.

(١٣-٤٢) شرع الإنكليز

واعلم أن شرع الإنكليز هو أطول الشرائع أحكامًا وأكثرها قيلًا وقالًا وأوسع من علم العربية قلبًا وإعلالًا، فإن بعض الدعاوى التي تستدعي دهاء الفقهاء ومحالهم ربما يدوم خمسين سنة فأكثر، وقد أنفق مرة في دعوى أقيمت على رجل اسمه بالمر ٧٥٣٢ ليرة، وقد وقع بعد تحرير هذا الكتاب أن أقيمت دعوى على شاب من الأغنياء بعدم رشده حظرًا له عن التصرف في أملاكه، فلزم لإثبات ذلك إحضار شهود من الروسية وغيرها، فكان المصروف على كل ساعة مائة وستين ليرة، وبعد أن بلغ ستين ألف ليرة خرج الحكم برشده.

ويمكن تقسيم شرعهم إلى أربعة أقسام؛ الأول: ما تناقلوه من أحكام الرومانيين والنرمانديين والصاكصونيين الذين فتحوا بلادهم، ويدخل في ذلك أمور من قبيل العادة، وفي الحقيقة فإن جُلَّ عاداتهم سنة لهم، فما أجدرهم بأن يكون لهم من لغتنا لفظة الدين، فإنها بمعنى الديانة والعادة، فأرى أن أخلعها عليهم سواء قبلوها أو لا. الثاني: ما بني على العدل والإنصاف ومراعاة المصالح على وجه الاستحسان والترجيح؛ إذ لم يرد فيه نص ولم يجرِ فيه حكم، فإذا أمر من ذلك أحيل على محكمة العدل، فيحكم فيه القاضي والجوري بالرأي حسبما يترجح عندهم أنه الأصلح. الثالث: أحكام مجلس المشورة، وهي غير متناهية. الرابع: أحكام ديوان الكنيسة، وليس في شيء من هذه الأقسام أحكام على الطاهر والنجس وما يؤكل وما لا يؤكل، وعلى حيض المرأة ونفاسها وحدادها وعدتها وما أشبه ذلك.

ومع ذلك فيمكن أن يقال: إنه ليس أمر من الأمور المتعارفة إلا وهو مقيد بحكم من هذه الموارد الأربعة، حتى إنهم يكتبون في المناصع: «أصلح ثيابك قبل الخروج.» إشارة إلى أنه لا يزرر بنطلونه وهو في الشارع، أو أنهم يكتبون لا يلصق هنا أوراق تعريفات، بل أصحاب المطاعم أيضًا ينهمون إلى وضع شيء من الأحكام، فنجد أحيانًا لوحًا منصوبًا قد كتب فيه: «التسليم عند التسلم.» أي نقد الثمن عند وضع الأكل بين يدي الآكل، أو «لا يؤذن في استعمال الدخان هنا.» ونحو ذلك، ومتى كانت جريرة الجاني صغيرة، أجري الحكم عليها في الحال، وإن كانت بين بين، حبس إلى أن ينظر فيها، وحينئذ يرخص للمذنب في أن يطلب كفلاء يكفلونه، فيخرج من السجن ويتعاطى أشغاله، إلى أن يعاد عند بت الحكم؛ فإن لم يجد كفلاء بقي في السجن.

ومما يرى منكرًا من أحكامهم إجازة شهادة الأولاد دون البلوغ، غير أن القاضي يستحلفهم أولًا وينبههم على خطر اليمين والشهادة، هذا إذا كان في الدعاوى الصغيرة؛ أي التي لا توجب القصاص بالقتل، والويل ثم الويل لمن وقع في يد أحد من فقهاء الشرع، فإنهم أدهى خلق الله، ولا يعجزهم أن يصيروا الظلام نورًا والنور ظلامًا، ودونك مثالًا واحدًا مصداقًا لذلك وهو: أن بعض المتكيسين الذين يدلون بجمالهم دون مالهم عشق بنت أحد الأغنياء، وإذ كان يعلم أن الغنيين للغنيات والمقلين للمقلات خشي أن يخطبها من أبيها فيسفه، ويجبه، فتوسل إلى ذلك بواحد من هؤلاء الدهاة ووعده بصلة حسنة، فقال له: «سأتروى في أمرك فائتني غدًا.» فلما كان الغد أتاه الشاب، فقال له الفقيه: «أرأيتك لو شاء أحد أن يقطع أنفك ويعطيك عشرين ألف ليرة أفكنت ترضى؟»

قال: «كلا ولو أعطيت ضعفيها.» فانطلق الفقيه لساعته إلى أبي البنت وخاطبه في أن يزوج ابنته من الرجل، فقال له: «كيف أصاهره وهو فقير، وليس له غير جماله؟» قال: «وعنده أيضًا جوهرة أعطي فيها بحضرتي عشرين ألف ليرة فأبى أن يبيعها.» فتغير الرجل عن إصراره وما زال به حتى أغراه بتزويج ابنته.

والبارع من هؤلاء الفقهاء لا يباشر دعوى من الدعاوى الخطيرة إلا إذا قبضت كفه على ثلاثمائة ليرة، فأما كتاب الصكوك فلما كان جعلهم بحسب السطور كانت عبارتهم مملة لما فيها من التكرار غاية الإملال، مثال ذلك: «باع زيد بن بكر داره الفلانية لخالد بن عمرو بكذا وكذا بيعًا خاصًّا مطلقًا، وأقر زيد بن بكر بأن داره الفلانية التي باعها لخالد بن عمرو بكذا وكذا، قد انتقلت من ملكه انتقالًا مطلقًا، وصارت في حوز خالد بن عمرو، فصارت دار زيد بن بكر والحالة هذه في تصرف وملك خالد بن عمرو ملكًا مطلقًا خاصًّا.» ويقع كثيرًا أيضًا في أحكامهم الديوانية مثل هذا التعبير الآتي: «إذا أخذ شخص أو أشخاص شيئًا أو أشياء من موضع كذا أو مواضع كذا وجب القصاص على ذلك الشخص أو أولئك الأشخاص الذين أخذوا ذلك الشيء أو تلك الأشياء من ذلك الموضع أو تلك المواضع.»

وهذا ضد عبارة كتب الفقه الإسلامية، فإنها أخصر ما يكون حتى تحتاج إلى شرح وحاشية وفقيه يفسرها، وقد يقع التكرار في عبارة كتاب الصكوك في البلاد الإسلامية، وهم الذين يتعيشون من كتابتهم، ولقد تعجبت كثيرًا مرة من قراءة صك كتبه بعض كتاب المحاكم بتونس، مطلعه الأجل الوجيه الفاضل الموقر محمد بن الحاج أحمد، قال بترو المالطي النصراني: إنه أعطاه كذا وكذا، يعني أن المالطي ادعى على الأجل محمد بكذا، وإنما فصل هذا الكلام وجاء بهذا التركيب السخيف كراهة أن يذكر اسم المالطي قبل محمد، وهو من الهوس الذي يقضي إلى خرم قواعد العربية، وأكثر أحكام تونس على هذا المثال من اللحن والخطأ، وأقول في الجملة: إن عبارة كل الفقهاء فيها خروج عن قواعد النحو واللغة.

(١٣-٤٣) كلام الإنكليز ومكاتباتهم

أما كلام الإنكليز فإنه لما كان مورده اصطلاح اللغة وعرف التخاطب رأيت من الواجب أن أذكره بالتفصيل في فصل على حدة، أجعله خاتمة لهذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وإنما أقتصر منه على نبذة فأقول: إن تحيتهم في الصباح هي أن يقولوا صباح طيب، وفي المساء مساء طيب، ثم يردفوها بقولهم: «هَودُو يُودو» وترجمتها: «كيف تعملون أنتم تعملون؟» وهو سمة تنبئ عن مزيد ميلهم وتوقانهم إلى العمل، حتى إنه يوجد في لغتهم نحو عشرة ألفاظ مرادف العمل، وهو أكثر ما عندهم من المترادف، ولا يخاطبون بضمير المفرد إلا الباري تعالى أو في الشعر، وهو ضربة لازب عند طائفة من جنسهم يقال لهم: كويكرس، وسيأتي ذكرهم.

فأما عند الفرنسيس فاستعماله إنما هو في مخاطبة الإدلال، كأن يكلم المحب محبوبته أو الوالد ولده، وتحية هؤلاء بعد صباح الخير: «كيف أنتم تحملون أنفسكم؟» «وكلتا التحيتين لا معنى لهما» كما قال فلتير، ومتى خاطبت أحدًا من فلاحي الإنكليز وهو مُصغٍ إليك أبدى همهمة عند كل جملة، أعني قوله: «هم» فكأنها عندهم حرف بمعنى نعم، وعند كل فقرة تقضي بالاعتبار يقول: «آه».

وإذا هم خاطبوك نفضوا رءوسهم ولا يكادون يشيرون بالأيدي — كما هو دأب أهل مالطة وإيطاليا وغيرهم — وليس للهجتهم مطلقًا نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل أو عالم، أو ولد أو امرأة؛ إذ ليس في كلامهم مد ولا حركات طويلة، وأصوات الرجال من حناجرهم بخلاف اللغة الفرنساوية، فإن فيها غُنَّة تستحب من الأولاد والجواري جدًّا، وربما طرب لها من ليس يعرفها، ومع أن لغة الإنكليز من اللغات المستحدثة ولم تشهر إلا وأعقبها التمدن وطبع الكتب، فلكل أهل صقع عندهم كلام ولهجة خاصان بهم، فلا يكاد أحدهم يفهم من صاحبه شيئًا بمنزلة ما عند أهل الشام والمغاربة من الفرق.

ومن عادة النساء إذا كلمن أحدًا من الخاصة أن ينحنين له عند كل سؤال وجواب، وعادة الغلمان أن يضعوا أيديهم على رءوسهم، وكذا هي عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب، حتى القسيسون أيضًا يرتاحون لهذه الدغدغة، وإذا خاطبوا أحدًا بكلام توبيخ وغيظ قالوا له: «سر» وهي بمعنى سيد، حتى إنهم يقولونها عند طردهم كلبًا ونحوه فيقولون مثلًا: «اخسأ يا سيد.»

وقد يستعملونها أيضًا لتعظيم المخاطب وإجلاله، ومن الغريب في هذه اللفظة أنها بالفارسية بمعنى رئيس ووافقها أيضًا في العربية لفظة السري، فلا أدري أي اللغات

هي الأصل لها، والرجل يقول عن زوجته: «معلمتي»، والمرأة تقول عنه: «معلمي»، وإذا خاطب زوجته أحد من الخاصة بلفظة «مادام»، كان ذلك إشارة إلى تنافرهما، فخطاب الرضى إنما هو أن يقول لها «يا محبتي» أو «يا عزيزتي» وربما قالوا: «يا قلبي»، ولا يكادون يفهمون يا روحي ويا عيني، ويكثرون من ذكر الشيطان في حالتي التعجب والاستفهام فيقولون: «أين الشيطان كنت؟» ويضيفون لفظة «مان» بمعنى الرجل إلى كل شيء فيقولون للسقاء «واطرمان» أي رجل الماء.

ومن عادتهم في المكاتبة إذا أراد أحد من الأعيان أن يكتب إلى شخص يجهله أن يقول: «فلان يسلم على فلان، ويسأله عن كذا.» وفي المرة الثانية يكتب له: «سر» وفي الثالثة أو الرابعة: «دير سر» أي سيدي العزيز، وإذا خرق حجاب الكلفة بينهما كتب له «مي دير سر.» أي سيدي العزيز، وإذا استحكمت الألفة كتب له: «عزيزي الخواجة فلان.» فإذا طالت كتب «عزيزي فلان» ولهم عادة قبيحة حين يكتبون أسماءهم في آخر الكتاب مما عرف بالإمضاء، وذلك أنهم يكتبونها مُثَبَّجَة معماة بحيث لا يقدر أحد على قراءتها إلا من مرن عليها، فعلاج ذلك لمن يجهل الاسم أن يقطعه من الرسالة ويلصقه على ظهر المغلف ويرسله إليه حتى يبينه في المرة الثانية، وأصل ذلك أن من يكتب عندهم خطًّا حسنًا يُزَن بأنه معلم للصبيان أو كاتب عند تاجر، فأما من يعيش من أملاكه فلا يلزمه ذلك، ويقابله عندنا قبح عادة الذين يمضون أسماءهم ويهملونها عن الإعجام.

ولا أدري ما سبب هذه العادة الذميمة الموجبة للإبهام والالتباس، والظاهر أن منشأها الكبر أيضًا فإن المكاتب يظن أن اسمه قد بلغ من الشهرة والتنويه بحيث لم يحتج إلى إعجامه، والدليل على ذلك أنهم يكتبون تحت أسمائهم حرف الميم كناية عن معروف، وبما ذكرت لك من اصطلاح الإنكليز في افتتاح رسائلهم عرفت أنهم لا ينعتون المكتوب إليه بالأجل والماجد والأكرم والمفخم وغير ذلك إلا أنهم يطيلون غالبًا في الإمضاء فيكتبون: «أنا باق يا سيدي عبدك الأحقر المطيع» فلان، وقد تكون أحيانًا نوعًا من التهكم؛ وذلك إذا كان الكتاب مشتملًا على التوبيخ أو المناقشة، وعادة العرب بخلاف ذلك فإنهم يسهبون في افتتاح الرسالة، ويوجزون في الإمضاء، فإذا كتبت مثلًا: «الداعي» فلان أو «عبدكم» فلان كفى وأهل تونس والمغرب يكتبون: كاتبه فلان.

وكما اختلفت عادتنا وعادتهم في المكاتبة والخطاب، كذلك اختلفت في الزيارة واللقاء، فإنك إذا دخلت على أحد من أهل العربية احتفى بك غاية الاحتفاء، وإن لم يكن بينكما صلة أو معرفة، وعند الانصراف لا يزيد على أن يقول لك في أمان الله، وربما لم يقم لك، وإذا دخلت على إفرنجي أراك أنه مشغول عنك بما هو أهم من الزيارة، وسألك أن تسرع في عرض حاجتك، وعند انصرافك من عنده ينهض لك، ويرافقك إلى الباب، وعند الفرنسيس لا بد من أن يكلمك هناك كلامًا يوجب وقوفكما ولو دقيقة، إشارة إلى أنه لم يمل منك، وفي الجملة فليس من الإفرنج من يصدق عليه إذا طرقه طارق قول الشاعر:

فقلت له: أهلًا وسهلًا ومرحبًا   رشدتَ ولم أقعد إليه أُسائِله

أو قول الآخر:

سَلِي الطارق المُعْتَرَّ يا أم مالك   إذا ما أتاني بين قِدْري ومَجْزَري
أيُسْفِرُ وجهي أنه أول القِرى   وأبذل معروفي له دون مُنْكَري

قال النمري: «المعروف ها هنا القرى والإيناس وما شاكلهما، والمنكر ها هنا أن يسأله عن اسمه، ونسبه وبلده ومقصده، وكل هذا مما يجلب عليه حياء.»

ثم إن ما عبت الإنكليز به من الأخلاق والعادات مبني على اعتبار ما وصل إليهم من الفنون والعلوم، وعلى كثرة ما عندهم من الوسائل الجديرة بأن تصفي طباعهم عن غلاظة أسلافهم وتقدم بهم إلى الكمال، فإن ما يطبع عندهم من الكتب وصحف الأخبار وما يلقى عليهم في الملاهي والملاعب، لحري بأن يهذب أخشن الأجيال في أعظم المحامد، فأما من لم تصل إليه هذه الوسائل وبقي على الهمجية والأمية، فأحرى أن يرثى لحاله وباله من أن يلام عليها.

قال الشاعر المخزومي:

العَيْبُ في الخامل المغمور مغمور   وعيب ذي الشرف المذكور مذكور
كفوقة الظُّفْر تَخْفى من حقارتها   ومثلها في سواد العين مشهور

وقال آخر في المعنى:

قد تُخْفِضُ الرجل الرفيع دقيقة　　في السهو فيها للوضيع معاذر
فكبائرُ الرجل الصغير صغائرُ　　وصغائرُ الرجل الكبير كبائرُ

وقال العلامة الخفاجي:

كَمْ مِنْ عيوب لفتى عدها　　سواه زينًا حسن الصُّنعِ
فنُكتة الياقوت مذمومة　　وهي التي تُحمد في الجِذْعِ

(١٣-٤٤) وقفة وتعقيب

وكل ما أنكرته عليهم وافقني عليه من جال منهم في بلاد الشرق وجنح إلى التطبع بطباع أهلها، فكلهم يقر بأن هذه الأحوال التي اتصف بها عامة الإنكليز في هذا العصر عصر التأدب والتكيس شين وأي شين، وأنا أختتم هذا الإقرار بأن أقول: إن عامة الإنكليز هم دون عامة فرنسا أدبًا وكياسة، كما أن علية أولئك أفضل من علية هؤلاء، وسيعاد ذكر ذلك عند الكلام على أخلاق الفرنسيس. وأقول أيضًا في الجملة: إنه مع ما يظن أن دول الإفرنج تبغي تعميم المعارف لدى جميع رعاياها، فليس الأمر كما يظن؛ إذ ليس من نفع الدولة والكنيسة أن تكون العامة متكيسة ومتفقهة، ولا سيما عامة فرنسا: فإن معارفهم سبب لتخطئة الدولة ولهذا يقع فيها من التغيير ما لا يقع في غيرها.

(١٣-٤٥) ما يحمد من خصال الإنكليز

ويعجبني من الإنكليز خلال منها أنه ليس عندهم فضول وتكليف على الدخيل فيهم، بل ولا على من هو منهم، فلا يزورونه في غير وقت الزيارة، ولا يستعيرون منه، ولا يتعرضون لما يأتيه، فلو رأوه مثلًا مضطجعًا على قارعة الطريق لم يسألوه لأي سبب تفعل ذلك؟ بل ربما حسبوا أن أهل بلاده جميعًا يضطجعون مثله، وأن في ذلك مصلحة لهم، وإذا زارك أحدهم ورأى عندك مثلًا امرأة أو نساء، لم يهمه أن يسألك عن سبب زيارتهن مما لا بد منه في بلادنا، وكذا لو رأوك تماشي امرأة في الطريق أو تخاصرها،

فكل منهم مشغول بهمه ومهموم بشغله، وإذا رأوا طبقًا مغطى لم يسألوا ما في هذا الطبق كما في الحكاية المشهورة ويمكن أن يقال: إن هذه الخلة هي صنو لأول خلة ذكرتها من معايبهم في كون كل واحد منهم لا يهتم إلا بشأنه، ولا غَرْو أن يكون بعض الخلال ممدوحًا من وجه ومذمومًا من وجه آخر.

ومن ذلك الجد في المساعي وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة، أو لنكاية الخصم في الكتابة، ولو كان عندنا بريد على الصفة التي هي عندهم، لكنت ترى في كل يوم أهاجي وأحاجي تلقى في البوسطة ويبعث بها كما يبعث بالرسائل، نعم إن عندهم يومًا مخصوصًا في السنة يتراسل فيه المعارف برسائل مزحية، ولكن من دون أذى وإيجاب تبعة، ومن ذلك عدم التهافت على الحسد، فإذا رأوا عندك مثلًا متاعًا نفيسًا لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك في إحرازه، ولا يقولون: يا ليت كان لنا مثله، وخصلة النفاسة والحسد قلما يخلو منها في بلادنا جسد.

ومنها أنهم يُضِبُّون على ما بهم، فلا يتظلمون ولا يجدفون؛ أي يستلقون عطاء الله، ولا يقولون: ليس لنا وليس عندنا، فكل واحد منهم يريك أنه مُستغنٍ عنك، ولا تكاد تسمع خادمًا يطعن في مخدومه، أو خادمة تعيب مخدومتها، وإن كانا يكابدان عندهما، أما في بلادنا فقلما تجد خادمًا راضيًا عن سيده، بل يعتقد أنه هو أولى بالسيادة، أو أن شرف مخدومه متوقف على بقائه عنده.

ومن هذا القبيل عدم بخس الناس حقهم، فإذا نبغ أحد فيهم في فن أو صنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطفئ جذوة قريحته «ورب دوحة نشأت عن فرع»، لا بل يجد من ينشطه وييسر له أسباب العلم، أما في بلادنا فإذا نبغ أحد في شيء بادره حساده بقولهم: «هو مدَّعٍ، هو حمار، هو متطفل.»

ومن ذلك أنهم لا يتشبثون بأعقاب الأقاويل، ولا يأتون النميمة والغِيبة إلا قليلًا، فإذا سكن ما بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا ينقلون إليه ما سمعوا عنه بل لا يهمهم ما قيل فيه، وإنما يعاملونه بما يظهر لهم من حسن سيرته خلافًا للفرنسيس، فإنهم مثلنا في التعلق بقال وقيل، وفي الاستفحاص عن أحوال الجيران بل أهل البلد.

ولما كنت في باريس كنت أتردد على الكونت دكرانج ترجمان الدولة، لما كان عنده من البشاشة بالغريب ولين الجانب، وكان هو أيضًا يتردد عليَّ إذا لزمه ترجمة أو إنشاء رسالة بلغتنا، وإذ كنت أكلمه ذات يوم في مصلحة لي قال لي: «إني ليعجبني حسن

تصرفك فينا ونزاهة نفسك؛ وذلك مما يدعوني إلى إجابة سؤالك، غير أني أنكر عليك شيئًا شاع عنك.» قلت: «اذكره لي حتى أتجنبه.» قال: «إن الناس يقولون: إنك قدمت إلينا جاسوسًا من طرف الإنكليز، وإذا كان ذلك حقًّا فلا يسعني إسعافك بحاجتك.» قلت: «بوُدِّي لو كنت جاسوسًا إذن ما كنت لأكلف أحدًا بشيء، فإن جاسوس الإنكليز يستغني بوظيفته عن أن يتوصل بأحد إلى نَوال أَرَبه.»

ولا شك في أن المُومأ إليه سمع عني ذلك، فإن من طبع الفرنسيس ولا سيما شرطة الديوان أن يتجسسوا عن أحوال الغريب بينهم، فإذا علموا أنه يعيش بلا حرفة يتعاطاها حكموا بأنه إما بأن يعيش من رزقه أو من حيلته، وحيث كانوا يعلمون أني لم أكن أتعاطى حرفة، ولست غنيًّا ذا عواجل وولائم، استنتجوا من هاتين المقدمتين أني جاسوس، ومثل ذلك لا يشغل به أحد من الإنكليز باله، فغاية ما يرومونه من الغريب أن يحسن تصرفه ويقضي دينه.

إلا أن من يسكن عندهم في القرى يلزمه من باب المجاملة والمخالقة أن يذهب إلى الكنيسة في يوم الأحد وإن نام فيها، فأما في المدن الجامعة فلا يلزمه ذلك، وقد شهر مرة في صحف الأخبار أن الملكة أهدت إلى بعض الجند منديلًا قد كف بكف ابنتها، فلم يعبأ بهذا الخبر أحد، ولا ظن بها أحد سوءًا، ولو شُهِر أمر مثل هذا في بلادنا عن أميرة لبقي شغل الخواطر والألسن أحقابًا، ومن ذلك كلامهم بصوت منخفض وهي صفة تكاد أن تكون من خصوصيات نسائهم، وفي بعض البلاد قد تسمع للنساء زعيقًا وزعيقًا كأصوات الجن، ومن ذلك حسن الترتيب والتدبير في الأشغال والمصالح والتوقيت للعمل، فلكل شيء عندهم وقت ولكل وقت شغل، فإذا اتفق أن زارهم أحد في ساعة الشغل، لم يتحاشوا أن يقولوا له مثلًا: «قد أنسنا بك ولكن علينا قضاء ما لا بد منه من المصالح، فلا تؤاخذنا وزرنا في يوم كذا.» فينصرف عنهم عاذرًا لا عاذلًا؛ لأنه هو أيضًا يعاملهم بمثل ذلك.

أما عندنا فربما تعطلت مصالح الإنسان بكثرة زواره، حتى يضطر أخيرًا إلى أن يحمل وسادته ويقول: «شفى الله مريضكم.» وهذه الصفة أي حسن الترتيب يظهر أثرها بزيادة من أهل الرئاسة والسيادة والإدارة منهم، فإن رجال الدولة إذا أرادوا أن يباشروا أمرًا من الأمور الجسيمة فإنما يباشرونه بغاية الإحكام والضبط، بحيث لا يوجب تغييرًا ما في الأحكام، ولا إزعاجًا بشيء على الرعية.

فإذا اضطروا مثلًا في وقت الحرب إلى تجنيد جيوش وتجهيز بوارج وذخائر، فلا يكون ذلك موجبًا لاضطراب الناس وتغيير أحوالهم أو لغلاء الأسعار، وإذا شاءوا أن

يجعلوا على الناس ضريبة لسد مصاريف الحرب، أحيل ذلك على مجلس المشورة النائب عن الجمهور، ومعلوم أن الإنسان ليهون عليه أن يؤدي شيئًا على يد نائبه أكثر من أن يؤديه على يد غالبة قاهرة، وفي بعض البلاد إذا شرعت الدولة في تجهيز العساكر للحرب، رأيت جميع الناس يموجون في الأراجيف ويخوضون في التهاويل، فيظلم إذ ذاك القوي الضعيف، ويأخذ المرء بثأره من خصمه، وتختل أسباب التجارة، ويعدم الأمن بين المتعاملين؛ فتكون غائلة الحرب مشعورًا بها في داخل المملكة أكثر من خارجها، وقد كانت مدة إقامتي في هذه البلاد قبل حرب الروس مع الدولة العلية العثمانية وفي خلالها وبعدها، فلم يتبين لأحد فرق في شيء ما أصلًا.

ويلحق بذلك أن تحصيل لوازم المعاش في الصيف والشتاء يكون شرعًا، فلا يتعذر وجود شيء منها بأحد الموانع، وفي غير البلاد متى دخل الشتاء وهطلت الأمطار تعطلت الطرق وانقطع المجلوب من المأكول والمشروب، فترى كل واحد متجحرًا في بيته إلى أن تتيح له فرصة الخروج، فإذا لم يكن الإنسان قد حاكى النملة بأن اتخذ مؤنته في داره صيفًا هلك جوعًا.

ترتيب البوسطة وضبطها

ومن أعظم ما يئول إلى تنظيم الأمور ترتيب البوسطة وضبطها، ففي سنة ١٨٥٥ وضع في بوسطات لندرة وحدها ٤٦٠٠٠٠٠٠ مكتوب، أو أرسل إليها من بوسطات الممالك في سنة واحدة ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ولم يسمع إلى الآن أن مكتوبًا واحدًا منها فُقِدَ، إذا كان صاحبه موجودًا، وسيأتي ذكر ذلك بالتفصيل عند ذكر لندرة وما فيها، وجُعْلُ كل مكتوب إذا أرسلته داخل المملكة نصف قرش ولا فرق في قرب المسافة وبعدها، وهذا المبلغ القليل تشتري به طابعًا مصمغًا وتلصقه على عنوان الكتاب.

وقد يبعث بهذه الطوابع من بلد إلى آخر في ضمن الرسائل بدلًا من الفلوس، فإذا سمع أحد مثلًا بذكر كتاب طبع حديثًا أرسل إلى بائع الكتاب ثمنه من هذه الطوابع، فإنها خفية خفيفة بخلاف ما إذا أرسل إليه ثلاثة شلينات مثلًا فإنها تثقل حجم الرسالة ولا يخفى أمرها، وإذا بعث أحد بمكتوب ولم يجد البريد صاحبها بحث عن المرسل والمرسل إليه، فإن تعذرت معرفة هذا رده إلى المرسل وإلا أبقي في البوسطة مدة معلومة ثم يحرق، وإذا شئت أن تبعث بكواغد مالية أخبرت صاحب البوسطة بذلك فيجعل على طرف الكتاب طابعًا آخر إنذارًا للبريد من أن يطمع فيه فيفتحه.

وهناك طريقة أخرى وهي أن ترسل هذه الكواغد أنصافًا أعني أن تقطعها أنصافًا، وترسل في أول مرة نصفًا، فإذا جاءك علم وصوله أرسلت النصف الآخر، فيلصقها المبعوث إليه بالأخرى وينتفع بهما، وإذا اشتريت من تاجر ما قيمته نصف شلين فقط، وناولته كاغدًا بخمس ليرات، صرفه لك فورًا، وربما تزيد قيمتها في باريس وغيرها على قيمة الذهب، وذلك يدل على ما لبنك الإنكليز من المتانة والمكانة وتقليل أنواع النقود؛ أي كون النقود تقصر على ثلاثة أنواع أو أربعة من الأسباب الميسرة للمعاملة، بيان ذلك أن للإنكليز قطعة من الفضة تعرف بالشلين، ثم أخرى قيمتها شلينان وأخرى قيمتها شلينان ونصف، ثم نصف الشلين ثم ثلثه ثم ربعه ثم الليرة من الذهب ثم نصفها، فلو كان عندهم قطعة تساوي مثلًا شلينًا إلا قرشًا أو قرشين ونصف قرش أو سدس الليرة أو سبعها أو ثمنها حصل الغابن أو التوقف في الأخذ والعطاء، فيا ليت ذلك كان جاريًا في البلاد المشرقية.

وكذلك من ميسرات المعاملة كون نقود البلاد الأجنبية لا يتعامل بها في البيع والشراء في لندرة، وإنما يمكن صرفها عند بعض الصيارفة، ولا تغير لأسعار نقودهم قطعًا كما يقع في بعض البلاد، كما لا تغيير لأسعار البياعات، فإنك إذا أردت أن تشتري شيئًا من عند تاجر لم تجرِ العادة باستحطاطه من الثمن، ولا سيما إذا كان المبلغ زهيدًا، وبذلك يحصل راحة للبائع والشاري ونعمت العادة.

عدم التعنت على النساء

ومن ذلك عدم التعنت على النساء فيما لا يكون به مَثْلَبة للعرض، فإذا كان الرجل مثلًا غائبًا وجاء منزله فوجد رجلًا يحادث زوجته لا يتناولها بالهراوة أو القذع ويقول لها: «يا فاجرة يا عاهرة لا يجمعني وإياك مكان» من قبل أن يعلم سبب زيارة الرجل، فأما إذا عرف منها الخيانة فلا رحمة بعدها ولا أعذار، وإنما هما خطتان؛ إما سكين، وإما سم، وكثيرًا ما سمعت زوجة الرجل تقول للضيف بحضرة زوجها: «خذ يا عزيزي وهات يا عزيزي.»

شيوع الأمن

ومن ذلك الأمن في الخروج ليلًا من دون فانوس ولا باب يقفل على الساري والأمن للمسافر أيضًا في البلاد، فإن الإنسان ليسافر فيها ليلًا وهو في آمن حال وأصفى بال

مما لو سافر في بلادنا نهارًا، وترى الولد يمشي في المدن الكبار وحده ليلًا ولا يخشى شيئًا، ولا هيبة لذوي المراتب والمناصب منهم أو للعسكر والشرطة عند المارين بهم، وإن البنت التي لم تبلغ عشر سنين لتسعى بعد نصف الليل، وتمر بالشرطة فكأنها مرت على بعض أقاربها، فتسألهم ويجاوبونها، وتسترشدهم بغير حشمة ولا انقباض فيرشدونها ويذهبون معها، وليس للشرطي حق أن يدخل بيت أحد، إلا بإذن الديوان لسبب خطير، ولا يأخذ غريمًا محقوقًا إلا من الطريق.

وفي البلاد الشرقية إذا كلمت المرأة بعض الشرطة أو العسس ليلًا لم يلبث أن يمد إليها يده، ويهتك حجابها، وهيهات أن ينتقم منه منتقم، وعندي أن عدم الهيبة والخوف على صغر هو الذي يورث جيل الإفرنج جميعًا الإقدام والجرأة على الأمور والكلام، ويزيدهم بسطة في الجسم والعقل، ويبطئ بهم عن الشيب والهرم، فإن إلقاء الرعب في قلب الصغير كلوافح الرياح العاصفة على الغرس، فمتى تمكن منه جعله بعد ذلك غير صالح للمساعي الجليلة.

وما عدا خوف الحكام والظلام ورؤساء الديانة في بعض البلاد الشرقية فإن الأمهات يزرعن في قلوب أطفالهن الخوف من العفريت والروح الشرير والخيال والظلام وغير ذلك؛ فتثبت العادتان، ولولا أن أهل الشرق من طبعهم التسليم للمقدور، لما رأيت منهم أحدًا تصدق عليه صفة الرجولية، وقد صار الآن كتاب الأخبار في هذه الديار يلومون أرباب السياسة على قلة الأمن للماشين ليلًا في طرق لندرة، وسبب ذلك رجوع أولئك المنفيين كما ذكرنا، إلا أن هذا عارض يرجى زواله.

وكذلك فشا اللوم على خيانة البريد لعدم تسليم الرسائل، إلا أنه أيضًا من الأمور الطارئة.

صدق الوعد

ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب إذا اعتمدهم بشيء، فإذا احتاج الصغير إلى الكبير في شيء قال له: «إني أرجو أن تكون من المحسنين إليَّ بتنويل طلبتي، فأكون لك من الشاكرين.» فهذا يغني عن قولنا: «يا بدر الكمال، ويا بحر النوال، يا من يلتجئ إليه العافون، ويحج إلى كعبة فضله العائذون، ويا من صيته طار في الآفاق، وملأ الألسن والأوراق، ويا من، ويا من …» فيكون جواب الكبير له بغير مَلْث: «سأبذل جهدي في مصلحتك وأخبرك.» فهذا يغني عن قولنا: على الرأس والعين حبًّا وكرامة، لا بد من ذلك

فإن الخير مشترك، ونفعك من نفعي، والحال واحد حالة كون النية غير منعقدة على العمل، فأما إذا رأى المسئول نفسه غير قادر على أحساب سائله ونفعه قال له مصرحًا: «إن سؤلك فوق طاقتي فاقصد غيري.» ولكن متى وعد فلا بد من إنجاز وعده، فلا محال ولا مطال.

التريث في الأمور الخطيرة

إلا أنه لا ينبغي أن تفهم من هذا أن الأمور الخطيرة عندهم تبت في الحال، فإن لها من التوقيف والتعيين ما يعيا به صبر المنتظر؛ إذ لا يبرم عندهم أمر من أول وهلة، إلا أن يستفرغ فيه البحث والتروي، فعلى قدر ما يهون عليهم ارتجال المقال يصعب عليهم ارتجال الفعال، حتى إن ديوان المشورة لا يبت شيئًا إلا بعد استفراغ الكلام فيه، وإنما المراد أنهم لا يعدون بما لا نية لهم على وفائه كما يحدث في بلادنا، فيبقى الموعود رهين الأماني يُطْعَم المَلْث ويُسقى الوعود، ثم لا يحصل من بعد ذلك على شيء، فينتج منه التكذيب من قبل الموعود، والتنكيد من قبل الواعد، وفي الجملة فليس بين الإنكليز عُرْقُوب ولا أَشْعَب.

وعندي أن هذا الاختصار هو في أغلب الأحوال أساس للمصالح ووسيلة للنجاح، فإنه إذا كان أحد مثلًا معطلًا عن الشغل وطلب وظيفة من أحد الإنكليز، فإنه يكتب إليه كتابًا ويذكر له الشروط، فإذا أعجبه ذلك أجابه حالًا إلى سؤاله، وإلا قال له: لا يمكنني، فيسعى الرجل في تحصيل وسيلة أخرى.

أما عندنا فإذا طلب أحد من مخدوم وظيفة، قال له: «يا حبذا ليس غيرك أجدر بها، ولقد طالما بحثت عن رجل مثلك متصف بهذه الصفات، ولا سيما أنك أنصفت في الطلب، ولكن أمهلني ريثما أقضي وطرًا لي.» فيربطه بهذا الوعد، ثم تمضي مدة والرجل راكن إلى وعده، فإذا سأله مرة أخرى، مطله بحيلة أخرى إلى أن يقول له أخيرًا: «قد استخدمت غيرك»، أو قد استغنيت عنك.

إلا أن الإنكليز غالبًا قد فرعوا من هذا الأصل فروعًا لا تناسبه، منها أنهم يعاشرون من يكون له عنده مصلحة شهورًا وسنين، فإذا انقطعت أسباب المصلحة انقطعت العشرة، وإذا اشتريت من أحدهم بما قيمته ألف ليرة مثلًا دفعة واحدة فإذا رآك في غير حانوته لم يلتفت إليك، فلا يعرفك إلا في الدكان.

حفظ الأمانة

ومن ذلك — أي من الخصال المحمودة — الحرص على ما يؤتمنون عليه، فإذا سلمت لأحدهم مثلًا طرسًا فإنه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى إذا استرجعته بعد سنين أعاده عليك كما تسلمه، بل ربما أزال عنه الوسخ ورده إليك نظيفًا، وقال لك وهو معتذر: «قد تجاسرت على أن أزلت الطبع عن الطرس، وأرجو أني لم أسئ فيما فعلت.» وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه، وينضم إلى ذلك احترامهم للرسائل، فلا يفتح أحدهم كتابًا جاءه باسم غيره، بل يبذل جهده في إيصاله إليه، وإذا زارك منهم زائر فلا يمد يده ولا طرفه إلى ما بين يديك من الصحف، فإذا أراد أن ينظر في كتاب لم يلمسه إلا بعد أن يستأذنك.

وفي بلادنا إذا أعرت أحدًا كتابًا أعاره هو إلى آخر، والآخر إلى آخر، وهلم جرًّا، فربما لم يعد إليك منه عين ولا أثر، بل يرى نفسه أولى به، وإن لم يستفد منه إما لعدم قدرته على فهمه أو لكثرة أشغاله، بل القسيسون أيضًا لا يتورعون من هذا، وإذا شرفك بزيارته فأول ما يطمح نظره فإنما هو إلى أوراقك، وحالًا يمد يده ويخطف منها ما شاء، فكأنما هو جاسوس جاءك ليطلع على أسرارك لا ليأنس بحديثك.

عدم قبول المصانعة والرشوة

ومن ذلك أن أصحاب المراتب عندهم لا يقبلون المصانعة والرشوة من أحد لتنويل أربه، وإن عُلِم أنه ارتكب ذلك اقتص منه كما يقتص من السارق، ولم ينفعه أن يؤدي الرشوة التي أخذها مضاعفة، نعم إن المراتب هنا إنما تعطى غالبًا بالمحاباة والاستحباب، لا بالاستحقاق والاستيجاب، فإن الأمير إذا نوه بشخص من أقاربه أو معارفه عند ذي مرتبة وسيادة نفذت كلمته عنده، ولو أن شخصًا متصفًا بأحسن الأخلاق ومتحليًا بالعلم والفضل حاول بنفسه أن ينال تلك الرتبة لم يلتفت إليه، إلا أن هذا الداء عام في جميع الممالك.

ويلحق بما تقدم من تفضيل الاستحباب على الاستيجاب أن النفر من العسكر لا يمكن أن يرتقي إلى مرتبة ضابط، وإن ارتقى ألف حصن للعدو، وأبدى من الشجاعة والبراعة ما يقصر عنه قائد الجيش فهو نفر من يوم اكتتابه إلى يوم خروجه من الخدمة والحياة، وبعد أن يقضي خمسًا وعشرين سنة في الخدمة يعفى منها، ويعين له نحو

أربعة قروش في اليوم، والأمير أمير من يوم ينزل من ظهر أبيه، إلى يوم يركب ظهر النعش، ثم يدوم ذكره كذلك إلى أبد الآبدين، فكأن ترتيب أصناف الناس عندهم بمنزلة ترتيب أعضاء الجسد؛ بمعنى أن لكل عضو خاصية ووظيفة لا يتعداها ولا تتعداه، فالرأس لا يزال رأسًا وإن سرى فيه الخَرَف والفند والعور والصمم والدرد، والقدم لا تزال قدمًا وإن هي أنجته وأنجت الجسم كله.

وهذا التخصيص من وجه آخر سديد رشيد؛ فإن ناظر الأمور الخارجية عندهم مثلًا ليس له حق في أن يدمق على ناظر الأمور الداخلية في شيء، وناظر مجلس المشورة ليس له جدارة بأن يحكم على أحد الباعة بشيء من محراب صرحه، وقس على ذلك.

فأما في بلادنا — حرسها الله — فإن ناظر المدابغ جدير بأن ينظر في جلود بني آدم ويصبغها بلون الدرة والسوط، أي يَسْبر ما هي عليه من الطراوة والنعومة، والمحتسب خليق بأن يزن أعمال عباد الله وأموالهم في بيوتهم، ويروز ما في عياب صدورهم من الخواطر والأفكار، وللحاكم أو للمطران أن يسقط حق المحق لحرف أسقطه في الكلام، وللضابط أن يبيت الناس في مضاجعهم، وللشرطي أن يقبض على أي شخص كان، ولضابط العسكر أن يخترط سيفه على أي عنق سنحت له، وللبطرك أن يحرم أي شخص كان من رعيته حتى لا يعود لأحد من أقاربه وأهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته، وإلى من المشتكى وأين النصير؟! وأين المجير؟ فيا ليت شعري متى نصير نحن ولد آدم بشرًا كهؤلاء البشر؟! ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا؟! أنخال أن معنى التمدن هو أن يكون الناس في مدينة وفيها ذئاب وسباع؟ كلا ثم كلا، جَيْر إن اجتماع الذئب والخروف في مرعى واحد ليوجب على اليهود أن يؤمنوا بأن المسيح قد جاء.

تدريب أولادهم على الأشغال

ومن ذلك تنشيط أولادهم إلى الأشغال، وتمرينهم على ما يكسبهم وإياهم الرزق الكافي، والمواظبة على الأعمال والصبر على ما يتعاطونه جل أو حقر، فإنهم لا يملون من السعي، ولا يرون في الكسل راحة، ولا يقول أحدهم: إني كبرت عن تعلم شيء، فلا يزالون دائبين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تتحرك، ومع كل هذا التجلد والتحمل، فمتى ضيم أحدهم أو سقط شرفه أو مال نجمه فأهون شيء عليه نحر عنقه، وذلك عندي من جملة الأفعال المتناقضة في الطبع البشري، وجُلُّ سعيهم في شبابهم إنما هو لتحصيل ما يهنئهم في

شيخوختهم، حتى يمكن لهم تربية أولادهم فلا يحتاجون إلى التكفف أو إلى ملازمة المستشفيات والملاجئ المعدة للعاجزين، وكل منهم يعمل بقول الشاعر:

قليل المال تُصْلِحه فيَنْمَى ولا يبقى الكثيرُ على الفساد

فأما قول عروة بن أذينة:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعْنِيني تَطَلُّبه وإن أقمت أتاني لا يُعْنِيني

فإنه يعد عندهم من الأماني الفارغة الباعثة على التواني، غير أن حب التناهي غلط؛ فإن تعليق العبد توفيقه ونجاحه بالكلية على سعيه وكده لا يخلو من ازدراء بعناية المولى، وفيه — من وجه آخر — تقسية للقلب، فإن الإنسان — والحالة هذه — يهون عليه أن يفارق وطنه وسكنه لأجل المال، وهذا الداء فاشٍ أيضًا عند المثرين والموسرين هنا؛ إذ الغني منهم قد يكون له ابن وحيد فيبعثه إلى الهند أو غيرها طلبًا لوظيفة سامية، وربما فجع به بعد قليل، وهذا يعد من وجه أنه ناشئ عن كبر همة وسمو مطمح، ومن وجه لك أن تعده من الحرص والطمع، فَوَفِّق بينهما إن استطعت.

ويلحق بذلك أن الشيخ الفاني منهم إذا أراد مثلًا أن يبني بيتًا أو يأتي أمرًا فإنما يجعل همه في تحصيل المنفعة منه في المستقبل أكثر من الحاضر، وفي غير البلاد لا يبالي إلا بمنفعة الحال، ولا يكاد يتجه أمر يرجى منه نفع وصلاح إلا وتجردت له جماعة، فتجريه على وجه مرغوب ونحو مطلوب، وكلما اخترع أحد شيئًا قصد به غالبًا إحدى هؤلاء الجماعات إيثارًا لهم على أهل بلاده لعلمه بأنهم يعرفون أجرة العامل، فيعينونه على إجراء مرامه بما فيه نفع له ولهم.

ثم إنه وإن يكن قد غرس في طبع كل إنسان أن يحب وطنه ويفضله على غيره، ولا سيما إذا سافر إلى بلد هو دون بلده في طيب الهواء ورغد العيش وحسن الأحكام، إلا أن هذه الخلة تكاد أن تكون من خصوصيات الإنكليز فإنهم أيان يتغربوا يظلوا لَهِجِين بذكر بلادهم وما فيها من المحاسن واللذات، وقد رأيت كثيرًا ممن سافروا منهم إلى بلادنا وإلى مصر والغرب وباريس وغيرها، فأثنوا على تلك البلاد بشيء وافق طباعهم منها، إلا أنهم عند ختم الكلام يقولون: «لا شيء مثل إنكلترة القديمة.» وإنما يصفونها بالقدم

لعدم تحول أحوالها وتغير عاداتها، كما أن أهل باريس يقولون: «ليس إلا باريس.» ومع ذلك فإنك لا تزال ترى الإنكليز طوافين في جميع البلاد، وراكبين متني البحر والبر معًا، ولكن لا تكاد ترى أحدًا منهم يسافر إلى البلاد الأجنبية لأجل أن يعلم التصوير أو الرقص والغناء كعادة غيرهم من الإفرنج، وإنما هو للتجارة.

أما الأمراء والأغنياء فإنهم يسافرون للتنزه وأحيانًا لأجل تخفيف المصاريف، فإنهم مهما يصرفوا في غير بلادهم فلن يبلغ ذلك نصف ما يصرفونه وهم في أوطانهم، ورب وليمة عندهم ينفق فيها نحو مائتي ليرة، فترى منهم في كل قصبة من بلاد أوروبا الوفا، ومتى رجع الإنكليزي إلى بلاده أنشد مع الشاعر:

فبَشَّرْتُ آمالي بمُلْكٍ هو الوَرى ودارٍ هي الدنيا ويومٍ هو الدهر

ولا شيء يعجبهم مثل أن تمدح بلادهم وعاداتهم.

(١٣-٤٦) من طبع الإنكليز عمومًا

هذا؛ وإن من طبع الناس عمومًا إذا احتاجوا إليك أن يعزوك ويحتفوا بك، ويَرَوْكَ أهلًا لكل مكرمة، وإذا أنت احتجت إليهم استخفوك ورأوا فيك العجز والذل، إلا أن هذه الخصلة غالبة على الإنكليز جملة وتفصيلًا، فمن رام أن يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم أنه مستغنٍ عنهم، ولا يعرض لهم في طلب شيء، ولا في استعارته، وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون أيامًا وشهورًا وسنين، ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه، ولا يريدون أن يسمعوا ذلك منه إذا ذكره، ومتى حللت هذه العقدة انقطع الحبل، فذلك عندهم من السر الذي لا ينبغي إفشاؤه إلا عند الضرورة المقتضية له.

وكذلك لا يسألونه عن معتقده ومذهبه، وعندنا متى تعرف أحد بذي مقام فأول ما يشنف سمعه به من المسائل قوله له: «من أي ملة أنت؟» فإذا لم يكن المسئول على ملة السائل سقط في عينه الشريفة أو بقي فيها كالقذى إن بقي محتاجًا إلى عشرته، فأما مسائل الإخوان والعشراء فأولها: «كم دخلك؟» وثانيها: «كم خرجك؟» وثالثها: «كم مرة تعترف في السنة؟» ورابعها: «هل تأكل البيض يومي الأربعاء والجمعة؟» إلى آخره.

ومن طبع الإنكليز أنه متى وثق أحدهم بإنسان وعرف منه الجد والاستقامة والأمانة يأتمنه على زوجته وبناته، فيذهبن معه ليلًا ونهارًا بلا مانع، ومن يحضر إلى بلادهم

بوَصَاة من عند معارفهم احتفلوا به، وعدوه منهم، وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه من الذم، ولكن بشرط المحافظة على ذلك الأصل، وهو إظهار التشيع والاستغناء.

فأما إذا كان ذا بسطة في الجسم ومسحة جمال في الوجه فلا يعود يشينه شائن، ولا يزحزحه قادح وطاعن، ومتى دخل تحت حماية أمير منهم فقد دخل في ذمة السَّمَوْءَل، وفي حمى كُلَيْب، فهو يحامي عنه بكل ما أطاق، فهذا الدأب من جهة يعد من المناقب، ومن جهة أخرى لا يخلو من الذَّأْم، فإن المعتقد يصدق الموصى به ثقة بالموصي، وعدم تغيير اعتقاده فيه، وإن سمع عنه ما يشينه يترجم بفعله هذا وإصراره عن عصمته ومُحَاليَّة وطروء الغش عليه فيما قرر عليه رأيه ووطن نفسه، حتى لا يحتاج بعدها إلى ناصح ينصحه، ومنبه يرشده؛ فاسترسل في هواه إلى ما يعرضه لطعن العائبين، ونقد المنكرين، واللبيب من لا يركن إلى هواه ولا يثق بثقته، بل يشك في نفسه ويستريبها حتى يؤديه الشك إلى اليقين.

وبعد فهب أن ذلك الشخص الموصى به كان جديرًا بالمراعاة والإجارة وهو في بلاده، أو أول دخوله بلاد الإنكليز، فقد يحتمل أنه عند مشاهدته هؤلاء القوم على هذه الأحوال التي لم تكن تخطر له ببال قط تتغير أخلاقه، ويتلبس بصفات لا تشاكله، فقد عرفت كثيرًا ممن قدم إليهم من البلاد الشرقية وعليهم سمت الاستقامة وسمة النزاهة، فلما رأوهم على هذه الحال من التشوف إلى معرفة بلادهم، ومن ائتمانهم الغرباء على بناتهم وإكرامهم لهم لأجل التوصية التي قدموا بها، اتخذوا لهم ريشًا غير الذي جاءوا به، وانتحلوا لأنفسهم صفات ومآثر لم يكونوا يحلمون بها من قبل قط، فبعضهم قام في الناس خطيبًا يحكي ما علمه من أحوال بلاده، وبعضهم طمح إلى أن يتزوج فيهم من يكون عندها من المال ما يشري به أملاك أهل بلدته أو قريته، وبعضهم أخذ في التأليف وحشر نفسه في زمرة علمائهم، وكلهم ظن أن الإنكليز طعمة للملتهم ولقمة للملتقم.

وأول ما يخطر ببال الدخيل فيهم إذا كان عزبًا إنما هو أن يتزوج إحدى بنات الأعيان أو الأغنياء، ليستغني برزقها عن الهم والنصب، والتفكر في المنقلب، وفي الحقيقة فقد صدق فيهم مؤلف حاجي بابا، وهو أن الإنكليز إذا تعرفوا بغريب فلا بد من أن يرفعوا من قدره؛ لئلا يلحقهم من تعارفهم به وصمة تشينهم، فربما انتحلوا له لقب أمير أو سيد حتى يتوهم الرجل أنه في الواقع كذلك.

ومن طبع الإنكليز ولا سيما كبراؤهم أن ينفروا من الرخيص، وإن يكن نفيسًا، وأن يتهافتوا على الغالي، وإن يكن خسيسًا، وعلى ذلك يحكى أن رجلين كانا يتحدثان في هذا

المعنى، فقال أحدهما لصاحبه: «ألا إني فاعل بهؤلاء القوم أمرًا يسخر منه كل من يسمع به.» ثم عمد إلى كيس وجعل فيه دنانير من ذهبهم، وقعد على قارعة الطريق، وجعل ينادي: «من أعطاني شلينًا أعطيته دينارًا من هذه الدنانير بدلًا منه.» فجعل المارون يتضاحكون منه، ويقولون: «لعمر الله ما قصد بذلك إلا غبن الناس.» فطفق يصرخ بأعلى صوته ويقول: «يا أيها الناس هاؤكم الذهب بدل الفضة، وعليكم بالنقاد.» فلم يكترث له أحد.

وأعرف بعض الجهلة كان يقرأ النحو على رجل من ذوي القناعة والنزاهة، ثم يعلم جماعة من أعيانهم ويتقاضى كلًّا منهم على تعليم ساعة واحدة نصف ليرة، فكان الناس يهرعون إليه، ويعرضون عن معلمه؛ لأنه كان يتقاضاهم ربع هذا المبلغ تذممًا وتورعًا، وإذا كان أحد مثلًا متوظفًا في وظيفة سنية وقصدوه أن يقضي لهم أمرًا أعطوه أضعاف ما يعطونه لمن ليس له شغل إلا قضاء تلك الحاجة بعينها، ومن كان معاشه من حرفة له وإن تكن تلك الحرفة عقلية لا يدوية، لم يكن له مقام من لا حرفة له، سوى الخرق والبطالة، وعلى هذا قال الفاضل كولد سميث: «إن الناس من شأنهم أن يستخفوا بالمعارف التي يتعيش منها.» وقد يتفق مثلًا أن يكون طبيب نطاسي، وآخر متطبب، فإذا كان لهذا عاجلة ودار رحيبة وخدم أقبلت عليه جميع الأمراء والعظماء، وأدبروا عن ذلك لكونه ممن يمشي على رجليه ما لم يؤلف كتابًا ويُظْهِر فيه براعته، فكم من ملكات جليلة تبقى في زوايا الخمول بسبب هذا الترجيح الزائغ، نعم إن زيادة شلين واحد في ثمن المتاع عندهم يوجب فرقًا عظيمًا، إلا أنه ليس من العدل أن تقاس الناس بالبياعات، فكم من عالم عاقل وليس عنده كتاب! وجاهل غبي ولديه أضابير كتب نفيسة.

ومن طبع الخاصة منهم أن يتجنبوا معاشرة العامة ما أمكن؛ ولذلك سببان أحدهما وهو المشهور عند الناس عظم الفرق الحاصل بين الفريقين في الأطوار والأخلاق، فإن العامة في هذه البلاد ليس لهم حظ من الكياسة كما عرفت مما مر بك، ولا تكاد خلائقهم وعاداتهم ترضي أحدًا من البشر ممن كان ذا ذوق سليم وطبع مستقيم، فالأوباشية ظاهرة عليهم في كلامهم وحركاتهم وتخيرهم للألوان وفي تصرفهم وغنائهم وضحكهم، ومعلوم أنه من يكون قد قرأ ودرى يستنكف من مخالطة أمثال هؤلاء، والسبب الثاني وهو ما خطر لي أن أصل علية الناس هنا من أجيال مختلفة، فإن الذين فتحوا هذه الجزيرة كانوا من فرنسا وشمالي أوروبا، ومعلوم أن هؤلاء الفاتحين هم الذين استولوا على أرض الجزيرة وعلى المراتب والألقاب الشريفة، وأن الإنكليز القُحَّ بقوا بينهم مُسَوَّدين مرءوسين، فبقي هذا الفرق في أعقابهم.

(١٣–٤٧) نبذة عن ملوك الإنكليز

قال فلتير: «إنه بعد وفاة ألفريد ملك إنكلترة وذلك في سنة ٩٠٠ اختلت أمور المملكة، وتضعضعت أركانها، فكان القتال مستمرًّا بين الصكصونيين وهم أول من غزوا الجزيرة، وبين الدانيزيين، ولما كان هؤلاء أعز وأقوى من الإنكليز، لم يكن لهم بد من أن يؤدوا إليهم ٤٨٠٠٠ ليرة لينصرفوا عنهم، وذلك في حدود الألف، قال: ثُم إن كانوت ملك الدانيمرك جار في حكمه على الإنكليز وبغى وطغى، وفي سنة ١٠١٧ أعناهم تحت حكمه، وعاملهم معاملة الأسرى، فكان الدانيزي إذا مر بالإنكليزي يلجئه إلى الوقوف إلى أن يمر.

فلما انقرضت ذرية المذكور عادت إلى الإنكليز حريتهم، فملكوا عليهم إدورد الصكصوني، وكان يلقب بالقديس المعترف، وإنما قيل له ذلك؛ لأنه اعتزل زوجته عن كراهة لها ومات ولم يُعْقِب، وعند وفاته قام الأمير وليم دوك نورماندي يدعي بأن له حق الولاية عليهم، مع أنه لم يكن له حق بولاية النورماندي، إلا أن حقوق الولاية والملك حينئذ لم تكن في أوروبا كما هي الآن.

وكان من جملة دعواه أنه قال: «إني لما سافرت إلى جزيرة إنكلترة اجتمعت بالملك إدورد فجعلني ولي عهده، وإني أنقذت الملك هرلد من سجنه، فوعدني أيضًا بنقل الملك إليَّ.» ولما عرض ما نواه على أهل النورماندي وقع بينهم الخلاف في شأنه، فمنهم من أبى أن يساعد، ومنهم من رأى في ذلك مصلحة، ومن جملة هؤلاء الدوك فتزاسبورن، فإنه جهز معه أربعين سفينة، وأمده أيضًا حموه الكونت فلاندر بمال، وكذلك البابا أعانه، وحرم كل من يمانعه، فسافر حتى بلغ ساحل صاسكس، فلقيه هرلد ملك الإنكليز بالجيوش ونشبت الحرب بين الفريقين، فقُتِلَ هرلد وأخواه، وانهزمت الإنكليز أمام وليم، فزحف بالجيش نحو لندرة وهو ناشر علمًا كان قد باركه له البابا، فدخلت الأساقفة في طاعته، وأقبلت إليه القضاة بالتاج.

فلما استوى على سرير الملك أذل الدانيزيين وأهل الجزيرة وقهرهم أي قهر، وأحسن إلى أهل النورماندي الذين أعانوه، وأجرى عليهم أرزاقًا وأقطعهم إقطاعات جمة، فمن ثم كثرت هناك عيال النورمانديين الذين لم تزل أسماء ذراريهم معروفة بين الإنكليز، قال: وكان دخل هذا الملك أربعمائة ألف ليرة، وهي تبلغ بحساب الدراهم في زماننا هذا خمسة ملايين من ليرات الإنكليز.

قال: «ثم إن الملك المشار إليه أبطل ما كان عند الإنكليز من الأحكام والشرائع، وأقام شريعة النورمانديين مقامها، وأجبر أهل الدعاوى على أن يتداعوا بلغة قومه، وكذا

كتب الصكوك والأحكام، فبقيت لغته مستعملة إلى عهد إدورد الثالث، وكانت تلك اللغة فرنساوية مختلطة بالدانيزية بعيدة عن الفصاحة بائنة عن البيان، وكان مما سنه الملك على الإنكليز إطفاء مصابيحهم في الساعة الثامنة من الليل، وذلك عند سماعهم صوت الجرس، إلا أن هذه العادة كانت جارية أيضًا عند غيرهم من سكان البلاد الشمالية، وكان البادئ بها أهل الكنيسة.» انتهى.

فقد علمت مما تقدم أن علية الإنكليز هم من الغرباء الذين فتحوا هذه البلاد، فإن قلت: «إذا كان الأمر كذلك، فما بالهم يخالفون علية فرنسا والدانيمرك في الطباع وفي كونهم — كما سبقت الإشارة إليه — كالزيت لا يختلطون بغيرهم أنفة وتكبرًا؟» قلت: وما بال جو الإنكليز لا يشبه جو فرنسا، أَفَيُنْكَر أن للهواء تأثيرًا في الخَلق والخُلق معًا سواء كان في الحيوان الناطق وغير الناطق؟ فلو جئت أيها الهش البش الطلق المُحَيَّا الباسم الضاحك المقهقه إلى هذه البلاد وبقيت فيها شهرين أو ثلاثة لا تبصر الشمس إلا من وراء حجاب، لأغناك الخبر عن الخبر.

وحيث قد ترفعت الكبراء من الإنكليز عمن هو دونهم من أهل بلادهم وصار ذلك دأبًا لهم وطبعًا يرثه الولد عن والده، والخلف عن سلفه، جروا على ذلك أيضًا مع الغرباء ما لم يتبين لهم أنهم نظراؤهم في الهمة والمعالي، فمتى اعتقدوا ذلك منهم لم يأنفوا من معاشرتهم، والحق يقال: إنه لا مناسبة بين علية الإنكليز وسفلتهم بخلاف غيرهم، فإن الأمير عندنا مثلًا لا يفضل الناس إلا بإمارته لا بأخلاقه وآدابه ومعارفه؛ إذ جميع الناس في ذلك متساوون، وأيضًا فحيث كانت ألقاب الشرف عند الإنكليز قديمة وعزيزة كان لها عندهم إجلال وتعظيم يفوق الحد، حتى إن إعظام اللقب عندهم أعظم من إعظام الملقب به، فإن الشريف إذا مشى مثلًا في الشوارع مع عامة الناس لم يكترث له أحد، ولم يقم له قاعد، وقد يسوغ الطعن فيه والتنديد بمعايبه، ولكن لا يسوغ الازدراء بمنصبه وجلائه لا بالنطق ولا بالكتابة.

وما أحد من الإنكليز ينكر أنه بمجرد اتصاف الإنسان بجلاء يجب له التعظيم والتكريم، ومن أعظم شاهد على ذلك نصب ضابط البلد، فإنه قد يكون من أهل الحرف والصنائع، فمتى حصل على هذا الجلاء صار مساويًا للأشراف والسادات، حتى إن سائر الوزراء والأمراء يأكلون عنده ويجالسونه، وما ذلك إلا لمراعاة جلائه، ومتى عزل رجع إلى حاله، ولم يأكل معه أحد منهم، ولو جاء بالمن والسلوى، والكلام على كيفية نصبه وعزله سنذكره في وصف لندرة إن شاء الله تعالى.

وما أحد يرتقي هنا إلى درجة سامية عن ضعة إلا هذا الضابط، فأما الوزراء ورجال الدولة فكلهم متأصلون في المجد فلا يصح عندهم أن تبتذل المراتب العالية فيقلدها صبي حلاق أو خادم جزار، والشاهد الثاني أن بعض أهل بلادنا وغيرها يقدم عليهم وعليه برذعة لقب فيكرمونه غاية الإكرام، ويبوئونه مبوأ أسنى، ومقامًا أعلى، وهو مع ذلك لا يدري أن يفوه بمدحهم ولا بهجوهم، أما الفرنسيس فإنهم إنما يكرمون اللقب إذا كان جديرًا بالملقب، ومن كان ذا معارف وأخلاق حميدة عندهم أغناه ذلك عن حِلْس الجِلاء، ولا شك أن الفضل بغير جلاء خير من الجلاء بغير فضل.

وقد كنت ترجمت نبذة من لغتنا وبعض محاورة لأجل أن يطبعها بعض الوراقين بلندرة، فلما انتهى طبعها كتب في صفحة العنوان: إنها من تأليف فلان مدرس اللغة العربية بمالطة سابقًا، ومترجم جميع أسفار التوراة والإنجيل، ومؤلف كتاب الفارياق إلى آخره، فقلت له: «ما الموجب إلى ذلك كله؟» فقال: «إن الإنسان هنا إنما يعتبر بألقابه لا بأتعابه، وخلوًّا من تعديد الألقاب لا يباع كتاب.»

ولكل عيلة شريفة من هؤلاء الرءوس لباس مخصوص لِخَدَمَتِهم وخِدْمَتِهم، ولهم أيضًا لهجة مخصوصة فيها لجلجة في الكلام — أو كما يقال رخاوة حنك — حتى إن اللاعبين في الملاهي يحاكونهم بها ويسخرون منهم، ولهم أيضًا تَنَطُّس زائد في مراعاة جانب العرض، فإنهم لا يقبلون في مجالسهم من علم أنه عائش مع امرأة على وجه المتعة أو السفاح، وعند الفرنسيس لا حرج فيه، وكذلك لهم تشدد في الصدق فإنهم إذا عرفوا من أحد الكذب ولو مرة واحدة سقط اعتباره من أعينهم، ومع ذلك فهم أكثر الناس عرضة للتدجيل والخداع.

(١٣-٤٨) معاشرة علية الإنكليز لزوجاتهم

ومنها أن معاشرتهم لأزواجهم أشبه بمعاشرة الأجانب، فلا يأنس أحد بشيء من الدالة بينهما، فبينهما من التحشم والتكلف ما بين الغريب وأحدهما، ولا يقول السائد عن امرأته: «زوجتي قالت أو قرينتي» بل يقول: «قالت الست»، ولا يفتح رسائلها التي ترد باسمها ولا يتطالل إلى معرفة أحوالها، وإذا أتاها زائر رجلًا كان أو امرأة جلس معها من دون حضور زوجها، وإذا كانت في حجرتها لم يدخل عليها إلا بعد أن يقرع الباب، ومتى أرادت الخروج فلا تستأذنه، وإنما تشعره به إشعارًا ولها أن تستخدم من شاءت، وأن تذهب إلى الملاهي مع معارفها، سواء كان زوجها صحيحًا أو عليلًا في الفراش، وإذا

زارهم أحد من معارفهم أو أصحابهم يأتمنونه على بناتهم ونسائهم فيخرج معهن ليلًا ونهارًا، والغالب أن يكون خروجهما أولًا إلى الكنيسة ليفتح لها كتاب الصلوات والإنجيل والتوراة، وهو من أعظم التأدب عندهم، ثم يعقبه الخروج إلى الملاهي ليفتح لها باب المخدع الذي تجلس فيه، ثم إلى المنتزه ليفتح لها باب الطريق أو باب العاجلة، وهكذا تتوالى الفتوح.

وليست هذه العادة عند الفرنسيس فإنهم لا يأتمنون على إناثهم ذكرًا، وقلما تخرج البنت هناك وحدها، أو تركب الخيل وتسابق الرجال كما تفعل مخدرات الإنكليز، ولعل ذلك هو بعض الأسباب الذي من أجله تراهن ممشوقات مهفهفات، فقَلَّ أن ترى فيهن بادنة، هذا ما عدا كشف صدورهن في الولائم، ورقودهن في النهار دون الليل الذي جعله الله سكنًا وراحة للبدن، وإذا تزوج رجل امرأة وكان عليها دين قبل الزواج وجب على الرجل أداؤه، وإنما يكون ولي مالها وملكها.

واعلم أن الرجل في عرف الشرع هنا هو ولي أمر المرأة، فلا يسوغ لها أن تبرم أمرًا خطيرًا من دون إجازته، إلا أن عرف العادة والاستعمال يوجب للمرأة كثيرًا من الحقوق، والإمرة على الرجال، فإن إخضاع النساء في كل مكان وزمان أمر صعب ولا سيما في المدن الكبار التي يباح لهن فيها الخروج والزيارات، فلا يسع الزوج إلا المياسرة والملاينة لامرأته.

وعادة النساء الكبراء هنا عند السلام أول مرة أن لا يسلمن باليد، بل بإشارة من الرأس، وفي المرة الثانية بمس الأنامل فقط، وفي الثالثة بنصف الأصابع وهلم جرًّا.

وينبغي لمن أكرمه الله عز وجل بزيارة أحد هؤلاء الأمجاد والماجدات ألا يذهب إلا في وقت الزيارة المعلوم، وهو بعد الضحى، وأن يكون مجملًا باللباس الفاخر، نظيف الثياب، حالقًا شاربيه، مرجلًا شعر رأسه، باردًا أظافيره، ماسحًا نعليه، ساترًا كفيه بجلد أبيض، فإن قولنا: «المرء بأصغريه» و«لا تكلمك العَباءة وإنما يكلمك صاحبها.» و«رُبَّ حُرٍّ ثوبه خَلِق.» لا محل له من الإعراب عندهم، وينبغي أيضًا أن لا يحدق فيما يراه من المتاع والأثاث، ولا يمسه بإصبعه، فإن كل ما يكون بالمجلس حرم، ولا يبتدرُ الرجل بالخطاب، ولا يكونُ سائلًا، فإذا كلمه مولى الدار ثلاث كلمات أجاب بثلاث، وإن زاد فليزد، ولا يلزُّه في الجلوس وإن مس كوعه فصلاة الاستغفار، ويندب المشي على البساط قورًا.

ومن العيب أن يذكر الإنسان بحضرتهن اسم رجله أو ساقه أو ظهره، وأقبح من كل قبيح أن يقول: «بطني»، حتى إن لفظة البطن بلغتهم مستهجنة، ومثله الفخذ، حتى

من الحيوان، وفي بعض البلاد قد تقول المرأة إذا دعوتها للأكل: بطني ملآن ولا تستحي، ولا يحكي بحضرتهن موضعًا من جسمه، ويفرض أن لا يبصق، ولا يسعل ولا يمخط، ولا يفتخر، ولا يتجشأ — والعياذ بالله — ويندب أن لا يتنحنح، ويجب أن لا يشم منه رائحة الدخان، وأعرف سيدة كانت إذا شمت رائحته في ثياب زوجها سواء كان منه أو من غيره، أجبرته على نزعها.

وقد كان دعاني بعضهم إلى أن أزوره وأمكث عنده أيامًا ليسمع مني لفظ العربية وقال لي: «قد جئتك من مكان سحيق قصد أن تنزل عندي، ولك عليَّ كل ما يرضيك.» فقلت له: لكن ينبغي أن تعلم أني أتعاطى الدخان وأن نساء الإنكليز لا يسمحن به، فقال: «إن حول الدار بستانًا، فمتى أردت أن تدخن تمضي إليه.» فقلت في نفسي: هذا أول المباحث على العنت، ثم قلت له: «إذا طلبته في الليل فهل أقوم من الفراش وأحمل اللحاف إلى البستان؟» قال: «بل تدخن في حجرتك.» فأجبته إلى ذلك وسافرنا معًا فلما بلغنا منزله سلمت على زوجته، فكان أول ما خاطبتني به أن قالت: «طب نفسًا من جهة تعاطي الدخان، فإنا ننظف الحجرة منه كل يوم.» فاستدللت من ذلك أنه كتب لها قبل سفرنا في هذا الأمر الجلل.

وإذا زارهم أحد أول مرة، ولم يكن من معارفهم، فلا بد من أن يعطي الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه، فيناولها الخادم سيده في صحفة من الفضة أو البلور، ولا يكاد يدخل عليهم زائران في وقت واحد، وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه أسماء الزائرين في كل يوم، وفي الجملة فإن معاشرة هؤلاء الرءوس تتعب الرأس والرجل معًا، وتضيع كثيرًا من الوقت والمال، وربما دعاك أحدهم إلى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة أغدية.

(١٣–٤٩) مما يحمد من نبلاء الإنكليز

ومما يحمد من هؤلاء النبلاء أنهم لا يضعون في أرديتهم سمات الشرف ويطوفون به في الطرق تهويلًا على العامة كما تفعل نبلاء فرنسا، وإنما يتحلون بها في أوقات معلومة، وكذلك الخواتين لا يتحلين بالحلي والجواهر إلا في الولائم والسهريات ونحو ذلك، ومن ذلك خطابهم خَدَمَتَهُم بالرفق واللين، وإن أظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالمخدومة تقول لخادمتها إذا أمرتها بأن تناولها شيئًا: «هاتي هذا الشيء إن أعجبك.» وبعد أن تأخذه منها تشكرها، وربما تباخلت عليها في الأكل والشرب وأرضتها بمثل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها.

ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشأنين، فلا تدل عليها بشيء، وإذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب، كأن تقول لها مثلًا: «يا فاجرة يا بنت الكلب» كما تقول نساء بلادنا عند أدنى باعث، أو أن تحرق عليها أسنانها، والعادة عندنا بخلاف ذلك فإن المخدومة تلعن الخادمة وتشحنها بحضرة الناس، ثم تلقمها وتعلفها وتنبسط معها في الكلام، وتستعين بها على تنفيذ هواها وتطلعها على أسرارها.

ويحمد أيضًا من عاداتهم أنهم إذا استخدموا شخصًا لسنة، وأرادوا صرفه لغير ذنب، نبهوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر، وعند الفرنسيس ينبهونه من قبل بثمانية أيام، كذا في غالنياني، فأما إذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه بأسبوع، أو أدوا إليه أجرة الشهر، وصرفوه، ومن يستخدم في الميري أو عند جمعية وأبلى في خدمته، كان على ثَلَج من أن يزاحمه آخر على محله ولو بأجرة أقل، وكل هذه المحامد معدومة في بلادنا، فإن المخدوم يطرد خادمه بلا ذنب ولا مكافأة.

كبراء الإنكليز وغريب طباعهم

ولبعض كبراء الإنكليز طبع غريب لا أدري إلى أي شيء أنسبه، وهو أنه إذا باشر لهم أحد عملًا لم يخطر بباله أن خدمته له إنما هي عن حاجة ألجأته إلى إخلاق ديباجتيه، فيأتي عليه حين من الدهر من غير أن يسأله هل أنت محتاج إلى الدراهم أو لا؟ ولكن اسمح لي أيها المخدوم الأعز الأغر أن أترجم لك عن هذا الطلياني الذي يعلمك الألحان، وعن ذاك الفرنساوي الذي يعلمك الرقص والتصوير، وعن ذلك النمساوي الذي يعلمك فلسفة اللغات، فإني أخشى أن الأول يضيف إلى كل كلمة من لغتك حرف علة، والثاني ينقص منها الحرف الصحيح، والثالث يبدل ويقلب، فإنه يرى أن لغتك فرع من لغته، فلا يبالي كيف يؤدي إليك المعنى، فيشكل عليك فهمه، بل دعني أكلمك بلسان عربي مبين حتى يكون كتابي كله من نفس واحد، وما على صِمَاخك اللطيف الشريف من حروفه الحلقية من بأس.

فأقول: «أي لذة ترى لمعلمك منهم في مجيئه إليك تحت المطر والثلج من مسافة ساعة فأكثر، فيحوج إلى أداء شلين جعل الحافلة وإلى أن يضغط بين القاعدين فيه، ثم بعد أن يخرج منه سالمًا يمشي ربع ساعة فيوسخ الوحل نعليه، وتكسر الريح ظلته، ثم يأتي فيقرع الباب فيخرج خادمك إليه وينظر إليه، كالمستخف به؛ إذ يرى نعله قد

ابتلت وظلته مفتوحة، فإنه قد نقل عنك بالإسناد أن كل من يعيش بيديه ويمشي على رجليه لا يكون «جنتل مان»؛ أي متخصصًا متصفًا بصفات الخاصة، ثم يعرض عليك ما أقدم الآتي إليك من دون أن يذكر اسمه، وإنما يذكر صفاته، بأن يقول: بالباب رجل مبتل النعلين مفتوح الظلة مشعث الرأس.

وحينئذ تأمره بأن يأذن له في الدخول، فأمعن النظر — هداك الله — يتبين لك أن من كانت هذه حالته كان جديرًا بأن يأخذ في غاية الشهر أجرته وحق عرق جبينه أو قرقرة أمعائه من البرد، لعمري ليس هذا دأب جيرتك الفرنسيس، فإنهم وإن لم يؤدوا أجرة العامل لهم كما تؤديها أنت إلا أنهم لا يغفلون عنه، فيعرضون عليه ما يلزمه قبل اللزوم أو عند وقته.» وأقبح من ذلك أنه إذا سأل العامل المعمول له من هؤلاء السادة أجرته انقبض منه واقشعر، ولا سيما إذا كان المبلغ قليلًا.

وهنا ينبغي أن أذكر أن الناس ما زالوا يروون عن الإنكليز أنهم إذا استخدموا مثلًا معلمًا أو غيره لا يسألونه عن أجرته أولًا وإنما يسألونه أخيرًا ويؤدونها إليه كما يطلب، وأنهم يوفونها أكثر من سائر من عداهم من الإفرنج، وأن العامل إذا اشتغل لهم بشيء ساعة ما من النهار أغناه ذلك عن التعب يومًا أو يومين، فينبغي أن تعلم أن الإنكليز كانوا من قبل اختراع البواخر أَنْخَى وأسخى منهم الآن، فإن مجيء الغرباء إلى بلادهم كان إذ ذاك نادرًا؛ فكانوا يحتاجون إلى أن يأخذوا عنهم ما ليس عندهم منه.

وكثير ممن قدم إليهم في ذلك الوقت مخرق عليهم، ولبس ورجع غانمًا، فأما الآن فما برحت الغرباء تتوارد إليهم من كل فج، وصاروا هم أيضًا يجولون في جميع البلاد ويطَّلعون على أحوالها، ويشهرون معلوماتهم فيها في الكتب وفي صحف الأخبار، فصاروا لا يخفى عنهم ما يناله الغريب في بلاده، وأصبحوا يشارطون ويستحِطُّون من الطلب، وصار عندهم كثيرون من الغرباء، فربما رضي أحدهم بأن يأخذ على شغل ساعة شلينًا واحدًا وما بين ذهابه وإيابه يضيع ساعة فأكثر.

وهذا الطمع في الاستغناء من الإنكليز قد غر كثيرًا من الناس، فاستفزهم من ديارهم حتى قاسوا في هذه البلاد من الجهد والعناء ما رضوا به من الغنيمة بالإياب، حتى إن أهل إرلاند مع قربهم من الإنكليز ومخالطتهم لهم يتركون بلادهم ويقصدون إحدى مدن الإنكليز، وعمدتهم تلك الأماني الفارغة، ويحكى عن أحدهم أنه قدم إلى لندرة على نية أن يصيب فيها الحظوة والسعادة، وكان فقيرًا جدًّا، فاتفق يوم دخوله أن عثر بدينار مرمي في الطريق فالتقطه ووضعه في جيبه، ثم لم يلبث أن اعترضه فقير فأعطاه الذهب، وقال: خذه مباركًا عليك فإني لأرجو أن أجد من ضربه كثيرًا.

(١٣–٥٠) تهكم الإنكليز من الإرلانديين

ولأهل إرلاند حكايات كثيرة مضحكة وأقوال متناقضة يرويها عنهم الإنكليز تهكمًا بهم، منها: أن امرأة قالت لرجل همَّ بأن يقعد على كرسي: «لا أقدر أن أستغني عن إحدى هذه الكراسي الفارغة؛ لأنها جميعها مشغولة.» وسأل رجل منهم رجلًا آخر: «هل رأيت أنحل من هذه المرأة؟» فقال: «لعمري لقد رأيت مرة امرأة لو أنها جعلت مع هذه ومع أخرى إليها، لكانت أنحل منهما معًا.» واشترى رجل ساعة بثمن غالٍ، فسأله بعض أصحابه عن سبب ذلك فقال: «إن لهذه الساعة فوائد عظيمة، منها أني متى أردت أن أقوم في الليل جذبت حبلًا بها فتطن فأسمع صوتها.» وقيل مرة لرجل: «قد اختُرع كانون يخف به نصف مصروف الفحم.» فقال: «إذن أشتري كانونين ليخف المصروف كله.»

وكتب بعضهم كتابًا من أميريكا إلى صديق له في بلاده يقول فيه: «أخبرك بأني قد انتقلت من المحل الذي أنا فيه الآن، ولولا ذلك لكنت كتبت إليك من قبل، وما كنت أدري قبل الآن أين يلقاك كتابي هذا، ثم إني أمسكت القلم اليوم لأبلغك خبر موت خالك الحي الذي مات بغتة بعد مرض طويل لازمه نحو ستة أشهر، وكان فيه يتلوى ويتشنج وهو في غاية السكون، ولا يتكلم بل كان يهذي ويلغو، ولست أدري سبب موته، غير أن الطبيب يظن أنه مات من المرض الذي اعتراه؛ لأنه بقي عشرة أيام نفساء، أما عمره فتعلمه أنت كما أعلمه أنا وهو خمس وعشرون سنة إلا خمسة عشر شهرًا، ولو أنه عاش إلى هذا الوقت لكان مات منذ ستة أشهر. «تنبيه» والآن أرسل لك عشر ليرات أرسلها لك والدك من دون معرفتي، وكانت أمك تريد أن ترسل إليك بقرة فلولا قرونها لضمنتها في هذا الكتاب، والمرجو منك أن لا تفض ختم هذا الكتاب إلا بعد قراءتك له بيومين أو ثلاثة، فإنك تكون عند ذلك أكثر استعدادًا لسماع هذا الخبر المحزن.»

(١٣–٥١) عودة إلى غريب طباع عليتهم

عود إلى ما كنا فيه، وقد يكون أحد هؤلاء العلية مديونًا لشخص، فيسافر إلى بلاد بعيدة من غير أن يؤدي إليه حقه، وقد يكون له وكيل أو صديق ولا يوكله عنه في ذلك، فإذا سأل الرجل وكيله عن سبب سفره قال له: «قد كان يريد أن يراك قبل ذهابه، لكن العجلة اضطرته إلى السفر بغتة، وقد صعب عليه ما جرى.» وهذه الخصلة أعرفها منهم في مالطة أيضًا، وليست ناشئة عن طمع في أكل الدين أصالة، وإنما هي عن عدم المبالاة

والاكترات، وعن الاعتماد على صدقهم ووفائهم وعلى مقتضيات «الجنتلمانية»، ولكن ما معنى «صعب عليه» هنا أو «حزن» أو «اكتأب» أو «كَمِدَ» أو «تَرِحَ»، أو كل مرادفها، وهو لا يدري متى يعود من غيبته، والرجل محتاج إلى أجرته أو ثمن حاجته.

ومن طبعهم أيضًا أن لا يسمعوا تظلم الغريب من أحدهم ولا سيما إذا كان المتظلِّم دون المتظلَّم منه، وإن كانوا يعلمون لهذا سابقة في الشطط على بعضهم، وإذا استلمحوا من الشكوى نورًا يريهم أن كل بشر مَظِنَّة للخطأ والقصور، فإنما يكون ذلك في جهة الشاكي لا المشكو منه، وهذه الخُلَّة من جهة هي صِنْو تلبثهم في اللوم على ما تقدم، ومن جهة أخرى هي من قبيل التعصب والزيغ.

ولهؤلاء الكبراء حب للسمعة يفضي إلى قسوة القلب، فإن أحدهم قد يهون عليه مثلًا أن يعطي الجمعيات الدينية ثلاثمائة ليرة في السنة، وإن كان لا يعلم بأي وجه من وجوه البر تُصرف، أو لأي مقصد تُستعمل، وإذا مرت به امرأة فقيرة حافية تحمل رضيعين، وعلى وجوههم سمة الانكسار والجوع، لم يختلج قلبه لأن يجود عليها بدرهم واحد؛ حيث يعلم أن المرأة لا دفتر لها تكتب فيه اسمه وتنشره على الملأ كما تفعل الجمعيات.

ومن طبعهم وطبع العامة أيضًا أنهم يشمئزون من أن يسمعوا من الغريب تعييب عاداتهم ومنكر أحوال بلادهم، وإنما ينبغي أن تنتظرهم حتى يخوضوا هم في ذلك، ولا شيء أسوأ عندهم من أن يفصل الغريب عن بلادهم وفي قلبه شيء عليهم.

(١٣-٥٢) نفوذ سيدات الإنكليز

واعلم أن للسيدات هنا نفوذ كلمة بالغًا جدًّا ولا سيما في الأمور التي يشم منها رائحة الديانة، والذريعة إلى إمالتهن وإرضائهن لمن حاول ذلك كما فعل بعض الطمعين، هي أن يقول لهن: «ما أعجب ما أرى من أحوال نساء هذه البلاد المباركة، وما هن عليه من حسن الأخلاق والفضائل الباهرة، فإن نساءنا يجهلن القراءة والكتابة ولا يعرفن ما يجب عليهن لله وللعباد، فمن أجل ذلك لا يحظين عند بعولتهن، فعيشة الرجل مع زوجته عندنا عيشة خصام ونقار ومقت ونغص ونكد وكمد، ألا ليتكن تتعطفن عليهن وتنشئن لهن مدارس لتربيتهن وتهذيبهن، فتكسبن بذلك الثواب من الله والثناء من الناس.»

وما أشبه ذلك من الكلام الحامل لهن على الاعتقاد بأفضلية أنفسهن، فينظرن إلى ذلك القائل نظر الرفيق الشفيق، وينزلنه منزلة رسول من الله لإنقاذ نساء بلاده من ورطة العَمَه والجهل، ويعتقدن أنه متى رجع إلى وطنه أذاع بين الناس محامدهن، وهو

— أي ذلك الأصيل الذي فعل هذا والمقتدي به — قائل في نفسه: «ألا ما أهون خدعتكن عليَّ مع وجود أضابير كتب متنوعة في خزائنكن، ايم الله إن جميع ما عندكن من التحف والأسفار لا ينفعكن من دهائي شيئًا، فإن الدهاء ملكة غريزية في الإنسان لا تؤخذ عن الكتب.»

وهكذا ينوهن باسمه، ويصبح عندهن معزوزًا مكرمًا، فتدعوه واحدة للصبوح، وأخرى للغَبُوق، وكذلك إذا ألقى مثل هذا الحديث على أحد من أهل الكنيسة، فإن بين القسيسين والمرأة لا يعدم الإنسان هنا أن ينفذ مخاريقه، وإذا اجتمعا له كان ذلك من سعده، وإذا كان في خلال إطرائه هذا يتنهد ويزفر وتغرغر عيناه بالدموع، كان أَنْجَعَ وأبلغ، ثم ما عليه بعد ذلك أن يقهقه أو يحنبش فإن للضحك وقتًا وللبكاء وقتًا، وهذا التدجيل لا يغني عند الفرنسيس نقيرًا.

هذا؛ وإني سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الإنكليز أن يصفهم بالكبر والعجرفة، ولكن قبل إثبات هذه الدعوى ينبغي أن تعلم أن الكبر على أنواع؛ الأول: أن يكون ظاهر سحنة الإنسان منفرًا عنه ناظره لعدم طلاقة وجهه، فيظن الناظر إليه أنه لا يتكلف لمخاطبته، والثاني: عدم قبول النصح والافتئات برأيه وقوله وإن علم أنه غير مصيب، والثالث: أن يكون طلق المحيا لين الجانب، يرغب في مجالسة الناس، ولكن أول ما يبسط بساط الحديث بينك وبينه يطفق يعدد عليك محاسنه وفضائله وفواضله، ومآثره ومناقبه، فإذا كان مثريًا قال: «إني أنفق في الشهر كذا، وأتصدق على الفقراء بكذا، وكنت بالأمس مارًّا في طريق كذا، فسألني فقير شيئًا، وحيث لم يكن معي فلوس بذلت له دينارًا، وإني لا يبلى عندي شيء مما ألبسه، فإني أخلعه على هذا وذاك، وإن عندي من المتاع كذا، وكل يوم آكل كذا، وأضيف أناسًا وأقريهم الطُّرَف التي يعز وجودها في هذه البلاد، فإن لي عمالًا في البلاد الخارجية يبعثونها إليَّ في كل عام، أما الكتب فلم أُعْنَ بها إذ لست أملك فرصة للمطالعة لكثرة الشواغل والموانع.»

وإن كان جميلًا قال: «إن فلانة هامت في هواي، وتركت أهلها حبًّا بي، وآلت لتصحبنني أو تموت، وإن زوجة فلان أهدت إليَّ من التحف كذا، وأرسلت إليَّ من الرسل والرسائل كذا، وإن ابنة فلان دعتني إلى أن أخطبها وهي تملك كذا ولم أجبها، ولا أدري كيف ينتهى بها الحال؟ وإني مشفق من أن يلم بها عارض من الجنون، فأكون أنا سبب ذلك.» وهو مع كل هذا الإفجاس والجزاف بكذا مقبل عليك وباش بك ويزيدك إدناء من جنابه لكيلا يفوتك شيء من هذه الفوائد التي يلقيها عليك.

ومن كان قد قرأ بعض أشعار، وسمع من أهل العلم مثلًا أن الشعر منقبة سنية، تصدى إلى أي نظم كان، فإذا رأى طائرًا في الجو نظم فيه قصيدة، وإذا تزوج أحد في بلدة نظم فيه تواريخ، وإذا توفي أحد قال: «قد غاض بحر الكرم، ودكت أركان المعالي، وذوت رياض الفضائل، وأفل نجم الهدى، وخسف بدر المجد، وكسفت شمس الفضل.» ثم لا يزال يطلع في عاجله النبي إلياس حتى يصل إلى الفلك الأثير، ويعدد جميع ما هنالك من النجوم، وينتزع منها كفنًا لمرثيه، وما ذلك إلا حتى يقال عنه إنه شاعر.

ومنهم من إذا حفظ نادرة أو حكاية أو مسألة رأيته يتشدق بها في كل مقام ويضغطها بين كل مورد ومصدر، حتى يقال عنه ما شاء الله.

ومنهم ما إذا أطلعته على غلطة، أومأ إليك برأسه وقال: «قد فهمت قد فهمت.» فتقول له: «كيف تكتب المرة الآتية؟» فيقول: «لا أكتب غلطًا.» فتقول: «ولكن بيِّن لي كيف تجتنبه.» فيقول: «أكتب ما يكون صحيحًا.» فتقول: «أطلعني عليه» فيقول: «حين أكتب أعرف ما ينبغي أن يُكتب.» ولا يزال يكابرك تَصَلُّفًا وعنادًا حتى تمل منه.

ومنهم من يزورك، وأول ما يستقر به المكان يأخذ في أن يشكو من كثرة معارفه، ويتأفف من كثرة ما يُدعى إلى ولائمهم ومراقصهم، ويتسخط على الولائم والمولمين، مع أنه لم يحصل على معرفة هؤلاء المعارف إلا بعد استعمال وسائط لا تحصى، وهو يقول في قلبه: «أدام الله دولة هذه المآدب، وأعلى شأن الآدبين؛ فإنهم أنفع من الأدب والمتأدبين، وإني أذهب إليهم وأنال من أطايب طعامهم وشرابهم، وأَمْخرق عليهم، فتارة يضحكون من خزعبلاتي، وتارة يحبذونني، فأرجع إلى وكري خالي البال ممتلئ الأمعاء.» ومنهم من يكون له قفص خادم، فيدعوه أن يجوربه، ويلبسه نعله بحضرة الناس، ويكلفه أن يحمل دورقه ودواته وجبته وعصاه وقصبة دخانه، ويمشي وراءه كأنه حمار موقور، وذلك حتى يقول الناس: إن السيد ذو خدم وحشم.

ومنهم من يتواضع لجليسه وسامعه ويعتذر إليهما فيقول: «لا تؤاخذني يا سيدي بما تسمع مني من اللحن، فإني لم آخذ النحو عن أحد، ولم يطاوعني الوقت على أن أتعلم اللغة كما يجب، وإنما عرفت ما عرفت بالدربة والممارسة.» وهو عند ذلك ينتظر من سامعه أن يقول: «حاشا لك أن تلحن في شيء وأنت العلم المشار إليه بالعلم والبيان، وأقسم أني لم يطرق مسمعي شيء أبلغ من كلامك، فأنت قُسُّ الفصاحة وسَحْبَانُ البلاغة، وأنت الذي تروى عنه نوابغ الكلم، وتؤخذ عنه جوامع الحكم، فيا ليت لنا في بلادنا من يأخذ عنك هذه البدائع كي لا يضيع العلم من بيننا، فأدام الله وجودك، ومتعنا ببقائك السعيد، آمين.»

ومنهم من يقول: «إن شأني يا جماعة الخير أن لا أرى عليَّ لأحد دينًا أو لومًا أو منة، ولو بت وعليَّ لأحد درهم واحد لم تأخذني سنة ولا نوم، وقد طالما حاولت أن أغير طبعي هذا بطبع من طباع الناس فلم أقدر.» وهو مع ذلك يترقب جماعة الخير أن تقول له: «نعم هذا الطبع، لله سجاياك ما أكرمها! وخلائقك ما أعظمها! فيا ليت الناس جميعًا يقتدون بك.» ومنهم من إذا كتبت إليه كتابًا تسأله عن شيء، ضَنَّ عليك بجوابه؛ إذ يراك غير أهل له.

ومنهم من إذا رآك قد فتحت فاك للحديث معه، أو مع جليس آخر، ابتدر إلى قطع حديثك المفيد بأن يحكي حكاية سخيفة عن نفسه، أو عن أهله وخادمه، ومنهم من يماريك في الحق الصريح، ولا يذعن لبرهانك، وإن كان يعلم أنه دونك في الجدال، وآخر الكلام بينك وبينه هو أن يقول لك: «كذا كان رأيي، وهذا هو قصدي.» فيوهمك بذلك أنك كنت من الزائغين، وأنه من الراشدين، وذلك حتى يكون آخر الكلام إليه.

ومنهم من يجادلك ويعارضك فيما لا يورثه فخرًا ولا يكسبه ذكرًا، ولكن لمجرد إظهاره إياك غالطًا، فإذا سألك مثلًا: «كيف أنت؟» وقلت له: «بخير وعافية.» قال لك: «ما أراك تدري ما العافية، فإني لا أرى أثرها عليك.» فتقول له: «كيف وإني والحمد لله متمل بصحتي ويمرئني ما آكل وأشرب، ويهنئني منامي وجلوسي؟» فيقول: «ما هذا معنى العافية عند المحققين، وإنما هي أن تمشي منتصبًا غير لاوٍ على أحد أو شيء تراه عن يمينك ولا شمالك، موازنًا لخطواتك شامخًا بأنفك مصعرًا خدك.» إلى آخره، ولو جئته بجالينوس والفيروزآبادي ليطلعاه على حد العافية وتعريفها لم يقنع منك.

ومنهم من إذا غاب يومًا عن وطنه قال لمن يجهل حاله: «إن أبي كان رئيس المنشئين في الديوان، وعمي كان وزير الأمير، وخالي سميره، وإني إنما قدمت بلدكم للتنزه والتفرج.» وما أشبه ذلك. ومن هؤلاء المفجسين من إذا لم يجد مجالًا في نفسه للمدح افتخر بأبيه، أو جده، أو عمه، أو بداره، أو ببلدته، واعتقد أن كل شيء يضاف إلى ضميره يعجب الناس، وقد سمعت مرة واحدًا من هؤلاء المفتخرين يقول: «قد جرحت إصبعي بالأمس، فخرج منها دم أحمر قانٍ أعجب وعجب جميع الحاضرين.» ومنهم من يستفزه العسر والضنك إلى أن يغادر وطنه فيقصد أمير بلدة أو شيخ قرية، ويلثم يديه ورجليه ويتضرع إليه أن يُؤْوِيه أيامًا ريثما يجد مقامًا، فإذا رأيته والحالة هذه وسألته عن مقره أجابك بأن الأمير فلانًا دعاه إلى النزول بداره وأمسكه عنده، ولا يريد أن يطلقه كلفًا به.

ومنهم من يروعك بمخطته الشديدة، فتظن أن المكان تزلزل منها، أو بتجشئه الذي يسمع له صد، ومنهم من إذا حييته في الضحى شخَر وزمجر وفتل شاربيه وزفر،

وأوهمك أن الوقت سحر لا ينبغي فيه اللقاء والسمر، وقس على ذلك من يزكي حرفته ويفتخر بصنعته إلى ما لا نهاية له، فإذا تقرر ذلك، فاعلم أن كبر الإنكليز هو من النوع الأول، وهو أنك تنظر فيهم الأنفة وكُلوح الوجه، ولكن متى خاشَبْتَ منهم أحدًا تبين لك أنه لا فخور ولا فيَّاش، فمن كان دخله في العام ١٠٠٠٠٠٠ ليرة، أوهمك أنه مثلك إذا كنت مثلي ذا هم في المعيشة ونصب، ومن يكون عنده ألفا كتاب مثلًا فإذا قلت له: ما أكثر كتبك! قال لك: «لعلي أسرفت في شرائها، وما كان ينبغي لي هذا» مع أنه لو قال لك: «إني قادر على شراء ضعفيها» لكان من الصادقين.

ومن كان منهم يحكي البدر جمالًا — كقول شعرائنا — لن ينبس بكلمة تدل على أنه فتن امرأة بحسنه، ومن يكن مضطلعًا بالعلوم والفنون، فإذا سألته عن شيء لم يجبك إلا بعد التروي، ولا ينسب إليه حل المشاكل واستخراج المجهول، وإذا سألته عن شخص يدعي العلم ويؤلف ما لا يرضى به العلماء، قال: «لعله استعجل فيما ألفه، ولم تمكنه مراجعته، وقد يكون مع المستعجل الزلل.» فلا يعيا عن أن يجد له عذرًا يستر به عيبه.

ومن يكن في أعلى المراتب لم يستنكف أن يجيب من يسأله أيًّا كان، فقد تبين لك أن كبرياء علية الإنكليز إنما هي في وجوههم أكثر منها في ألسنتهم وقلوبهم، وإن وسم الناس إياهم بالعجرفة مطلقًا ليس في محله، إلا أني لا أنفي عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن أن تذل لغيرهم، وهو من الخلائق المحمودة لدى جميع الخلائق، فأما كبر السفلة منهم فهو إبداء العبوس أيضًا مضافًا إليه عدم التأدب في الكلام والحركات ونبرهم في الخطاب وسوء الضحك واللقاء والمُنْقَلَب وهلم جرًّا.

(١٣–٥٣) أنواع الكذب

هذا؛ وكما اشتهر عن الإنكليز الكبر كذلك اشتهر عنهم الصدق، ولكن ينبغي أن تعلم أيضًا أن الكذب على أنواع؛ أحدها: نيئ مائع، وهو الذي اتصف به أهل البلاد المشرقية؛ وذلك كأن يعدك الإنسان بالحضور في الساعة الفلانية ثم يخلف، أو يعدك بقضاء حاجة وفي قلبه أن لا يقضيها، أو أن يسافر إلى إستانبول ويقول: إن مؤلف كتاب الساق على الساق قد ضغط بين عاجلتين فانكسرت ساقاه جزاء له بما عنون كتابه به، أو أن تكون قد أرسلت له كتابًا فينكر وصوله تملصًا من لومك له، أو أن يقول لك: «قد أطريت عليك البارحة عند فلان، فهو يبلغك السلام ويدعوك إلى منزله.» فإذا سرت إليه وجدت الأمر

بالعكس، أو أن يقول: «قد نويت أن أسافر غدًا إلى المشرق.» ثم يسافر إلى المغرب، وغير ذلك مما لا يجدي نفعًا.

والثاني: كذب مطبوخ ناضج جامد، وهو ما تستعمله تجار الإفرنج، فيكتبون مثلًا على بضائعهم أنها من أنفس الأشياء، وأنها صنعت باختراع آلات جديدة أحدثت عن طول تبحر في علم الهندسة والكيمياء، وأن لُحْمَة هذا الثوب من الهند وسداه من الصين، أو أنه سلطاني أو ملكي أو أميري أو وزيري أو مَوْلَوِي ونحو ذلك، فهذا الشعار لا تأنف الإنكليز من أن تتردى به لجر منفعة به إليهم، بل هو المراد عندهم من التمدن، وإذا علموا أن جيلًا أمهر منهم في شيء نسبوا إليه ذلك الشيء الذي يصنعونه هم ترويجًا له، والثالث: كذب متبل حريف محرق، وهو التغرير والنميمة والإفساد بين محبين أو خليلين لؤمًا وحسدًا، وهذا أيضًا يكاد أن يكون من خصوصيات بعض المشرقيين.

(١٣-٥٤) نظرتهم إلى الغني

ثم إن الغني وإن يكن شأنه أن يجتذب إليه قلوب الناس في جميع الأمصار والأعصار، وأن التجمل باللباس يورث المرء هيبة وجلالًا حيثما كان، وعلى ذلك قول بعضهم: «لقد اجتهدت في أن أنظر إلى الغني بالعين التي أنظر بها إلى الفقير، فلم أقدر.» أو كما قال الفاضل كولد سميث: «إن الغنى مرادف الحرية في كل مكان.» إلا أن الغني عند الإنكليز شعار على الجدارة والاستحقاق لكل شيء، فالغني عندهم يمكن له أن يرفع دعواه إلى مجلس المشورة، ويطلق امرأته لعلة الزناء حقيقة أو ادعاء، والفقير لا يمكنه، وله أيضًا جدارة بأن يكون ضابط البلد، ومن أعضاء مجلس المشورة المؤلف من نواب الأقاليم، وأن يشتري وظيفة من الديوان في العساكر البرية، فيكون قائد مائة أو ألف أو عشرة آلاف، وأن يدخل في المنتديات — أي الكلوب — وهناك يجتمع بالعظماء وذوي الشرف.

فإذا رأوه على تلك الحالة لم يتلبثوا أن يدعوه إلى منازلهم، فإن كان عزبًا خطب إليهم إحدى بناتهم أو أخواتهم، أو كان متزوجًا زوج ولده من إحداهن، فاستقطر بأنبيق ديناره دمهم الشريف في دَنِّ نسبه — ويا لها من غبطة — وله أن يتوسل إلى نجي صاحب الملك بالهدايا والطرف، فيستنزل له وعل جلاء شريف من شرفه ولو كان يهوديًّا، وله استطاعة على أن يستعمل أمهر فقهاء الشريعة في تبرئته إن كان معيبًا ومدعى عليه، أو استخلاص حقه إن كان مدعيًا، فيصيرون له النور ظلامًا والظلام نورًا، وأن يستخدم كتاب الحوادث فيشيدون بذكره وينوهون بمناقبه، وأن يستخدم أحذق

الأطباء لحفظ صحته العزيزة، وأن يحضر طعامه وشرابه من جميع البلدان القاصية إنماء في بدنه وتصفية لذهنه، وأن يضع أولاده في أحسن المكاتب، إلى غير ذلك من المنافع التي لا يحوزها الغني في بلادنا، ومن ليس له غنى في هذه البلاد فلا يحسبن نفسه من الناس.

هذا؛ وقد جرت العادة في كل مكان بأن السعيد الغني لا يزال يبدو للناس فتى، فإذا مات وهو ابن خمسين سنة مثلًا أسفوا عليه، وقالوا: «وا حسرتاه فقد مات عَبْطة، ولعل بعض حساده قد سمَّه.» وكذا لو تزوج في ذاك السن أو سافر، استحسنوا فعله، ولو أنه لحمقه كان يصيف في مشتى، ويشتو في مصيف مدة طويلة، ثم جعل المصيف مشتى، والمشتى مصيفًا لقال للناس: «إن رأي هذا السعيد ما زال رشيدًا، فإن الزمان قد انقلب والحال حال.» فكل شيء يليق به، بخلاف الفقير الشقي، فإنه إذا مات وهو كهل قالوا: «لا بد لمثله أن يموت.» وإذا سافر أو تزوج عرَّض نفسه لاستهزاء الناظر والسامع به.

(١٣–٥٥) منافع العلم

وما قلته في منافع الغنى هنا لا ينفي منافع العلم على الإطلاق؛ فإن من برع عندهم في علم وإن كان وضيع النسب فلا يعدم أن يرى من يرفعه من خموله ويستفيد بعلمه، غير أن العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف أو بنظم قصائد، وإنما هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية، ومعرفة أدبهما، ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات، فمن حصَّل ذلك فقد قبض على مفتاح الرزق، ومن اخترع شيئًا مفيدًا فقد استغنى به؛ وذلك إما أن يبيعه لأحد من الأغنياء بجُعْل وافر، وإما أن يستبد بصنعه؛ فلذلك كان العلم في أوروبا دائمًا مورد الاستنباط والابتكار، بل كثير منهم يحرزون به لقب الشرف.

(١٣–٥٦) ميراث الكبراء والنبلاء

ومن عادة الكبراء والنبلاء أن لا يورثوا جلاءهم وأملاكهم إلا للابن البكر، فإن شاء أعطى إخوته، وإن شاء حرمهم، ففي هذه الحالة يلتزم الأهلون أن يقوموا بكفايتهم، وإذا كان البكر مسرفًا فبذر أموال أبيه، اشترى له أصحابه أو أهل البلاد ولإخوته وظائف من الدولة، أو تبعثهم إلى البلاد الخارجية، والحكمة في توريث البكر دون غيره هو إبقاء

الجلاء في العيلة، وصون ناموس البيت، وإذا تقدم الابن بنت بقي له حق اللقب والوراثة، هذا إذا كان التراث عقارًا، فأما إذا كان حصص مضاربة مثلًا أو أشياء متنقلة، قسم بين الإخوة.

(١٣-٥٧) ما يحمد من الكبراء ويذم

ومما يحمد من الكبراء ومن ذوي المراتب السامية هنا أنهم لا يتداخلون في التجارة، ومن منكر عاداتهم أنه إذا دخل أحد على جماعة من هؤلاء العلية، ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط، لم يسلم إلا عليه، ما لم يعرفه بهم صاحبه، ويقول له في شأن كل منهم هذا فلان، إلا أن هذا التعريف لا يلبث أن يصير تنكيرًا، فإن من تعرفه في المجلس لا يلتفت إليك إذا رأيته في الغد في محل آخر، فأما إذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم أحدًا فلا يحيي مطلقًا، بخلاف عادة الفرنسيس، فإن من يدخل على جماعة أيًّا كانت يضع يده على رأسه أو ينزع برنيطته احترامًا لهم، وكذلك إذا خرج وإن لم يكن يعرفهم.

ومن تعرف عند الإنكليز بأحد أفراد العائلة مثلًا، وتردد عليه، فإن لم يُعَرِّفه بأبيه وأمه وإخوته فلا يسلم عليهم إذا رآهم داخلًا، فلا يلام على تركه ولا يحمد على فعله.

وإذا استخدم أحد جارية ولقي أباها وأمها لم يسلما عليه، هذا؛ وقد تقدم أن الغني يمكن له أن يطلق امرأته برفع دعواه إلى مجلس المشورة، فإن الطلاق من الأمور الصعبة هنا، ولا يمكن رفع دعوى مثل هذه إلا بمصاريف وافرة لا تنقص عن أربعمائة ليرة، إلا أنه بعد تحرير هذا الكتاب أبيح الطلاق للعامة من دون مصاريف، فإن مجلس المشورة رأى ذلك أصلح للرعية، وهو الرأي الأَسَدُّ.

وبقي هنا أن نقول: إن رؤية الزوج زوجته مع رجل أجنبي في حجرتها تكفي في أكثر الأحوال لإثبات الزناء من دون «رؤية الميل في المكحلة وأربعة شهود عدول»، كما يقتضيه الشرع الإسلامي، وهذا من دون هذا الوجه سديد، فإن الطلاق لما كان في الشرع مباحًا، ضيق على الرجل في إثبات الزناء على زوجته، وحيث كان محظورًا في شرع النصارى إلا لأجل الزناء، فيسمح للرجل في إثبات الزناء عليها بمجرد خلوتها مع الرجل.

(١٣–٥٨) بيع الزوجات

ومن الغريب هنا أنه قد جرت العادة عند العامة بأن يبيعوا نساءهم بيعًا لعدم إمكان طلاقهن، وصورته أنه إذا شعر الرجل بأن زوجته تحب آخر، عرض عليها الانتقال إلى محبوبها، فإذا تراضيا أخذها وباعها له بمحضر شهود، وقبض منه ما يؤذن بصحة البيع، وتخلص بعد ذلك من تبعتها.

وفي أخبار العالم ما نصه:

> رجل باع زوجته في حانة لرجل بخمسة شلينات ونصف، وقبض الثمن بحضرة شهود، وذهب بها المشتري، ولما كان الغد ندم زوجها على ما فعل، واستقال في البيع فلم يُقَلْ. وذكر أيضًا فيه «أن توماس داي تزوج امرأة في سنة ١٨٤٩، فأساء عشرتها، فتركته وعلقت برجل من سكوتلاند اسمه روبرتصن، ففاوض زوجها على أن يشتريها منه، فاجتمعا ذات يوم في حانة، وباعها له الزوج بحضرة شهود بنصف «بنت» من الجن تقاسموه جميعًا.» وفيه أيضًا «أن توماس ميدلطون باع زوجته ماري ميدلطون لفيليب روستنسن بشلينين وربع من الجعة، وتراضيا على الافتراق الدائم ما داما حيين.

وهذه العادة وإن تكن غير مباحة في أحكام الدولة، إلا أنه مسكوت عنها كما سكت عن إباحة الزناء للمومسات، فإن الزناء هنا معلوم لأرباب الأحكام لكنه غير مباح، وكثيرًا ما يقوم السم مقام هذا البيع، فإن التخلص من الأزواج به أكثر منه بالطلاق أو البيع.

(١٣–٥٩) من عاداتهم في الزواج

ومن عادتهم في الزواج أن البنت لا تتزوج إلا من كان مساويًا لها في السن أو كان أكبر منها بسنتين أو ثلاث، وفي ذلك شطط؛ إذ لا يخفى أن المرأة متى بلغت الأربعين سنة لم يبق فيها من القوة والنشاط ما يبقى في الرجل ولا سيما إذا كانت منتاقًا، نعم إن النساء هنا لا يعجل فيهن الهرم، فإن من يكون سنها ثلاثين سنة تبدو كمن سنها عشرون في بلادنا، غير أن هذه الصفة تراعى أيضًا في جهة الرجال أيضًا، وفي بلادنا لا تثريب على من بلغ الخمسين أن يتزوج بنت عشرين، وهذا يندر هنا جدًّا إلا لسبب عظيم، وذلك كأن يكون الرجل أشرف من المرأة وأغنى، فترغب فيه لتشاركه في شرفه وغناه؛ إذ كانت

هاتان الصفتان عند الإنكليز أفضل من جميع المناقب ولا سيما إذا روعي في ذلك مصلحة تربية الأولاد، وفي هذه الحالة فلا مانع أيضًا من أن يكون الزوج شيخًا قحلًا لعلمها أن حرارتها لا تلبث أن تذهب ببرودته فتستولي على الميراث.

وإذا خطب أحد امرأة ثم بدا له أن يعدل عن الزواج لغير موجب شرعي، غرم لها مبلغًا عظيمًا، ولا حرج على اليهود أن يتزوجوا من النصارى، وللأب أن يجبر ابنته على الزواج بمن شاء، إذا لم تبلغ حد الرشد، وهو عندهم ٢١ سنة، وبعده ليس له عليها من إمرة إلا بالمعروف والنصيحة، ولكن كثيرًا ما تهرب البنت من تحت حجر أبيها وتتزوج من شاءت وإن حرمها من الميراث، وإذا خرجت من حجره بعد بلوغ رشدها لم يبقَ لوالديها استطاعة على ردها، ووصية الموصي قبل بلوغ ذلك السن لا يعمل بها.

وللذكر أن يعقد الزواج عند بلوغه أربع عشرة سنة، وللبنت عند اثنتي عشرة، وما دام الولد دون سن الرشد فعلى الوالد أن يقوم بنفقته، وبعد ذلك لا يلتزم بها، وإذا تزوج الولد قبل هذا السن فلأبيه أن يحرمه من ميراثه، ومتى تزوجت المرأة انتقل جميع ملكها إلى حوز بعلها، ولكن لها أن تستدين على اسمه، ويجبر هو على وفاء دينها.

ولا يحل للرجل أن يتزوج أخت زوجته، وقد كان لرجل زوجة وله منها عدة أولاد، فلما حضرها الموت أقسمت على زوجها أن يتزوج أختها بعد موتها؛ لتربي أولادها، فتزوجها، فلما عُلم ذلك في ديون الحكم فرق بينهما، فسألت من أخبرني بذلك عن سبب هذا الحظر؛ لأنه غير مبني على مصلحة، وقلت: «إن كان تحريمه ورد في التوراة، فقد ورد فيها تحريم أمور كثيرة استحلتها النصارى فلأي سبب أضربتم عن تلك، وتمسكتم بهذه فقط؟» فقال: «المصلحة في ذلك هو أن لا يتوصل رجل واحد إلى إحراز جهازين من بيت واحد.» فقلت: «ولكن الفقراء يتزوجون من غير جهاز ولا ميراث.» فقال: «إن الشرع هنا ملحوظ فيه مصلحة الكبراء.»

ولا بد أن تشهر الخطبة في الكنيسة ثلاث مرات متوالية في الآحاد، وإذا مست الحاجة إلى الزواج بدون إعلانها غرم الرجل ضعفي النفقة، وهي في الغالب خمس ليرات.

أما في سكوتلاند فإن الزواج يتوقف على شاهدين فقط؛ فلذلك كان كثير من الإنكليز يذهبون إلى هناك ليتزوجوا ثم يرجعوا، ويقال: إن مجلس المشورة يهم بأن يعين إقامة أحد وعشرين يومًا هناك قبل الزواج تقليلًا من استعمالها، ومن تزوج امرأة زوجها حي غَرِمَ ونكل، وللمرأة المتزوجة عند الإنكليز احترام أكثر من غيرها وإن تكن أصغر سنًّا من غير المتزوجة، فإذا خرجن من مجلس إلى موضع الأكل مشت المتزوجة قبل تلك، وأجلست

في أحسن موضع، ولا بد للمتزوجة أن تلبس خاتم الزواج في بنصر يدها اليسرى، ومن لم يكن لها خاتم لم تحسب متزوجة وإن كان لها خمسة بعول.

ومن الغريب أنه عند عقد الزواج يُلَقِّن القسيس الرجل أن يقول للمرأة حين يضع الخاتم في إصبعها: «بهذا الخاتم أتزوجك وبجسمي أخدمك» ولا معنى للباء في قوله: «بهذا» لأن الخاتم ليس آلة للزواج، ولفظة «أخدمك» لا يفهمها أحد من العامة بهذا المعنى، وعند تناول طعام العرس تلبس العروس ثيابًا بيضًا، وتقعد النساء على المائدة وعليهن برانيطهن، وعادة الأغنياء منهم أن يعتزل الرجل بعروسه بعد عقد الزواج، فيقيم معها شهرًا في خلوة عن الشغل والأهل والأصحاب، وتسمى هذه المدة عندهم «قمر العسل»، ولا يكاد المُثْري يتزوج إلا مثرية مثله، وإذا تزوج الرجل امرأة ووضعت عنده بعد شهر أُلزِم بتبني الولد وتربيته وإن يكن من غيره، وكذا لو علم أنه عائش مثلًا مع مومسة وولدت ولدًا، ومن ثبت عليه أنه افتض بكرًا فولدت منه أجبر على أن يؤدي إليها في كل أسبوع شلينين ونصفًا في الأقل، إلى أن يبلغ الولد تسع سنين، أما الافتضاض قسرًا فيعاقب عليه بالتغريب والنفي، وكان يعاقب عليه في عهد وليم الأول بِسَمْلِ العينَيْنِ، وفي عهد الصكصونيين بالموت.

(١٣-٦٠) ما يحمد من تربية أولادهم

ومن العجيب أن الوالدين من الإنكليز إذا كانا قبيحين تأتي أولادهم ملاحًا، فإذا دام هذا الإسناع حقبة فلا يرى فيهم بعد من قبيح، والظاهر أنهم أحسن تربية للأولاد من غيرهم، فإنهم يغسلونهم بالماء البارد في كل يوم إذا كانوا أقوياء، أو بالفاتر إذا كانوا ضعفاء، ولا يقمطونهم حتى يمتنعوا من الحركة كما يفعل في بلادنا، وإنما يشدونهم بحزام فقط، وبعد نصف سنة يعودونهم على الأكل الخفيف مع اللبن، فلا تأتي سنة على الطفل إلا وهو يلتقم كل شيء، ولا يكاد طفل يُحْدِث في ثيابه أو يفحم من البكاء كما يكون عندنا، غير أني كثيرًا ما رأيت الأمهات هنا يسقين أطفالهن المِزْر أو شرابًا غيره لينمينهم، ويطعمنهم أيضًا الفاكهة والدسم، ويدخلن بهم في الزحام، وأماكن الخصام واللكام، ومما يحمد من تربيتهن أنهن يكلمنهم بالكلام المتعارف من دون لثغة ولا كسر كما تفعل نساء بلادنا، بل ربما حكين لهم حكايات وهم لا يعقلون، ويخاطبنهم بما يخاطبن به من يفهم، ويُلَقِّنَّهم أشياء كثيرة تعودهم على الفهم من صغر.

والذي ظهر لي أن أطفال الإنكليز أذكى وأزكن من أطفالنا، وبعكس ذلك المراهقين، وفي الحقيقة فإن الأم في بلاد الفلاحين لا تربي إلا ولدها البكر، والباقون تربيهم إخوتهم الأكبر فالأكبر، وفي الجملة فإن نساء الإنكليز مناتيق جدًّا، واتفق أن امرأة ولدت اثني عشر توءمًا وثمانية فذوذ.

قال في أبجدية الأوقات: «حدث غير مرة أن امرأة تلد أربعة أولاد في بطن واحد، فأما ولادة خمسة فلم يحدث إلا مرتين، إحداهما في أوستراليا سنة ١٧٧٣، والثانية في لندرة سنة ١٨٠٠.» قال: «وفي سنة ١٧٨٣ جعل شبه ضريبة على ولادة الأولاد، فكان على الدوك أداء ثلاثين ليرة، وعلى أحد العامة أداء شلينين.» ا.هـ. ويعجبني لطف الأولاد هنا ولا سيما حين تكون ثيابهم قصيرة وسيقانهم ظاهرة في أوان البرد.

(١٣-٦١) عاداتهم في الجنازة

وعادتهم في الجنازة أن يبقوا الميت أسبوعًا في البيت قبل دفنه، وعند إخراج جنازته يشيعها رجال يلبسون على رءوسهم مناديل سوداء معقودة فوق برانيطهم، ولكل ميت حداد معلوم، ولكل دفنة سعر، ولكن لا يخمشون عليه وجهًا ولا يشعثون شعرًا، وإذا أبقيت الجنازة في محل عند المقبرة ليلة واحدة أُدي عليها خمسة شلينات زيادة على الرسم المعتاد، فقلت لمن طلب مني ذلك: إن الحي يرقد على فراش وثير ليلة ويوسخه، ولا يؤدي أكثر من شلين واحد، فكيف تطلب على طفل في تابوته خمسة؟ فقال: «إن بين الحي والميت فرقًا.»

أما الكبراء فإنهم يبقون جنازتهم أكثر من أسبوعين إشارة إلى أنه غير جدير بأن يفارق هذه الدنيا، ومن الغريب أنه إذا مات أحد منهم غريبًا فلا بد من أن يعيدوه إلى وطنه ليدفن فيه، فيا ليت شعري ما نفع الميت لبلاده، أو ما نفع بلاده له؟! ولا يدفن ميت إلا بشهادة الطبيب الذي عالجه أو أجهز عليه، وذلك لكثرة ما يقع عندهم من القتل بالسم.

والواقع أن الفرنسيس أكثر احترامًا للجنازات من الإنكليز؛ فإنهم يمشون وراءها أيًّا كانت وهم خاشعون حاسرو الرءوس، وحين تكون في البيت يوقدون حولها الشموع ليلًا ويجعلون لها حارسًا.

(١٣-٦٢) عاداتهم في العيادة

ومن عادتهم في العيادة أن يستعضلوا داء المريض لأهله أيًّا كان، ويلقوا في قلوبهم الرعب بقولهم مثلًا: «إن فلانًا مُنِيَ بهذا الداء منذ أيام فمات، فإنه داء معضل ولا سيما في هذه الأيام.» فكنت كثيرًا ما أتذكر ما حُكي عن ذلك الرجل وقد مرض، فعاده بعض أصحابه وقال له: «ما تشتكي؟» قال: «وجع الركبة» قال: «إنها والله كانت علة أبي فمات منها.» وإذا أصيب أحد بما يخاف منه العدوى فلا يعودونه أصلًا، وقد كان لي طفل أصيب بالسعال، فلما كنت أذهب إلى منزل الدكطر «لي» على عادتي كانت زوجته تتجنب مواجهتي، فساءني ذلك أولًا؛ حيث لم يكن يخطر ببالي أن السعال يحمل من المبتلى به وينقل إلى صدور الجيران، فلما علمت عموم ذلك هان عليَّ، مع أن الدكطرية المذكورة كانت على غاية من الورع.

والظاهر أن جميع الإفرنج يجزعون عند المصيبة ولا يفوضون أمرهم إلى الله، وإن تلبسوا بالعبادة واتصفوا بالجراءة على أنهم لا يكادون يفجعون بموت أحد إلا ويتناسونه، فالاستسلام لقضاء الله إنما هو من خصوصيات المسلمين، وكفى بلفظ الإسلام دليلًا عليه، وفي هذه القرى لا يوجد أطباء ولا دوائية، وإنما يكون ذلك في بعض البلدان المجاورة لها، حتى إن ما يوجد هناك منهم إن هو إلا نفاية، فلو سكن أحدهم في إحدى المدن الجامعة لما نال بعلمه رغيفًا.

(١٣-٦٣) عاداتهم في المآدب

وعادتهم في المآدب أن تجلس الضيوف على المائدة، وتجلس صاحبة الدار في الصدر، وتأخذ في أن تقطع لهم شرائح اللحم رقيقة، وتناول الصحفة للخادمة فتضعها الخادمة أمام الآكل، ولو حصل خمس حصص من تلك الشرائح لما شبعت، والإكثار من أكل الخبز عندهم مظنة الهمجية، وقد أَدِبْت مرة عند أحد أعيانهم، فلما جلسنا على المائدة أخذت الفوطة ووضعتها على حجري، وكانت كسرة الخبز مخبأة فيها، فوقعت وأنا لا أدري، واستحييت أن أطلب غيرها، وهم ظنوا أني تنكلزت في بلادهم، فلما تحركنا للقيام إذا بالكسرة لاصقة بنعلي، فتذكرت حينئذ قصة ذلك السائل الذي طرق باب بخيل فرمى له بكسرة خبز أخت كسرتي هذه التي انتعلتها، فأخذها وتأملها، ثم طرق الباب مرة أخرى، فقال له صاحب الدار: «قد أعطيناك فلِمَ لا تنصرف؟» قال: «قد أعطيتموني هذا

الدواء، ولم تقولوا لي كيف أستعمله.» وإذا كان على المائدة لونان من الطعام أو ثلاثة كأن يكون مثلًا شواء من البقر ودجاج، خيرتك الست أيهما تريد، فإذا تناولت من لون سقطت شفعتك من الثاني، وندر أن تعطيك منهما كليهما، ولا يمكن أن تعطيك شيئًا — أو بالحري من شيء — إلا إذا استطلعت رأيك فيه أولًا.

ولا يمكن للمدعو أن يمد يده إلى زجاجة الخمر ويصب منها في قدحه، بل لا بد من أن ينتظر السائد أو الست أن يعرضا عليه، وكذلك سائر المأكول والمشروب، ويحزنني أن أقول: إني كثيرًا ما رأيت صاحب المنزل يقطع للضيوف اللحم، ثم يستكثره عليهم، فيضع في صحفته ما استكثره، فربما امتلأت من تلك القطع، وكنت أرى المدعويين معي يتكلفون الأكل تكلفًا، ويتبلغون بما لا يكاد يكفي الصبي، فيبقى ثلاثة أرباع الطعام كما هو، وإذا برد عندهم اللحم المطبوخ فلا يأنفون من أكله كذلك أسبوعًا، فلهذا ترى المُحضر على المائدة كثيرًا بالنسبة إلى مقدار الآكلين وكمية أكلهم، وقد سألت المرأة التي كنت نازلًا عندها ذات يوم فقلت لها: «نشدتك الله إلا ما صدقتني، هل أنا من الأكَّالين المفرطين؟» قالت: «لا بل من المقتصدين.» قلت: «قد دعيت غير مرة ورأيت الجماعة المدعويين معي لم يأكلوا جميعهم قدر ما أكلت أنا مرتين.» فقالت لي: «إن الدعوة هنا إنما هي صورة فقط، فإن المدعويين يأكلون في بيوتهم قبل أن يحضروا الوليمة.» فأخذني العجب من ذلك، وطفقت أفكر في مخالفتهم في ذلك لعادتنا، فإن المدعوين عندنا كلما أكثروا من الأكل زاد سرور الداعي بهم، لاعتقاده أنهم أحبوا طعامه، وإذا قلت لواحد من الإنكليز إن فلانًا دعاني إلى الشاي، قال لك: إنه هو كثير الفضل، وما أشبه ذلك، هذا عند الوسط من الناس.

فأما عند العظماء والزعماء فإن الخادم يطوف على الحاضرين بآنية الشراب ويخيرهم أي نوع يشربون، وربما شربوا المزر أولًا، ثم قليلًا من الخمر، حتى إذا فرغوا من الأكل قامت النساء وانفردن في مقصورة، وبقيت الرجال على المائدة، وحينئذ تتداول كئوس الشراب والمناقلة على النقل بغير محاشاة، وربما قضت الرجال ساعة أو ساعتين على الشرب والنقل، وساعة من قبلها على الطعام، وإنما تقوم النساء خوف أن ينهمك أحد الجلوس في الشرب فينطق بما لا يليق، ولا بد في الموائد الحافلة من وضع السمك المسلوق أولًا، فأما الشوربة فهي عبارة عن حسا الفلفل، وقد رأيت على هذه الموائد البطاطس، يأتون بها في صحاف مفضضة، وتحتها فوط من الكتان الرفيع، فلم أدرِ ما المراد بهذا الاحتفال والتنطس فإن الخسيس خسيس حيثما كان، والكلب كلب وإن طوقته ذهبًا،

وإذا فرغ الآكل مما لديه ولم يرد الزيادة، وضع السكين والشوكة متوازيين، وإذا شرب الشاي وضع الملعقة في الفنجان.

وعند صف أدوات الشاي تقوم الست أيضًا وتجلس في الصدر، وتسأل من حضر: «هل تريد أن تشرب شايًا؟» فيقول: «نعم، إن شئت.» فتقول: «أتشربه مع السكر؟» فيقول: «نعم، إن شئت»، فتقول: «ومع الحليب؟» فيقول: «نعم، إن شئت.» فتقول: «وتأكل نصف هذه الكعكة؟» فيقول: «إن شئت» فتقول: «وربع هذه الفالوذة؟» فيقول: «إن شئت» وكلما أكرمته بإحدى هذه المركبات قال: «إني أشكرك»

وبالجملة فإن الدعوة عندهم ضرب من الأسر، وقد أدبني أو أدب طربوشي أحد الوجوه في كمبريج إلى أن أشرب الشاي معه، فقال: «هل لك في أن تشرب الشاي معنا في إحدى الليالي ولكن بعد ثلاثة أسابيع؟» قلت: «نعم» حتى إذا سرت إليه، لم أجد على المائدة غير الصنف المعتاد منه، مع أني كنت أظن أن توقيت تلك المدة إنما كانت لجلبه من بعض البلاد، وإذا كانوا مجتمعين في مجلس وأرادوا الخروج إلى محل المائدة، أخذ الرجل بذراع زوجة غيره وأجلسها على الكرسي، وأخذ غيره بذراع زوجته، وإذا بقيت واحدة بغير زبون كان ذلك داعيًا لخجلها.

ومن عادة النساء على الموائد أن يكشفن عن صدورهن وأكتافهن وأنصاف أعضادهن، وهذه المواضع أحسن ما يُرى فيهن، ومن عادة العجائز أن يتزين بما لهن من الحلي والجواهر والشعر العارية، وليس ذلك من عادة البنات قبل زواجهن، فترى البنت الباهرة بجنب أمها السعلاة عطلًا، وتلك متبجحة بالقلائد والخواتم والأسورة والسلاسل، إلا أنهن في غير الولائم والسهريات لا يتحلين بشيء، ومن الأدب عندهن أن يأكلن وأكفهن مستترات بالجلد الأبيض، ويمضغن ما يأكلنه مضغًا خفيًّا، فإن فتح الفم للالتقام وشدة لَوْك الملتقم من أكبر العيوب.

والذي يظهر لي أن نساء الريف بالنسبة إلى برودة قطرهن وصحة أبدانهن قليلات الأكل جدًّا، ومع ذلك تراهن عُبْلًا سمانًا بخلاف نساء لندرة، وقلما تأكل إحداهن شيئًا من دون شراب معه، أو تشرب من دون أكل، وربما تغدى أحدهم بغير شراب، فإذا فرغ شرب الشراب وحده، وعامة الإنكليز يطبخون طعامهم بلا ملح، وإنما يملحونه عند الأكل، ويكثرون من الأباريز منتهى الإكثار، ولا سيما الفلفل والخردل، فإن أحدهم ليضع في صحفته ملعقة من كل منهما.

والفلاحون يأكلون الحلواء قبل الطبيخ، فهم في هذه كالترك، ويشربون الحليب بالملح والفلفل، وبعضهم يخلط الدقيق بقليل من السكر ويأكله، وقد دعاني بعضهم إلى

أن أشرب معه القهوة، وكان يأكل معها فجلًا ورشادًا، فعرض عليَّ، فأبيت فتعجب من ذلك. ومع افتقار هؤلاء الفلاحين وشدة احتياجهم إلى أشياء كثيرة للدفء مما نستغني نحن عنه في بلادنا، وكذلك كإيقاد النار للاصطلاء مدة ثمانية أشهر في السنة، وكلبس الجوارب والشعار من الصوف، فقد ألفوا شرب الشاي ألفة شديدة، حتى لم يعد ممكنًا لهم أن يستغنوا عنه، فيقال: إن مصروفهم منه في العام يبلغ نحو ثلاثين مليون رطل، ومصروف جميع الممالك يبلغ نحو اثنين وعشرين مليونًا، وقد جلب منه في العام الماضي سبعة وثمانون مليون رطل.

وأول ما عُرِفَ هذا النبات في أوروبا كان من أهل هولاند فإنهم جلبوه من الهند، وذلك في سنة ١٦١٠، وكان استعماله أولًا في غاية الندرة، فكان يباع الرطل منه من ست ليرات إلى عشر، ثم لما استقرت جمعية الهند في تلك البلاد صاروا يجلبونه منها، فرخص سعره وكثر استعماله، وضَرْبُ المكس عليه في أميريكا حين كانت ملحقة ببلاد الإنكليز كان من بعض الأسباب التي هيجت الأهلين إلى النزاع والحرب، وقد حاول الإفرنج تنبيته في بلادهم فلم يتهيأ لهم، وجميع الأطباء يقولون: إن شرب الشاي غير نافع، بل مضر ضررًا بليغًا بمن في عصبهم استرخاء، ولا شيء أقر لعين صاحبة العيلة من الإنكليز من أن تشرب الشاي مع أولادها بقرب الموقد ولا سيما إذا كانت مغلاة الماء تغلي ويسمع لها نشيش والبخار صاعد من بلبلتها، وهذا هو أوفر الهناء الذي يعبرون عنه بلفظة «كمفورت».

ثم إن الإنكليز عمومًا يفتخرون «بالهسبيتاليتي» وهي قِرى الضيف وبر الغريب، والحق يقال: إنهم في ذلك أكرم من الفرنسيس، وخصوصًا أهل الرُّسْتاق دون أهل المدن الجامعة، فإن هممهم بتحصيل الكسب شاغل لهم عن الكرم، إلا أن مآدبهم منغصة بكثرة التحشم والتكلف الذي لا معنى له.

وقد جرت العادة في المآدب الحافلة أن يشربوا الشراب على ذكر مشاهيرهم وزعمائهم، أو كما يقولون «على صحتهم» أو بالحري يشربون صحتهم، قال فلتير: الظاهر أنا إنما نشرب الشراب لأجل صحتنا لا لأجل صحة غيرنا.

وكانت عادة اليونانيين والرومانيين أن يشربوا ويقولوا كلامًا يكون داعيًا لأن يشرب غيرهم معهم لا أن يقولوا: «إنا نشرب على صحة فلان.» وكانوا يشربون في الأعياد تذكارًا لإحدى الحظايا، ومن هنا جرت العادة عند الإنكليز الذين يحبون تجديد كثير من عادات الرومانيين أن يشربوا على ذكر إحدى الخواتين، ويقال لها: «طوست»، وقد يقع الجدال بينهم والمناقشة هل تلك الست جديرة بذلك أو لا.

ومن الأمور المهمة عندهم أن يشربوا على ذكر ولي العهد الذي له حق في الملك، فإن ذلك دليل على كون الشاربين من حزبه، قال برون أسقف كورك — وكان ممن يكرهون الملك وليم: «بوُدِّي لو كنت أسد جميع تلك الزجاجات التي شربت لمجد هذا الملك.» وفي سنة ١٧٠٢ كتب منشورًا إلى أهل إرلاند يعلن فيه بأن الشرب على ذكر الملوك معصية كبيرة ولا سيما بعد موتهم؛ لأن ذلك مناقض لأمر المسيح بقوله: «اشربوا هذا لذكري.»

وكذلك برين البرسبيتاريان ألف كتابًا كبيرًا نهى فيه عن الشرب على ذكر أحد من المسيحيين، وحذا على حذوه كثيرون من أهل إنكلترة وفرنسا، غير أن مؤلف يوحنا غزى في هذا الباب لا يعلو عليه مؤلف، قال: «وذلك كله من العبث.» ا.هـ.

قلت: وكانت العادة أنهم إذا شربوا على اسم امرأة طرح الشارب شيئًا من ثيابه، فيلتزم جميع الحاضرين أن يفعلوا فعله، فلما كان ذات يوم شرب أحد الأمراء على اسم محبوبته، وطلب من الحلاق أن يقلع له ضرسًا نخرًا، فاضطرت أصحابه أن يقتدوا به.

وفي بعض صحف الأخبار حكاية عن رجل فرنساوي أنه قال: «قد حضرت أنا ورفيقي إلى الغداء إن صح أن يقال لتلك الصحاف غدا، أما أولًا: فلأنه لم يكن معه شوربة، ثم ترادف علينا قطع من لحم البقر وقدر من لحم الضأن، ثم وضعت البطاطس أمامنا على طبعها وعلى حالها وعوضًا عن التوابل، كان لكل من الجلوس صحفة فيها سمن مسلي، فشق عليَّ هذه الحال التي رأيتها أول دخولي بلاد الإنكليز، وقلت في نفسي: ألا إن هؤلاء القوم لَحْميُّون لا يعرفون إلا اللحم، ثم جالت الأفكار والخواطر في رأسي، وقلت: ليت شعري ما سبب تفردهم بخصال لم يشاركهم فيها غيرهم من النفخة التي تظهر فيهم، ومن عدم دربتهم في الرقص، وغلاظة أصواتهم في الغناء والتخاطب، وكُلوح سحنهم الناعسة؟ وعن ذلك كله كنت أقول في الجواب: «إنما هو لحم بقر، إنما هو لحم ضأن»، ثم دعيت إلى لون من الطعام نوهوا به باسم «بست لك»، وهو اسم طالما طرق مسامع أهل بلادنا، وكنت متشوقًا إلى أن أعرفه فلما كشف الغطاء عنه، ونظرت إليه إذا هو لحم مشرح شرائح رقيقة، ومتبل بالبصل، فصرخت متعجبًا، لعمري إن هو الذي نسميه «بيفتك»، فلما قلت هذا تضاحكت الجلوس ولا سيما واحدة من الخواتين كانت تتكلم بلغتنا، ثم قالت: إن اسم هذا اللون معناه: «بخت آكله» تفننًا في التسمية لا في المأكول.» ا.هـ.

وقال آخر: «ما شيء بأعجب من رؤية ولائم الإنكليز التي تذكر الناظر بالولائم التي ذكرها أوميروس؛ إذ ترى قطعًا جزيلة جدًّا من لحم البقر المشوي، وشاة بأسرها

على طبق، وحيتانًا ضخامًا على مائدة طويلة ملآنة من القناني والأقداح والظروف، فتجلس الضيوف وعليهم الثياب السود، وهم رزان ساكتون متحلمون، كأنهم حول جنازة ووراء الزعيم رجل يقال له: «طوست ماستر»، وهو الذي عليه أن يفتتح الكلام، حتى إذا ناجاه الزعيم قال بصوت جهير: «أيها الكرام إني عمدت إلى طوست ولا أشك أنكم تنعمون بقبوله.» فتتحرك الجلوس من همدتهم، ويقومون بأجمعهم كما تحرك شيئًا بآلة ويجيبون دعوته، فإذا شربوا برز ثلاث جواري كاشفات عن ترائبهن من وراء حجاب، ويأخذن في العزف بالبيانو، ولا يزال الطوست يدور ويعاد إلى أن يحل محله.»

(١٣–٦٤) جهل الإنكليز بالطبخ

ومن العجيب أن جيلًا متقدمًا في المعارف والصنائع كالإنكليز لا يعرفون أن يطبخوا اللحم بالبقول، وإنما يطبخون كلًّا منها على حدته، أما البقول فإنما يسلقونها سلقًا وهي عبارة عن اللفت والكرنب والجزر، وشيئًا آخر من هذه النباتات الريحية. وسلطان المائدة إنما هو البطاطس؛ إذ لا تتم آدابها إلا بها، وربما اجتزأ الفلاحون بها عن كل ما عداها حتى عن الخبز، وقد يحشون بها رقاق الخبز، ويطبخونها في الفرن، فتسد مسد كل شيء، وأهل إرلاند يتخذون منها خبزًا، أما اللحم فأحب شيء إليهم منه الشواء، وهذا من وجه يصلح لمن أَلِفَ الأسفار؛ لأن المسافر حيثما كان في الأرض يجد لحمًا ونارًا، بخلاف من سافر منا وقد أَلِف ألوانًا شتى من الطبيخ، فلا يزال لهجًا بهذا وذاك، فيتنغص عيشه وعلى ذلك قولي:

كأني أنا والفيل صِنْوانِ فرقا   سوى أنني ضَرْبٌ وذلك بادنُ
فإن له نابًا يحين لأجله   وإني لسني كل حين لحائنُ

إلا أن اللوم موجه على المستوطنين وأصحاب المطاعم والفنادق الذين يجهلون من أنواع الطبخ ما يعرفه أفقر الناس في البلاد المشرقية، حتى إنهم لا يعرفون أن يقلوا البيض بالسمن، ولا يطبخون العدس ولا الحمص ولا الفول ولا غير ذلك من القطاني إلا الرز، فإنهم يسلقونه سلقًا ثم يصبون عليه الحليب، وأكثرهم يتقزز من الزيت، ولا يدري ما طعمه، على أنهم يأكلون الدم مخلوطًا بالشحم، ويتخذون منه أيضًا نوعًا من الفصيد.

ومن العجيب أنهم لا يعافون من أكل اللحم المنتن وغيره، فإن الأرنب والغزال لا يأكلونهما إلا بعد خنقهما بنحو ثلاثين يومًا، وقد دعيت غير مرة إلى موائد الموسرين، وشممت فيها جَخَر الأرنب، وعلى ذلك قولي:

ويأتون بالأرنب المُسْبَطِر صحيـ ـحًا كما كان يُطْمر طَمْرَا
بـأذنـابـه وبـأسـنـانـه و بأظفاره وهو يَفْغَرُ ثغرا
وفي وجه كل الضيوف له ذَنَبٌ شائلٌ ودُبْر تَعَرَّى
ووالله بالله تالله إني شممت له جَخَرًا ليس حَزْرَا

وكذلك الفراخ والطيور لا يطبخونها إلا بعد خنقها بأيام، ويقولون: إنها إذا بقيت أيامًا كثيرة بعد خنقها يزيد لحمها مراءة وطيبًا، والدليل على ذلك أن الآكل منها يكفيه قليل، بخلاف ما لو أكلت وهي طرية، والحق يقال: إن لحم البقر عندهم لا يؤكل إلا بعد ذبحه بيوم أو يومين، وذلك لكثرة دمه، ولا حرج على بيع المنتن من اللحم والسمك، والفج من الأثمار والفاسد من كل شيء، وعندهم صنف من الجبن يستطيبونه على غيره لكونه مدودًا، وكنت ذكرت يومًا لأحد فضلائهم قضية أكلهم الأرنب منتنًا فقال: «لا تعد تذكر لفظة منتن؛ فإنها قبيحة تشمئز منها المسامع.» فقلت: «ما دمتم أنتم تأكلون المنتن، ولا تشمئزون منه فلست بمنفك عن أن أذكره، وهذا كتحشمكم من أن تذكروا في كتبكم ضخم أرادف المرأة مع أن نساءكم النحيفات يعظمن عجائزهن بما لا مزيد عليه من الحشايا والمرافد مما لو فعلته الفواجر عندنا لخجلن، فأنتم حييون من الاسم ووقحون على الفعل، إن هذا لغريب.» فضحك هو وزوجته.

وقالت لي مرة إحدى النساء المخدومات: «ما أطيب العيش في بلاد النمسا لولا أني أكره شيئًا من طبخهم.» فقلت: ما هو؟ وقد توقعت أن تقول أكلهم الأرنب منتنًا، وإذا بها قالت: «إنهم يطبخون الفراخ بُعَيد ذبحها.»

وشكوت ذات يوم لمخدومة طول استمراري على صنف واحد من الطعام، فأرسلت إليَّ خادمها في اليوم القابل يقول: إن سيدتي تدعوك إلى الغداء، فلما توجهت قالت لي: «إني سمعتك بالأمس تشكو من الطعام فصنعت لك اليوم ما يعجبك.» فلما هيئت المائدة قدم عليها أرنب بآذانه وذنبه، وإذا به منتن ذفر يملأ ذفره الخياشيم، فتعوذت بالله، وقلت ما قال ذلك الظريف: «إن عمر هذا الحيوان بعد موته أطول منه في حياته.»

والظاهر أن الإنكليز يحبون الأرنب وصورته؛ فقد دخلت مرة دار الصور في كمبريج مع الدكطر «لي»، فكان أول ما وقع نظري عليه صورة ملكة من ملكات إسبانيا على هيئة الاضطجاع عريانة وثمنها أربعة آلاف ليرة، وإلى جانبها صورة أرانب وصياد، فجعلت أنظر إلى صورة الملكة، وجعل هو ينظر إلى صورة الأرانب، ويستدعيني إلى ذلك.

ثم إنه ما عدا جهل الإنكليز بالطبخ واقتصارهم على لونين أو ثلاثة من الطعام، فإن الإنسان لا يجد عندهم شيئًا من الطعام والشراب خالصًا، أما الخبز فإنهم يخمرونه بنوع يستخرجونه من المزر ويخلطونه بالبطاطس والرز والفول والهرطمان والذرة والشب، وفي كل رغيف يوجد نحو عشرين حبة من الشب، وبملح الصفر والطين وجبس باريس وسحيق العظام، وبجزأين آخرين.

وفي بعض صحف الأخبار أن رجلًا أكل جبنًا فمرض، فاستدعي بالطبيب، فلما حضر عرف أن الرجل مسموم، وأن الجبن كان ملونًا بالأناتو، وهذا الأناتو خُلِطَ بشيء من القرمز وهذا أيضًا خُلِطَ بالسيلقون، وأما القهوة فيخلطونها بالهندباء والقمح والهرطمان ودقيق البطاطس والفول وبمُحَرَّق السكر وعكر القهوة واللفت وجذر الفوة، وبجزأين آخرين، وأما السكر فمخلوط بالرمل والطين ودقيق القمح والبطاطس والنشا وبأجزاء أخرى من جملتها هامة يقال لها «أكاري».

وأما الحليب فنصفه أو ثلثاه ماء، كذا وجده الدكطر هلياك، وملون بصنف يقال له أناتو، وهذا الصنف مركب من القلي وملح الصفر والملح والسرنج وبستة أجزاء أخرى، تدقيق وعند النظر ترى فيه مخ الشاة والجبس والدقيق والنشا وعصير اللوز والصمغ وجزأين آخرين، وأما البيض فإنهم ينقعونه في الصيف حين يكون ثمنه رخيصًا في برميل مليء جيرًا وماء، ثم يخرجونه في الشتاء ويبيعونه بسعر الغريض فيأتي مسيخًا ويتولد فيه طعم جيري مضر بالمعدة، وعلامة المنقوع منه أن يكون أبيض ناصعًا لكنه خشن الملمس.

وأما اللحم فينقعونه في الدم، وأما المزر فمخلوط بخمسة وعشرين جزءًا من جملتها الأفيون والملح والرب والسكر والفول وملح الطرطير ومحرق البرقان والزنجبيل والأفسنتين والعسل وملح الحديد وملح الكبريت ومحرق قشر السرطان، وأما الخمر فمخلوطة بأكثر من خمسة عشر جزءًا من جملتها الماء والعرقي وعصير القمح وشراب التفاح وعود برازيل ومحرق السكر والرصاص، وأما التبغ فمخلوط بالزيت والملح والرب والسكر والماء والراوند والبطاطس والكرنب والنطرون والرمل، وبستة وعشرين جزءًا

أخرى، لطعمه ولونه، وقس على ذلك النشوق والخردل والزيت والصابون والخل، مع أن هذا الأخير يستقطر من نوع من الشجر، وقيل: من المزر، فهؤلاء الناس الذين حكمهم كحكم سائر الناس في كونهم ترابًا وإلى التراب يعودون قد خالفوهم في أنهم يأكلون التراب ويشربونه، فحيا الإله عصا المحتسب.

وهذا الطمع لقنهم أن يتخذوا نبيذًا من جميع الفواكه من أشهره نبيذ التفاح، وقد كان عندهم في السابق بمنزلة الخمر في التنافس فيه، فكانوا يسقونه الضيوف كما تسقى الصهباء.

ثم أعود فأقول: إنه لا غرو أن يستطيب هؤلاء القوم ما ألفوه؛ فإن «العادة — كما يقال — خامس طبيعة» أَوَليس أن هنود لويزانيا يأكلون نوعًا من التراب الأبيض بالملح بدل الخبز، وهنود أرنوكوكو يأكلون أيضًا نوعًا من الطين اللزج الأبيض، والزنج يستطيبون نوعًا من الثمر على الخبز. أما الأمراء والأغنياء من الإنكليز فإنهم يستخدمون طباخين فرنساويين ويتلذذون بأنواع من الألوان، ويعجبني من مأكلهم طبخ الفاكهة الطرية واليابسة في العجين، وذلك غير معروف لأهل مصر والشام، وهو من بعض ما تعلمته الإنكليز من الفرنساويين، حتى صار عامًّا لغنيهم وفقيرهم، وأكثر أسماء الطبيخ عندهم منقول من اللغة الفرنساوية، وعندي أن اشتهار الأطعمة الفاخرة في الشام إنما عرف في زمن معاوية، فإنه كان يتأنق في الطعام، ثم نقلت إليهم ألوان كثيرة من العجم كما يظهر ذلك من بقاء أسمائها عندهم.

(١٣–٦٥) صلاة الإنكليز وعباداتهم

ثم إنه من رسوم الكنيسة المتأصلة أن تقام الصلاة فيها يوم الأحد ساعتين في الصباح، وساعة ونصفًا في المساء، وإن لم يحضر فيها غير ثلاثة نفر، فتسمع في خلال ذلك من تكرير الأدعية والابتهالات ما يذهب بالصبر، وبعد ذلك يقوم القسيس ويخطب فيهم، وأكثر الفلاحين يذهبون إلى الكنيسة حياء من جيرتهم، أو خوفًا من القسيس؛ لأن قسيسي هذه الكنيسة لهم سطوة نافذة على الرعية، ومتى قامت الصلاة نعسوا أو تناعسوا، وقد بلغني أن أحد هؤلاء الخطباء لما شرع مرة في الوعظ التفت فرأى الناس نائمين، فغضب لذلك وقال: «بئس السامعون أنتم لكلمة الله، إنكم إن لم تسمعوها فستحسون بها.» ثم رفع التوراة من أمامه، وضرب بها بعض النائمين حتى انتبهوا.

وفي يوم الأحد لا يعملون أدنى عمل، حتى إن أكثرهم لا يطبخ، ومنهم من يتحرج من حلق شعره فيه، أو من كتب رسالة، وقد أردت مرة أن أنزل في بيت عجوز، فأول ما

اشترطت عليَّ به كان عدم الطبخ يوم الأحد، وعندي أن أصل ذلك البخل منعًا للزيارة والاجتماع.

ويحكى عن رجل أنه سرق بقرة، فثَقِفَ يوم الأحد، فقال للشرطي: «لولا حرمة هذا اليوم لما أعياني التملص من يدك.» ويوم الأحد في جميع البلاد الكاثوليكية الرومانية هو يوم الحظ والتزاور، أما في هذه البلاد فهو يوم الانقباض والكآبة، وهو في سكوتلاند أكثر قبضًا وكآبة.

ولا بد من أن يكون في كل بيت توراة وإنجيل وكتاب صلوات، فيقعد رب البيت ويحمل بعض أولاده على القراءة منها، ويقضون النهار كله في القراءة والترتيل من الزبور وغيره، وفي سماع الصلاة في الكنيسة، ولا يكاد صاحب عيلة يجلس على المائدة للطعام من دون أن يصلي أولًا أو يجعل بعض أولاده يتلو دعاء ما — وكذلك عقب الطعام — ومن أمكنه أن يستعمل في هذا اليوم آنية وظروفًا غير التي يستعملها في سائر الأيام، عُدَّ ذلك من الاحترام والتوقير لليوم.

والغالب على الإنكليز عمومًا مراعاة الفروض الدينية، إما عن تعبد أو لمصلحة، فإن الطبيب مثلًا إذا علم منه أنه لا يحضر الصلاة، أو ليس عنده كتب دينية في بيته، أو كان قليل الاحترام لأهل الكنيسة، فضلًا عن كونه يجادلهم، قَلَّ اعتباره عند ذوي الوجاهة، وقل نفعه من حرفته، وجل المؤلفين من الإنكليز يستشهدون بكلام من التوراة والإنجيل ترويجًا لبيع الكتاب حتى إن «بلير» بنى معظم أساليب البلاغة والبيان في كتاب المعاني على عبارات من التوراة.

وهذا الرئاء والتدليس قلَّ أن يوجد في الفرنسيس، فإن من كان منهم قليل الدين انقطع عن الكنيسة أصلًا، والمؤلف منهم إذا كان غير ذي اعتقاد بالتوراة لا يستشهد بها في شيء، ولا يكون ذلك باعثًا لكساد حرفتهما.

أما أهل الكنيسة المتفرعة فهم أشد تحمسًا وتصلبًا من أولئك، فقد يعظون الناس في الطرق والحقول، ويوزعون في البيوت كتبًا ورسائل دينية، وكذلك يفعلون في المدن الغناء، وربما منعتهم الشرطة من الوعظ علانية لئلا تجتمع عليهم الأوباش، فيكون من اجتماعهم ما يوجب النزاع.

ويذهبون إلى كنائسهم ثلاث مرات في يوم الأحد، ولا يعوقهم عن ذلك برد ولا ثلج ولا مطر، والقاطنون منهم في أماكن منفردة يقصدون الكنائس القريبة، وجميع القسيسين في بلاد الإنكليز يكلفون خدمتهم وضيوفهم حضور الصلاة في ديارهم صباحًا ومساء،

وقبل تناول الطعام وبعده لا بد من تلاوة صلاة أو دعاء، وإن غاب القسيس قامت امرأته في ذلك مقامه.

(١٣–٦٦) كهنة الإنكليز وكنائسهم

واعلم أن الكنيسة المتأصلة مؤلفة من مطرانين؛ أحدهما: مطران كنتر بوري، ودخله في العام خمسة وعشرون ألف ليرة، وهو ثاني صاحب الملك في الرتبة والمنزلة، والثاني: مطران يورك، ودخله خمسة عشر ألفًا، ومن خمسة وعشرين أسقفًا وظيفة كل منهم من أربعة آلاف ليرة فصاعدًا، ومتى عجز أحدهم عن القيام بخدمته، رتب له ألف ليرة، وقد كان لأسقف برهام ستة عشر ألف ليرة، ولما انزوى في قصره عين له نصف المبلغ، وتحت ذلك مراتب متعددة؛ الأولى: «جانسيلر»، ثم «الدين»، ثم «الأرشيديكن» أي رئيس الشمامسة، ثم «البريبندري»، ثم «القانوني الأكبر والقانوني الأصغر»، ثم «الفيكار»، ثم «الركطر» وعدتهم بموجب آخر تعريف بلغت ١٢٣٢٧، وعدة كنائس البروتستانط بلغت في سنة ١٨١٨ «١١٧٤٢».

وفي القرن السابع كان للأكليروس كلمة نافذة حتى على الملك، وفي سنة ١٨٥٤ بلغ ما جمع لنفقة كنائس إنكلترة وحدها في سنة واحدة ٣٠١٥٤٠ ليرة، ولمساعدتها ١٦٤٧٧١، فتكون الجملة ٤٦٦٣١١، وفي سنة ١٦٠٤ استعفى منهم ألفان من وظائفهم كراهية أن يمضوا أسماءهم على كتاب الصلوات المشتمل على تسع وثلاثين عقيدة.

ولهذه الكنيسة حق في أن تأخذ العشر من سائر الكنائس، بل ومن اليهود أيضًا، وطالما تظلم أهل الكنيسة المتفرعة من أداء العشر لها فلم يُجْدِ ذلك نفعًا، ولا تسمح للكنيسة المتفرعة أو لغيرها بوضع أجراس، وإذا اضطر أحد من المتفرعين إلى زواج مثلًا أو معمودية أو غير ذلك من الفرائض الدينية وطلب من قسيس المتأصلة أن يقضي له ذلك حالة كون قسيسه غائبًا لم يجبه إلى مطلوبه، وقد بلغني أن رجلًا مات وكان حال حياته مذبذبًا في عقيدته فتنازع قسيسا الكنيستين على أيهما يدفنه، وطال ذلك بينهما حتى أَرْوَحَ الميت.

ويمكن أن يقال: إن الكنيسة المتأصلة هي ديوان من بعض دواوين الدولة، فإن كلمة ركطر القرية أبلغ نفوذًا وفاعلية من كلمة ضابط البلد، وليس شرطي الديوان في قريته إلا من بعض أتباعه، وإذا زاره أحد الفلاحين فلا يأذن له في الجلوس، فهو على هذا جدير بأن يقال له: دهقان القرية أو شيخ البلد، وربما بلغ دخله ألف ليرة، فترى له

أحسن الديار وعنده خدمة، وعاجلة فاخرة، وخادم يسوقها، وعلى برنيطته شريطة من ذهب كخدمة الأمراء، ثم إذا صعد المنبر وعظ المساكين المحتاجين إلى القوت الضروري بالزهد في الدنيا وتجنب شهواتها.

ولا يمكن إقامة دعوى في ديوان أحد الأساقفة إلا بمصروف وافر، فلهذا يتأتى أن يعيش الرجل مع امرأة عيشة المتعة والسفاح إلا إذا صدر له حكم من ديوان الأسقف من دون نفقة وذلك نادر، وهذه الكنيسة هي مثل الدولة في أنها لا تروم تغيير شيء من رسومها وتراتيبها وأحكامها، فإن قسيسيها يتلون في كتاب الزبور وبعض فصول من التوراة والإنجيل وهي مخالفة لما في أيديهم الآن منها؛ وذلك لأن كتاب الصلوات جرى استعماله عندهم قبل ترجمة التوراة، فلما شرعوا في ترجمتها وجدوا أن ما أدرج فيه كان مخالفًا للأصل فأبقوه على خلله، ومن يوم شرعوا في التأليف تجد اسم يسوع على نسق واحد في جميع كتبهم وكلامهم وهو «جيسس» إلا في موضع واحد من كتاب الصلوات المذكور، فإنه فيه «جيسو» فكأنه في اللاتينية مجرور، وكلما طبعوا نسخة من هذا الكتاب حذفوا السين في ذلك الموضع.

ولا بد من أن يكون في كل قرية في بلاد الفلاحين كنيسة للمتأصلة، وإن لم يكن فيها دكان لبيع أهم ما يكون من المأكول والملبوس، ولا بد أيضًا من أن يكون لها برج يلزقها لوضع الأجراس، فمنها ما يكون له أربعة أجراس، ومنها ما يكون له ستة، أو اثنا عشر، وضربهم بها مطرب، ولا سيما على بعد، وهم يدعون بأنه ليس من يجاريهم في هذه الصنعة فإنهم أتقنوها غاية الإتقان، حتى إنها تكاد أن تعد من فنون صنعة الإيقاع.

وأكبر جرس في الدنيا جرس «كرملين» أو «كرميلان»، وهي قلعة مدينة المسكوب زنته ٤٤٣٧٧٢ رطلًا، وقيمة جوهره ٦٦٥٦٥ ليرة، ولما شرع في سبكه تبرع كثير من الناس بالفضة والذهب فخلطا معه، ثم يليه جرس كنيسة صانت إيفان في المدينة المذكورة، زنته ١٢٧٨٣٦ رطلًا، وزنة جرس كنيسة رومية ١٨٦٠٧، وجرس قصر فلورانس ١٧٠٠٠، ونحوه جرس أكسفورد، وزنة جرس كنيسة صان باول بلندرة ١١٤٧٤، وفي هذه السنة وضع جرس في برج مجلس المشورة بالمدينة المذكورة زنته ٣٦٠٠٠.

قال فلتير: «إن بلاد الإنكليز هي بلاد المذاهب والنحل، فالإنكليزي يذهب إلى السماء من أي طريق شاء، ولكن وإن يكن ممكنًا لكل واحد منهم أن يعبد الله ويخدمه على

الوجه الذي استحسنه، إلا أن دين الدولة هو الوسيلة للتمول ونوال الوظائف والمراتب السامية، فلا يمكن لأحد أن ينال وظيفة في إنكلترة وإرلاند ما لم يكن على مذهب الكنيسة الأسقفية، وهذا الحظر جعل جل ذوي الوجاهة والنباهة من حزبها، ثم إن أكليروس هذه الكنيسة قد اقتدوا بالكنيسة الكاثوليكية في سنن كثيرة، وخصوصًا في أخذ العشر من الرعية، وفي النهم إلى التآمر عليهم؛ لأن ركطر القرية إن هو إلا بابا لو استطاع، إلا أنهم أكثر حشمة وعفة من قسيسي فرنسا، وأخص أسباب ذلك هو كونهم يتربون في أكسفورد وكمبريج بعيدين عن فساد المدن الكبيرة.» قلت: لعله حين كتب ذلك كان إكليروس فرنسا على غير ما نراهم في هذا العصر، فإنهم الآن قدوة في الفضائل والمحامد.

وكذا يوجه قوله: «بعيدين عن الفساد»؛ فإن هاتين المدينتين الآن فيهما من البغايا ما يكفي أهلهما وغيرهم معهم، ولو قال: إن أخص أسباب ذلك هو كون قسيسي الإنكليز يباح لهم الزواج لكان أولى، قال: «ولا ينتدبون إلى رتب الكنيسة إلا إذا بلغ أحدهم من العمر ما لا يكون له فيه نهم.» قلت: حد القسيس أن يكون بالغًا من العمر أربعًا وعشرين سنة، ومتى عرف فضله وعلمه بعد ذلك يرقى إلى درجة الأسقفية من دون تعيين سن.

(١٣–٦٧) التوجه إلى برستول

وهنا فليفرح الوادُّون، وليكمد الشامتون، فإن الدكطر «لي» عزم على التوجه إلى برستول ليقضي فيها وظائفه الكنائسية مدة شهرين، ولكن ليس بعد أن نعيته إلى القارئين والسامعين؛ ومن ثم وجب عليَّ أن ألحق به، ففصلت من تلك القرية المشئومة إلى لندرة، ومنها إلى المدينة المذكورة، فبلغتها في نحو خمس ساعات، في خلالها وقف الرَّتَل في عدة مواقف، وكان قد أخبر صاحبة المحل بقدومي وحالي، وأوصاها بأن تطبخ لي طبيخًا فرنساويًّا؛ أي أن يكون كثير البقول قليل اللحم، فلما كان المساء أحضرت لي طعامًا مطبوخًا من دون ملح على عادتهم، لكنها احتفلت بي غاية الاحتفال، حتى استحييت من أن أذكر لها الملح.

وفضلًا عن ذلك، فإن فرحي برؤية الأسواق والديار والعواجل أَنْسانِيه، ثم لما قابلت الدكطر «لي» في الغد سألني عن الطعام، فقلت له: إنه كان بغير ملح، قال: «كيف ألم تحضر معك ملحًا على المائدة؟ فلِمَ لمْ تملحه أنت؟ فإنها خشيت أن تضع فيه ما تعافه.» فقلت: «لو أحضرت لي اللحم نيئًا لكنت أطبخه بأنفاسي، وأملحه بدموعي، وكان خيرًا

من عادتكم هذه المنغصة.» قال: «لا بأس بين لها المرة الثانية قدر ما تريده من الملح تفعل.» ثم لمت صاحبة المنزل على طبخها الطعام غير مملوح، فقالت: «هذا دأبنا، أرأيت ذلك المخلل الذي أكلته البارحة؟ لو أنك أعطيت زوجي خمسين ليرة لما أكله مع أنه كان خسًّا بالخل.»

وبينما كنت ذات يوم جالسًا معهم على المائدة؛ إذ دخل طفل لها وهو وسخ الثياب والطلعة، فقال لها زوجها: «لم تغادرين الولد وسخًا هكذا؟» فقالت: «قد غسلته هذا الصباح، ولكن طبعه أن لا يدع شيئًا من ثيابه نظيفًا.» ثم لجًّا في الكلام فما أشعر إلا والست قامت، وجاءت بالمكنسة لتضرب زوجها، فهرب من قدامها، فأقبلت تجري وراءه وهو هارب، فلما لم تلحقه غشي عليها من شدة الغضب، فتداركها الرجل بالعرقي وبغيره حتى أفاقت، مع أنها كانت من أهل الصلاح وكان زوجها بمنزلة نصف قسيس.

(١٣-٦٨) وصف مدينة برستول

ثم إن برستول هي من المدن القديمة لا بهجة لها ولا رونق، وهي ضيقة الطرقات قذرتها، وليس لها مماشٍ رحيبة ولا ساحات فسيحة ولا مقاعد ولا متنزهات، ولا محال للقهوة أو الحظ سوى ملهى واحد، وعدد أهلها مائة وخمسون ألفًا، وقلَّ فيها وجود غريب، وبيوتها الجديدة حسنة، فأما القديمة فلا تصلح لشيء، فإن صفحها شبه زاوية منفرجة، يبدو منه تسنم سطوحها، وتجد بين البيت والبيت من فرق خلاء تنبو عنه العين، ونساؤها يشبهن نساء الفرنسيس في استدارة الوجه، ولها نهر صغير فيه بواخر وغيرها مسافته نحو سبعة أميال يأتيه الجزر والمد في اليوم مرتين، ومنه تسافر البواخر إلى والس، وقد شرع في بناء جسر عليه من حديد ولم يتم لكثرة مصروفه، وعند هذا الجسر كانت محلة للرومانيين لما افتتحوا بريتانيا، وقد بقي من آثارهم حائط كانوا يتَتَرَّسون به، قال مؤلف أبجدية الأوقات: «كان بناء برستول في سنة ٣٨٠ قبل الميلاد، وكانت تعد من المدن المحصنة واسمها في القديم «كاير بريتو» أي مدينة البريتانيين.» انتهى.

واتفق بعد نزولي في ذلك المحل أن قدم القاضي ونزل فيه، وفي الغد حضر نحو أربعين رجلًا من شرطة البلد واصطفوا لدى الباب، ووقف اثنان ينفخان في أبواق من فضة، ثم جاء ضابط مترديًا بلباس أحمر، وكان القاضي قد لبس أيضًا لباسًا أحمر وعلى رأسه شعر عارية أبيض، فدخلا في عاجلة نفيسة، وقف عليها رجلان لابسان

كسوة مزركشة بالذهب كما هي عادة خدام الأمراء، ثم دخل معهما رجل حامل سيفًا طويلًا في كعبه صورة تاج، وله ثلاثمائة ليرة في العام لحمل السيف، ثم ذهبوا إلى دار الحكومة وكان عن شمال العاجلة ثمانية من الشرطة يحملون عصيًّا من فضة رءوسها كالمباخر، واثنان يحملان مزاريق قد غشيت أعاليها بالفضة، وفي كل سنة يحتفلون به هذا الاحتفال، فإن القاضي لا يستقر في البلدة، وإنما يأتي إليها أربع مرات في السنة لفصل الدعاوى الخطيرة في أيام معدودات، وفي مدة غيابه ينوب عنه أناس في فصل غير المهم.

وفي برستول كنيسة للطائفة المعروفة بالكويكرس — والسين علامة الجمع — وهم صنف من النصارى إلا أنهم لا يعتقدون بالمعمودية ولا بالقربان، ولا يقرءون الإنجيل في كنائسهم ولا صلوات معينة، وليس لهم شعائر معلومة ولا قسيسون كما للنصارى، وإنما أتقياؤهم هم المتقدمون فيهم، ومعابدهم عبارة عن بيوت لا فيها فرش ولا محاريب ولا مذابح ولا كتب ولا صور ولا منابر، ويقولون: إن التدين لله لا يكون مُرْضِيًا إلا بالروح، فجميع الرسوم والتكليفات والفرائض عندهم لغو، ويقولون: إن المسيح نفسه كان كويكرًا، وإنه لا يجب تأدية العشور لرؤساء الكنائس، ويبقون ساكتين إلى أن يوحى إلى أحد منهم في زعمهم، فيلقي ما أوحي إليه في بضع دقائق، وهو واقف، فإذا فرغ قعد واستراح.

وقد ذهبت مرة إلى معبدهم فاجتمع فيه نحو مائة وعشرين نفسًا، جلست النساء في الجانب الأيمن على دكك عليها زَرابي، وجلست الرجال على الأيسر على دكك متقابلة من دون زرابي، وجلس في صدر المحل أربعة رجال وثلاث عجائز على دكة عالية، وجلس دونهم خمس عجائز وثلاثة رجال، وبقوا كذلك صامتين ساعة وربعًا، ثم قام رجل من أصحاب الدكة العليا الذين كانوا أقرب إلى الوحي وألقى على الناس كلامًا وجيزًا نحو خمس دقائق، معناه أن رضوان المولى هو بأن يكون عقل العبد منجذبًا إليه، وأنه سيأتي أيام يعين فيها بعض الناس بعضًا بالإرشاد والهداية، وأن جزاء كل إنسان منوط بعمله وما أشبه ذلك، ولم يذكر في كلامه اسم المسيح ولا اسم روح القدس.

وبعد نحو ربع ساعة قامت عجوز من أصحاب الدكة الثانية، فقام جميع الحاضرين وحسرت الرجال عن رءوسهم، فإنه لا حرج على من ظل مُقَلْنسًا في المعبد، وأخذت تصلي بصوت مرتعش مختلج نحو خمس دقائق، فذكرت اسم المسيح ولم تذكر روح القدس ثم انفضوا.

وشعار هذه الطائفة هو أن رجالهم يلبسون جُبَبهم مثنية على أعناقهم من دون أطواق، وأن النساء يلبسن برانيط طويلة من قدام حتى تغم وجوههن وخصوصًا العجائز، وهي غالبًا من الحرير، وثيابهن من لون واحد، ومن مذهبهم أنهم يجتنبون مواضع الحظ واللهو والسكر، وأن لا يحلفوا بيمين ما وَلَوْ في مجلس القاضي، ولا يرون في الحرب خيرًا وحسبك بالسفراء الذين ذهبوا منهم إلى قيصر الروس عند ابتداء الحرب دليلًا، ومن شأنهم الاقتصاد في النفقات، وأن يساعد بعضهم بعضًا، وقد كانوا في الزمن القديم عرضة للاضطهاد والطرد، ولكنهم الآن آمنون، ولهم بعض خصائص منها إذا تكلموا مع شخص أيًّا كان خاطبوه بلفظ المفرد بخلاف عرف اللغة، وإذا حضر أحدهم مجلس الملك حضر بكسوته الاعتيادية من دون وضع شعر عارية، ولا ينزع برنيطته بيده، وإنما ينزعها عنه آخر، ويخاطبون كل واحد بلفظة يا صاحب، ولا يتنافسون في الألقاب والنعوت، ولا يجودون بها على أحد ولا يحدون على ميت، وعندهم أن النساء في الفضائل والمناقب كالرجال، وعدد هذه الطائفة في برستول أكثر من عشرة آلاف نفس، ولا يكاد يوجد بينهم فقير.

قال الفيلسوف فلتير: لطائفة الكويكر معابد كثيرة في لندرة أعظمها الموضع المسمى «منيومنت»، زرته مرة مع مضيفي فاجتمع فيه نحو أربعمائة رجل وثلاثمائة امرأة، وكانت النساء ساترات وجوههن، وعلى رءوس الرجال برانيط كبيرة، والجميع سكوت، فجزت بينهم، ولم يرفع أحد طرفه للنظر إليَّ، وبعد صمت نحو ربع ساعة قام أحدهم وحسر عن رأسه، ثم بعد أن أبدى بعض زفرات بعضها من فيه وبعضها من منخريه، ألقى على الحاضرين جملًا مشوشة مضطربة زعم أنها من الإنجيل، فلا هو ولا أحد غيره فهم منها شيئًا، ولما فرغ من ذلك انصرفت الجماعة فسألت مضيفي: «ما بال حكمائكم يرضون بهذا الهذيان؟» فقال: «إنا مضطرون إلى أن نرخص فيه؛ لأنا لا ندري هل الشخص الذي يقوم للخطبة يكون قيامه بوحي من الروح أو الحماقة فنصغي إلى ذلك ونحن صابرون مرتابون، بل نرخص أيضًا للنساء في الكلام، وقد يتفق أن يوحى إلى اثنين أو ثلاثة في وقت واحد، فمن ثم يقع ضجيج ولغط في بيت الله.» فقلت: «أليس فيكم إذن قسيسون؟» قال: «لا وإنا لنجد أنفسنا بدونهم في حال أحسن.» ثم تلا من كتاب ما معناه أن الله تعالى لم يرضَ أن نعين أحدًا لقبول روح القدس في أيام الآحاد إخراجًا لسائر المؤمنين منه، ثم قال: «الحمد لله على أنا نحن دون سائر الناس لا قسيسين لنا، ولم نترك ولدنا عند مرضع إذا كان عندنا لبن يغذوه.»

قال: «وانتشار مذهبهم كان في إنكلترة سنة ١٦٤٢، وذلك عندما ظهر فيها ثلاثة مذاهب أو أربعة أضرمت فيها نار الحرب بين الأهلين تعبدًا لله تعالى، فقال إذ ذاك رجل اسمه جورج فوكس من كورة يقال لها «ليسستر»، وكان ابن رجل نساج للحرير، فأخذ يعظ الناس وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكان أميًّا حميد السيرة، لكنه كان معتوهًا فكان يلبس جلدًا من رأسه إلى قدمه، ويطوف من قرية إلى أخرى مقبحًا على الحرب وعلى أهل الكنيسة، ولو أنه ذم العسكر وحدهم لما كان لقي ما يخاف منه، إلا أنه لما كان ذمه موجهًا إلى رؤساء الدين، لم يلبث أن قبض عليه وأحضر بين يدي قاضي دربي وهو على ذلك الزي وقلنسوته الجلد على رأسه، فبادره أحد الجند بلكمة على خده، وقال: «قبحًا لك، ألم تعلم أنه ينبغي لك أن تحضر بين يدي القاضي حاسر الرأس؟» فأدار له فوكس خده الثاني، والتمس عليه أن يلكمه لكمة أخرى حبًّا بالله.

ثم تقاضاه القاضي يمينًا قبل أن يسأله فقال: «إني لن أتخذ اسم الله بالباطل أبدًا.» فغاظ ذلك القاضي حتى أرسله إلى دار المجانين في دربي؛ فسار وهو يحمد الله على ذلك، فلم يَأْلُ المأمورون بجلده جهدًا، فكان فوكس يتضرع إليهم أن يزيدوه من هذه النعم لصلاح نفسه فما ردوا طلبته، ولكنهم عجبوا منه، فأخذ حينئذ يعظهم وينذرهم فتضاحكوا منه أولًا، ثم أصغوا إليه وارتاحوا لقوله، وصدقه كثيرون منهم، ثم لما أخرج من السجن جعل يطوف في البلاد ومعه اثنا عشر رجلًا ممن تمذهبوا بمذهبه وهو يذم أهل الكنيسة، فعرض نفسه أيضًا للجلد مرة بعد مرة، فلما أُخذ يومًا إلى موضع النكال ألقى على الحاضرين خطابًا بغاية الحماسة، فهدى منهم إلى مذهبه خمسين نفسًا واستمال الباقين إلى محاماته حتى أنقذوه من تلك الورطة، وجعلوا بدله القسيس الذي تسبب في معاقبته.

ثم استمال أيضًا بعضًا من جند كرومول، فأنكروا الحرب وأبوا اليمين، فأمر أن يقبض عليهم؛ إذ لم يكن يريد أن فرقة من الناس لا تَحُضُّ على القتال، فقبض عليه وملئت السجون منهم، إلا أن شأن الاضطهاد أن يزيد في عدد الدخلاء، فزادوا ثباتًا في معتقدهم، وآمن لهم السجان أيضًا، والذي زاد في هذه الشيعة — فضلًا عما ذكر هو — أن فوكس كان يعتقد بأن له سرًّا يمكنه من التكلم بما يخالف عادة البشر، فأخذ يرجف ويرتعش ويَتَأَوَّى، ويكظم نفسه ويتنفس الصعداء، فلم يلبث أن صار له دربة بالوحي عظيمة، حتى لم يعد يقدر على الكلام إلا به، وكانت هذه أول منحة أفادها لتلاميذه، فأسرعوا في محاكاة إمامهم في تغيير السحنة والارتعاش عند هبوط الوحي عليهم جهد المستطيع، ومن ثم سموا «كويكرس» أي مرتعشين.

أما العامة فإنهم نبذوهم، واتفق مرة أن قال فوكس لأحد القضاة جهرًا بحضرة جمع كبير: «احذر لنفسك يا صاح، فإن الله يعاقبك سريعًا على اضطهادك الأطهار.» وكان هذا القاضي مولعًا بالشراب وكان يسكر في كل يوم، فاعتراه بعد يومين فالج أودى به، وكان يهم إذ ذاك بأن يمضي حكمًا بحبس بعض الكويكرس، فخلج قلوب الناس أن موته كان سببًا من اضطهاده الرجل الطاهر لا عن إدمانه على الشرب، فصار هذا الموت الفجائي سببًا في اجتذاب كثير من الناس إلى مذهب الرجل أكثر من ألف موعظة وألف ليَّة، فلما رأى كرومول عددهم يتزايد في كل يوم رغب في أن يستميلهم إليه، فعرض عليهم المال فأبوه، فقال يومًا: «لعمرى إن هذا الدين هو الدين الوحيد الذي لم نستطع أن نغلبه بالمال.» ثم صاروا عرضة للاضطهاد في عهد كرلوس الثاني، ليس لأجل الدين ولكن لامتناعهم عن أداء العشر للأكليروس ولخطابهم القضاة «بأنت»، ولامتناعهم من اليمين التي يوجبها الشرع.

وفي سنة ١٦٧٥ قام رجل من أهل سكوتلاند اسمه روبرت باركلي، وقدم للملك معذرة عن الكويكرس، وهي من أحسن ما كتب في هذا الباب؛ إذ لم يرتكب فيها شيئًا من التمجيد والإطراء، وإنما أودعها الكلام الحق والنصح السديد، وكتب في آخرها: «إنك قد ذقت الحلو والمر، والنعيم والبؤس، فإنك طردت من البلاد التي ملكت فيها، وشعرت بثقل الظلم، فكان ينبغي لك أن تعلم أن الظلم مقت عند الله والناس، فإن كان قلبك لا يلين بعد تلك المحن والخيرات، ونسي الله الذي لم يَنْسَكَ في بؤسك، فإن إثمك يكون أعظم، وهلاكك أشد، فإياك من الإصغاء إلى ما يطريك به أهل ديوانك، بل اصغَ إلى صوت الضمير الذي ليس من شأنه الإطراء ولا التمليق. من صاحبك الأمين وأحد رعيتك روبرت باركلي.»

وأعجب من ذلك أن هذه الرسالة مع كونها صدرت من رجل خامل الذكر، فقد نجعت في قلب الملك، حتى كف الاضطهاد عنهم، وفي هذه الأثناء ظهر وليم بن النبيه، وبث مذهب الكويكرس في أميريكا إلى أن قال: «وليس لأهل المذهب في إنكلترة أهلية لأن يكونوا من أهل مجلس المشورة، ولا أن يتولوا المناصب العمومية لامتناعهم من اليمين مما لا بد منه في الأمرين، فجل كسبهم المال إنما هو من التجارة، وحيث كان غنى الأولاد إنما هو من كد والديهم كان لهم مطمح إلى كسب الشرف والأزرار والقفازين، ويستحيون من أن يقال لهم كويكرس فيذهبون مذهب البروتستانط ليكونوا في عداد أهل السمت والطراز … إلخ.»

وفي برستول أيضًا كنيسة لليونيتاريين، ومعناها الموحدون، يعتقدون بوجود إله واحد فقط، وأن عيسى المسيح إنما كان بشرًا، وأنه إنما قيل له: ابن الله من قبيل التعظيم، كما قيل أيضًا لسليمان ابن داود، وهم في البلد أصحاب وجاهة وثروة.

وفيها أيضًا زمرة تسمى شيعة سويدنبرغ، اعتقادهم أن الله واحد أحد، وأنه ظهر في ناسوت المسيح، وأن جسم المسيح هو المراد بقولهم الابن، وأن اللاهوت هو الذي يقال فيه: إنه الأب الخالق، وبالجملة فإن المسيح هو عندهم الابن وروح القدس ومظهر اللاهوت، ومنشئ هذا المذهب رجل جرماني ظهر منذ ستين سنة تقريبًا.

ومن شططهم أنهم يُؤَوِّلون كل لفظة وردت في التوراة بمعنى غير الظاهر، فيُؤَوِّلون لفظة سورية مثلًا بالعلم والمعرفة، وخيل مصر بالمنعة، والجبل بالحماية، وقد ألف سويدنبرغ في ذلك مؤلفًا ضخمًا لا يكاد القارئ يختمه في بضع سنين، ومن كلامه لما كان للكلمة استعمالات كثيرة، وكان المسيحيون الأولون سذجًا يفهمون كل شيء على ظاهره، فرقوا اللاهوت، فجعلوه ثلاثة أقانيم، فاعتقد به كذلك من خلفهم إلى أن قال: لأنه ما أحد يدخل السماء وهو يعتقد بثلاثة آلهة.

وفي برستول مرقب فيه مقصورة عالية مظلمة لها كوة في أعلاها مرآة، يقع عليها نور الشمس فترتسم ضواحي المدينة به على مائدة لها سطح مجوف، فيرى الناظر فيها النهر والشجر والرجال والنساء والماشية، فيخل له أنه بينهم، وقيل: إن رجلًا رأى في هذه المائدة زوجته تماشي رجلًا وهو يقبلها فعرفها، فلما رجع إلى داره خاصمها خصامًا أوجب الفراق.

وكانت صاحبة المحل الذي نزلت فيه مولعة بالمزمرة، وهي إمرار اليد على وجه إنسان حتى يغيب عن الإدراك، وهي نسبة إلى رجل نمساوي اسمه مزمر، فاشتقوا منه فعلًا، يقال: مزمره أي عالجه بإمرار اليد؛ وذلك أنهم يعتقدون أن في بعض الأجسام خاصية تؤثر في غيرها على مقتضى ما ينويه المؤثر، وقد سمعت من الست المذكورة أن بعض الأطباء مزمر خادمة له حتى خَثَرَت نفسها، ثم لمس من رأسها مبعث الأنفة والمدافعة، وقال لها: «أنت دميمة» فقالت: «لا بل أنا أحسن خلق الله وجهًا.» ثم لمس مبعث الكرم، فقالت: «بالباب مسكين خذوا هذا الدرهم وأعطوه إياه.» ثم لمس مبعث الغضب فجعلت تهيج وتشعث شعرها، فأراد أن يرجعها إلى حالتها، وارتاب في استطاعته على ذلك فلم يقدر، وبقيت الجارية كذلك هائجة مضطربة؛ وذلك لأنك إذا أثرت في شخص وأحلته عن حالته وشئت رده لزمك أن تعتقد اعتقادًا يقينًا بأنك مستطيع عليه.

فلما تبين له عجزه استدعوا بطبيب آخر، فحاول أن يخرجها من قوة تأثير الأول بواسطة الإمرار فلم يتم له ذلك بالكلية، وإنما أضعف منها أثر الأول إضعافًا، فباتت على تلك الحالة، ولما أصبحت خف ما بها ثم شفيت، ويقال: إنه إذا أمر الشخص المؤثر فيه بقتل إنسان قتله، أو بقضاء حاجة قضاها دون تلبث، حتى إنه ليفعل ما فيه ضر نفسه، وإنه يدل على أشخاص وأماكن لم يكن رآها من قبل وينعتها كما هي.

واتفق أن جارية الست المذكورة أصابها ورم في وجهها عن وجع ضرس، فأجلستها على كرسي ومزمرتها حتى غشيها سبات، وييبست جوارحها، فأخذت سيدتها تنفخ عليها، وما زالت بها حتى شفتها بالمرة، ومرة أخرى أجلستها أمامي ثم لوت يديها إلى صدرها ثم أمرت يديها على وجهها، فما لبثت أن غمضت عينيها، فأمرتها أن تمشي من ذلك المحل إلى غرفة، فمشت وعيناها مغمضتان، وسيدتها ممسكة بها خيفة أن يصدم رأسها شيء، فلما وصلت قالت المخدومة: «أين تريدين القعود، على الكرسي أم على الأريكة؟» فقالت: «بل على الكرسي.» فقالت لها: «لك ذلك» فجلست، فسألتها عن أي شيء يشتغل فلان به، فقالت: «هو ناظر إلى ساعته.» قالت: «كم الساعة الآن؟» قالت: «الحادية عشرة وربع» فنقلت إصبعها إلى موضع آخر من دماغها وقالت: «أخطأت» فقالت: «بل خمس دقائق بعد الظهر.» ثم أمرتها بالغناء فغنت ثم بالضحك فضحكت، ثم سألتها عن خادمة لها كانت قد ذهبت صباح ذلك اليوم إلى أمها، ماذا تصنع؟ فقالت: «إنها الآن تكلم أمها في شأنك، وتطلب منها أن تكلمك لتعفيها من المزمرة، وإنها تتمنى أن تراك مرة تمزمرين أحدًا.» فلما رجعت الخادمة في الغد سألناها عن ذلك فأجابت بما ذكر، ثم إنها نفخت عليها وأمرت عليها يديها صعدًا فأفاقت.

وهذه الخاصية قد شهرت في فرنسا جدًّا وأشد الناس إنكارًا لها أهل الكنيسة والأطباء، فإن الاعتقاد بها يوجب الشك في النبوة ويصدف المرضى عن الأطباء، وسأذكر في وصف باريس ما جرى بيني وبين إحدى هؤلاء النساء وفي هذا القدر الآن كفاية.

(١٣–٦٩) رحلة إلى بعض جبال والس

ثم سافرت من برستول قصد أن أرى بعض جبال والس فينشرح صدري؛ لأن بلاد الإنكليز كلها كما ذكرت سابقًا عبارة عن حقول ومروج، وهي وإن تكن ناضرة إلا أنه لا شيء يبعث على إدارة الفكر وإجالة الخاطر كرؤية الأماكن المختلفة نحو أن يكون فيها سهل وجبال وآكام وأودية وغياض فكلما تعددت المناظر للعين كثرت الخواطر في الذهن، وتنوعت الهواجس في الصدر.

فسافرت في الباخرة فبلغت فرضة تسمى «نيوبورت» أي المرسى الجديد في نحو ساعتين ونصف فبت هناك تلك الليلة، وفي الغد سألت عن أقرب الجبال، فقيل لي: «إذا طلعت هذه العقبة ظهر لك.» فطلعتها ودللت على جبل يسمى «لندوغو» وهي كلمة والسية؛ لأنه لا يوجد في لغة الإنكليز كلمة تنتهي بحرف الواو، فسرت إليه ماشيًا؛ إذ لم أجد راحلة تبلغني إليه.

فكنت أسأل المارين عن مقدار بعده فكان بعضهم يقول: سبعة أميال وبعضهم خمسة وبعضهم ستة، فسألت عن بلدة أستريح فيها فَدُلِلْتُ على قرية بعضهم يسميها مدينة، وبعضهم قرية، وبعضهم بلدًا، وهي عبارة عن ستين بيتًا، فسألت عن مطعم فدللت على بيت مشهور عندهم، فأردت أن آكل بيضًا لعدم وجود اللحم والسمك عندهم، فقلت لصاحبة المحل: «إني أريد بيضًا.» فقالت: «لأي سبب؟» قلت: «للأكل» فقالت: «ما ثَمَّ بيض في هذا الأوان.» مع أنه كان في الصيف، فألححت عليها فبعثت من طَوَّف في القرية حتى جاء ببيضتين بعد الجهد، فقلت: «اقليهما بالسمن»، فلم تفهم فأعدت عليها الكلام، فقالت: «تريد أن تكسر البيض في السمن؟» قلت: «نعم» قالت: «فما يكون هذا إغلاء؟» قلت: «بل هو قلي.» قالت: «هذا مما لم أفعله في عمري قط فصفه لي.» قلت: «تضعين المقلاة أولًا على النار، ثم تصبين فيها السمن حتى يذوب، ثم تكسرين البيضتين فيه، وأنا أتولى بعد ذلك أمرهما.» قالت: «فالأولى أن تتولاه من الآن وتقليهما كما تشاء.»

وإنما أوردت هذه الواقعة إشعارًا بجهل هؤلاء القوم أدنى أنواع الطبخ، والمتفننون منهم يقلون البيض بمائه ومن تحته لباب الخبز، ثم إن هذا الجبل، وإن يكن منظره في الحقيقة مما تسرح فيه العين وينشرح به الصدر بالنسبة إلى بلاد الإنكليز المحتتنة، إلا أنه بالنسبة إلى بلادنا يعد دكًّا أو أكمة.

واعلم أن أهل والس هم أهل شجاعة وبسالة، وهم الحريون بأن يقال لهم: بريتانيون، فإنهم لم يبرحوا في منعة، ولهم لغة خاصة بهم، إلا أن كبراءهم وأغنياءهم يتكلمون بالإنكليزية، ولكثرة مكاتب الإنكليز فيها الآن أقبلوا على تعلم لغتهم، غير أن لغتهم الأصلية لم تزل مستعملة، وهي تشتمل على بعض حروف الحلق كاللغات المشرقية، ويقال: إنها تشبه لغة أهل بريتون من فرنسا أو إنها هي بعينها.

والتمدن والتأدب عند الفلاحين هنا أقل منهما عند فلاحي إنكلترة، وقد كانت بلادهم في الزمن القديم مستقلة بنفسها، وأول من ألحقها بحكومة الإنكليز كان إدورد الأول، وذلك في سنة ١٢٨٢ عند موت أميرهم «لويلن»، لكنهم بقوا بعدها يحاولون الاستقلال

إلى أن رزق الملك المشار إليه ولدًا في سنة ١٢٨٤ فسماه من دهائه أمير والس وبقي هذا اللقب خاصًّا بولي العهد في بيت الملك، ويقال: إن الملك حين سمى ابنه أمير والس حمله على ذراعيه، وقال لرؤساء والس بلغتهم: «أخ دين» ومعناه هذا بلديكم وملككم، فصارت هذه الكلمة شعارًا يكتب على ترس أمير والس إلى يومنا هذا.

وفي أبجدية الأوقات أن أهل والس كانوا يسمون قديمًا «صلتس» وهم أسلاف البريتانيين، وكانوا أول من سكن بريتانيا، ولفظة «بريتانيا» تشمل إنكلترة وسكوتلاند ووالس، وكانت تسمى «البيون» وهم إلى الآن يأنفون من أن يقال لهم: إنكليز.

ثم اتحدت «والس» بإنكلترة، وعدت منها بأمر مجلس المشورة، وذلك في سنة ١٥٣٥، فأما إرلاند فإن إلحاقها بإنكلترة كان في سنة ١٨١٠.

(١٣-٧٠) العودة إلى برستول

ثم رجعت إلى برستول، وتعرفت بأحد أفاضل الإنكليز الذين أولعوا بحب اللغات لا للتفاخر ولا للتكسب، ويقال له: دكطر «جون نيكلسن»؛ وإنما لقب بدكطر؛ لأنه كان درس الفلسفة في بلاد النمسا ونال هذه الدرجة، فإن لفظة الدكطر يوصف بها كل من الطبيب والرباني والفيلسوف على حد سوى، وكان قد تعلم أيضًا لغتنا، ولكن لم يكن سمعها قط من أهلها، فلما كنت أنشده منها كان يطرب غاية الطرب، فدعاني إلى أن أزوره في محله الكائن في بلدة بنريث من شمالي إنكلترة، فلما رأيت أن مسامرته غنم وإجابته حتم وعدته بذلك، ثم لما فرغت مدة الدكطر «لي» من برستول عزم على الرجوع إلى القرية المشئومة، فسافر قبلي بأيام، فسرت لأرى بلدة «باث» فبلغتها في نحو عشرين دقيقة، فأول ما دخلتها رأيت امرأة تغني وغلامًا يضرب بالسنطير المعروف عندنا، ولكن على ألحانهم، فسألت بعضًا عن اسم الآلة فلم يعرفها، فسألت العازف به، فقال اسمه: «دلسمر» وهو من اللاتينية مشتق من الحلاوة.

(١٣-٧١) في «باث» و«جلتنهام»

و«باث» هذه بلدة ظريفة، بناؤها من الحجر، وموقعها بين أودية ناضرة وتلال بهيجة، وهي مشهورة بماء معدني يُستحم فيه؛ ولهذا سميت باثا أي حمامًا، وهي مقر الكبراء والأغنياء ولا سيما المتقاعدين من الضباط وغيرهم ممن كانوا في الهند، وأهلها ينفرون من الغريب ويسلقونه بألسنتهم، وكذا هي سائر بلدان الإنكليز غير المطروقة من الغرباء.

ثم رجعت إلى برستول وسافرت إلى جلتنهام، فبلغتها في ساعتين، وهذه المدينة معدودة عند الإنكليز من أظرف المدن لحسن بنائها — فإنه من الحجر — ولنظافة طرقها وكثرة الأشجار في ضواحيها، ولكن ليس فيها محال للهو والقهوة ولا مطاعم حسنة، وقد أردت أن أتغدى في الظهر فلم أجد شيئًا عتيدًا فاضطررت إلى الشواء من الضأن واشتُرِط عليَّ أن لا أدخن.

(١٣–٧٢) من كلوستر إلى أكسفورد

ثم أردت أن أسافر إلى أكسفورد، فقيل لي: إنه لا يمكن ذلك إلا إذا رجعت إلى كلوستر، فعدت ولما دخلت البلد إذا بزحام وخلق كثير، فسألت عن سبب ذلك، فقيل لي: إنه عيد استئجار الخادمين والخادمات، وذلك أن المخدوم يستأجر خادمه إلى أجل، فلا يمكن للأجير أن يخليه إلا لأسباب، ومع هذا الزحام والضجيج فلم يكن من شيء يُرنى إليه إلا بنتًا كانت تمشي على خشبتين.

وهذه البلدة هي محل صنع الحديد، وهي قديمة قذرة كاظمة للقلب، ثم اجتزت بعدة بلدان منها استورد فيها معامل الجوخ ثم إلى أكسفورد — وقد تقدم ذكر ذلك — ثم إلى القرية، وكنت قد استأجرت بيتًا فيها يشتمل على أربعة مساكن، وفرشته على قدر ما اقتضى الحال على «متمكن غير أمكن» واستخدمت رجلًا يزرع في مَبْقَلَتِه ما لا بد منه من البقول أولها البطاطس، وأخذت أتشاغل بذلك تنفيسًا للكرب وتسلية للهم، فلم ألبث أن فجعت بولد لي، وحيث لم يكن في القرية ولا فيما يليها طبيب يوثق بعلمه — فإن المتطببين في بلاد الفلاحين إنما هم نفاية أطباء المدن — أشفقت على الباقي فرحلت من القرية قاصدًا لندرة، وغادرت البيت كما هو.

وكان عليَّ بادئ بدء أن أكلم كاتب الجمعية وأخبره بما أصابني، فلما قابلته غلبني النحيب والبكاء حتى انقطعت عن الكلام، فاستعظم ذلك مني على سني، فإن الإنكليز قلما يبكون على فائت، ثم لما أعلمته بالسبب وشكوت له ما لاقيت في القرية، وأني أخشى أن أموت قبل نجاز الترجمة رأى أن الإبقاء على حياتي هو الصواب، وأن الأوفق لي وللتوراة أن أمكث في كمبريج؛ لأكون غير بعيد عن الدكطر «لي».

واتفق مدة مكثي في لندرة أن وقع ضباب كثيف دام سبعة عشر يومًا حتى احتجنا في بعضها إلى إيقاد المصباح نهارًا لتهدي أيدينا إلى أفواهنا، فرأيت الجلاء أجلى وأولى، فمن ثم سرت إليها فبلغتها بعد نحو أربع ساعات، وهذه المدينة لا ملهى بها ولا حظ

سوى مشاهدة المدارس والأساتذة والمتعلمين، وهم من التكبر والصلف بمكان إخوانهم طلبة العلم في أكسفورد، وبعد وصولي بيوم جرى النزاع واللكام ما بين أهل المدارس وأهل البلدة كما جرى في أكسفورد، وفيها تعرفت ببعض فضلاء الإنكليز ممن عنوا بالعربية، منهم الفاضل مستر وليمس الذي هو الآن مدرس فيها، والفاضل مستر برسطون الذي ترجم خمسًا وعشرين مقامة من مقامات الحريري إلى الإنكليزية.

ومنهم الفاضل مستر جون برطون قرأ عليَّ جزءًا من المقامات، وكان الذي عرفني به يهوديًّا كان يعلمه لغته، وأنه غاب عنه مدة فسألني عنه تلميذه ذات يوم، فقلت: «لا أدري أين هو؟ وإنما لاح لي من سيماء وجهه حين جاءني أن في أماقيه شرًّا.» ثم لم يلبث أن شهر عنه في البلد أنه كان يضاجع بنته وهي دون العشر سنين، وكان ذلك دأبه معها مدة مديدة، فحكم عليه بالنفي المؤبد، وقد أَدِبْتُ عند أحد أعيانهم وهو أحد أعضاء مجلس المشورة العام، وإذ كنا واقفين في المجلس نتحادث لمحت من بين القيام شخصًا يهم بأن يدنو مني ليكلمني، فدونت منه، فقال لي: «قد طالما أردت أن أسالك عن شيء في بلادكم، فهل تمن عليَّ بالجواب؟» قلت: «ما هو؟» قال: «إذا برك الجمل أيستطيع أن يقوم وحده؟» قلت: «لو سألتني عن الظعائن لأخبرتك، فأما الجمل فلا أدري.»

(١٣-٧٣) إلى بلدة الدكطور نيكلسن

ثم لما حان وقت تعطيل المدارس قبل عيد الميلاد، تذكرت ما وعدت به صديقي الدكطر «نيكلسن»، فمن ثم سافرت إلى لندرة، ومنها إلى دارنكطون، فبلغتها بعد نحو اثنتي عشرة ساعة قاسيت فيها من البرد والتعب ما لم أقاسه في عمري كله، وهنا ينبغي أن يلاحظ أن السفر في سكة الحديد وإن يكن أسرع وأسهل، إلا أنه في بلاد الإنكليز معنت مكمد؛ لأن الغريب لا يجد من الركاب من يدل عليه بحرمة السفر والتعب فيكالمه، فترى كل واحد بيده صحيفة الأخبار يطالعها مساء سفره كلها.

وإذا وقف الرَّتَل لا يجد شيئًا من المأكول والمشروب ما يفثأ تسخُّطه، وليست القهوة عندهم إلا ماء دَخِن سخن؛ ولهذا كان أكثر الإنكليز يسافرون النهار كله ولا يأكلون شيئًا من حوانيت المواقف، وإنما يتزودون الطعام والشراب من ديارهم، وهو في الحقيقة أولى، فأما مواقف فرنسا فإن فيها كل ما ألفه الإنسان في بيته، على أن باعة المأكول والمشروب في بلاد الإنكليز أشد خلق الله شططًا؛ فإنهم يتقاضون على فنجان قهوة الدخن نصف شلين.

ثم سافرت من دارنكطون في الساعة الثامنة صباحًا فوصلت إلى بنريث في الحادية بعد الظهر، ومررنا في خلال ذلك بعدة قرى ومدن، من أعظمها برسطون، سكانها نحو مائة ألف نفس، وهي مدينة شغل ومتجر، شهيرة بملتقى الأرتال فيها، يمر بها في كل يوم أكثر من مائتي رتل، وهو عبارة عن صف عواجل متناسقة بعضها إلى بعض، وكان البرد وقتئذ عارمًا والثلج متساقطًا، فلما بلغت بنريث سألت عن مقام الدكطر «نيكلسن» فأرشدت إليه لكونه شهيرًا في البلد، فلما رآني رحب بي غاية الترحيب، وأنزلني في داره خير منزل، وأكرمني بما لا مزيد عليه فجزاه الله عني خيرًا.

ثم إن إقليم بنريث حسن جدًّا؛ لأنه يحوي جبالًا وأودية، وأعظم جباله هل فلن، ارتفاعه نحو ثلاثة آلاف قدم، وهو مخصوص بمعادن الفحم، وأهل البلد نحو سبعة آلاف، وفي أول يوم من أبريل حشدت الناس في الطرق ومعهم أعلام وآلات طرب، فسألت صديقي عنها، فقال: إن جمعية هنا تسمى جمعية ألاد من شأنهم أن يجتمعوا في كل ثلاث سنين مرة لمواساة بعضهم بعضًا، فيصنعون وليمة في هذا اليوم ويتلون ما تقرر عندهم من الترتيب، ثم ينصرف كل منهم إلى محله، ومثل هذه الجمعيات في بلاد الإنكليز لا يعد ولا يحصى، وأهل ذلك الصقع يلتحفون بِشَمْلة على أكتافهم لِلتَّدَفُّؤ، ونعال فلاحيهم من خشب، وعيشهم أجهد من عيش غيرهم، وأنحسهم من يعمل في المعادن.

(١٣-٧٤) التوجه إلى سكوتلاند

ثم عنَّ لي أن أسافر إلى سكوتلاند لأرى قاعدتها، وهي أيدنبورغ؛ إذ كنت غير بعيد عنها فودعت مضيفي، وسافرت إلى ليفربول فوصلت إليها بعد سفر نحو ست ساعات، وهذه المدينة هي من أعمر مدن إنكلترة بعد لندرة ومنشستر، فلا يزال مرساها مشحونًا بالسفن وسفنها مشحونة بالبضائع، ومنه تسافر إلى جميع الأقطار، وهي تقابل مرسيلية في فرنسا، كما أن منشستر تقابل ليون في كونها ذات معامل للحرير والثياب، ولندرة تقابل باريس.

(١٣-٧٥) ليفربول ومنشستر

وفي ليفربول عدة ملاهٍ وملاعب وحوانيت بهيجة وأبنية حسنة، من أعظمها المحل الذي يقال له: قاعة البلد، وأهل المدينة لا يسخرون من الغريب وذلك لكثرة اختلاطهم بالغرباء، وكان افتتاح سكة الحديد بينها وبين لندرة في سنة ١٨٣٨، وطول قبوتها ميل وربع، وكانت في الزمن القديم محل صيد للسمك، ثم صيرها الملك هنري الثامن محلة لاجتماع العساكر وتجريدهم منها لفتح إرلاند.

ثم سافرت منها إلى منشستر فبلغتها في نحو ساعة، وهذه المدينة أشهر مدينة في الدنيا بكثرة المناسج والأنوال، وعدد الصناع فيها نحو ثمانين ألفًا، فإذا اعتبرت أن معظم الآلات يدور بالبخار ظهر لك أن هذا القدر يقوم مقام أربعمائة ألف صانع، قال الفاضل ماكولي: إن منشستر هي أعظم مدينة لأشغال القطن والنساجة، وكان القطن مذ خمسين سنة يجلب إليها من أزمير وقبرس، وجملة ما ورد إليها في غاية القرن السابع عشر لم يبلغ مليوني رطل.

أما الآن فإن هذا القدر لا يكفي لعمل ثمان وأربعين ساعة، فانظر إلى هذا الفرق العظيم الذي نشأ عن قوة البخار حتى إنه جعلها تفوق في الثروة والغنى على قواعد أوروبا جميعًا وذلك نحو برلين ومدريد وليسبون، وكان أهلها إذ ذاك نحو ستة آلاف، ولم يكن فيها مطبعة ولا عاجلة، والآن فيها مائة مطبعة وعشرون صانعًا للعجلات. ا.هـ. قلت: وقد جلب إليها في السنة الماضية ٥٦٠٠٠ عكم أو بالة من الحرير، ومن القطن ٢١٠٠٠٠٠ عكم، ويقال: إن جميع محصول الدنيا من هذا الصنف الأخير يبلغ أربعة ملايين في السنة، سبعة أجزاء منها تحصل من أميريكا، والجزء الثامن من سائر البلاد.[١٠]

[١٠] علم من إحصائيات دولة إنكلترة أن مقدار القطن الذي جلب إلى إنكلترة من الخارج بلغ في سنة ١٨١٥ ٩٩٠٠٠٠٠٠ رطل إنكليزي، وفي سنة ١٨٢٥ بلغ هذا المقدار ٢٢٩٠٠٠٠٠٠، وفي سنة ١٨٤٠ بلغ ٥٩٢٠٠٠٠٠٠، وفي سنة ١٨٥٠ ٦٦٣٥٧٦٨٦١، وفي سنة ١٨٦٠ ١٣٩٠٩٣٨٧٥٢، وجلب إليها في سنة ١٨٧٩ ١٤٦٩٣٥٨٤٦٤. ومقدار ما خرج منها إلى الخارج بلغ ١٨٨٢٠١٨٨٨ رطلًا.

(١٣-٧٦) معامل بريتانيا وصادراتها

وجملة المعامل الموجودة في بريتانيا بموجب خلاصة حديثة العهد ٥١٧٧ منها ٤٤٣٢ في إنكلترة ووالس، و٥٣٠ في سكوتلاند، و١٥٥ في إرلاند، وعدد ما يدار من الأنوال بالبخار ١٣٧٧١١، وما يدار بالماء ٢٣٧٢٤، وجملة عدد المستخدمين فيها من الذكور ٢٧٣١٣٧، ومن الإناث ٤٠٩٣٦٠، الجملة ٦٨٢٤٩٧.

وفي جميع المملكة ٤٦٠ معملًا للحرير و٤١٧ معملًا للكتان، و٥٢٥ معملًا للحبك، و١٥٠٥ معامل للصوف، و٢٢١٠ للقطن، وفيها — أي في معامل القطن — من الصناع وغيرهم ٣٧٩٢١٨، وفي معامل الصوف ٧٩٠٩١، وفي معامل الحبك ٨٧٦٩٤، وفي الكتان ٨٠٢٦٢، وفي الحرير ٥٦١٣٧.[١١] وبلغ ثمن ما أرسل من هذه البلاد من منسوجات القطن في ثلاث سنين أحدًا وثلاثين مليون ليرة ومن الصوف عشرة ملايين، فأما قيمة جميع ما أرسل من بلاد الإنكليز فقد بلغ في سنة ١٨٥٦ نحو ١١٦٠٠٠٠٠٠[١٢] ليرة، وقيمة ما يبعث من فرنسا في كل سنة من الأمتعة المصنوعة والمصوغة تبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك، وقيمة جميع ما يخرج من مملكة بريتانيا من اللوازم المتجرية وغيرها تبلغ في السنة نحو ٥١٢٠٠٠٠٠٠ ليرة.

وفي سنة ٥٦ بلغ قيمة المبعوث من بلاد الإنكليز في مدة أحد عشر شهرًا ١٠٥٨٤٥٠٠٠ ليرة، زاد على سنة ٥٥ عشرة ملايين، ثم وجدت في الإحصائيات أن قيمة المجلوب إلى بلاد الروسية بلغت في سنة ١٨٦٠ ١٠١٧٧٢١٨٣ روبلًا، وكل روبل عبارة عن أربعة فرنكات، وقيمة الخارج منها بلغت ٥٢٨٥٤٠٢١، وبلغت قيمة المجلوب إلى أوستريا في السنة المذكورة ٢٢٩٢٣١٤٧٢ فلورين، وكل فلورين عبارة عن فرنكين ونصف، وبلغت قيمة الخارج منها ٣٠٦٨٤٩٧١٦ وبهذا تعلم الفرق.

ويوجد محل في إرلاند يخص أحد الإنكليز فيه أربعة آلاف شخص مستخدمين في عمل القمصان يصنعونها بأدوات النار، وهذا القدر بمنزلة سبعة آلاف شخص، فأي فرق يرى الآن في بلاد الإنكليز وقد صارت تمد جميع أقطار الدنيا بمصنوعاتها، وتكسو

[١١] في سنة ١٨٧٤ بلغ عدد المعامل في إنكلترة ووالس وسكوتلاند وإرلاند ٧٢٩٤ معملًا، وعدد المستخدمين والصناع فيها ١٠٠٥٦٨٥ منهم ٣٩٤٠٤٤ ذكور و٦١١٦٤١ إناث.

[١٢] بلغت قيمة جميع البضاعة التي خرجت من إنكلترة إلى الخارج في سنة ١٨٧٩ ١٩١٥٣١٧٥٨ ليرة.

الناس والحيوان والديار بمنسوجاتها بعد أن كانت تبعث الثياب إلى هولاند لتصبغ هناك وتعاد إليها لتبيعها، وبعد أن كانت تنتظر أحد الفارين من فرنسا وغيرها أن يأتي إليها ويبث فيها صنعة من الصنائع، فإن هذا الديباج الذي يسمونه «داماسك» أصل صنعه كان في دمشق، ثم حاكاهم فيه أهل هولاند، وفي سنة ١٥٧١ هرب منهم جماعة بسبب ظلم الأمير ألفا وجوره عليهم فجاءوا إلى بلاد الإنكليز وصنعوه فيها.

(١٣-٧٧) نبذة عن تاريخ صناعة النسيج

قال مؤلف المخترعات العجيبة: «أما صنعة النسيج فقد كانت معروفة في بلاد الصين من قبل أن عرفت في أوروبا بدهر طويل، والغزل عندهم والنسج والصبغ إنما هو من شغل النساء، وأول من صنع ثياب الصوف في بلاد الإنكليز رجلان قدما من برابان، ثم قدم من هولاند صباغون وبزازون وصناع للحرير وشهروا هذه الصنائع بين الأهلين، وذلك في سنة ١٥٦٧، والذي جلب من الكوكاو من الهند الغربية في سنة ٥٢ بلغت قيمته ٤٣٤٩٠٥١ ليرة، والمخزون من الشاي في عامنا هذا بلغ سبعة وثمانين مليون رطل ونصف مليون، ودخل من التبغ في أحد عشر شهرًا ٢٩٧٧٦٠٨٢ رطلًا يصرف منها أكثر من ثمانية ملايين في العام، وبلغت قيمة ما أرسل من الشريط والقيطان من شهر كانون الثاني إلى شهر تشرين الثاني ٣٣٠٨٣٣٩ ليرة.

وإذا نظرنا إلى أحوال إنكلترة مذ القديم وجدنا أن ملابس أهلها إنما كانت من جلود الحيوانات، وأن ثياب زعمائهم لم تكن إلا من الكرباس الخشن كأنما هو مسح، حتى إن الفرسان الذين تُنَوه بهم التواريخ كانوا إذا نزعوا عنهم الدروع اللماعة يشف عنها ثياب الجلد، فلما عرف النسج في الأعصر المتأخرة كان الغزل كما لا يخفى من صنع النساء، وبقي الحال على ذلك دهرًا طويلًا إلى أن قيض الله أرك ريت، وألقى في روعه استنباط آلة للغزل تكون دائمة الحركة، فوفق إلى ذلك ونجح ما أمكن.»

وقال آخر: «ولد أرك ريت في سنة ١٧٣٢، وبقي إلى سن ٣٦ من عمره خامل الذكر مشتغلًا بالحلاقة ولم يكد يحصل من حرفته شيئًا زائدًا على قوت يومه، إلا أنه كان ذا فكر ثاقب في جر الأثقال، فما زال يعمل فكره في اختراع آلة الغزل حتى تسنى له ما قصده، ولكن بعد صعوبات شتى، فلما اشتهر مخترعه أجازت له الدولة، أن يستبد بمنافعه إلى مدة مديدة فأنشأ معملًا في دربي، ولم تمضِ عليه مدة حتى أحرز أموالًا طائلة، وطار ذكره بين الناس، فحدث باستنباطه هذا في أشغال النسج تغيير عظيم من تنقيص الصناع وترخيص سعر الثياب.» ا.هـ.

وحُكي عنه حكاية غريبة، وهي أنه ذهب إلى بعض أعمال إنكلترة وأوهم أهلها أن الدولة جردته لأن يقص شعورهم ليسلموا من عدوى البلاء الذي كان فشا بين جيرتهم فانقادوا له فلم يبقَ إلا من قص شعره وأتحفه به، فأخذ تلك الخصل وصبغها، وانتفع بها انتفاعًا جزيلًا.

قال بعض العلماء من الإفرنج: «لولا استنباط أرك ريت لما استطاعت دولة الإنكليز أن تقاوم نابوليون الأول مدة خمس وعشرين سنة حتى قهرته في آخر الأمر وقصرته في جزيرة صانت هيلان.»

وأول من أتقن صنعة نسج الحرير في إنكلترة جماعة هربوا من فرنسا إلى لندرة، وذلك سنة ١٢٨٦، وأصل جلب الحرير المصنوع إلى بلاد اليونان كان من بلاد فارس، وذلك في سنة ٣٢٥ قبل الميلاد، وعرف في رومية في أيام طيباريوس، وحرم على الرجال دون النساء، وأول من لبس ثوبًا منه هليوغابالوس — أحد قياصرة الرومانيين — وذلك في سنة ٢٢٠ للميلاد، وكان ثمن الحرير أولًا في قيمة الذهب وزنًا بوزن، وكان يظن أنه ينبت من الأرض كشجر القطن.

وفي القرن السادس جلب دود القز من الهند إلى أوروبا، وفي سنة ٧٨٠ أهدى شارلمان حلة منه إلى آفا ملك مرسية، وفي سنة ١١٣٠ حرَّض روجر ملك صقلية رعيته على عمله، فكانوا يربون دود القز ويغزلون الحرير وينسجونه، ثم اشتهرت صنعته في إيطاليا وإسبانيا وجنوب فرنسا، وذلك في سنة ١٥١٠، وفي سنة ١٥٨٩ كثَّر هنري الرابع دوده وشجره في جميع المملكة، وفي سنة ١٢٨٦ لبس بعض نساء الأشراف من الإنكليز حُبرًا منه.

وقال فلتير: «لم تقم أمة قوية في التجارة والحرب بعد انقراض قرطاجنة كما قامت دولة فينيسيا، حتى صارت قدوة في ذلك، نعم إن دولة البورتغال جازوا إلى الهند من عند الرجاء الصالح، وظلوا حينًا من الدهر ولاة سواحلها وأولي شوكة في أوروبا، وإن ولايات أميريكا المتحدة صارت أيضًا دولة محاربة رغمًا عنها حتى عادلت دول أوروبا، وإن فينيسيا وأمستردام وقرطاجنة حازوا من قبلهم من العز والمنعة ما شغل الألسن بالمدح والثناء، إلا أنهم جميعهم عملوا كما يعمل الناس في عصرنا هذا، في أنهم بعد أن حصلوا الثروة بالتجارة اشتروا ضياعًا وأملاكًا وأخلدوا إلى الرفاهية والراحة.»

فما أحد ابتدأ أن يكون محاربًا حتى يكون في آخرته تاجرًا إلا الإنكليز، فهم وحدهم الجديرون بهذا النعت، فإنهم حاربوا أحقابًا طويلة من قبل أن يعرفوا الحساب، ولما

انتصروا في وقايع أغنيكورت وكرسا وبوستيروس لم يكونوا يعلمون أنهم يقدرون بعدها على تجارة الحبوب أو على صنع الجوخ العريض، فإن ذلك لهم أنفع من تلك النصر.

لا جرم أنه لا شيء يغني الأمة ويشيد عزها كمعرفة الصنائع والتجارة؛ إذ لولا التجارة لما كانت لندرة تفضل باريس في السعة وكثرة السكان، ولما قدروا على أن يبثوا في البحر مائتي سفينة حربية ويجروا الرزق العميم على الممالك المتواطئة معهم، ألا ترى أن لويس الرابع عشر لما ألقى الرعب في قلوب أهل إيطالية، واستولت جيوشه على صافوي وبيدمنت، وكادوا أن يستولوا أيضًا على طورين، لم يكن بد للأمير يوجين من أن يتوجه إلى أطراف جرمانيا لإنجاد دوك صافوي؟ ولكن لما لم يكن له مال يمكنه من أن يفتح بلدًا أو يضبطه، اضطر إلى الاستعانة بتجار الإنكليز، فأجابوه إلى ذلك فورًا وأقرضوه في نصف ساعة خمسة ملايين فرنك، فاستخلص بها طورين وقهر الفرنسيس وردهم عنها مقهورين، ثم كتب إلى الذين دانوه: «أيها السادة، إني قد تسلمت منكم مالًا وقد أنفقته فيما يرضيكم.»

فكان كلامه هذا حاملًا للإنكليز على الكبر والافتخار، وله على أن ينزل نفسه بمنزلة روماني، وهو به خليق، على أن أصغر أولاد صاحب المملكة عند الإنكليز لا يأنف من أن يكون تاجرًا، فإن أخا اللورد طونسند آثر أن يكون تاجرًا في الستي على أن يقلد وظيفة في الديوان، ولما كان اللورد أرفورد متوليًا تدبير المملكة كان أخوه منشئ معمل في حلب، ولم يشأ أن يرجع إلى وطنه، بل مات هناك، وهذا الدأب الذي أخذ الآن في الندور كان يعد عند أمراء جرمانيا من المنكرات، فلم يقدروا أن يفهموا كيف يكون ابن صاحب المملكة داخلًا في سلك التجار، مع أنهم هم كلهم سادة، ولكن كم قد رأينا منهم من كبير يوصف بلقب السمو، وليس له ملك ولا ثروة غير هذا الجلاء والكبر الأميري.

(١٣–٧٨) الفرنسيس والألقاب

أما في فرنسا فإن كل واحد يمكنه أن يصير مركيزًا، وكل من يقدم إليها من البلاد الأجنبية وآخر اسمه ينتهي بحرفي «اك» أو«ايل»، وعنده مال ينفق منه، فإن له أن يقول ليس لي من نظير، وما أحد من بابتي، وينظر إلى التاجر بعين التهاون والاحتقار، فإذا سمع التاجر أن الناس يعيبون حرفته ويشينونها اعتراه الخجل، ولكن ليت شعري أي الرجلين أنفع لدولته أسيد، يعرف بالتفصيل متى يقوم ملكه ومتى ينصرف إلى مرقده، ثم يتخذ لنفسه مظهر عظمة وأبهة، وهو مع ذلك يرضى لنفسه خطة ذل وعبودية

بانتظار الوزير في قصره، أم تاجر يقعد في مخدعه ويبث منه أوامر إلى سورات وحلب ليغني بلاده ويسعد أهلها؟

قلت: ومدح فلتير التجارة ليس قدحًا في العلوم والمعارف، وإنما هو تحريض على اتساع دائرة التمدن، وشتان ما بين تجار الفرنسيس وبين تجار البلاد المشرقية، فإن هؤلاء لا يحسنون الكلام إلا في المكيول والموزون، ولا يعرفون أن يكتبوا سطرًا واحدًا من دون غلط، فهذه الحال ينكرها فلتير، وكل ذي ذوق سليم.

(١٣-٧٩) منشستر قديمًا وحديثًا

ثم إن منشستر هذه كانت في القديم مقامًا للدرويدس، وكان لهم فيها هيكل ومذبح قيل له باللغة القديمة: «مين» أي حجر، وصارت قبل الميلاد مقرًّا للهمج فبنوا فيها قلعة سميت «منسنيون» أي مضرب الخيام، ثم تصحفت على المتأخرين، فقالوا للمدينة: «منشستر»، وهؤلاء الدرويدس كانوا في القديم كهان جرمانيا وفرنسا وبريتانيا وحكماءهم، وكانوا في هذه الأخيرة ينتخبون من أكرم العيال، فكانوا يشتغلون بالعلوم ومعرفة الفرائض الدينية، ويعبرون كلام الآلهة ويفصلون الدعاوى الخطيرة ويتولون تدبير الجيش.

ولما غزا قيصر هذه الجزيرة قابلوه بالجيوش والبسالة ذبًّا عن الوطن، فنقم عليهم ذلك بعض ولاة الرومانيين، فاستأصل شأفتهم.

وفي هذه المدينة أسواق ظريفة وحوانيت بهيجة، وفيها تعرفت بالفاضل الكريم عبد الله أفندي الأدلبي قنصل الدولة العلية، ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حمرة رأسينا، فإنه أول ما رأى طربوشي أقبل إليَّ متبسمًا باشًّا ودعاني إلى منزله من دون أن أبرز إليه كتاب وصاة على عادة القوم، ولم يكتفِ بهذا حتى أخذ عنوان مقامي في كمبريج قصد أن يبعث إليَّ بهدية من طرف المدينة، وقد فعل جزاه الله خيرًا، وله مساعٍ عند الدولة المشار إليها محمودة وذكر حسن عند أهل البلدة وعند أهل الشام أيضًا.

(١٣-٨٠) التلغراف وأنواعه

وفيها رأيت محل التلغراف، وهو على نوعين؛ الأول: المتعارف وهو شبه الساعة الدقاقة في وجهها إبرة من فولاذ، موضوعة تحت نصف حلقة وفوقها مسماران صغيران من عظم، قد رسم فوقهما الحروف الهجائية — والغالب أن يكون في كل صفحة إبرتان —

فمتى حرك الإبرة السلك المتصل بها من وراء الصندوق، طرقت على كل من الوتدين، ولكل حرف طرق معلوم، فالألف مثلًا لها طرقتان على وتد واحد، وللباء ثلاث، اثنتان على وتد وواحدة على آخر وهلم جرًّا.

والثاني: وهو ما اخترع بعده، فكان أوفق وأسهل، وهو آلة كالدولاب، فيها قلم دقيق من فولاذ مركب من أجزاء كيماوية ويمر من تحته سير رقيق من ورق مركب أيضًا فيرسم عليه خطوطًا سودًا، هي في عرفهم حروف، وهناك أيضًا آلة كمنوال الحائك ذات أسنان دقيقة بارزة منه، يمر من تحتها الورق، فترسم عليه خطوطًا، وقيل: إنه يوجد آلة ترسم الحروف المكتوبة كما يرسمها كاتبها سواء حتى لو كتب أحد بالعربية شيئًا أدته كما هو، وهذه الآلة لم أرَها.

وأكثر الآلات استعمالًا في بلاد الإنكليز إنما هي الإبرة، وفي بلاد أميريكا الدولاب، وبكل منها يصل الخبر من لندرة إلى أيدنبرغ وهي مسافة ثلاثمائة ميل في ثانية، وسواء كانت المسافة طويلة أو قصيرة فالتأثير واحد، فأما تحريك الأسلاك فإنه ينشأ عن الخاصية الجاذبة من وضع صفيحة من النحاس وقطعة من التوتيا توضعان في الماء، فيخرج منها روح يسري في السلك المماس لهما، ومنه إلى الأسلاك التي ترى عيانًا في الطريق، وقد تراها ممتدة في الهواء بجانب سكة الحديد، وربما كانت عشرة فأكثر، وربما بلغ الخبر بعضها إلى مكان وبعضها إلى مكان آخر، وسواء كانت سافلة أو عالية أو على خط مستقيم أو منحرف فلا يتخلف حكم الخبر بها، وقد ثبت بالتجربة أنها تصح تحت الماء كما تصح في الهواء.

وهذه المصلحة يتكفل بها جماعة على حدتها، والفائدة منها عامة للجميع ولا سيما الدولة والتجار، فإنه إذا أريد الاستخبار عن أمر مهم علم في دقيقة واحدة، وإذا هرب القاتل من بلد إلى آخر عرف شأنه قبل وصوله، وجُعْلُ نحوِ عشرين كلمة نصفُ ليرة.

ثم لما قرَّ بي المقام في لندرة طلبت من مدير التلغراف أن يأذن لي في رؤية الآلات وموضع النحاس والتوتيا، فورد إليَّ الجواب منه بأنه يكره أن يريها الغرباء ولا سيما الأجانب كل الكراهية، ولكن إذا كتبت إليه الجمعية في ذلك يرضى، حتى إذا فعلت بعث معي من أرانيها جملة وتفصيلًا.

فأول ما رأيت هو الموضع الذي فيه التوتيا والنحاس، وهو عبارة عن موضع مظلم كالنفق فيه موائد كثيرة من خشب ذات بيوت صغيرة مقسمة، تشتمل على هذين الجوهرين وقد غمرت بالماء ومعهما ملح الكبريت وسلك الحديد، وهذا السلك متصل

بالسلك الظاهر في الهواء كما تقدم آنفًا، أما التوتيا فتنحل على طول المدى وتتلاشى، وأما النحاس فيزيد.

ثم أريت موضعًا في الحائط مغشى بالخشب، يشتمل داخله على أجزاء، وخارجه على نحو مسامير بارزة منه، فجاء الرجل بقطعتين من الفحم وأدناهما من مسمار، وإذا بنور بهي ساطع خرج من طرفيهما، ومن هذا التقابل في الجاذبية تخرج ألوان عديدة زهية، يبدونها أحيانًا في الملاهي بما يقصر عن وصفه القلم، ولما وضعت إصبعي على مسمارين منها أحسست بارتعاش وجاذبية أخدرت مفاصلي فرفعتهما حالًا.

ثم صعدنا إلى الموضع الذي تتلقى فيه الأخبار من كاتب ديوان التلغراف؛ وذلك أنه إذا أراد أحد أن يبعث خبرًا كتبه وسلمه للكاتب أو أملاه عليه مشافهة، فيدونه الكاتب في رقعة ويجعلها في ظرف ويسد أعلاه، ثم يضعه في نحو صندوق، فتدفعه القوة الكهربائية إلى موضع يكون عنده غلام واقف، فيأخذه ويسلم الرقعة إلى قيم الآلة المعدة لتبليغ الخبر، فإن كان يراد توجيهه مثلًا إلى باريس سلمه إلى قيم آلة باريس وهلم جرًّا.

ثم دخلنا موضع الآلات وهي على الصفة التي رأيتها أولًا، غير أني رأيت التبليغ هنا على يد النساء لا الرجال، وكيفية ذلك أن تقعد المرأة على كرسي وتمسك بيدها مقبضًا من خشب وتحركه حركات مطابقة لاصطلاح الحروف فيتحرك السلك المشرب من روح التوتيا والنحاس، فيحرك الإبرة في المحل المبلغ إليه الخبر على حسب حركات اليد، وترى البنت تحرك هذه الآلة كما يحرك العازف يده على آلة الطرب بغاية ما يكون من الخفة.

وبينما كان الرجل يكلمني أمام آلة؛ إذ رأينا الإبرة تطرق على المسمارين، ثم حركت البنت المقبض وسكتت، ثم تحركت الإبرة أيضًا، وكان ذلك بأسرع من أن ينطق المتكلم بعشر كلمات، فقال لي الرجل: «أتدري ما سبب حركة الإبرة مرتين؟» قلت: «لا» قال: «قد ورد خبر من ويانه يراد تبليغه إلى ليفربول فبلغته البنت وجاءها خبر بوصوله.» فبقيت مدهوشًا متحيرًا، وأخذت أفكر تفكيرًا مضطربًا في كيف أن هذا العلم الحري بأن يدعى من العلوم الإلهية لكونه غير متناهٍ لم يكشف سره من قبل الآن حين كان النحويون يجيزون ستة عشر وجهًا في الصفة المشبهة، ويمنعون وجهين، ويختلفون في وجه،[١٣] وحين كان العمر يضاع في التعليل والاعتراضات والتجويز والترجيح، كما أشار إليه

[١٣] تفصيل مسائل الصفة المشبهة ثماني عشرة؛ حَسَنٌ وَجْهه؛ بِرَفْعِ وجهه ونصبه وجره، وحَسَن الوجه؛ برفع الوجه ونصبه وجره، وحسن وجه؛ برفع وجه ونصبه وجره، والحسن وجهه؛ برفع وجهه ونصبه

العالم الأديب الشيخ أحمد المسيري بقوله يمدح خديو مصر على إنشاء مدارس للعلوم الرياضية:

فهذا الفخرُ في وجهِ المَعالي وليس بضَرْبِ زيدٍ وجهَ عمرو

إذن لصرف خواطر القوم إلى الاشتغال بما هو أهم وأنفع، فإن وصول الخبر من قاعدة مملكة أوستريا إلى ليفربول في أقل من ثانية، أنفع من تجويز عشرين وجهًا في مسألة واحدة، وهذا هو سر الكيمياء الذي يتعلمه الإفرنج الآن لا لتحويل الحديد ذهبًا، أو الآنك فضة، فإن سميته بالإكسير فأنت صادق، والحاصل أن الخبر يبلغ بهذه الآلة مسافة بعيدة كما يبلغ مسافة ميل على السواء، وعدة الآلات في هذا المحل نحو خمسين، وعدة المستخدمين فيه مائة وثلاثون.

قال مؤلف كتاب المخترعات العجيبة: «لم يكن يخطر ببال أحد من المتقدمين أنه يمكن إيصال فكر من بلد إلى آخر مسافة مئات من الأميال بثوانٍ قليلة، وأن من يكون واقفًا في لندرة يمكنه أن يخاطب آخر في أيدنبرغ ويتلقى منه الجواب كأنهما جالسان في غرفة واحدة مع أن بينهما مدى ثلاثمائة ميل.»

فلا جرم أن التلغراف إنما هو أكبر العجائب التي كشفت في عصرنا هذا، فإن السارق مثلًا يذهب في أحد الأرتال السريعة وهو مسرور بسرقته وفراره من يد الشرطة، ويطمع في أنه إذا بلغ إلى إحدى المدن الغناء يخفي أثره عن غريمه ويضيع خبره في دخوله بين الناس، فيعمد إلى رتل يمر مسافة خمسين ميلًا في الساعة، ويكون خبره قد تقدمه في السلك الذي يراه بعينه مرة عن يمينه ومرة عن شماله، ويكون الشرطي قد عرفه بسَمْته وسِمَته وصفاته، وعرف الرَّتَل الذي سافر فيه، فما يكاد يخرج منه إلا وهو آخذ بتلابيبه، فيبقى «اللص» مدهوشًا مبهوتًا لا يدري أين يقصد، ثم تفتش صناديقه وأوعيته، ويستخرج منها المسروق، ويرسل هو إلى الحبس، فمن ثَمَّ كانت فوائد هذه الأسلاك من أعظم الأسباب المؤيدة لإقامة الحق وتشييد سنن الشرع وتنفيذ أحكامه،

وجره، والحسن الوجه؛ برفع الوجه ونصبه وجره، والحسن وجه؛ برفع وجهه ونصبه وجره، ووجهان من المسائل ممتنعان؛ أحدهما: الحسن وجهه بجره، والثاني: الحسن وجه بجر وجه، واختلف في حسن وجهه.

ولو كان إيصال الخبر على هذا الوجه قد عرض على مسامع أهل القرون الخالية لعدوه من الخزعبلات المفتعلة، إلا أن هذه العملية لم تنشأ عرضًا أو بغتة، بل بعد إعمال فكر وجهد روية في مُدَد متعاقبة.

وأصل ما أدى أهل الحكمة والفلسفة إلى هذا الاستنباط كان استعمال فرنكلين الأميريكاني للطيارة المعروفة، ومذ حينئذ خطر ببال المتبحرين في العلوم أنه لا يبعد عن الإمكان إيصال خبر بواسطة أداة إلى بعض الأماكن الشاسعة.

قلت: ولد فرنكلين المذكور في مدينة بوستان من أميريكا في سنة ١٧٠٦، وكان في مبدأ أمره خامل الذكر، ثم اشتغل بالعلوم وحسنت حاله، وما زال يترقى في المعالي حتى صار من أهل السياسة، وذهب إلى باريس وحظي عند رجال الدولة حظوة عظيمة، حتى إنهم لما بلغهم خبر وفاته لبسوا عليه الحداد، وله مؤلفات عديدة. ا.هـ.

فأما خبر طيارته فهو أنه صعدها في يوم ذي دَجْن، وكان قد ربط مرستها إلى وتدين، وأناط بها مفتاحًا فلما غشيها الغمام وجد بعض خيوطها قد تنفش وتجافى عن بعض منتصبًا فأدنى بُرْجُمته من المفتاح فأحس بشرار البرق.

قال: وفي سنة ١٧٨٧ أجرى لوموند السكوتلاندي عملية تقرب من هذا الكشف، وفي سنة ١٧٩٤ نصب ريزر تلغرافًا يمكن استعماله، وإن كان أقل نفعًا وإتقانًا من المستعمل الآن، فكان التبليغ فيه خاصًّا بالسلك، والعمل كله للشرارة الكهربائية، وكان السلك يجعل في موضع مظلم وحوله صفائح من القصدير، عليها حروف مرسومة وقد ركزت على صفائح من زجاج، فإذا طار الشرر على هذه ليجري في السلك، أضاء الصفائح فتمكن به قراءة الحروف.

ثم قام فولتي وحسن هذه العملية بعض التحسين، ثم رونالدس من همرسميث وأرستد من كوبنهاغن وشويجر وموينك ودافيس وأراغو وغيرهم، وكل منهم زاد شيئًا وحسن شيئًا.

وفي سنة ١٨٢٧ قام الدكطور «كوك» و«ويتسطون» وأخذا رخصة من الدولة لإجراء هذه العملية، وفي سنة ١٨٣٩ استعمل التلغراف كما نراه الآن في سكة الحديد المسماة السكة الغربية الكبيرة، وهو الذي يبلغ الخبر بواسطة طرق الإبرة على المسامير، وأخبرني من يعرف ويتسطون أنه هو الذي اخترع آلة الطرب المسماة «كنشرتينو»، وآلة أخرى من نوع النظارات، ثم اخترع الدكطور «سطنبيل» من مونيش آلة تنقط الحبر على ورق، وعلى قدر ترتيب النقط يكون فحوى المنطوق، وفي سنة ١٨٤٠ اخترع ويتسطون

هذا المنوال الذي يدور ويرسم الحروف، وفي سنة ١٨٤٣ نصب مستر وود الأسلاك على دعائم، وكانت من قبل تحت الأرض، وهي غير مماسة لها، بل هي نافذة من حلق من الفخار، وبذلك سهل نصب أسلاك غليظة من الحديد بدل النحاس، فنقصت المصاريف نحو النصف، وهذه الأسلاك تجري في ثلثي سكك الحديد الممتدة وليس من بلد عامر إلا وتصل إليه الأخبار بها. ا.هـ.

وقال صاحب أبجدية الأوقات: «أول من خطر بباله إنشاء التلغراف المعروف الآن كان الدكطور «هوك» وذلك سنة ١٦٦٤، وقيل: إن موسيو أمنتونس هو أيضًا مخترعه في ذلك التاريخ، إلا أنه لم يجرِ استعماله إلا في سنة ١٧٩٣، وقيل: إن موسيو ساب هو أول من اخترع التلغراف الذي استعمله الفرنسيس في تلك السنة، وفي سنة ١٧٩٦ نصب سلكان فوق ديوان الأميرال.» ا.هـ.

قلت: كانت ولادة روبرت هوك في سنة ١٦٣٥، ووفاته في سنة ١٧٠٢، ويقال: إنه هو أول من اخترع آلة لتقويم حركة الساعة، وأتقن كثيرًا من الآلات الهندسية، وفكر في الجاذبية الأرضية، واستنبط في الرياضيات والفلكيات والطب والكيمياء أشياء كثيرة، وكان شرسًا حسودًا؛ نازع نيوطون أنفس مخترعاته.

(١٣-٨١) من منشستر إلى أيدنبرغ

ثم سافرت من منشستر إلى أيدنبرغ قاعدة سكوتلاند، وهي مدينة بهيجة جدًا مبنية من الحجر الصلب على عدة نَجَوَات، وهي شطران: أحدهما جديد والثاني قديم، أما القديم فإن دياره عالية جدًّا فقد تشتمل الدار على ثماني طبقات، إلا أن فيه أزقة قذرة ضيقة جدًّا، وأما الجديد فإنه يشتمل على طرق واسعة وديار حسنة وحوانيت عظيمة ومبايت للمسافرين رحيبة، وفيه مدرسة جامعة تحوي نحو ستمائة طالب، وهي شهيرة بعلم الطب، وفيها مكتبة موقوفة تحوي ثمانين ألف كتاب ما عدا كتب خط اليد، وهناك قبة جليلة فيها تمثال سر ولطرسكوت شاعرهم الشهير، ولها مَرْقَب عالٍ مطل على الخليج الداخل من البحر، وسعته عدة أميال، وهذا المطل يكاد أن يكون كمطال جبل لبنان، وقد كان الفاصل بين الشطرين خليجًا والآن جعل ممرًّا للأرتال.

أما أرض سكوتلاند فهي دون أرض إنكلترة في الخصب والريع وذلك لكثرة الجبال فيها، إلا أن أهلها أصحاب جد ودأب في الصنائع، وشأنهم التغرب في جميع البلاد، فهم كأهل حلب في سورية، وكل سنة يهاجر منهم أكثر من ثمانية عشر ألفًا، وهم أكثر شقرة

وصهوبة من الإنكليز، وعدتهم نحو ٣٠٠٠٠٠٠ ولهم لغة خاصة بهم غير أن لغة الإنكليز غلبت عليهم الآن، وحاكمهم منهم، ولكنه تحت طاعة الدولة، وهم أشد تحمسًا في الدين من الإنكليز، فإن أصحاب الفنادق يضعون في كل غرفة للمسافر كتابي العهد القديم والجديد، وكثيرًا ما ترى نساء يبعن الفاكهة في الطريق وبين أيديهن كتاب الإنجيل، وقد طالما حاولت أساقفة الإنكليز إقرار كنيستهم فيها وجعلها الأصل، كما فعلوا بإرلاند فقابلهم الأهلون بأشد الإباء والتمنع، مع أن أهل إرلاند أكثر من ٧٠٠٠٠٠٠؛ وسبب ذلك أنه لما اتحدت سكوتلاند بإنكلترة — وذلك في سنة ١٧٠٧ — كان من جملة الشروط التي اشترطوها أن تبقى رسوم كنيستهم ومناسكها كما كانت، فأقرتهم الدولة على ذلك إلى يومنا هذا، وهم مثل الإنكليز في كونهم يشفنون الغريب؛ فإني حين كنت أمر في الطريق كان يجري ورائي جمع غفير من الرجال والنساء والأولاد ينظرون إلى طربوشي ويعجبون، حتى اضطررت مرة إلى أن أتوارى منهم في دكان.

وقد رأيت في هذه المدينة القصر الذي كانت تسكنه الملكة ماري إستوارت المشهورة بالجمال والنجابة، وهو في خفض من الأرض، وفيه شاهدت صورتها وسريرها الذي كانت تنام عليه، وصورة الطلياني الذي اتهمت بحبه وهو يقاربها في الجمال، وصورته باقية في الموضع الذي قُتل فيه غِيلة، وسببه فيما قيل إنه لما كان يعزف لها بالكنارة ذات ليلة إذ هجم عليه زوجها من باب خفي فقتله عند الباب الخارج، ولم يزل أثر الدم على الخشب القريب من العتبة، ثم رأيت صورتها أيضًا في القلعة التي حبست فيها بعد أن اتهمها حسادها بالفحش، وهي أجمل من صورتها في القصر، ولما كانت محبوسة هناك أخذها الطلق فولدت جامس الأول، وهو الذي صير مملكتي سكوتلاند وإنكلترة مملكة واحدة.

وشاهدت أيضًا في القلعة تاج الملك والسيف والصولجان والنيشان وخاتمًا من ذهب فَصُّه ياقوتة أكبر من الفولة، والشباك الذي تدلت منه فنَجَت وهو عالٍ جدًّا.

وفيها أيضًا كنيسة صغيرة يقال: إنها أول كنيسة أقيمت فيها فرائض النصرانية في تلك البلاد وكانوا حينئذ يرمونها، وهذه القلعة مبنية على صخر ارتفاعه ثلاثمائة قدم.

فأما ما كان من أمر الملكة ماري ففي محفوظي أنها بعد أن يئست من المُلْك بعد وقائع طويلة جرت بينها وبين أعدائها، فرت من دار المملكة، وكتبت إلى ابنة عمها — وقيل أختها إليصابت ملكة الإنكليز تستجير بها — فكتبت إليها أن «أقدمي عليَّ ولك الأمان.» فلما قدمت عليها أضمرت لها شرًّا حسدًا لها على جمالها ومحاسنها، فصدق

المثل حين قال: «إن من الحُسْن لَشِقْوة.» ثم تجنت عليها أمورًا كثيرة، من جملتها أنها قتلت زوجها؛ فأودعتها السجن، ثم خفرت ذمتها معها، ونقضت عهدها، وعقدت عليها مجلسًا، حكموا بقتلها فقُتلت، ومع أن الإنكليز ينوهون باسم الملكة إليصابت لإجارتها مذهب البروتستانط، فلا ينفون عنها هذا الغدر الشنيع الذي رضيته لنفسها بعد التأمين، فهو طبع يصدأ به ذكرها على ممر الدهور.

ومن قرأ قصة الملكة ماري وهي مسجونة وما لقيت من الضر والنكد فلا يملك عبراته عليها، ولعمري إنه لم يشقني شيء إلى رؤية سكوتلاند غير صورتها وقصرها وذكر أيامها.

قال بوليه: إن ماري ملكة سكوتلاند هي بنت يعقوب الخامس ملك سكوتلاند، ولدت في سنة ١٥٤٢، ومات أبوها بعد ولادتها بثمانية أيام، وفي سنة ١٥٥٧ تزوجت دوفان فرنسا، ثم صار ملكًا باسم فرنسيس الثاني، ومات عنها بعد سنة ونصف، فرجعت إلى سكوتلاند، إلا أن تمسكها بديانة الملة الكاثوليكية جعلها بغيضة لدي الأهلين، وفي سنة ١٥٦٥ تزوجت ابن عمها هنري لمجرد جماله فقط، وكان يغار عليها من داود ريزيو الطلياني كاتب سرها؛ فقتله بمرأى منها، وفي سنة ١٥٦٧ هلك هو فاتهمت بقتله، وبعد ثلاثة أشهر تزوجت كونت بوثول، ولم تتدبر في العواقب، حيث كان اتهم بأنه أجهز على زوجها فشغب عليها فعلها هذا أهل المملكة، وألزموها أن تعدى عن مذهبها، ففرت والتجأت إلى ابنة عمها الملكة إليصابت وذلك في سنة ١٥٦٨، وحيث كانت إليصابت تحسدها على جمالها ألقتها في السجن ثماني عشرة سنة، ثم تجنت عليها أنها غاوت جماعة من الكاثوليكيين على إهلاكها، فقضت عليها بالقتل، فماتت وهي متجلدة، وكانت توصف في عصرها بالكياسة والظرافة والفصاحة، وبأنها أجمل النساء، وعند وداعها فرنسا قالت كلامًا بليغًا.

قلت: وجدت في بعض التواريخ أنها نظمت في هذا المعنى أبياتًا بالفرنساوية، وترجمتها كما يأتي: «وداعًا يا فرنسا الأنيقة، يا بلادي التي هي عندي الأعز، والتي رشحت صباي، وداعًا يا فرنسا، وداعًا يا أيامي الغراء فيها … إن الفلك الذي فصل حبي لم يحمل إلى هنا سوى شطري، ولقد بقي لك الشطر الآخر ملكًا لك، وسأتركه لمودتك حتى يتذكرك الآخر.»

وقال آخر: قتلت ولها من العمر ٤٤ سنة وشهران، ولما قدمت إلى بلاد الإنكليز كان سنها خمسًا وعشرين سنة، وقال بوليه: وماتت عن ولد، ملك على سكوتلاند باسم جامس

السادس، وعلى بلاد الإنكليز باسم جامس الأول، وقد ألف العالم شلر على قتلها تمثيلية من أبلغ ما يكون. ا.هـ.

قال بعض من شاهد أيدنبرغ وكلاسكو من الإنكليز: إن للقسيسين ولفقهاء الشرع في أيدنبرغ يدًا طويلة وكلمة نافذة، فإن الناس تنقاد لهم في أكثر الأمور، ولا يكاد الناظر يترسم البيع والشراء إلا في حوانيتها بخلاف كلاسكو، ومن يقم فيها فكأنما هو مقيم في الريف، وذلك لصفاء هوائها عن الدخان، ومن كل جهة منها يستنشق نسيم البحر، وهي مبنية من حجارة منيعة باقية على الدهر، ويمكن أن يقال: إنه ليس في الدنيا كلها مدينة مثلها على هذا الوضع الأنيق، أما أهلها فما برحوا محافظين على عاداتهم ورسومهم القديمة، وهي مخالفة لعادات الإنكليز جدًّا.

(١٣-٨٢) كلاسكو مدينة المعامل

أما كلاسكو فإنها أعظم منها في التجارة، فإنها كلها عبارة عن معامل للثياب المنسوجة وغيرها، وهي إن تكن أقل تجارة من منشستر إلا أن في هذه بيوتًا كثيرة ومحترفات عديدة تختص بتلك، أما تجارتها وأشغالها في الحديد فعظيمة إلى الغاية، وأما في إنشاء المراكب والآلات من الحديد فمن الطراز الأول؛ فإنك ترى حولها أتاتين عديدة لا تزال متأججة حتى كان ذلك القطر قطر جحيمي، وحتى يخيل للناظر أن خاطر الإنسان يرتاح إلى النار والدخان وإلى طقطقة المطارق ارتياحه إلى المكث في صقع من إيطالية وإلى رؤية الرياض واستماع أصوات العيدان، وكأن هؤلاء الدخانيين لا يحسدون أحدًا سواهم ممن يسكن في الريف المريع، ولا يبالون بما تقوله الشعراء في وصف المروج الناضرة والجداول المترقرقة وغير ذلك من مسارح النظر الأنيقة، فما قاله ملطون حكاية عن الشيطان حين هبط إلى دركات الجحيم واستسلم إلى ما قدر عليه، ورضي بما طرأ عليه هناك من شواغل حياته الجديدة وهو: «كن يا شر لي خيرًا» إنما هو صفة هؤلاء الناس لا تتعداهم، فإنهم يتبجحون بكثرة مواقدهم وتكاثف دخانهم، وكأن المدينة حالة كونها تفيء بعمد من النار ليلًا وبعمد من الدخان نهارًا، تذكرة تذكر الناسي بخروج بني إسرائيل من مصر.

ولا شيء أعجب هنا من أن يرى الرائي تعدد الألواح فوق حوانيتها، وهي التي تكون عنوانًا على اسم التاجر وحرفته، فإن التاجر في لندرة يكتفي بوضع لوح واحد فوق حانوته، فأما الطبقة التي فوق الحانوت فإنها تكون غالبًا مقرًّا لعياله، أما في كلاسكو

فإنك ترى حانوتًا فوق حانوت، ومخزنًا فوق مخزن، بل أعظم الحوانيت هي التي تكون فوق الطبقة الأولى، وقد تكون الدار كلها عبارة عن مخزن بضائع، وأينما تذهب لتشتري شيئًا يُقَلْ لك: اطلع فوق.

قال واني: أكره شيئًا من قسيسي سكوتلاند، وهو أنهم لا يزالون يطوفون في البلاد مجتدين بدعوى أنهم ينفقون ما يجمعونه في وجوه البر وإنشاء الكنائس، وجل من يقع غرضًا لهم ذوات الثروة من النساء. ا.هـ.

(١٣-٨٣) العودة إلى كمبريج وترجمة التوراة

ثم عدت إلى كمبريج، وبعد أن أنهيت ترجمة التوراة، وذلك في أقل من عشرين شهرًا، سرت إلى لندرة وفاوضت كاتب الجمعية في ذلك، فقال: «إن كنت تقيم في هذه البلاد فإن الجمعية تعين لك شيئًا في مقابلة تصحيح الطبع.» فقلت: «على شرط أن أقيم بباريس، ويبعث إليَّ بالمطبوع إلى هناك فأصححه، فإني طالما هممت بأن أتعلم اللغة الفرنساوية لما أني أرى في كتب الإنكليز جملًا وعبارات منها مما يحرض على تعلمها.» فقال: «لك ذلك» فمن ثَمَّ كتبت إلى كاتب حاكم مالطة أخبره بأني عدلت عن الرجوع إليها، ثم تأهبت للسفر إلى باريس، وأعددت خيشومي للغنة، وخَلَدي للفتنة ودريهماتي للمحنة.

وهنا أودع القارئ وعبراتي منحدرة وزفراتي متصاعدة وأعده وعد من يراعي قديم الصحبة، ويحفظ أكيد القربة، بأني أصف له باريس عند استقراري فيها أتم وصف من دون إسهاب ولا حذف، فإني جعلت هذه الرحلة مرتبة على الأوقات وأخليتها في الجملة عن الاستطرادات.

ولكن ينبغي قبل ذلك أن أفيده فائدة تتعلق بالتوراة مما يعز وجوده في غير هذا الكتاب، فأقول: إن أول من ترجمها من اللغة العبرانية إلى اليونانية هم الاثنان والسبعون حبرًا في عهد برثولومي فيلادلفيوس بالإسكندرية، وذلك في سنة ٢٧٧ قبل الميلاد، قيل: وأتموا ترجمتها في اثنين وسبعين يومًا، وكان كل اثنين منهم في صومعة، وعين على كل منهما ترجمتها بأجمعها، فلما فرغوا منها وجدت جميع النسخ لم تختلف إحداها عن الأخرى لا في كلمة ولا في حرف.

وأقدم توراة بيد النصارى هي الموجودة في الفاتيكان برومية، كتبت في القرن الرابع، وقيل: الخامس، ونشرت في سنة ١٥٨٧، والثانية هي الموجودة في متحف الإنكليز المسمى بريتش ميوزيوم، أهداها أحد بطاركة الروم إلى شارلس الأول، وقيل: إنها نسخت في

حدود التاريخ المتقدم ذكره، وأقدم توراة عند اليهود هي الموجودة في توليدو بإسبانية وذلك نحو سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد، وجملة ما في التوراة من الأسفار ٣٠، ومن الفصول ٩٢٩، ومن الآيات ٢٣٢١٤، ومن الكلمات ٥٩٢٤٩٣، ومن الحروف ٢٧٢٨١٠٠، وقد تكررت فيها الواو العاطفة ٣٥٥٣٥ مرة، والعدد الحادي والعشرون من الفصل السابع من سفر عزرا يشتمل على الحروف الأبجدية كلها، وجملة ما في الإنجيل من الأسفار ٢٧، ومن الفصول ٢٦٠، ومن الآيات ٧٩٥٩، ومن الكلمات ١٨١٢٥٣، ومن الحروف ٨٣٨٣٨٠، وقد تكرر فيه حرف العطف ١٠٦٨٤ مرة.

وكان طبع التوراة باللغة الإسبانولية في سنة ١٤٧٨، والجرمانية في سنة ١٥٢٢ والإنكليزية في سنة ١٥٣٤، والفرنساوية في سنة ١٥٣٥ والمسكوبية في سنة ١٥٨١، والرومية في سنة ١٦٣٨، والتركية في سنة ١٦٦٦، والبورتوكيزية في سنة ١٧٤٨، والطليانية في سنة ١٧٧٦، والفارسية في سنة ١٨١٥، ووجدت في بعض الكتب — ولست منه على ثقة — أن التوراة ترجمت إلى العربية في القرن الخامس.

السفر إلى فرنسا

(١) من لندرة إلى بولون

ثم إني ركبت الباخرة التي تسافر من لندرة إلى بولون بعد نصف الليل الواقع في السادس من كانون الأول، وكنت أرجو أنها تقلع في تلك الليلة فوقع الضباب الكثيف حتى تعذر السفر إلى الصباح، فلما دنونا من المدينة المذكورة صادفنا الجزر في البحر، فانتظرنا نحو أربع ساعات حتى جاء المد، فبلغنا المدينة في الفجر، فأخرجت أمتعتنا وفتحت في الكمرك، وكان معي عدة صناديق من جملتها صُندوقًا كُتبٍ فلم يأخذوا عليها شيئًا، وسمعت بعضهم يقول: هذا مرسل؛ أي قسيس مبعوث من طرف الإنكليز لهداية بعض الضالين، إلا أنهم وجدوا في أحدها رطلًا من الشاي فقالوا: «إما أن تؤدي عليه شلينين ونصفًا وإما تتركه هنا.» فقلت: «لا بل أؤدي عليه ما تطلبون.» وفرحت بذلك غاية الفرح؛ لأني كنت موجسًا من أنهم يتقاضون على الكتب كثيرًا لا سيما وأن كثيرًا منها كان جديدًا كما جلَّده المجلد.

(٢) نصيحة للمسافرين

وهنا نصيحة أو شبه نصيحة لإخواني من المسافرين، وهي أن من تصدى منهم إلى فتح صندوقه أولًا يلقى المفتش في عرام نشاطه وظمائه إلى أن يجد عنده حاجة جديدة فيضبطها منه إظهارًا لحذقه في صنعة التفتيش، فأما من يأتي آخر القوم فإنه يلقاه قد كَلَّ وضجر، فأول ما يفتح الصندوق ويلمسه يطبقه، وربما اجتزأ عن ذلك بسؤال واحد يلقيه عليه، كأن يقول له: «هل عندك شيء يؤدى عليه مكس؟» ولا بد بالضرورة

أن يكون الجواب بالسلب، غير أن جل الناس يحبون التقدم والتصدر في كل شيء فتراهم يتزاحمون على فتح صناديقهم وإخراجهم وعيابهم كأنما هم في حلبة السباق.

وفي بولون هذه وفي سائر فرض فرنسا المقابلة لإنكلترة يزدحم الحمالون وخدام المطاعم على المسافرين — ولا ازدحام حَمَّارة مصر — وهناك ترى النساء حمالات يغطين شعور رءوسهن بمنديل، فيبرز من تحته شعيرات من عند أفوادهن على زي نساء اليهود، وسحنهن كسحن الرجال، وأقبح منهن النساء اللائي يصطدن السمك أو يبعنه، فلا يكاد النظر يعرف منهن علامة الأنثوية.

(٣) جواز السفر

واعلم أيضًا أنه من يدخل فرنسا وغيرها من بلاد الإفرنج فلا بد له من أن يبرز جوازه في الثغور — أي الباسبورت — وإلا فلا يَدَعُونه يدخل، وأقبح من ذلك أنه لا يمكن للغريب أن يخرج من بلاد فرنسا إلا إذا أدى في ديوان الجواز عشرة فرنكات، أما من يقدم إلى بلاد الإنكليز فليس عليه أن يبرز الجواز، كما أن الخارج منها أيضًا ليس عليه أن يؤدي شيئًا؛ ولذلك يقال: إن بلاد الإنكليز بلاد الحرية، وسببه عندي — والله أعلم — أن الإنكليز لما كانوا في الزمن القديم متخلفين عن سائر الإفرنج في أسباب التمدن والعلوم كما مر بك من جملة مُثُل ولا سيما في الكلام على منشستر، احتاجوا إلى أن يتساهلوا مع جيرانهم في أشياء تستميلهم إلى زيارتهم، وذلك أن أول ظهور التمدن والفنون في أوروبا إنما كان في إسبانيا حين كان المسلمون مستولين على الأندلس.

(٤) الأندلس وأوروبا

قال فلتير: «وكانت ملوك الإفرنج جميعًا تستخدم الأطباء من العرب واليهود، والتزم البابا يوحنا الثامن أن يدفع للمسلمين في كل سنة خمسة وعشرين ألف رطل من الفضة وذلك سنة ٨٧٧، وقد دخلوا إيطاليا، ونهبوا كنيسة ماربطرس، وفتكوا بالجيوش الفرنساوية الذين كانوا ساروا إلى رومية لإجارة أهلها تحت راية القائد لوثاريوس، وفي القرن الثاني عشر كان المسلمون مستولين في إسبانيا على أحسن البلدان، منها بورتغال ومرسية والأندلس ووالنسية وغرناطة وطرطوشة، وامتد ملكهم حتى إلى وراء جبال قسطيل وسيرقوسة.

أما دار الخلفاء فكانت في قرطبة، وفيها بنوا المسجد العظيم المشهور قَبْوُه، مرفوع على ثلاثمائة وخمسة وستين عمودًا، وهو من مرمر غريب الصنعة بديع الإتقان، ولم يزل معروفًا إلى الآن باسم «مُسْك» — أي مسجد — مع أنه حُوِّل كنيسة، وكانت الصنائع والفروسية والأبهة في عهدهم في مزيد، وكان عندهم مواضع شتى للفرج واللهو، أما علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلم يكن إلا في قرطبة دون غيرها من سائر المدن، حتى إن صانكو ملك ليون الملقب بالسمين، اضطر إلى أن يسافر إليها ليأخذ الطب عن رجل كان مشهورًا في عصره، فلما استدعى به الملك أجابه مع الرسول قائلًا: إن كان للملك حاجة إليَّ فليقدم عليَّ.» وقال بعض المؤلفين: إن المسلمين ملكوا من البلاد في مدة ثمانين سنة بعد الهجرة ما لم يملكه الرومانيون في مدة ثمانمائة سنة.

(٥) الساعة الدقاقة هدية هارون الرشيد

وقال فلتير في موضع آخر: «وأول ساعة دقاقة عرفت في فرنسا هي التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان.» وقال في أبجدية الأوقات: «علم الحساب إنما أُخذ عن العرب في إسبانيا وذلك في سنة ١٠٥٠، ثم شهر في إنكلترة في سنة ١٢٥٣.»

وقال صاحب معجم الجغرافية: «إن البابا سلوستروس الثاني — وكان يعرف أولًا باسم جربرت — سار إلى الأندلس، وأخذ العلم عن العرب، وكانت ولادته في سنة ٩٣٠، وانتخب بابا في سنة ٩٩٩، وكان ماهرًا في علم المساحة وجر الأثقال والفلك، وهو الذي بث رقم الحساب العربي في أوروبا، وأول من عمل ساعة ذات رقاص.»

(٦) الاختراع والإبداع

وقال فلتير: «أول من اخترع هذه النظارات للعيون إسكندر سبينا، وذلك في أواخر القرن الثالث عشر، وكذا اختراع طواحين الريح كان في ذلك العهد.

وأصل اختراع الفخار كان في فيانتزي، أما زجاج الطيقان فكان معروفًا من قبل ذلك إلا أنه كان نادرًا وكان يعد من الإسراف، وكان اشتهار صنعته في بلاد الإنكليز في سنة ١١٨٠ من بعض الفرنسيين، وكان يتنافس فيها، وأول من أبدع مرايا الزجاج أهل فينيسيا، وذلك في القرن الثالث عشر، وكان استعمال الساعات معروفًا في إيطاليا، ولكن على ندرة.

ولم يكن في أوروبا كلها من المدن ما يضاهي فينيسيا وجينوى وبولونيا وسيانا وبيزى وفلورانس، ولم تكن البيوت في مدن فرنسا والنمسا وإنكلترة كما هي الآن، وإنما كانت سقوفها من التبن المطين وبناؤها من الخشب، ولم يكن عندهم هذه المواقد المعروفة الآن لإيقاد النار، وإنما كانوا يوقدونها في نحو كانون يجعلونه في وسط البيت، فيجتمع حوله المصطلون والدخان متصاعد منه، وكانت أغطية الموائد من الكتان عند الإنكليز نادرة جدًا، ولم يكن النبيذ يباع إلا عند العقاقيرية، وكان الركوب في مركب ذي عجلتين في طرق باريس الوسخة إسرافًا حتى إن فيليب الملقب بالأزهر منع النساء من ذلك، وكان أهل بولاند يقتلون أولادهم إذا جاءوا ناقصي الخلقة، وكذا يقتلون الذين أسنوا وعجزوا، وقس على ذلك سائر سكان البلاد الشمالية.

وأول من أحيا صنعة نقر التماثيل برونلشي من مدينة فلورانس، وكان غيوتو نبهًا في التصوير، وبوكاشيو في اللغة والأدب، وأول من اخترع مقامات الموسيقى — على ما عرف الآن — غيدو أوتزو، وأشهر من برع في النظم والتأليف بتراك ودانتي، ولم يكن إذ ذاك في البلاد الشمالية سوى الجهل الفاحش والتفاخر بالفتك والقتال. ا.هـ.

(٧) اختراع الساعة

قلت وحيث جرى في معرض ما أوردناه ذكر الساعة، فلا بد من استيفاء الكلام عليها، ثم أرجع إلى ما كنت بصدده، قال مؤلف كتاب المخترعات العجيبة: ذكر المؤرخون من الفرنسيس أن أول ساعة عُرفت في بلادهم كانت الساعة التي أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا، وذلك في سنة ٨٠٧، وكانت بِدْعًا في ذلك العصر، حتى إنها أورثت رجال الديوان حيرة وذهولًا، والظاهر أنها كانت من الآلات التي يديرها الماء المنحدر، وكان لها اثنا عشر بابًا صغيرًا تنقسم بها الساعات، فكلما مضت ساعة انفتح باب وخرج منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات، وتبقى الأبواب مفتوحة، وحينئذ تخرج صور اثني عشر فارسًا على خيل وتدور على صفحة الساعة، قلت: بودي لو أعرف اسم الساعة في ذلك العصر، فإني أنكر هذه اللفظة، وأهل الغرب يقولون: منكالة وهي أنكر. قال: وكان ألفرد الكبير ملك الإنكليز يأمر باتخاذ شمع، طول كل شمعة اثنتا عشرة إصبعًا، ويُعَلِّم كل منها بعلامات متساوية منقسمة إلى أربعة وعشرين قسمًا، كناية عن الليل والنهار، فكان يأمر بإيقادها متعاقبة ليلًا ونهارًا، ويجعلها في قرن رقيق شفاف صونًا لها من الريح، ولم يعلم عمل الساعات الدقاقة إلا بعد موته بقرون عديدة.

أما تقسيم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة فمعروف من قديم الزمان، قلت: ومن محفوظي أنه ذكر في المصباح المنير للفيومي أن أهل الحساب اصطلحوا على أربعة وعشرين قيراطًا؛ لأنه أول عدد له ثُمن ورُبع ونصف وثلث صحيحات من غير كسر، فلعل هذا هو السبب في تقسيم الساعات إلى هذا العدد، وذكر هيرودوطوس أن ميقاتية الشمس كانت معروفة عند اليونانيين، وهم أخذوها عن البابليين، فأما الميقاتية المائية التي تدل على الأوقات على نسق الرملية فكانت معروفة عند الكلدانيين وعند قدماء الهنود، فكانوا يحدرون الماء فيها من إناء إلى آخر كما يحدر الرمل في الزجاجة، وبذلك يستدلون على أوقات التنجيم، إلا أن عدم تساوي انحدار الماء وتخالف الهواء كان يجعل حسابهم غير مطرد، أما شكلها فغير معروف بالتفصيل، وغاية ما يعلم من أمرها أن الماء كان ينحدر في وعاء فيها قطرة قطرة، فإذا امتلأ الإناء علم مقدار الوقت المفروض.

وأول من أتقن الساعة المائية حتى صارت من الأدوات العلمية الدون كرلوس فالي، أحد الرهبان الباندكتيين وذلك سنة ١٦٩٠، وزعم بعضٌ أنها من مخترعات مرتينلي الطلياني. قيل: وأول مؤلف ذكر اسم آلة تدل على الساعات هو دانتي الشهير، ولد في سنة ١٢٥٦، ومات في سنة ١٣٢١، وشهر ذلك في إنكلترة في سنة ١٢٢٨، وكان أيضًا مشهورًا عند غيرهم، وفي زمن إدورد الأول وضعت غرامة على أصحاب الجنايات لأجل عمل ساعة دقاقة في غرفة وستمينستر لكي يسمعها الذين في المحكمة، وفي زمن هنري الخامس كان لها شأن عظيم حتى إن الملك وَكَّل محافظتها وتعهدها إلى وليم واربي دين كنيسة صانت اسطفان، وعين له في مقابلة ذلك نصف شلين في كل يوم من ديوان الخزنة. وفي سنة ١٣٣٤ أبرز يعقوب دوندي ساعته المشهورة، فكانت تدل على الساعات وعلى سير الشمس في منطقة البروج، وعلى مواقع الكواكب السيارة، ولقب بهورولوجيوس.

وفي أواسط القرن الرابع عشر وضع في كنيسة إستراسبورغ ساعة من أكثر الآلات تركيبًا وتألفًا، فإن صفحتها كانت تبدي الكرة السماوية وسير الشمس والقمر والأرض والكواكب ومحاق القمر ونموه، وتقويمًا يدل على اليوم الواقع من الشهر، وكان ربع الساعة الأول يطرقه ولد بتفاحة، والثاني شاب بسهم، والثالث رجل برأس عصا، والرابع الأخير شيخ بعكازه، وعند مرور كل ساعة يفتح الباب ملك وينحني مُسَلِّمًا على مريم العذراء ثم يطرق الجرس، وبقربه ملك آخر يحمل ساعة رملية يقلبها عند انتهاء الدقات الأربع، وكان بها أيضًا ديك من ذهب يصفق بجناحيه عند اقتراب كل ساعة، ويمد عنقه، ثم يصقع مرتين.

وفي أواخر القرن المذكور صنع رجل من جينوى اسمه دروز ساعة دقاقة ذات حركات غريبة، وكانت تشتمل على تمثال «رجل» أسود وراعٍ وكلب، فكان الراعي عند طلق الساعة يعزف على الناي ستة أصوات، فيدنو منه الكلب ويحرك ذنبه متملقًا، ولما عرضها على ملك إسبانية تعجب منها غاية التعجب، فالتمس إليه دروز أن يمد يده ويأخذ تفاحة من سلة الراعي، فلما فعل انبعث إليه الكلب ينبح نباحًا عاليًا حتى صار كلب الملك ينبح أيضًا. قيل: وكان إذا سئل الأسود عن الساعة أجاب بالكلام الفرنساوي ليفهمه الحاضرون، وأول من وضع الرقاص في الساعة الدقاقة ريشارد هارس الإنكليزي وذلك في سنة ١٦٤١.

أما الساعات الصغيرة التي توضع في الجيب مختصرة عن الكبيرة، فالجزم بمعرفة مخترعها صعب، والأرجح أنها من مخترعات هوك. ا.هـ. وقيل: إن أصل اختراع الساعات كان في نورمبرغ في سنة ١٤٧٧، وحقق البعض أن روبرت ملك سكوتلاند كان له ساعة، وذلك في سنة ١٣١٠، وكان استعمال الساعات في الأرصاد الفلكية في سنة ١٥٠٠، وقال بعض: إن الإمبراطور كرلوس الخامس هو الذي كان عنده ما يصدق عليه اسم الساعة، وذلك في سنة ١٥٣٠، وأصل جلب الساعات إلى بلاد الإنكليز كان من جرمانيا في سنة ١٥٧٧، أما الساعات التي توضع في الجيب فمن الناس من نسب اختراعها إلى دكطر «هوك»، وأهل هولاند نسبوه إلى هيكفس، وكيف كان فإن دكطر «هوك» هو الذي اخترع الساعة الدقاقة ذات الرقاص، وذلك في سنة ١٦٥٨.

وقيل: إن ساعة الماء عرفت في رومية في سنة ١٥٨، وإن البابا بولس الأول أهدى بيان ملك فرنسا ساعة مائية في سنة ٧٦٠، وقيل: إن أصل اختراع الساعة الشمسية كان في سنة ٥٥٠ قبل الميلاد، وقيل: إنها عرفت في رومية سنة ٢٩٣ من التاريخ المذكور، وفي سنة ٦١٣ نصبت في الكنائس، وفي مدة أحد عشر شهرًا من سنة ١٨٥٠ جلب إلى بلاد الإنكليز من هذه الساعات ٢١٥٤٧٤.

فقد عرفت مما تقدم أن التمدن في البلاد الإفرنجية بدأ أولًا في إسبانية بالنظر إلى العلوم، وفي بلاد إيطاليا بالنظر إلى الصنائع، ثم انبثت منهما إلى فرنسا، وأول اشتهارها فيها وبناء قصر فنتنبلو وقصر صان جرمان، وتهذيب اللغة الفرنساوية كان في أيام الملك فرنسوا الأول، كانت ولادته في سنة ١٤٩٤ ووفاته سنة ١٥٤٧، ثم لما انتشر مذهب البروتستانت في فرنسا، وكانت الدولة تضطهد المتمذهبين به، كانوا يضطرون إلى الفرار إلى البلاد الأجنبية، وحسبك بيوم ماربرتولماوس دليلًا.

ولما قام لويس الرابع عشر — وكان هو ووزيره الكردينال ريشيلو أشد الناس بغضة لأهل هذا المذهب — فر كثير منهم إلى بلاد الإنكليز، وكانوا ذوي معارف وعلم فبثوا فيها ذلك، وطاب للإنكليز أن يضيفوا من التجأ إليهم، وأن يعفوهم من الجواز، وبقيت الحال على هذا المنوال.

(٨) من بولون إلى باريس

ثم إن بولون هي مثل غيرها من فرض فرنسا المقابلة لإنكلترة في كونها موردًا للتجارة بين المملكتين، وأكثر ديارها منازل للمسافرين، وثلث سكانها إنكليز، وأحسن ما فيها متحفها، فيه من غرائب أنواع الطير والسمك وسائر الحيوانات، ومن الجواهر المعدنية وأنواع الورق الذي كانوا يكتبون عليه في الزمان القديم، ومن الصور وآلات الطرب لجميع الأمم ما هو عبرة للمعتبر، ومن رأى عظام السمك والوحوش الضخمة فلا يكذب شيئًا مما قاله الأولون.

ثم سافرنا منها فبلغنا باريس ليلًا فدهشت لما رأيت، فإني وجدت جميع الحوانيت مفتوحة في الساعة التي لا يفتح فيها شيء في لندرة غير حانوت المزر، وحين مررنا بالبلفار رأينا من الأنوار في الديار من فوق، وفي محال القهوة من تحتها، وفي فوانيس الطرق من بين الأشجار، وفي فوانيس العواجل الواقفة عن اليمين والشمال، ما خيل لي أني في جنات النعيم، فقلت في نفسي بَخٍ بَخٍ إن هذه مدينة بهجة وأنوار، تتفتح فيها أكمام المعاني في رياض الأفكار، وتتجلى بها عرائس القصائد في أخدار الأشعار، فلأجعلن دأبي النظم فيها الليل والنهار، وكلما ارتج عليَّ شيء جئت إلى البلفار، ثم لبثنا أربعة أيام في مبيت إلى أن تيسر لنا استئجار محل في دار على حدته، وكان الضباب في خلالها كثيفًا والبرد شديدًا.

أما البرد فلا ينقص عن برد لندرة نقيرًا بل هو أشد، وأما الضباب فكان أبيض بخلاف ضباب لندرة فإنه يقع أسحم، فطفقت أشكو من الانتقال من ضباب إلى ضباب، فقال لي أحد أصحابي: «إن هذا الضباب إنما قدم إلينا معك من لندرة، فإن باريس ليست مُضِبَّة، ووقوعه فيها نادر جدًّا.» لكنني وجدت قوله بعد ذلك غير الحق، فإنه وقع أيضًا في السنة الثانية وأنا مقيم فيها من دون أن يعلق بأذيالي من قطر آخر، إلا أنه لا يدوم طويلًا كما يدوم ضباب لندرة.

(٩) نبذة عن فرنسا وإحصاءات متنوعة

وقد حان الآن أن أشرع في وصف باريس وأهلها، ولكن لما كان العالم الأديب رفاعة بك الطهطاوي قد ألف كتابه النفيس المسمى بتخليص الإبريز في تلخيص باريز وسبقني إلى هذا المعنى، كان لا بد لي هنا من أن أستأذنه في ذكر ما أضرب عنه بالكلية، أو أشار إليه إشارة فقط ما استغربته منه.

ثم أجعل ذلك مقياسًا للقارئ يقيس عليه باريس ولندرة، ولكن قبل الكلام عن باريس خصوصًا ينبغي أن أبتدئ بالكلام على فرنسا عمومًا؛ فإنها حَرِيَّة بذلك، وخصوصًا أني قد أجملت القول في أول هذا الكتاب على إنكلترة.

فأقول: إن فرنسا كانت تسمى في الزمن القديم بالغال، ثم سميت بهذا الاسم المتعارف الآن نسبة إلى الفرنك الذين فتحوها، وهم قبائل من البلاد الشمالية، وأرض هذه المملكة خصيبة، ينبت فيها جميع الأشجار والبقول والحبوب غالبًا، وكانت أرضها منذ نحو سبعين سنة مهملة، أما الآن فقد بذل الجهد في حرثها وتنبيت الأشجار فيها حتى صارت قيمة محاصيل الأرض وغلالها، تبلغ في العام ٥٣٣٧١٧٨٠٠٠ فرنك، يصرف على ذلك ٣٥٥٢٠٠٠٠٠٠ فيكون الفائض ١٦٨٥١٧٨٠٠٠ فرنك، وهي كثيرة المعادن، يوجد فيها معدن الذهب، لكن على قلة، ويكثر فيها الفضة والحديد والرصاص والنحاس والتوتيا وغير ذلك، وعدد سكانها في سنة ١٨٤٥ كان ٣٢٥٠٠٠٠٠،[١] منهم مليونان وثلث بروتستانت ويهود، وبلغت قيمة المجلوب من التجارة إلى فرنسا في سنة ١٨٤٣ ٨٤٦٦٠٦٩٤٠ فرنكًا، وقيمة الخارج منها ٦٤٣٩٦١٦٧٧ فرنكًا.[٢]

وفي مدة ثماني عشرة سنة وذلك من سنة ١٨٢٥ إلى سنة ١٨٤٣ كان من جملة أهلها مائتا ألف مجنون في المارستانات، وثلاثة آلاف قتلوا أنفسهم، ومائة ألف نفس بهم علل وأخذوا إلى ديار المرضى، وثمانمائة ألف يعيشون من الصدقات، ومائة ألف في السجون لأجل جنايات مختلفة، وقال آخر: وبلغ عدد الإكليروس في سنة ١٨٤٣ أربعة وعشرين ألفًا، منهم ثلاثة كردينالات وأربعة عشر مطرانًا وسبعة وستون أسقفًا، ويضاف إليهم

[١] في سنة ١٨٧٤ بلغ عدد سكان فرنسا ٣٦٣٨٣٤٨١ نفسًا.

[٢] منذ التاريخ المذكور اتسعت تجارة فرنسا اتساعًا عظيمًا فإن جملة المجلوب إليها في سنة ١٨٧٩ بلغت ٤٥٩٤٨٣٧٠٠٠ فرنك، وهي عبارة عن ١٨٣٧٩٣٤٨٠ ليرة إنكليزية، وبلغت جملة الخارج منها في السنة المذكورة ٣١٦٣٠٩٠٠٠٠ فرنك أو ١٢٦٥٢٣٦٠٠ ليرة.

نحو ثمانية آلاف وخمسمائة من المترشحين للكنيسة، وعدة أديار النساء ثلاثة آلاف، وعدد الراهبات أربعة وعشرون ألفًا، وبلغ عدد الإكليروس في زمان الفتنة ١١٤٠٠٠، من جملتهم اثنان وثلاثون ألف راهبة.

وبلغت جملة إيرادهم اثنين وسبعين مليونًا، ومبلغ العشور الذي يستوردونه سبعين مليونًا، فجملة ذلك ١٤٢٠٠٠٠٠٠، وإيراد الكردينالات والأساقفة ١٠١٧٠٠٠ وجملة المصاريف على الديانة الكاثوليكية ٣٤٢٥١٠٠٠ فرنك، وعلى البروتستانت ١٠٣٣٠٠٠ وعلى اليهودية ٩٠٠٠٠، وفي سنة ١٨٤١ بلغ عدد المسافرين في فرنسا ٦٣٣٠٠٠٠٠٠ نفس، منهم ١٤٣٠٠٠٠٠٠ سافروا في سكة الحديد، وفي سنة ١٨٥٥ بلغ عددهم بليونًا منهم مليون وثلاثمائة واثنان وسبعون ألفًا سافروا في الأرتال، وبلغ إيراد الكمرك في سنة ١٨٥٦ ١٨٢٢٩٦٧٩٨ فرنكًا، وفي سنة ١٨٥٧ بلغ إيراد الدولة نحو سبعين مليون ليرة إنكليزية فكان نحو إيراد دولة الإنكليز بل أكثر.[٣]

وفي السنة المذكورة كان لها من العساكر البرية نحو خمسمائة ألف، وأمكن لها في أي وقت شاءت أن تجهز من الجيوش البحرية نحو سبعين ألفًا، والمحروث من أرضها لا ينقص عن اثنين وأربعين مليون هكتار، وملاكها نحو سبعة ملايين من رءوس العيال، وبهذا يظهر لك الفرق بين المملكتين.

وقال بعضهم بلغ مصروف دولة فرنسا في مدة عشر سنين آخرها سنة ١٨٦١: ٧٦٨٥٢٠٠٠٠ ليرة، وبلغ إيرادها ٦١٩٦٨٠٠٠٠ ليرة فكان إيرادها في كل سنة ٦١٩٦٨٠٠٠ ليرة، ومصروفها ٧٦٨٥٢٠٠٠، وكان مصروف أوستريا في مدة أربع سنين، وهي من سنة ١٨٥٧ إلى سنة ١٨٦٠: ١٥٤٢٠٠٠٠٠ ليرة، وهو عبارة عن ٣٨٥٠٠٦٧٤ في كل سنة، وكان إيرادها في المدة المذكورة ١١٥٥٠٠٠٠٠، وهو نحو ٢٨٨٥٧٠٠٠ ليرة في كل سنة، وبلغ إيراد إيطاليا في سنة ١٨٦١: ٣٢٢٠٥٦٧٤ وإيرادها ١٩٦٣٤٨،[٤] وبلغ مصروف دولة شمال أميريكا في سنة واحدة من مدة الحرب ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ ليرة.

---

[٣] ومنذ سنة ١٨٥٠ ازدادت ثروة فرنسا ازديادًا عظيمًا حتى إن إيرادها بلغ في سنة ١٨٨٠: ٣١٣٠٧٢٥٢٨٨ فرنكًا، وهي عبارة عن ١٢٥٢٢٩٠١١ ليرة إنكليزية، أما المصاريف فإنها بلغت ٣١٣٠٤٩٤٢٤٤ فرنكًا أو ١٢٥٢٠٩٧٦٩ ليرة.

[٤] في سنة ١٨٨١ بلغ إيراد فرنسا ٢٧٥٢٧٩٤٨٣٠ فرنكًا أو ١١٠١١١٧٩٣ ليرة إنكليزية، والمصروف بلغ ٢٧٥٤٤٣٢٦٠٠ فرنك أو ١١٠١٧٧٣٠٤ ليرات إنكليزية، وأما إيراد إيطاليا فقد بلغ في السنة المذكورة ١٤٢٥٥٨٣٩٦٥ فرنكًا أو ٥٧٠٢٣٣٥٨ ومصروفها مثل ذلك تقريبًا.

فأما سكان هذه الممالك فإن عدد أهل فرنسا بلغ في سنة ١٨٦١: ٣٧٣٨٢٢٥٥ نفسًا، وزاد عدد الروسية في مدة خمسين سنة ضعفين، وكانت الزيادة في إنكلترة في تلك المدة ١١٩ في المائة، وكانت زيادة بروسية من سنة ١٨١٦ إلى سنة ١٨٥٨: ٧٢ في المائة، وزيادة أوستريا من سنة ١٨١٨ إلى سنة ١٨٥٧: ٢٧ في المائة، وزيادة فرنسا من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٦١: ١٢ في المائة لا غير فتكون الولادة في فرنسا أقل من غيرها في سائر الممالك.

أما الزواج فذكروه على هذا التفصيل، وهو: أنه يولد فيها ١٠٠ ولد من كل ٢٨٥ زواجًا وفي بريتانيا ١٠٠ ولد من كل ٢٣٧ زواجًا، وفي أوستريا والروسية ١٠٠ ولد من كل ٢٢٣ زواجًا، وفي بروسية ١٠٠ ولد من كل ٢١٠ زواج، فيكون ولادة الولد في بروسية في ظرف سنتين وخمسة أسابيع، وفي فرنسا نحو سنتين و٤٢ أسبوعًا، فأما الموت فمن كل ١٠٠٠ نفس في بريتانيا يموت في السنة ٢٢، وفي فرنسا ٢٨، وفي بروسية ٢٩، وفي أوستريا ٣٢، وفي الروسية ٣٣.

(١٠) وصف باريس

كانت مدينة باريس في سنة ٣٨٠ تسمى باريسي، وكانت عرضة لنهب النورمان، وفي سنة ١٤٢٠ استولى عليها الإنكليز، وبقيت تحت يدهم خمس عشرة سنة، وفي سنة ١٤٣٨ رزئت بالطاعون والمجاعة، فمات بهما أكثر من خمسين ألفًا، فكانت الذئاب تدخل أسواقها وتغتال من تغتال، وفي سنة ١٨٤٠ حصنت بسور طويل يحيط بشاطئ النهر، وبقلاع متفرقة، وذلك مسافة خمسة عشر فرسخًا وربع فرسخ، بُدِئَ به في كانون الأول سنة ١٨٤٠ ونُجِزَ في شهر آذار سنة ١٨٤٦، وبلغت نفقته ١٤٠٠٠٠٠٠٠ فرنك، أو خمسة ملايين ليرة، قلت: وقد جرى ذلك كما قصده نابليون الأول، وهو في جزيرة صنت هيلانة، قال: ولما دنت منها الأعداء في سنة ١٨١٤ تبادر الناس إلى إنشائه على عجل، لكنه كان غير محكم، ثم أكمل وجعل حوله أربعة عشر برجًا.

وقال آخر: كانت باريس تدعى في القديم «لوكس» سميت بذلك في أحد الأقوال باسم «لوكوس» مؤسسها، والذي عليه الاتفاق، أنها من أقدم مدن الغال، ولما غزا قيصر بلادهم كان يقال لها: باريسي، ولم تكن حينئذ إلا عبارة عن خِصَاص مهينة كالجزيرة في نهر السين، مع أنه لما أراد فتحها قاومه أهلها مقاومة شديدة لم تكن تخطر بباله حالة كونهم خالين عن أسباب التمدن، ثم أخذت في التمصر والاتساع في عهد ملوك كثيرة

ولا سيما في زمان يوليانوس وكلوفي، وأعظمهم فيليب أغوسط في سنة ١١٨٤، ثم قام لويس الملقب بالصغير وأنشأ فيها مدرسة، فأقبل الناس إليها لطلب العلم حتى صار عدد الطلبة أكثر من أهل الصقع الذي بنيت فيه، وهو الذي أحاط بها سورًا وصروحًا.

ثم قام فرنسيس الأول وأنشأ فيها اللوفر، فقام هنري الرابع وغير فيه تغييرات جمة، وفي زمان لويس الرابع عشر صارت كأنها مدينة جديدة، وما قصده نابليون الأول في تحسينها وتنظيمها استحسنته عائلة البوربون، وزاد عليهم أجمعين لويس فيليب، فإنه ظن أن حفظه ذكر أيام نابوليون يكون أدعى لاستمالة خواطر الناس إليه، فمن ثم أتم ما ابتدأ به نابوليون، فأنشأ السور وأتم الأزج أو القنطرة المسماة «أرك دوترايونف» ونصب تمثال نابوليون مرة أخرى على عمود فندوم، وفي عهده دفنت جثة نابوليون، قلت: وفي زمن نابوليون الثالث كسيت من الرونق والبهجة ما لا مزيد عليه.

وقال غالنياني في كتابه الذي سماه المرشد إلى باريس — طبع في سنة ١٨٤٤: «أول من ملك فيها من ملوك النصارى كلوفيس وذلك في سنة ٥٢٤، وأول من بشر فيها بالإنجيل كان ماردانيس وذلك سنة ٢٥٠، وأول كنيسة أسست فيها فيما عُلِمَ كانت كنيسة ماراسطفانوس في الموضع الذي ترى فيه الآن كنيسة «نوطردام»، وفي سنة ٨٥٧ أحرقها النورمان ثم بنيت، وقسمت المدينة إلى أربعة أقسام؛ ومن ثم يقال لكل جهة منها «كارتيه»، وفي زمن لويس السمين كان الإيراد من الباب الشمالي اثني عشر فرنكًا لا غير، وهي تبلغ بحسابنا الآن ستمائة فرنك، وفي القرن الرابع عشر أنشئ فيها مدارس للعلم، وفي عهد فيليب أغوسط كثرت فيها الأبنية والمغاني والكنائس، وبلط بعض الطرق، وألزم الأهلون تحصينها، وفي سنة ١٢٥٠ أنشأ فيها روبرت صوربن مدارس لم تزل تعرف باسمه.

وفي زمن شارلس المعتوه دخلها الإنكليز، ثم طردوا منها بعد أن أقاموا فيها ست عشرة سنة، وذلك سنة ١٤٣٦، وفي عهد شارلس السابع خربت من القحط والوباء والذئاب، حتى إنها صارت في سنة ١٤٦٦ مأوى لأصحاب الجرائر والنقائص من جميع الأقطار، وفي عهد لويس الحادي عشر بلغ عدد أهلها ثلاثمائة ألف، واكتسبت رونقًا وعمرانًا فهدم اللوفر القديم وأنشأه منشأً حسنًا، وأنشأ مدرسة يعلم فيها كل نوع من العلوم مجانًا.

وفي سنة ١٥٣٣ شرع في بناء «هوتل دوفيل» وحُسنت طرق وأنشئت أخرى، وفي سنة ١٥٦٣ أنشئ التولري، ثم لما قامت الحروب الدينية على ساق تعطلت أسباب التمدن إلى

أن قام بأعباء الملك والسياسة هنري الرابع، فأصلح ذات البين ومد على الناس ظل السلم والرفاهية، وزاد في تبهيج المدينة غاية ما أمكن، وأنشأ جملة محال، وكبر التولري، وفي زمن لويس الثالث عشر أنشئت طرق عديدة، وأنشئ قصر اللوكزمبور، وبستان النباتات وغير ذلك، ثم لما قام لويس الرابع عشر أتم ما كان قصده خلفه هنري الرابع، فأنشأ أكثر من ثمانين طريقًا، وحسن القديمة، وأنشأ ساحة فندوم، و٣٣ كنيسة ومارستان السقط ومارستان النغول والمرصد، وكبر قصر التولري، ونظمت المماشي، وبلط كثير من الرصف، وغرست غَيْضَة شانزلزي.

وكذلك لويس الخامس عشر لم يألُ جهدًا في أن أفادها نضرة الملك حتى وسعت رقعتها في زمانه ٣٩١٩ فدانًا، وأنشأ عدة مدارس وعيونًا جارية، وفي أيام لويس السادس عشر أنشئت فيها جملة ملاهٍ وكنائس ومنازل سامية وأسواق بهيجة، فصارت رقعتها ٩٨٥٨ فدانًا، وجعل للسور ستون بابًا يؤخذ منها ضريبة على ما يدخل إليها من الخارج، ووسعت الطرق وأتم «بالي روايال» — أي السرايا الملكية — بما فيه من الحوانيت الظريفة، وفي زمان الفتنة خرب كثير من الكنائس، ثم رممت وأنفق عليها أربعة ملايين، ولما استرد المُلك إلى لويس الثامن عشر بنى مجلس المشورة العام، وأنشأ أسواقًا كثيرة ومستشفيات عديدة، ونصب عمود فندوم، وأنشأ خمس عشرة عينًا وزين القصر، وفي أيام شارلس العاشر زيدت فيها محاسن كثيرة جلها في الكنائس، وأنشئت ثلاثة جسور.

فلما قام لويس فيليب فتحت طرق جديدة وربع بناء هوتل دوفيل، ونصبت مسلة مصر، وأتم إنشاء كنيسة لامدلين أي المجدلانية وبلاس دولاكنكورد وعمود النصر. انتهى ملخصًا.

قال: وهي على بعد مائة وخمسة فراسخ من لندرة أو مائتين وأربعة وخمسين ميلًا، ودورتها ٢٣٧٥٥ مترًا أو ٢٥٩٧٩ ياردًا، وأطول أيامها ست عشرة ساعة وست دقائق، وأقصرها ثماني ساعات وعشر دقائق، وفيها أكثر من ٤٥٠٠٠ دار، و١٣٠٠٠ دكان، و١٢٦٠ طريقًا، و٣٨ ممشى، و٢١ بلفارًا، و٩٩ عرصة أو فسحة، و١٨٣ سقيفة أو معبرًا مما يقال له: «باساج» و٣٧ رصيفًا.

ومسطح طرقها يبلغ ٣٢٠٠٠٠٠ ذراع مربع، وطولها ٤٨٠٠٠٠ ذراع أو ١٢٠ فرسخًا، ومصاريف تنظيف الطرق تبلغ ٥٣٥٠٠٠ فرنك، ومن قبل سنة ١٧٢٨ كانت الطرق عطلًا عن الأسماء، ثم بعد أن رقمت غيرت مرارًا عديدة، وفي سنة ١٨٤٢ بلغت

مصاريف تبليطها وتوسيعها ٧٥٠٠٠٠ فرنك. قلت: جميع الطرق كانت من قبل مبلطة، فلما صار الأهلون وقت الشغب والفتنة يتخذون حجارتها متاريس، أمر الآن بأن تصير رضراضًا، ومن سنة ١٨٥٣ إلى سنة ٥٧ بلغت مصاريف المدينة ٩٣ مليونًا، صرف منها في البناء وتجديد الديار ٤٧ مليونًا، وفي الماء وتصليح الطرق ٣٣ مليونًا، وعلى بوا دوبولون ٥ ملايين، وجل هذه المصاريف مما يرد من المدينة، ولم يصرف الميري من عنده أكثر من ستة ملايين. ا.هـ.

وقبل أيام لويس السادس عشر لم تكن تنور إلا مدة تسعة أشهر في السنة، وذلك عند غياب القمر، فأمر بأن تنور في كل ليلة، وعدة ما فيها من القناديل ١٣٢٢١، كلها تنور بالغاز، وفي سنة ١٨٤١ ولد فيها ٢٩٩٢٣، ومات ٢٦٠٢٨، وتزوج ٨٩٦٢، وكان عدد النغول ٩٨٣٠، وفيها نحو ٨٠٠٠٠ خادم.

وقال آخر: كان أهلها في سنة ٥٦ ١١٤١٣١٦، وفيها من الحرس الإمبراطوري ٩١٧ من جملتهم ٢٨ ضابطًا، ومصاريف ديوان الشرطة تبلغ في السنة ٥٣٣٥٢٩٥، وقال الأول: ولا يزال في مستشفياتها ١٥٠٠٠ نفس، وقدر من يدخل فيها ويخرج منها ستون ألفًا، وفيها تسعة آلاف من ذوي الأحكام النظامية، وهم أهل علم ودراية، ولهم موضع مخصوص لإغاثة الفقراء مجانًا وذلك في يوم السبت، ومائة وأربعة عشر كاتبًا للصكوك والعقود، وتسعة سجون، أحدها للمقضي عليهم تبلغ مصاريفه ١١٤٥٠٠٠، ويعاملون فيه بغاية ما يمكن من الرفق والشفقة، وعدها غيره عشرة.

(١١) مدارس باريس

وفيها إحدى وعشرون مدرسة ملكية، فيها من الطلبة ١٠٩٧٥، وإيرادها منهم ٣٨٣٥٤٤ فرنكًا، وثلاثمائة وسبعة عشر مكتبًا مما يقال له: «كومونال» فيها من المتعلمين ٢٢٥٨٨، وإيرادها ٢٢٧٦٩٣ ومائة وأحد عشر معلمًا يقال لها: أنستيتسيون، فيها ٨٣٧٨ طالب علم، وإيرادها ٢٥٠٦٢٠ وألف وسبعة مراب، ويقال لها: «بنسيونات»، فيها ٢٣٥٣٨ نفسًا، وإيرادها ٤٧٣٧٧٣ فرنكًا، وفيها أربع وخمسون جمعية للعلوم وفعل الخير وبث الديانة ما عدا مواضع أخرى.

قلت: إن كثيرًا من هذه المدارس والمكاتب يديره القسيسون فلا يأخذون من المتعلم إلا نصف المصروف عليه، فيمكن للوالد أن يضع ولده في أحدها بمصروف ثلاثين فرنكًا في الشهر، فمن أجل ذلك ترى جميع الأولاد هنا مترشحين للعلوم والصنائع، وللأخوات

اللائي هن من جنس الراهبات فضل عظيم مشهور في تربية البنات وتمريض الرجال والنساء في بيوتهن أو بيوت المرضى، حتى إن بعضهن يداوي وبعضهن قوابل، وقد يسافرن إلى البلاد الشاسعة في فعل الخيرات، ولهن لباس مخصوص يعرفن به على تنوعه، فهذه الطريقة أنفع من طريقة الراهبات في الشرق؛ إذ يحتجبن عن الناس في الدير فلا ينفعن أحدًا من الناس، وهاتان المزيتان — أي التعليم على الوجه الذي ذكرناه، والاعتناء بالمرضى — لا توجدان في لندرة.

(١٢) مستشفيات باريس

على أن التداوي في مستشفيات باريس هو على طرف الثمام، وفي لندرة يحتاج إلى ذرائع ووسائط، قال: وفيها ستة وثلاثون مارستانًا، وقد علم من خلاصة صدرت في سنة ١٨٤٢ أن هذه المارستانات تقوم بمُؤْنة اثني عشر ألفًا من المرضى والعاجزين رجالًا ونساء، وفي كل سنة يدخلها نحو ثمانين ألفًا، وأن مصاريفها في السنة المذكورة بلغت أربعة عشر مليونًا ونصف مليون، لكن إيرادها أكثر من المنصرف، وهو يتحصل من ضرائب على الملاهي ومن العقار الذي يشترى للمقابر وغير ذلك، ويصرف فيها — أي في هذه المستشفيات — من اللحم ٢٥٦٠٢٥٠ رطلًا، ومن الزبدة ٤٨٨٠٠ كيلوغرام، ومن اللبن ٥٣٠٠٠٠ ليتر، ويوجد أيضًا ما عدا ذلك مواضع عديدة لإغاثة الفقراء وتشغيل البطالين.

قلت: وقد علم من كتاب طبع في سنة ١٨٥٥ أن هذه المستشفيات تقوم بمؤنة أكثر من أربعة عشر ألف مريض يعالجون فيها، وأقدمها المارستان المسمى «هوتل ديو» يتداوى فيه من مدار السنة أحد عشر ألف مريض وتخدم فيه ستون راهبة، وعدد أطبائه اثنان وسبعون طبيبًا.

(١٣) أهل باريس وأسواقها

وقال آخر: المحسوب أن نصف أهل باريس صناع وعملة، وليس فيها أكثر من ألف نفس ممن يحسنون إثبات كونهم سكانها في باريس سلفًا عن خلف من عهد لويس الثالث عشر، وقال آخر: إن ثلثي سكان باريس لا يقدرون على مصروف الجنازة وكل واحد من ثلاثة آلاف يقتل نفسه، ومن كل ثلاثة مواليد يكون نغل، وفي سنة ٥٣ ولد في مدينة ويانه من الحلال ١١٢٦٤ ولدًا ومن الحرام ١٠٦٨٦، وفي سنة ٥٤ ولد من الأول ١١٢٦٥، ومن

الثاني ١٠٨٠١، وفي سنة ٥٥ ولد من الأول ١٠٦٥٠، ومن الثاني ٩٥٢٢، وفي سنة ٥٦ ولد من الأول ١٠٨٧٠، ومن الثاني ١٠٣١١، وإن من أهل باريس ثلاثين ألفًا من غير الذين يعيشون من الصدقات يقومون في الصباح ولا يعرفون من أين يحصلون غداءهم، ومنهم سبعة عشر ألفًا سكارى منهمكين في القبائح.

وقال آخر: وفيها تسعة أسواق كبار للمأكولات، وخمسة مجازر بلغت مصاريف بنائها وتنظيمها ١٦٥١٨٠٠٠، وثَمَّ المسالخ والمدابغ العديدة، وعدد الجزارين أكثر من خمسمائة، وفي كل يوم يذبح في أحدها — وهو المسمى مجزر مونت مارتر — ٩٠٠ من الثيران، و٤٠٠ من البقر، و٦٥٠ من العجول، و٣٥٠٠ من الضأن.

والمُؤْنة السنوية من المأكول والمشروب وما هو من قبيل ذلك تبلغ ٣٥٠ مليونًا، منها ٤٩ مليونًا ثمن خمر، و١٢ ثمن لبن، و٧٨ ثمن شمع وسكر وبن، وما أشبه ذلك، ومليونان ثمن ملح، وثمانية وثلاثون مليونًا ثمن خبز، وأربعون مليونًا ثمن لحم، وخمسة عشر مليونًا ثمن بقول، و٤٤٤٠٠٠ ثمن فحم، والمؤنة من البطاطس في السنة تبلغ ٣٢٥٠٠٠ كيلوغرام، ومبلغ ما يباع فيها من التبغ في كل سنة ٧٠٨٧٩٣ كيلوغرام، ومؤنتهم في كل يوم من الخُلَّر ونحوه ٢٠٠٠٠، وكل يوم يأتي إليه عشرون عجلة مشحونة بالفضة، وفي بعض الأيام يباع فيها من الدقيق ما قيمته ٤٥٠٠٠ فرنك، ويرد إليها من الخارج في السنة ١٢٠٠٠ قارب مشحون بالفاكهة والقمح.

وقال آخر: ومن جملة أسواق المأكولات بباريس السوق المعروفة بالهال، أول حجر وضع في أساسها وضعه الإمبراطور في سنة ٥٢ تباع فيها البقول والخضرة والفاكهة على أنواعها، فيرد إليها في كل يوم ثلاثمائة وعشرون عجلة مشحونة بها، وفي أوان الفاكهة يستخدم في نقلها ٤٢٠ عجلة ونحوها، ويباع فيها في العام من صنف واحد من البقول مما يتخذ للسلطة بمليون فرنك ونصف مليون، ومن صنف من محار البحر يسمى الدزويتر بنحو ١٦٧٠٩٢٦ فرنكًا.

قلت: والفاكهة والبقول في فرنسا تعظم للغاية كما في إنكلترة، فقد يصنعون من قشر ثمر الجوز شبه حقة للنساء، تحوي مقصًّا وإبرة ونحو ذلك، قال: ويباع فيها في سوق الزبدة بنحو ستة ملايين، ومن البيض ٥٥٣٩٨٩٠ فرنكًا، قلت: ومن هنا يعلم أن ما ذكره الشيخ رفاعة بك من أن أهل باريس يقطعون من البيض بخمسة آلاف فرنك سهو، والظاهر أنه أراد خمسة ملايين، كيف لا؟! وقد قال: إنهم يخلطونه في نحو ثلاثمائة صنف من الطعام.

(١٤) أكادميات باريس ومكتباتها

وفيها — أي في باريس — خمس مشيخات كبار أي أكادميات، من جملتها الأكادمية الفرنساوية للنظر في تهذيب اللغة وتنقيح أصولها وفروعها، وكل من ألف كتابًا بديعًا في التاريخ والأدب ينال منها جائزة، وفيها ديار كتب عديدة، أكبرها وأعظمها المكتبة العمومية، فيها مليون من الكتب المطبوعة، وثمانون ألف كتاب بخط اليد، ومائة وخمسون ألف ميداي — أي نيشان — ومليون وأربعمائة ألف صفيحة منقوشة، وثلاثمائة ألف راهنامج، وفيها رسائل محفوظة من لويس الرابع عشر وكليبر وكلبرت، وكتاب واحد من اللورد بيرون.

ومن جملة تلك الكتب كتب مطبوعة من عهد فوست وسوفر، وما من ديوان أو محترف ميري إلا وفيه ألوف من الكتب، وجملة الكتب المطبوعة الموجودة في المكاتب ما عدا المكتبة المذكورة ١٢٩٣٥٠٠، والتي بخط اليد عشرة آلاف ما عدا ديارًا أخرى على حدتها، بعضها يحوي عشرين ألفًا، وبعضها أقل، وهو كافٍ في بيان ما لهذا الجيل من الحرص على العلوم.

وفيها مطبعة ملكية من تأسيس فرنسيس الأول، فيها حروف متنوعة يطبع بها كتب بإحدى وخمسين لغة، ويطبع فيها في ليلة واحدة ثمانمائة صفحة من قطع الربع، وعدد المستخدمين فيها من ثمانمائة إلى تسعمائة، ومصاريفها ثلاثة ملايين.[٥]

(١٥) جسور باريس وقنواتها

وعلى نهر المدينة سبعة وعشرون جسرًا منها سبعة معلقة وثلاثة من الحديد والحجر، وواحد من الخشب، والباقي من الحجر من جملتها جسر دولاكنكورد بدئ به سنة ١٧٨٧، ونجز في سنة ١٧٩٠، وبلغت مصاريفه ١٢٠٠٠٠٠ فرنك، طوله ٤٦١ قدمًا، وعرضه ٦١، وآخر يعرف بجسر لويس فيليب، بلغت نفقته مليون فرنك، وآخر اسمه جسر روايال طوله ٤٣٢ قدمًا، وعرضه ٥٢، وآخر يسمى بون دزار — أي جسر الصنائع — طوله ٥١٦ قدمًا وعرضه ٣٠، ومصاريفه ٩٠٠٠٠٠، وقد أجري إليها الماء في قُنيٍّ، من جملتها قناة مسافتها أربعة وعشرون فرسخًا بلغت مصاريفها خمسة وعشرين مليونًا، وأخرى أنفق فيها أربعة عشر مليونًا ومائتا ألف فرنك.

[٥] في سنة ١٨٧٧ بلغ إيراد المطبعة المذكورة ٦٢٤٥٠٠٠ فرنك ومثل ذلك المصاريف.

(١٦) مهنيو باريس

وقال آخر: يوجد فيها ٧٢٧ من وكلاء الدعاوى، و١٤٥٦ من الأطباء والجراحين، و٤٩٧ من باعة الأدوية أو الكمياويين، و٨١١ من البنائين، و٤٤٢ من المصورين، و٨٨٠ من النقاشين على الحجر والحديد ونحوهما، و٦٨٩ من الخبازين، و٤٨٧ من الجزارين، و٦٦٢ من الصيارفة، و١١٦٠ من التجار بالكومسيون، و١٨٤٥ من باعة الشمع والصابون والسكر ونحو ذلك، و٦٨٠ من صناع الساعات، و٣٩٧٩ خمارًا، و٢٦٠ من باعة الشريط والقيطان ونحوهما، و٧٣٨ من صناع الزهر من الورق، و١٢٦ من المصورين على نور الشمس، و١١٧ من الحمامات السخنة، و٢٤٠ معملًا للورق، و٥٢٣ موضعًا للأكل، و١٠٣٥ موضعًا للقهوة، و٣٣ محترفًا لاشتهار الإعلامات، و١٢٨ موضعًا للتضمين والتعهيد، وفيها سبعة مواقف لسكة الحديد، وسبعة وعشرون مأوى للجند من جملتها مأوى يسع خمسة آلاف وثمانمائة رجل وثمانمائة فرس، وفيها اثنا عشر حوضًا، وثمانية وعشرون ملهى — أي ثياطرًا — ولم يكن فيها في أيام لويس الرابع عشر سوى ثلاثة.

(١٧) مسارح باريس وملاهيها

وفي سنة ١٧٩١ صدرت إجازة للأهلين من أهل المجلس المعروف بالأسامبلي، بأن كل من استطاع منهم أن ينشئ ملهى فهو غير معارض فبلغت ثلاثة وأربعين، وهناك أيضًا محال أخرى للغناء والسهريات والحظ مما يطول شرحه، قال: والملهى الطلياني يرد إليه إمداد في السنة من خزنة الدولة بمائة ألف فرنك، وإن كثيرًا من الإنكليز والنمساويين بل الروس أيضًا يقصدون ملاهي باريس ليروا فيها من التمثيل ما لم يروه في بلادهم إلا غير كامل، وكلهم يقر بأفضليتها على غيرها، وإمداد «الأوبرة» الفرنساوية ٧٥٠٠٠٠ فرنك ما عدا مرتبًا آخر لها قدره ١٣٠٠٠٠٠ فرنك.

قلت: في أول المرفع وفي نصف الصيام يصنعون في هذا الموضع رقصًا، فتنحشد إليه الرجال والنساء بلباس السخرية، بحيث لا يعود الرجل يعرف زوجته ولا بنته، ويبقون هكذا إلى الفجر، وهذا الموضع يشتمل على نحو خمسين ثريا أو نجفة، وعدد الآلاتية فيه ينيف على خمسين، قال: وإمداد «الأوبرة» كوميك؛ أي ملهى الضحك ٢٤٦٠٠٠، وفيها عشرة منتديات مما يعرف بالكلوب، وثمانية مراقص أصلية، من جملتها مرقص يختص بطلبة العلم، فأما المراقص التي تكون مجتمعًا للدون فغير جديرة بالذكر.

(١٨) كنائس باريس

وفيها إحدى وأربعون كنيسة كبيرة، ونحو منها المعابد، وأقدم الكنائس وأشهرها كنيسة «نوطردام» أول حجر جعل في أساسها وضعه البابا إسكندر الثالث، وذلك في سنة ١١٦٣، ولم يتم بناؤها إلا في عهد شارلس السابع، طولها ١٢٦ ذراعًا وكسور، وعرضها ٤٨، وارتفاعها ٣٣، وعلو برجها ٦٨.

(١٩) أسواق باريس وإيراداتها

وفيها خمسة أسواق للزهر على أجناسه وأنواعه، وفيها سوق للكلاب يعرض فيها للبيع في كل يوم أحد ٢٨٠ كلبًا، وأخرى للخيل والحمير، طولها ٤٨٠ ذراعًا، وعرضها ٨٨، وفيها ساحة للخمر، وسعها ٢٦٠٠٠ ذراع مربع، يرد إليها في كل يوم ١٥٠٠ برميل، وهي تَسَع منها ٤٥٠٠٠.

قال غالنياني: وبلغ إيراد الخزينة من الدخان ٧٠٠٠٠٠٠، وبلغ مكس باريس الوارد إليها مما جعل على الأسواق والحوانيت والمجازر والمخازن والعيار والدفن وغير ذلك خمسين مليونًا، وبلغ المصروف عليها خمسة وأربعين مليونًا، من جملتها مصاريف الأبنية والمستشفيات وديوان الشرطة والمكاتب والمتاحف والمماشي والزينة في الأعياد، وبلغت مصاريف الدواوين الميرية ١٣٨٩٢٠٨١٧٢ فرنكًا أعظمها مصاريف دين الأمة وديوان الحرب، وبلغ إيرادها ١٢٤٦٨٨٠٣٣٦، ودين الدولة يبلغ ١٩٥٩١٦٩٠١، وبلغت مصاريف العسكر في سنة ١٨٤٤: ٣٤٨٠٠٠٠٠٠.[٦]

(٢٠) وزارات فرنسا

والوزراء هم وزير الأمور الخارجية، ووزير الحربية، ووزير البحرية والمستعمرات، ووزير المالية، ووزير الزراعة والتجارة، ووزير الداخلية، ووزير الأبنية الميرية، ووزير العدلية، ووزير المعارف، ومن هؤلاء الوزراء، ومن مجلسي المشورة الخاص والعام، ومن صاحب الملك تتألف دولة فرنسا.

[٦] قد تقدم ذكر إيراد فرنسا، أما ديونها فإنها بلغت في سنة ١٨٨١: ١٩٨٦٢٠٣٥٩٨٣ فرنكًا وهي عبارة عن ٧٩٤٤٨١٤٣٩ ليرة إنكليزية ومصاريف وزارة الحربية بلغت ٥٣١٠٠٤٦٤٢ فرنكًا.

وقال آخر: في باريس تفرق المكاتيب سبع مرات في كل يوم، وذلك من الساعة السابعة ونصف صباحًا إلى الساعة التاسعة مساء، وأول من رتب البريد لويس الحادي عشر وفي سنة ١٧٩٢ اطرد ترتيبه كما نراه الآن.

(٢١) الشبه والاختلاف بين باريس ولندرة

وقد حان لي هنا أن أقول: إن باريس تشبه لندرة في كونها شطرين يفصل بينهما نهر، إلا أن نهر باريس صغير لا يسع المراكب الكبيرة، وتخالفها في أحوال كثيرة:

أحدها: إن ديار باريس من الحجر، فلا يزال ظاهرها أبيض أنيقًا، بخلاف ديار لندرة، فإنها مبنية من الآجُرِّ، فلا يأتي عليه سنتان أو ثلاث إلا ويسود من كثرة الدخان والضباب، بل المنازل المبنية فيها من حجر تسود أيضًا.

الثاني: إن ديار باريس متناسقة الارتفاع في الغالب، متناسقة الظاهر، فإنها كلها بيضاء متناسقة وضع الشبابيك، أما ارتفاعها فإن بعضها يشتمل على سبع طبقات، فربما ارتقى فيها الإنسان مائة وثلاثين درجة، حتى يصل إلى غرفته، فهي من هذا القبيل متعبة، ولكل طبقة فانوس يشعل بالغاز، ولكل دار رِتاج كبير لا يزال مفتوحًا إلى نصف الليل، وبواب يتبوأ كِنًّا بالقرب منه، فإذا خرج أحد السكان أعطاه مفتاح غرفته، ومتى رجع أخذه منه، وإذا غاب بعد نصف الليل أطن الجرس فيقوم البواب من فراشه ويفتح له، ولا بد وأن يعطيه شيئًا في مقابلة ذلك.

هذا؛ إذا كان ساكنًا في دار مفروشة، فأما إذا اكترى شقة من دار تشتمل على مبيت ومقعد ومطبخ، فله أن يأخذ مفتاحه معه، وعند ذلك يحتاج إلى أن يستخدم امرأة لتصلح له مسكنه أو يستأجرها ساعة أو ساعتين في النهار، وربما كانت هذه المرأة أجيرة عدة أشخاص، فتذهب إلى كل منهم في ساعة معلومة، ولا يمكن لغريب — بل لأهلي — أن يستأجر دارًا من بابها بجميع مرافقها، وذلك لكبرها وغلائها، فكل دار في باريس عبارة عن قصر، فأما ديار لندرة فلا تزيد غالبًا على أربع طبقات، ثلاث ظاهرة، وواحدة تحت الأرض لادخار الفحم وغسل الثياب وما أشبه ذلك، وبعضها كبير وبعضها صغير، ومن ثم يمكن للإنسان أن يستقل بدار منها.

الثالث: إن درج باريس متين جدًّا، ومبلط الغرف التي بنيت من عهد حديث من خشب متين جلي بهي، ومبلط الديار القديمة من الآجُرِّ الأحمر، وفرش المبلط بالبسط أو

الزرابي غير مطرد، وإنما يجتزئون عن ذلك بنحو سجادة يجعلونها عند الموقد، أما في لندرة فإن جميع المساكن مفروشة بالبسط، ولذلك سببان؛ أحدهما: أن البسط فيها رخيصة، وفي باريس غالية، والثاني: أن خشب المبلط في لندرة قبيح وسخ؛ فكان لا بد من ستره.

الرابع: إن جميع طيقان باريس تنفتح على مصراعين كالباب، فيسهل غسلها وتنظيفها بأهون سعي، وطيقان لندرة لا يفتح إلا نصفها الأدنى صعدًا، ويبقي الأعلى مطبقًا، فلا يمكن تنظيفه، فيكون لا بد من استخدام من ينظفه من الخارج، وهو معنت شاق.

الخامس: إن مواقد ديار باريس هي في موازاة المبلط، ولا يمكن طبخ شيء عليها، وجل وقودهم إنما هو الحطب لا الفحم المعدني، فإنهم يكرهونه غاية الكراهية لرائحته وتوسيخه الثياب، ولا يطبخون عليه أصلًا، وحين كنا نوقده للاستدفاء على عادة الإنكليز كانت خادمتنا تتأفف منه، وغير مرة غشي عليها منه، وفي بعض الغرف والدكاكين يوقدون ما أطفئ من الفحم — أو الفحم مع الحطب — في كوانين عالية من الحجر القيشاني الظريف، أو من الحديد، وقد تكون متصلة بقصبة من حديد نافذة في الحائط ليخرج منها الدخان وقد لا تكون.

وفي الجملة فإن مواقد لندرة أحسن؛ فإنها مجعولة لأن يوقد فيها فحم الحجر، ولأن يطبخ عليها؛ وذلك لارتفاعها عن المبلط، هذا في الديار الصغيرة، فأما في ديار الكبراء فتكون أيضًا في حيز المبلط كما هي في باريس، والحكمة في ذلك عندهم وعند أولئك إيصال الحرارة إلى الأرجل، فإنها أحق الأعضاء بالدفء، والحاصل أن الشتاء داخل الديار في لندرة أهنأ وأهون؛ وذلك لاعتنائهم بفرش المساكن والدرج، وبكون المواقد قابلة لوقيد الفحم كما مر، وأنت خبير بأن بناء الحجر يحدث رطوبة أكثر من الآجُرِّ.

السادس: إن لكل طبقة من ديار باريس مرحاضًا، ووراءه مصب للماء، وفي ديار لندرة لا يكون إلا مرحاض أو اثنان، فهي من هذا القبيل أنظف وأدنى إلى الصحة.

السابع: إن مداخن باريس الخارجة من السطوح تكون غالبًا من الحديد، وفي لندرة من الخزف، فتلك أبهج منظرًا، والحاصل أنه لما كان النظر في أمور المدينة والديار بباريس موكولًا إلى أرباب السياسة، كانت الديار وحدها تؤذن بأبهة المكان وجلاله

فضلًا عن الدكاكين والدواوين الملكية، فكم فيها من رواشن حديد مذهبة ومن جدران مزخرفة وأبواب موزجة مما يستوقف المجتاز، وكذلك الدكاكين، فإنك تراها وضيئة بهيجة والحاجات فيها زهية ناضرة فيود الإنسان لو يشتري كل ما فيها، فكأن في رقيع المدينة نورًا يلقي شعاعه على المرئيات فيكسبها بهجة وطلاوة، وكأن القاعد على كرسي في بيته إنما هو قاعد على شوك القتاد أبدًا يتحلحل ويتحرك للخروج ليرى الديار والحوانيت مما يشوق ويروق.

أما أثاث الديار وفرشها فالغالب أنه في باريس أنفس وأغلى، وأكثر ما يحمل على العجب منها سررهم التي يرقدون عليها، فإنهم ينضدون عليها عدة من الفرش، حتى إنهم يصعدون إليها على درج وذلك مطرد للغني والفقير، وخشبها في الغالب من النوع الذي سماه الشيخ رفاعة بك الكابلي، ويجعلون فوقها إطارًا من خشب مذهب على هيئة التاج، ومنه يسدلون الناموسية، ولا بد وأن يكون في البيت مرآة كبيرة، وساعة دقاقة يضعونها فوق رف الموقد.

وتفضل باريس لندرة أيضًا في كثرة العيون الجارية في الطرق، وفي كثرة الحمامات، وإذا شاء الإنسان أن يستحم في بيته أوعز إلى قيم الحمام في أن يبعث له بمغطس وماء حميم، وهذا يكاد أن يكون معدومًا في لندرة، ومن ذلك الكتابة التي تكون فوق الحوانيت والرواشن، فإن جلها مكتوب بماء الذهب، وفي لندرة جلها بالحبر، وإذا كان بماء الذهب فلا يلبث أن يسود، ومن ذلك أبواب الدكاكين والقضبان الفاصلة بين ألواح الزجاج، فإنه هنا أكثر رونقًا، فأما من حيث السعة فدكاكين لندرة أعظم، ومن ذلك الرصف التي على جانبي نهر السين، فإنها مبلطة نظيفة بحيث يمكن للإنسان أن يقعد عندها ويسرح ناظره في النهر، وهو يشتمل على عدة حمامات ومغاسل كالبيوت تغسل فيها النساء ثياب السكان.

ومن ذلك وجود دكاكين أخرى في الطرق للغسالات، فإنك في كل طريق تجد منها واحدًا أو اثنين، وذلك نادر في لندرة جدًّا، وإنما يغسل النزيل ثيابه عند غسالة الدار التي يسكنها سواء كانت نظيفة أو وسخة، وهي غالبًا في الريف، ومن الغريب أن غسالات باريس يغسلن الثياب بالمطارق، وكلٌّ عنهن راضٍ، ومن ذلك أنه يوجد في باريس مواضع يتخلى فيها الإنسان لقضاء الحاجة، ولا يخفى أن وجود ذلك في المدن الغناء ضروري؛ فإن من يخرج من داره ويضطر إلى قضاء الحاجة لم يمكنه الرجوع إليها، وذلك في لندرة معدوم، بل مواضع البول فيها على قلتها قذرة رديئة، ما عدا ما صنع منها حديثًا

في طريق استراند وهوبرن، فهي تعز عن النظير، وأجدر بهذه الحاجة أن تكون في باريس من المصالح وفي لندرة بالتحريف، وما أحسن ما قيل في الفرنساوية من أنهم «يجعلون كل مقصد حرفة وكل حرفة مقصدًا».

وتفضل باريس لندرة من حيث النظر لا من حيث الفائدة بكثرة العساكر، فإن فيها وفي ضواحيها نحو مائة وخمسين ألفًا فلا تزال تسمع منهم الموسيقى، وتنظر منهم الملابس الحسنة، وهي أحسن من ملابس عسكر الإنكليز، وقد جرت العادة بأن يكون مع العساكر نساء للخدمة يتبعنهم وهن مترديات بلباسهم، أما المعيشة فحيث كانت المطاعم عندهم كثيرة، وكل ما يشتهونه من المأكول والمشروب يجدونه فيها، لم يكن أحد يتكلف الطبخ في بيته، أما أصحاب العيال الذين يكون لهم مطبخ ومحل للمؤنة في منازلهم، فلا ينتابون تلك المطاعم إلا في الأعياد، وهي نظيفة للغاية، وأول ما يجلس المستطعم يأتيه الخادم بدفتر فيه أسماء الطعام وبفوطة، فيختار ما يشاء.

أما في لندرة فحين يجلس أحد في مطعم يأتيه الخادم ويصرخ في أذنيه: «شواء لحم بقر»، «شواء ضأن»، «كرنب»، «جزر»، «بطاطة»، وهنا تنتهي الفهرسة، ولا يقدم له فوطة، وأي مطعم دخلت في باريس رأيت فيه الرجال والنساء والأولاد، وربما تعمدت امرأة أن تجلس قبالتك لتخاطبها أو تعرض عليها شيئًا من المشروب فيكون فاتحة الألطاف وخاتمة المطاف، ولا بد من أن يوضع أمام الآكل نبخات من الكبريت لإشعال السيكار، وخلال لتنظيف أسنانه.

والخاصة من أهل باريس يأكلون مرتين فقط: الفطور أو الغداء، وهو في الساعة الحادية عشرة، والغداء أو العشاء في الخامسة، ويفطرون على شواء الضأن والمحار، والعامة يأكلون ثلاث مرات، أما طعامهم فإنه وإن كانوا يتفننون فيه كثيرًا فلا يستطيبه إلا مَنْ أَلِفَه؛ وذلك لأنهم يسلقون اللحم أشد السلق ليتخذوا منه نوعًا من الرعديد، ثم يطبخونه بالشحم بدل السمن فيأتي مسيخًا، وقد قلت في ذلك:

رُبَّ قوم يستمرئون طعامًا فيه شحم الخنزير والدَّمُ يهمي
وأنا إن أكلْتُ منه لُماظًا بات شحم الخنزير يأكل شحمي

وفي الجملة فإنه ألذ من طعام الإنكليز كما ستعرف ذلك في بابه، غير أن الشواء عند الإنكليز ألذ منه عند الفرنسيس، وهناك طريقة أخرى للمعيشة وهي أن بعض الديار يصنعون مائدة عمومية يسمونها «تابل دوت» أي مائدة الضيوف، فمن شاء أن

يأكل فيها لزمه أن يذهب في ساعة معينة، ولعلها أرخص من المطاعم العمومية وأطيب، وثمن الغداء في هذه نحو فرنك ونصف، وثمن العشاء نحو فرنكين، وهو يبتدئ غالبًا بالشوربة، ويختم بالسلاطة، ثم بشيء من الحلو أو الفاكهة، وفي البلفار مطاعم لا ينتابها إلا الأغنياء والمسرفون؛ فإن ثمن العشاء فيها أربعون فرنكًا أو خمسون.

أما القهوة فإذا دخلت محلها جاءك الخادم بكوب سميك كالذي يشرب فيه الشوربة وبسكر جزيل، وصب القهوة بمرأى منك، ثم أتبعها بالحليب المسخن، وقد رأيت كثيرًا من ذوي السمت والرواء يضعون نصف السكر في الفنجان ويختبئون النصف الآخر، والمطاعم ومحال القهوة في هذه المدينة لا تحصى كثرة، وهناك محال للقهوة تغني فيها الرجال والنساء، يدخلها الناس مجانًا، ولكن بشرط أن يشربوا شيئًا يقوم عليهم قيمة شيئين.

ومما يعجب منه في باريس الدكاكين التي يباع فيها المربيات والشراب: وذلك لنظافتها وأنوارها، وربما كانت سقوفها من مرايا، وعندهم من أصناف المربيات والمعجنات والحلويات ما يزيد على ما عند الإنكليز عشرة أضعاف، إلا أنهم مثل الإنكليز في أن حلوياتهم جميعًا معمولة بالسكر لا بالعسل.

واعلم أن أرباب الرئاسة هنا يتعهدون صحة الرعية فيما يباع من المأكول والمشروب، فلا يسمحون للباعة بأن يبيعوا شيئًا فاسدًا أو مضرًّا بالأبدان أو مغشوشًا، وكأن الخمر مستثناة من ذلك، فلهذا كان كل ما يؤكل ويشرب هنا ألذ وأذكى مما يوجد بلندرة، بل البقول والفاكهة هنا أطيب وألذ، فمن ذلك الخبز وهو ألزم ما يكون للمعيشة، فإنه في غاية الطيبة، وهو من محض الحنطة غير مخلوط بشيء من الشب أو البطاطس كخبز الإنكليز، وقد يصنعون منه شكلًا في طول قامة الرجل، واللحم، على أن الإنكليز يدعون بأن لحمهم أطيب، ويعجبني هنا نظافة دكاكين اللحامين، فلا يمكن أن تشم منها رائحة كريهة، بخلاف دكاكين لندرة، وهم يقفلون دكاكينهم قبل أن يوقدوا الغاز، فإنهم يقولون: إنه يغير طعم اللحم.

ومن ذلك الزبدة والجبن ومحار البحر على أنواعه، والزيت والخل والخردل واللبن، وقد يصنعون منه الرائب والقريشة كالموجود في بلادنا سواء، وكذا الصابون والشمع، بل الكبريت وحطب الوقود هنا أحسن مما يوجد بلندرة، وعندهم كثير من البقول والفواكه مما لا وجود له في تلك، فأما جعتهم فغير طيبة، ولكن قلما يشربونها لاستغنائهم عنها بالخمر.

أما الهواء فبرد باريس ولندرة صنوان، غير أنه لما كانت الديار كلها مبنية هنا من الحجر وكانت مواقدها غير صالحة لوقود الفحم المعدني كما مر، كان البرد أشق وأبلغ وزد على ذلك توالي الأمطار شتاء وصيفًا، وقد شاهدت جمًّا غفيرًا حضروا من باريس إلى لندرة، وسألتهم عن الهواء، فكلهم أجاب: بأن المطر لم ينقطع مدة إقامته، وكان فيها بلندرة صحو إلا أن الناس لا يشعرون في باريس بِعَنَت المطر أو الثلج؛ لكثرة ما فيها من السقائف والمنتزهات ومحال القهوة مما يذهب بالكرب، أما في لندرة فلن يجد الإنسان من ذلك مهربًا إلا في بيته، وهذا حَسْب.

(٢٢) مواضع في باريس لا نظير لها

وفي باريس عدة مواضع لا نظير لها في الدنيا بأسرها، فإن ابتدرتني لتقطع عليَّ كلامي بأن تقول: «وهل رأيت الدنيا كلها حتى تحكم بذلك؟» قلت: إني لم أرَ الدنيا، بل رأيت محاريث عقول أهل الدنيا، أعني أقلام المؤلفين ممن طوفوا وساحوا في مناكبها، فكلهم حكم لهذه المواضع بالأحسنية والأفضلية.

أحدها: البلفار، وهو طريق واسع طويل ممتد يحيط بباريس كالمِنْطَقة للخَصْر؛ كلا جانبيه محفوف بالشجر المتوازي الوضع، وبالدكاكين الظريفة والديار الشاهقة، ومواضع القهوة الأنيقة الحافلة، فلا تزال ترى أمامها ألوفًا من الكراسي يجلس عليها الرجال والنساء، وهناك يقرءون صحف الأخبار ويتفاوضون في إدارة المصالح والأشغال، فهي عندهم بمقام المصر، وقد تكون حيطان المحل كلها مرآء، وسقفه كسقف الكنائس مزخرفة منقوشة، وفيها متكآت ومقاعد ومواقد نفيسة، ولا تزال غاصة بالناس إلى نصف الليل، وقد يكون لها رواشن أو مشربيات فيها مقاعد يرى الإنسان منها جميع ما يمر في الطريق.

وأكثر الملاهي هناك من جملتها مواضع للغناء واللعب، وفي ختام اللعب تضعف أنواره ويبرز في محرابه نساء لابسات بَزًّا رفيعًا على هيئة الجسم ولونه، فيحسبهن الناظر عرايا، ويبقين كذلك في أوضاع مختلفة من دون حركة، فإن برزت إحداهن رافعة يديها بقيت كذلك إلى أن تدور بهن المائدة التي برزن عليها دورتين، ثم يسبل الحجاب وترجع الأنوار، ثم تضعف ويبرزن بهيئة أخرى، وذلك كله يدوم نحو ربع ساعة، ويقال لهذا المنظر: «تابلو فيفان» أي الصور الحية، وأحسن محل في هذا البلفار المحل الذي يقال له: بلفار الطليان، فثم ترى النساء يخطرن بالديباج

والإستبرق والشيلان الكشميرية والمحمل والخز الرفيع، وهن متلعات شافنات، والرجال يرنون إليهن بأفخر اللباس وأحسن السمت، وثم أظرف المحال للقهوة، وفي طرف البلفار عمود شاهق من المرمر في قنته تمثال ملك من نحاس واقف على كرة وهو يلمع في مقابلة الشمس له كأنه ذهب، ويقال للملك ملك الحرية، وعلى العمود أسماء الذين قتلوا من كبار الأمة في سجن باستيل، مكتوبة بالذهب، وتحته حوض يُستقى منه، وكان إنشاء البلفار في سنة ١٥٣٦.

الثاني: الموضع الذي يقال له: «بالي روايال» أي القصر الملوكي، وإنما سمي كذلك لمجاورته قصرًا كان مقر الملوك، وهو عبارة عن صَفَّيْ دكاكين متقابلين، فوقها منازل ومطاعم وحمامات ومحال للقهوة، وبينهما أشجار وحوض ومقاعد وممماشٍ للناس، ففي الدكاكين ترى أحسن الملبوس وأنفس الحلي والتحف من المعادن والجواهر، وهي وإن كانت دون دكاكين البلفار في الكبر إلا أن حسن تنضيد ما فيها وبراعة ترصيفه وبهجة ذلك المكان يكسبها سعة في النظر.

ومن رأى كثرة الجواهر والألماس في هذا الموضع وفي غيره أيضًا حكم بأن أهل باريس أغنى من أهل لندرة، إلا أن الجوهريين من الإنكليز لا يبرزون ما عندهم من الجواهر في وجه الدكاكين، وإنما يخبئونها في خزانة، فلهذا لا يكاد الناظر يرى عندهم من خارج الدكان غير الذهب والفضة، وفي تلك المطاعم جميع ما تشتهيه النفس، فإذا قعدت للغداء رأيت الرجال والنساء والأولاد يمرحون في تلك الروضة، وصفة الحمامات صفة المطاعم، وفي الروضة أيضًا موضع قهوة عنده كراسي عديدة، بعضها عند الحوض وبعضها تحت الشجر، وثم تضرب العسكر بآلات الطرب ثلاث مرات في الأسبوع، وطول هذه الحديقة سبعمائة قدم وعرضها ثلاثمائة، وكان إنشاء هذا المحل البديع في سنة ١٧٢٩.

الثالث: الموضع المسمى «شانزلزي» أي روضة الأصفياء، وهو غيضة طويلة ذات شطرين طولها إلى حد الأزج أكثر من ثمانمائة ذراع، وعرضها في الأقل مائة وستون، ولها مقاعد من خشب، وكراسي على طول جهتي الطريق، وبين الشطرين طريق واسع لمرور الخيل والحوافل والعواجل، ففي أيام الأعياد ترى هذا الممر ملآن من تلك المراكب، فإن أهل الثروة يذهبون إلى هناك متفاخرين بما فوقهم من اللباس، وبما تحتهم من المركوب، وترى النساء في العواجل المفتوحة متكئات كأنما هن على نمارق

وفرش، والعجب والتيه يلمعان من جنبهن، وكثيرًا ما تراهن راكبات على هذه الصفة ودخان التبغ خارج من أفواههن.

ومن العجب أن أهل باريس يخرجون إلى هذا الموضع وإلى «بوا دبولون» في أيام الأربعاء والخميس والجمعة من جمعة الآلام قصد المباهاة والمفاخرة فيما يلبسون ويركبون، فهي عندهم موسم التأنق والتظرف، ومع ذلك فإن الجزارين يتحرجون من بيع اللحم يوم الجمعة، إما احترامًا له أو حياء من الناس، وفي هذه الغيضة «جاردن مابيل» وهو بستان بهيج تنتابه الرجال والنساء للرقص، فيه خمسة آلاف نور، وبستان الشتاء، ولا يمكن أن يكون في العالم بستان أجمل منه على صغره، فإنه راموز الجنة، وفيه عين فوارة يصعد الماء منها علو قامات، وفيها قصر للزهور، وموضع واسع ترمح فيه الخيل، وخيام لا تحصى يباع فيها الشراب والنقل والحلواء، وفيها زمر شتى كزمر باب الرميلة بمصر، فمن بين مشعوذ ومغن وعازف ومحدث ومحنبش وغير ذلك.

وفيها ثلاث قبب مزخرفة ذات بهجة وأنوار، يجلس في كل منها ست نساء أو خمس من القيان الحسان ويغنين على آلات الطرب، وهن كاشفات عن الصدور والأكتاف، ولكن لا يكون ذلك إلا في فصل الصيف، فمن شاء أن يقعد على كرسي ويسمع الغناء لزمه أن يشرب شيئًا من محل القهوة ودفع ثمنه ضعفين، وإذا انتقل من كرسي إلى غيره وجب عليه تجديد الشرب، ومن وقف يستمع فلا تكليف عليه، وهناك من الحياض والتماثيل والملاعب والملاهي والصروح والأعلام ما ينسي الغريب وطنه، وكان غرس هذه الغيضة في سنة ١٦٧٠، ويقال: إن في باريس ثلاثة عشر ألف شجرة من غرس سنة إلى عشر سنين، وعشرة آلاف شجرة من عشر سنين إلى ثلاثين سنة، وأكثر من أربع وثلاثين ألفًا من ثلاثين سنة فصاعدًا، وغالبها من شجر المَيْس.

الرابع: الساحة المسماة «بلاس دلاكنكورد»، وهي بين الغيضة المذكورة وبين حديقة التولري، يجوز الناس من هذه إلى تلك ومن تلك إلى هذه، وفي هذه الساحة حوضان كبيران وسع كل منهما خمسون قدمًا، وفيها تماثيل من نحاس تقذف بالماء صعدًا فيقع على شبه جرن عليه تماثيل أربعة أولاد وبطة يخرج الماء من أفواهها، فيلتقي كلا المائين وينحدران إلى الحوض، وبينهما عمود جلب من مصر عليه حروف بلسان قدماء مصر، قال غالنياني: هذه المسلة انتزعت من موضع بمصر أمام هيكل طيبس بمصر الذي بني سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد، واسمها «لكسور» محرفة عن القصر، وكانت

إحدى اثنتين جاد بهما محمد علي باشا على دولة فرنسا تذكارًا لألفتهما ومودتهما، والثانية لم تزل في موضعها، ولا بد من أنها تجلب.

وقد أنشئ لنقل الأولى سفينة مخصوصة في طولون، وذلك في سنة ١٨٣٠، وفي سنة ١٨٣٦ نصبت بحضرة الملك لويس فيليب وآله وأهل المناصب، وبحضرة مائة وخمسين ألفًا من الأهلين، وفي مدة نقلها ونصبها لم يحدث أدنى خلل ولا أذى، طولها اثنتان وسبعون قدمًا ووسعها من أسفلها سبعة أقدام، ومن أعلاها خمسة أقدام وكسر، وزنتها ٥٠٠٠٠٠ ليرة وآخر ما صرف على تحسين هذه الساحة بلغ تسعمائة ألف فرنك، وقال آخر: أنشئت هذه الساحة في سنة ١٧٥٤، ونصب فيها تمثال لويس الرابع عشر على جواد، وعلى قاعدته تماثيل القدرة والحزم والعدل والسلم، ولم تكد هذه الساحة تتم حتى حصل فيها نائبة عظيمة في يوم عرس لويس السادس عشر ملك فرنسا، وهي هلاك مائة واثنين وثلاثين نفسًا في الزحام، وفيها — أي هذه الساحة — قتل الملك المذكور وزوجته ماري أنطوانيت ومدام رولاند وغيرهم، وشارلت كوردي وغيرهم.

قلت: كان لويس السادس عشر حفيد لويس الرابع عشر، وتزوج بنت ملكة أوستريا المسماة ماريا تريزيا، واتهمه الفرنساوية، بأنه كان ذا ضَلْع عليهم مع النمسا، فتحزب جمهورهم عليه وحكموا عليه بالقتل، فلما جيء به إلى مقتله قدم غير جزع ولا وَجِل، وكلم الناس بصوت جهير قائلًا: «ألا يا أيها الفرنسيس، إني أموت بريئًا من الذنوب التي تجنيتم بها عليَّ، وإني أسامح جميع أعدائي، وأتضرع إلى الله تعالى أن تكون فرنسا العزيزة عليَّ …» فما كاد يتم قوله هذا، إلا وصرخ رئيس أهل الفتنة — ويعرف باسم «صانتر» — بأن تضرب الطبول ويضرب عنقه، فلما صعد المكان الذي أعد لقتله ضج القسيسون وهم يصرخون: «يا بن مار لويس اصعد إلى السماء.» ثم بعد أن ضربت عنقه حملت جثته، ودفنت في قبر مليء جبسًا، وجعل حرس عند قبره إلى أن بليت بالمرة.

وفي هذه الساحة نحو خمسة وعشرين عمودًا لها قبب في أعلاها، وهي مضلعة مذهبة، ولكل منها جناح يقل فانوسين مذهبين، وهي تظهر للناظر في الليل كأنها أبراج نجوم، وطول هذه الساحة ٢٤٨ مترًا، وعرضها ١٦٩، فأما حديقة القصر الإمبراطوري فلا يحكم لها بالفضل لسعتها وعظمها، وإن تكن أنيقة زهية، وإنما لكونها مجتمعًا للناس، فتراها مشحونة بالكراسي والمقاعد ينتابها المتكيسون والمتكيسات عند العصر

وخصوصًا في الأعياد، وفيها تماثيل عديدة، ومحل ينال فيه الطعام والشراب، ولهذه الحديقة درابزين من حديد، جلي يطيف بها رءوس رماحه مذهبة، وقيل: إن الكراسي التي فيه مضمنة بمائة ألف فرنك في العام، فإذا لم تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك في محاسنها، فذلك دليل على فساد مزاجك.

الخامس: عمود نابوليون الأول، صنع على مثال عمود تراجان في رومية من ألف ومائتي مدفع من النحاس، كان قد غنمها الإمبراطور المشار إليه من عساكر النمسا والروس، وقد نقش خارجه بصور الوقائع التي انتصر فيها، وصور آلات الحرب، يصعد الناس إلى أعلاه لرؤية المدينة في مائة وست وسبعين درجة، وفي قنته تمثال نابوليون، طوله إحدى عشر قدمًا وارتفاع العمود مائة وخمس وثلاثون، وزنته ٣٦٠٠٠٠ ليرة، ويقال لهذه الساحة «بلاس فندوم» باسم دوك فندوم ابن الملك هنري الرابع لزنية، بدئ بها في أيام لويس الرابع عشر، وفي يوم ميلاد نابوليون الواقع في الخامس عشر من آب تأتي الناس بأكاليل من زهر، ويضعونها على الدرابزين المطيف بالعمود تذكارًا لمآثره، ولما دخلت عساكر الدول الأجنبية مدينة باريس كان من همهم بادئ ذي بدء أن يزيحوه فلم يقدروا، وكان من قبله تمثال من نحاس للويس الرابع عشر فأزيح في سنة ١٧٩٢، قيل: وكان أعظم تمثال صنع؛ فإن زنته بلغت ٦٠٠٠٠ ليرة.

السادس: السقائف أو المعابر المسماة «بالباساج» وهي أسواق مسقفة بالزجاج ومبلطة بالرخام وعلى كلا الجانبين دكاكين بهية متناسقة الوضع، يوجد فيها للبيع أغرب التحف وأعجب الطرف، والغالب أن ما يباع فيها يكون أغلى مما يباع في غيرها، ومنها ما حيطانه مرصعة بالمرايا، فيرى المار فيها شخصه ذات اليمين وذات الشمال، وفي زمن الشتاء تغص بالرجال والنساء، فهي ملطأ لهم من المطر والبرد.

السابع: الغيضة المسماة «بوا دو بولون» وهي عبارة عن نُدحة من الأرض واسعة ممتدة، كلها شجر وحياض، وفيها طرق رحيبة للعواجل، يخرج إليها أهل الثروة والجمال في عواجلهم الفاخرة ولا سيما في الآحاد والأعياد والأيام الثلاثة التي مر ذكرها في جمعة الآلام، وفي هذه الغيضة حلت عساكر الإنكليز عند فشل نابوليون، واعلم أن الغيضة في مفهوم الفرنساوية هي الأرض التي تكون أشجارها متماسة الرءوس، بحيث إنك إذا جلست تحتها وَقَتْكَ من المطر والشمس، فأما عند الإنكليز فهي قطعة من الأرض يكون فيها شجرات معدودات ومرج وتمرح فيه الماشية.

(٢٣) الصروح الفاخرة في باريس

فأما ما في باريس من الصروح الفاخرة والمباني السنية فمما لا يعد ولا يحصى، ولكني أذكر منها أشهرها، فمن ذلك القصر المسمى «باللوفر» وهو منقسم إلى عدة أقسام؛ الأول: للتصاوير وهو يشتمل على ألف وأربعمائة وست صور من صنع أهل إيطاليا وإسبانيا وفرنسا، وهناك محل آخر يحوي أربعمائة وستًّا وأربعين تصويرة من صنع مصوري إسبانيا خاصة، ومن تلك التصاوير ما يبلغ طوله أكثر من عشر أذرع، ومنه ما هو بديع الصنعة حتى لا يمكن للنظر أن يكف عن الرنو إليه، وجميع سقوف هذه المحال مزخرفة منقوشة، وترى هناك كثيرًا من الرجال والنساء يصورون عن بعض الصور المشهورة، وقسته بخطواتي فكان طوله نحو سبعمائة وثمانين خطوة معتدلة، وقست ما يشبهه بلندرة، فلم يزد على مائتي خطوة، ولم أرَ هناك إلا مصورة واحدة.

القسم الثاني: للرسم، وهو يشتمل على ألف ومائتين وثمانية وتسعين رسمًا. الثالث: للأشياء العادية، وهو يشتمل على ألف ومائة تمثال وصنم. الرابع: للتماثيل الحديثة. الخامس: للمنقوشات. السادس: للأدوات البحرية كالسفن والمدافع، وترى كل سفينة موضوعة في بيت من زجاج على مائدة من خشب نفيس، وهناك صور مدن وقلاع بارزة مجسمة. السابع: للدراهم. الثامن: متحف لبدائع مصر. التاسع: متحف الأثوريين. العاشر: متحف لبدائع أميريكا. الحادي عشر: متحف لبدائع الجزائر.

ورأيت من جملة تلك الغرائب ملابس الملوك وسلاحهم، من جملتها عدة أردية مطرزة وغير مطرزة كان يلبسها نابوليون الأكبر، وسروج خيله منها سرجان عربيان كان يركب عليهما بمصر، ومن ذلك كتاب في الهندسة كان يطالع فيه دائمًا وهو بلا جلد، وأدوات كان يستصحبها في أسفاره، ومن جملة هذه الغرائب أيضًا سيف كان لشارلمان، وطست غريب الصنعة جيء به من بلاد المسلمين، وكان هذا الموضع في الزمن السابق مقرًّا لهنري الرابع المشهور بحسن السياسة والتدبير.

وقيل: إن ولي الملك كان على دين البروتستانت، فلما رآه أهل باريس أنه يصلح للملك لمآثره الجليلة، وأنه لا يقوم بأعباء الملك غيره، اختاروا توليته بشرط أن يدين بدين الكنيسة الرومانية، فأجابهم إلى ذلك، وقال: «لعمري إن باريس تساوي قداسًا.» ومع كونه كان بمنزلة والد لأهل فرنسا أجمعين، وفي أيامه نسم الناس الراحة وبلهنية العيش، لم يعدم من تصدى لقتله.

وكانت ولادة هنري الرابع في سنة ١٥٥٣ ووفاته في سنة ١٦١٠، وخلفه في الملك ابنه لويس الثالث عشر، وهذا القصر كان دائمًا منفردًا عن قصر الملك المسمى بقصر التولري، وكان في عزم الملك لويس فيليب أن يصله به، فلم يتهيأ له إلى أن قام نابوليون الثالث فجعلهما متصلين، قال في معجم الأوقات: هذا الصرح الشهير كان مقرًّا للملك داغوبرت في سنة ٦٢٨، وفي عهد فرنسيس الأول وضع أساس المحل الذي يقال له الآن: اللوفر القديم، وذلك في سنة ١٥٢٢، وفيه وضع أحسن ما أمكن جمعه من الصور والتماثيل وتحف الصنائع المعروفة في الدنيا وجلها جلب من إيطاليا حين كان نابوليون مستوليًا عليها، ولكن رُدَّ منها كثير على أهله.

ومن ذلك قصر التولري، وتفصيل ما فيه يغني عنه قولنا: إنه مقر لملوك فرنسا، وإنه فيه ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (الغاشية: ١٣–١٦) ومبلطه كله من خشب الجوز المحكم الصنعة والإلصاق، بَنَتْهُ كاترين دمديسي، وأتمه لويس الرابع عشر، ثم سكنه لويس السادس عشر في سنة ١٧٨٧، وفي سنة ١٧٩٢ اقتحمه الناس والسلاح بأيديهم ليقدموا عرضًا للملك، وهم على أهبة الفتنة، فأفضى الأمر أخيرًا إلى أن قضوا عليه بالقتل كما مر.

ثم تبوأه نابوليون قبل أن يلقب إمبراطورًا، وبعده أيضًا، ثم عائلة البربون، ولما كان لويس العاشر قارًّا فيه هجم الناس عليه، وغلبوا على عساكره، وألجئوه إلى النفي وذلك في سنة ١٨٣٠، وفي سنة ١٨٤٠ هجموا فيه على لويس فيليب وألجئوه إلى الفرار فلحق بأسلافه، وهو آخر من ملك من البربون، ودام ملكه ثماني عشرة سنة، وقرأت في بعض الأخبار أنه لما هجم الناس عليه وجدوا في نفق دهليز القصر المذكور خمسة وثمانين ألف زجاجة مملوءة من الخمر الفاخر.

ومن ذلك قصر «لوكزمبور» بني في سنة ١٥٩٤، وهو وإن لم يكن بناؤه بديع الصنعة إلا أنه متين مهندم، وكان مقرًّا للويس الثامن عشر، ثم جعل في زمن الفتنة سجنًا ثم جعله نابوليون مجلسًا خاصًّا، وهو الآن كذلك، ويحضره الملك بنفسه، وعنده حديقة عظيمة ينتابها أهل تلك الناحية، وهي أكبر من حديقة الملك، وفي طرفه رصد الكواكب، بني في سنة ١٦٦٧، وحديقة صغيرة تجتمع فيها الرجال والنساء في الصيف للرقص، وهذا الموضع وإن يكن عامًّا إلا أنه يعرف بمحل طلبة العلم، ولأجلهم يباح فيه للنساء أن يتخلعن ويتفككن في الرقص، وفي غيره يحظرهن الشرطة.

ومن ذلك «هوتل دوفيل» أنشئ في سنة ١٦٠٥ على عهد هنري الرابع، ولكن لم تكمل محاسنه كما هو الآن إلا في سنة ١٨٣٦، ومن ذلك قصر «كاي درصي» كان لويس

العاشر يريد أن يجعله معرضًا لبدائع الصنائع وكان نابوليون يريد أن يجعله مقرًّا لسفراء الدول، وهو الآن ديوان الحسابات، ولم يتم بناؤه قبل سنة ١٨٣٥، وبلغت نفقته أكثر من ١٢٠٠٠٠٠٠ فرنك، وبجنبه قصر آخر بني في عهد لويس الخامس عشر، وهو من أبهج قصور باريس.

ومن ذلك مجلس المشورة العام ابتدئ به سنة ١٧٢٢، وكان أول ما نهب في دولة البوربون، ثم جعل مجلسًا لنواب الأقاليم وعدتهم خمسمائة، وفي سنة ١٨٢٩ عرض لأن يباع بخمسة ملايين ونصف، وجملة ما صرف عليه إلى غاية سنة ١٨٤٠ بلغت ٢٤٢٤٣٣٩٣.

ومن ذلك القصر المعروف بقصر الصنائع الظريفة، والمحكمة الكبرى، بني منها قسم من عهد صان لويس ثم زيد فيها مبانٍ كثيرة حتى صارت من أحسن ما يُرنى إليه، طولها ٢١٦ قدمًا وعرضها ٢٨، ودار مجتمع العلماء ويقال له: «الإنستتيو» أسسه الكردينال مازارين، ووقف عليه مكتبة عظيمة ورزقًا يبلغ في كل عام ٤٥٠٠٠، وهؤلاء العلماء هم الذين ينقحون كتب اللغة والنحو وينكرون المرذول من الكلام ويثبتون الفصيح، فإن للفرنساوية اعتناء عظيمًا بفن الأدب بخلاف الإنكليز.

ومن ذلك دار السكة، أُتم إنشاؤها في سنة ١٧٧١ وهي تحوي اثني عشر دولابًا زنة كل منها ثمانون ألف رطل، وتضرب في كل دقيقة ستين دينارًا وثمانين ريالًا، فيها دنانير من عهد جميع ملوك فرنسا، وفيها أيضًا يطبع على المصوغات من الفضة والذهب، ومن ذلك قصر في «شانزلزي» بني في سنة ١٧١٨، وكان مقرًّا لأميرة من عائلة البوربون، ثم سكنه نابوليون.

ومن ذلك المصر، أي مجتمع التجار، طوله ٧١ ذراعًا في عرض ٤٩، أو ٢١٢ قدمًا في عرض ١٢٦، يحيط به ٦٦ عمودًا ونصف، سقفه من بلور، وهو مقبب، وصحنه كله مبلط بالرخام، يسع ألفي رجل، بدئ به سنة ١٨٠٨، وبلغت نفقته ٨١٤٩٠٠٠ فرنك، وهو من المباني البديعة، قال مؤلف فرنساوي: وله من داخله روشن ينتابه الناس ليشاهدوا منه التجار الذين يجتمعون في الساعة الثانية بعد الظهر للتعاقد والتبايع، فإذا سمعهم أحد ظن أنه بين نمور تُهَمْهِم.

ومن ذلك المصرف أي البنك، وأنشئ في سنة ١٨٠٣ قيمة ما فيه من الكواغد التي بألف فرنك وبخمسمائة ٢٣٤ مليونًا، والحاصل في خزينته ٢٢٨ مليونًا، وكان رأس المال الذي وضع فيه أول إنشائه خمسة وأربعين مليونًا، قلت: لم تتداول الكواغد التي قيمتها

أقل من ذلك القدر إلا بعد الفتنة، وقرأت في بعض الأخبار في هذه السنة أن المخزون في البنك بلغ ١٢٩٨٠٧٥٠ فرنكًا، والكواغد المتداولة ٥٣٥٦٩٣٦٠٠.

ومن الأزاج العظيمة الأزج الذي يقال له: «أرك دوطريونف» أي قنطرة النصر أو الظفر صور عليه الوقائع التي انتصر فيها نابوليون، وبلغت نفقته ٩٧٢٣٤٠٢، وآخر أمام قصر الملك من جهة اللوفر بلغت نفقته ١٤٠٠٠٠٠، وفي البلفار وغيره أزاج كثيرة أضربنا عن ذكرها.

(٢٣-١) كنائس باريس العظيمة

ومن الكنائس العظيمة كنيسة «نوطردام»، وقد مر ذكرها، طولها ٣٩٠ قدمًا، وعرضها ١٤٤، وارتفاعها ١٠٢، وعلو صومعتها ٢٠٤، فيها أرغن ارتفاعه ٤٥ قدمًا، وعرضه ٣٦، يشتمل على ٣٤٨٤ قصبة، وهي أم كنائس باريس، وفيها تتوج الملوك، وأول حجر جعل في أساسها وضعه البابا إسكندر الثالث في سنة ١١٦٣، ولم يتم إنشاؤها إلا بعد ثلاثة قرون.

ومن ذلك كنيسة «لا مدلين» أي المجدلانية، وهي كنيسة ذات بهجة ورونق وصنع بديع، داخلها مزخرف بالنقش، والعمد من المرمر النفيس، ومبلطها من الرخام، وسطحها من حديد ونحاس، طولها مائة ذراع، وعرضها اثنتان وأربعون، ويحيط بها اثنان وخمسون عمودًا، ويصعد إلى بابها في ثلاثين درجة، وكان في عزم نابوليون أن يسميها هيكل الفخر تذكارًا لفخر فرنسا، وأن يصور على أعمدتها جميع الذين حاربوا معه من الأبطال المظفرين؛ ولذلك بنيت على شبه هياكل اليونانيين، ولم يبقَ نقَّاش ولا مصور في المدينة إلا واشتغل بها، وقال آخر: أول حجر وضع في أساسها وضعه لويس الخامس عشر، وكان في قصد نابوليون أن يخصصها للعسكر، ولم تتم إلا في أيام لويس فيليب، وهو الذي خصها بمريم المجدلانية بعد أن كان الناس يظنون أنها تخصص لجوبيتر.

ومن ذلك الكنيسة التي يقال لها: «البنثيون» بنيت في سنة ١٧٦٤ على اسم مار جينيفيف، ثم جعلت مدفنًا لمشاهير الفرنساوية في العلم أو الحرب، وفيها دفن فلتير وجان جاك روسو وغيرهما، ثم حولت كنيسة في داخلها مائة وثلاثون عمودًا وبخارجها نحو من ذلك، وبلغت مصاريف نقش قبتها مائة ألف فرنك، ورقي ناقشها إلى مرتبة بارون، ودورتها ٦٢ قدمًا، ودورة الكنيسة كلها ٣٢٥٦ قدمًا مربعًا، وطولها ٢٨٨ قدمًا.

ومن ذلك كنيسة «صان صلبيس»، وهي في حارة النبلاء، يقال: إن كراسيها مضمنة بستين ألف فرنك في العام، بنيت في سنة ١٦٤٦ ولها صومعة عالية جدًّا.

ومن ذلك كنيسة «نوطر دام دلورت»، بلغت نفقتها ٢٠٥٠٠٠٠، ووظيفة قسيسها في السنة ٣٠٠٠٠ فرنك، وقس الباقي على ما ذكرناه، وأهل باريس يذهبون إلى الكنائس صباحًا، وفي المساء إلى الملاهي وهو عند الإنكليز من أعجب العجب.

(٢٣-٢) مارستان السقط

ومن المواضع المشهورة المقصودة مارستان السقط بني في أيام لويس الرابع عشر، وهو يحوي ٦٠٠٠ نفر ما بين مرضى وخدمة، وتخدم فيه خمس وعشرون راهبة، ويسع ١٠٠٠٠ نفس، وهو مخصوص بالعساكر، وكل من قضى في الخدمة العسكرية ٣٠ سنة فله حق أن يدخله، ومرتب مديره ٤٠٠٠٠ فرنك، ويعين لمن فيه كل يوم رطل من اللحم، وليتر من الخمر، طول حديقته ١٤٤٠ قدمًا وعرضها ٧٨٠، وعنده مدافع غنمها الفرنساوية من بروسية والجزائر وعنابة، وطول المارستان ٦١٢ قدمًا، وفيه مكتبة نفيسة، وكنيسة طويلة نصب على مشرفتها جميع الرايات التي أخذها نابوليون من جيوش الدول التي انتصر عليها، أحسبها تبلغ ٢٠٠، ومن جملتها عدة رايات من عساكر المسلمين، قال: وكان في الكنيسة ٤٠٠٠ راية وسيف لفريدريك الكبير، فلما دخلت عساكر الدول المتفقة باريس صدر أمر من وزير الحرب عن لسان يوسف بونابرته بأن تحرق الرايات ويكسر السيف، فخشي المأمورون تَبِعَة ذلك؛ ولم يحرقوها إلا بعد أن راجعوه في أمرها ثلاث مرات، قال: وفي هذه الكنيسة دُفن نابوليون وأمراء عسكره، ووضع على قبره تاجه ونيشانه وسيفه، وصرف في القبر مليون ونصف.

(٢٣-٣) قبر نابيليون

قلت لا يخفى أن نابوليون لم يمت في باريس، بل مات في جزيرة صانت هيلان، غير أن دولة فرنسا في أيام لويس فيليب استأذنت دولة إنكلترة في نقل جثته من هناك، فأجابت إلى ذلك فأرسل الملك ابنه في بارجة اسمها «بل بول» ونقلوا جثته إليها، وذلك في السادس عشر من أكطوبر سنة ١٨٤٠، وفي الخامس عشر من ديسمبر دفنوها في كنيسة هذا المارستان بغاية ما يكون من الاحترام والاحتفال مما لم يشاهد مثله في فرنسا قط،

وحضر جنازته مليون من الخلق، ومائة وخمسون ألفًا من العسكر، والملك وآله وجميع الأمراء والنبلاء والعظماء، مع أن جميع أقارب نابوليون كانوا غيابًا فمنهم من كان منفيًّا ومنهم من كان مسجونًا، وكانت ولادة نابوليون في الخامس عشر من آب سنة ١٧٦٩، وقد صار هذا اليوم عيدًا تتخذه الدولة في كل سنة، وكانت وفاة نابوليون في الخامس من شهر ماي سنة ١٨٢١ في تلك الجزيرة، ولم يخلف إلا ولدًا، ولد له في سنة ١٨١١، ولقب أولًا «ملك رومية»، وفي سنة ١٨١٥ لقب إمبراطورًا باسم نابوليون الثاني، مع أنه لم يكن وقتئذ في فرنسا؛ لأنه نقل في الحادثة التي وقعت قبلها إلى بلاد أوستريا، وبقي هناك إلى أن مات، وذلك في سنة ١٨٣٢، والفرنساوية يحجون إلى قبر نابوليون كحج المسلمين إلى الكعبة.

ومن ذلك بستان النباتات، تنبت فيه جميع النباتات، وتحفظ فيه سائر الحيوانات، وهو يشتمل على عدة مواضع؛ الأول: للنبات فيه بيوت من زجاج لتنبيت ما لا ينبت في البلاد الباردة، والثاني: مشرفيات فيها أشياء عديدة تعين على علم حياة الحيوان المسمى عند الإفرنج تاريخ الطبيعيات، الثالث: مشرفية للتشريح، الرابع: مربض الحيوانات ومحل مؤنتها، الخامس: مكتبة تشتمل على كتب في تاريخ الطبيعيات، السادس: محل يلقى فيه التدريس في العلوم، يسع ١٢٠٠ شخص، وجملة أنواع النباتات التي في البستان ١٢٠٠٠ نوع، والتي في المشرفية ٥٠٠٠، وعدد الطيور ستة آلاف، وعدد السمك خمسة آلاف، وعدد الأعضاء للتشريح ١٥٠٠٠، وجملة النباتات المجففة المحفوظة ٣٥٠٠٠، ومن الشجر والحب أكثر من أربعة آلاف، ولما دخلت عساكر الدول الأجنبية باريس كان من هم الدولة أن تحميه من غوائلهم، فبقي مصونًا إلا أن كثيرًا مما جلب إليه من البلاد الخارجية رُدَّ على أصحابه، وفيه شجرة من أرز لبنان أهداها طبيب إنكليزي اسمه «غولنصون» إلى الدولة.

وقد رأيت فيه عظام حيوانات عادية طول الواحد منها نحو عشر أذرع، وجثة سمكة — وكأنها هي الذي يقال لها بلغتنا: الجمل — طولها من الرأس إلى الذَّنَب نحو خمس وعشرين ذراعًا وفي ظهرها سبع وأربعون فقرة، كل واحدة كأنها رفش، ولها ثلاث عشرة ضلعًا عند رأسها، كأنها ترائبها، طول كل ضلع نحو أربع أذرع من كل جانب، ورأسها نحو قارب، وفي فكها الأسفل من كلا طرفيه ثلاث وعشرون سنًّا، قدر كل سن كالموزة.

(٢٣-٤) خلاصة في المقارنة بين المدينتين

وغاية الكلام أن باريس تفضل لندرة في المباني والمطاعم والمتنزهات ومحال العلم، فهي مَعْدِنُ العلوم واللذات؛ ولذلك ترى ألوفًا من عيال الإنكليز يأتونها مستوطنين، وما أحد من أغنياء الفرنسيس يذهب إلى لندرة ليتخذها له وطنًا، وإنما يذهب إليها أهل الحرف والصنائع تحصيلًا لمعيشتهم.

(٢٤) مواسم الحظ والفرج

ومن مواسم الحظ والفرج عندهم ثلاثة أيام في المرفع، وهي التي يسمونها الكرنيفال، وقد ذكرناها في الكلام على مالطة، فلا ينبغي إعادتها، وإنما نقول هنا: إنه في هذه الليالي يدومون في المراقص حتى الصباح، وفي يوم خميس السكارى يطوفون بثور مسمن، وأمامه طائفة الجزارين بلباس السخرية، ويغطون الثور بثوب مزركش، وعلى رأسه إكليل من الزهر، وكانت العادة سابقًا أن يقعد على ظهره ولد يسمونه ملك الجزارين، ويمسك بإحدى يديه سيفًا وبالأخرى صولجانًا، فأما الآن فإنه يقعد في نحو مِحَفَّة ويتبع الثور بلا سيف ولا صولجان.

ومن ذلك عيد رأس السنة، وهو ثلاثة أيام، ترى فيها جانبي البلفار مشمولًا بالخيام لبيع التحف والطرف التي يتهادى بها، وترى أيضًا غيضة شانزلزي مشحونة بظلل وقبب وأخبية فيها جميع أنواع الطرب والشعوذة والرقص على الحبال، ثم ترى من بدائع المصنوعات والمخلوقات ما لا تراه في المملكة كلها، وقد رأيت مرة امرأة جميلة ذات لحية وشوارب وعلى قفاها وذراعيها من الشعر ما لم يكن على رجل، وكأنها هي التي ذكرها صاحب المعجم حيث قال: أرسلت امرأة إلى باريس لها لحية كثيفة وجميع بدنها مغشي بالشعر. قال: وقد علم أن نساء كثيرة لهن شوارب ولحى وشعر مسترسل على أكتافهن وسواعدهن من جملتهن امرأة أتي بها إلى حضرة بطرس الأكبر وكانت لحيتها نحو ذراع ونصف. وفي الخامس عشر من أغوسطوس تصنع الدولة عيدًا حافلًا يحشد إليه مئات ألوف لرؤية الأنوار وشهب البارود.

وفي الجملة فإن أيام باريس كلها مواسم وأعياد، وإن ليلها أبهج من نهارها.

(٢٥) ضواحي باريس وقصورها

هذا؛ وعلى قدر ما في باريس من المحاسن الفائقة والأَرْنَاء الشائقة، فإن ضواحيها أبهى وأشهى.

فمن ذلك «صان كلو» وهو على بعد نصف ساعة من باريس، فيه قصر يصيف فيه الملك، وغيضة أنيقة، دورتها أربعة فراسخ، وهذا القصر كان اشتراه لويس الرابع عشر، وسكنه نابوليون الأول وشارلس العاشر، بني في سنة ١٥٧٢، وأثاثه أجد من أثاث قصر «فرصاي»، وفي الغيضة مياه خرارة، ولعلها هي الشلالات.

وبالقرب منه قصر فرصاي الذي كان مقرًّا للويس الرابع عشر، وهو يشتمل على تصاوير بديعة لا نظير لها، من جملتها صور جميع ملوك الإفرنج، من مات منهم ومن هو حي، وصور وقائع نابوليون، وصور سائر الملوك والسلاطين، وفي الشقة التي كان يسكنها الملك تحف غريبة كان يستعملها هو وآله، وسرير فراشه وهو نحو صُفَّة، وفيه ملهى كان إذا أمر الملك بإجراء التمثيل فيه ينور بعشرة آلاف شمعة، ويصرف عليه في تلك الليلة مائة ألف فرنك، وفي القصر ديوان فسيح، كان يجتمع فيه رجال دولته، ولم يكد مع رحبه يسعهم، وبعد أن تنقضي فرجة الناس من القصر — وذلك نحو الساعة الرابعة — تطلق مياه الغيضة صعدًا وتضرب آلات الطرب، فيقعد الناس على الكراسي للسماع والنظر، وهو منظر يسحر، فإن الحديقة ناضرة زاهية والعيون غزيرة، ووسع الغيضة الكبرى عشرون فرسخًا، وقد أنفق على حوض فيها مليون ونصف، فأما جملة ما أنفق في القصر وفرشه، وفي الغيضة، فقد اختلفت فيه الأقوال والذي صح أنه بلغ نحو أربعين مليون ليرة إنكليزية، فأما بلد فرصاي فإنه كان قبل الفتنة عامرًا، فكان أهله مائة ألف نفس، والآن ليس فيه أكثر من ثلاثين ألفًا.

ومن ذلك صان جرمان، وهو على بعد خمسة فراسخ من باريس أو سفر ساعة في سكة الحديد، وهي بلدة مشهورة من القديم، لها غيضة فسيحة ناضرة في ربوة من الأرض، يسرح الناظر منها نظره في مدى مديد، كله خضرة ما بين كروم وبساتين وغياض ورياض وقصور وأعلام، حتى يود لو يرى في جملتها صخرًا من صخور مالطة، وفي هذه البلدة قصر كان في الأصل مقرًّا لفرنسيس الأول، وكان هنري الرابع يستطيب المقام فيه، وكذا لويس الثالث عشر والرابع عشر.

وفيه أقام جامس الثاني ملك الإنكليز ديوانه اثنتي عشرة سنة، ثم صار في زمن الفتنة محلًّا للعساكر، ثم جعل الآن سجنًا لهم.

وهذه المواضع يقصدها أهل باريس في أيام الآحاد والأعياد في أرتال لها مقاعد في سطوحها مكشوفة، فترى وأنت في رتل منها عدة أرتال سابقة ولاحقة، ولا يمكن استيفاء الكلام على هذه المحاسن من دون رؤيتها عيانًا، وكل ما تراه في باريس وضواحيها من المحسنات والمنتزهات فإنما تم بعناية صاحب الملك لا بعناية جماعات على عدتها كما هي العادة في لندرة، فإن الملك هنا لا يغفل شيئًا مما يَئُول إلى أبهة الملك وشرف المدينة ورونقها.

وإذا علم مثلًا أن في بعض الشوارع ديارًا قديمة متهدمة اشتراها من أصحابها من دون غبن وجدد بناءها، وفي أيام ملكها الآن هدمت حارة كبيرة برمتها، ثم بني في مواضعها ديار حسنة شاهقة تضاهي ديار البلفار، فأما في لندرة فإن جميع الإنشاءات والتنظيمات موكولة إلى جماعات من الأهلين، وليس على الدولة إلا ضرب المكس والطسق وتجهيز الجيوش.

(٢٦) ملابس أهل باريس

أما ملابس أهل باريس فإنها في الجملة وضيئة فاخرة، وأكثر أنواع الثياب التي تباع عند البزازين ولا سيما الحرير أحسن مما يوجد بلندرة إلا الكتان، فأما الملابس المخيطة فليس لعمري من مناسبة بين ما يباع هنا وما يباع في لندرة، فإن من يشتري ثوبًا مخيطًا في لندرة يلزمه أن يستأجر معه خياطًا ليصلحه له في كل يوم، ولأهل باريس تَنَطُّس زائد في أشياء كثيرة مما لا يعبأ به الإنكليز، إلا أن نساءها اللواتي يعشن من كد أيديهن يلبسن أحذية كأحذية الرجال — وذلك منكر في لندرة — وإذا خرجن في الأسواق خرجن من دون برنيطة ولا شال.

وللاكتفاء عن البرنيطة سببان؛ الأول: الزهو والعجب، فإنهن يعرضن شعورهن وأعناقهن للرنو والتعجب، والثاني: غلاء سعرها، حيث كانت أجرة اللائي يصنعنها كثيرة، فإن صناع باريس تكسب أكثر من صناع لندرة، وبعكس ذلك الرجال، وهاتان الصفتان من المنكر أيضًا عند نساء لندرة.

(٢٧) نساء الفرنسيس

ولنساء الفرنسيس نظافة زائدة على الملبوس والمفروش، فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك إلى أن يبلى، ولكن ليس لهن من الطهارة نصيب، ولهن أيضًا عناية بليغة بتنضيد أثاث البيت، وبهن تليق جميع الأعمال، وفي الواقع فإنهن أركن وألقن من سائر نساء الإفرنج، وما من امرأة في باريس إلا وتعرف شيئًا من المداواة، ومن طبعهن التبكير في القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة فإن الغالب عليهن الكسل والتواني والإضحاء في النوم، ولهن أيضًا حرص على تربية أولادهن وتنظيفهن، فلا تكاد ترى في أسواق المدينة أطفالًا يمشون وحدهم، أو يطوفون في الليل ويعرضون أنفسهم لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى في لندرة.

وهن اللائي يتولين الدخل والخرج، فلا يمكن لأحد أن يشتري شيئًا من المأكول والمشروب — ما عدا الخمر — إلا من أيديهن، وإن تكن بعولتهن حاضرة، ولهن مزية مشهورة بين الناس في النطق بالمغيبات، كما يزعمون، وإذا استنطقت واحدة منهن لزمك أن تعطيها عشرة فرنكات، ولم أسمع عن نساء لندرة هذه الدعوى الشائعة عن نساء باريس.

وقد اتفق لي مرة أن سرقت لي كراريس من كتاب ألفته، وعزمت عدم إفشائه، فقلقت لذلك كل القلق، ثم رد عليَّ بعضها من لندرة، فأخذني الذهول، فلما أطلعت بعض أصحابي على ذلك، قال لي: عليك «بالسمنمبول» فذهبت معه إلى واحدة ممن أعرفهن، وكان هو أيضًا يريد أن يسألها عن حاجة مهمة له، وتبعنا آخر لم يكن له مأرب سوى الامتحان فقط، فلما سألناها حضرت امرأة أخرى وجلست بين يديها، وأمسكت يدها اليمنى، ثم جعلت فيها كرة صغيرة من بلور، وجعلت تحدق النظر في المرأة.

وبعد عدة دقائق غمضت المسئولة عينيها، ثم تنفست الصعداء وأشارت إلينا بالجلوس وعيناها مطبقتان فناولتها حينئذ قطعة من الورق، وأخبرتها بما جرى من السرقة، فشمتها، وقالت: «هذه القطعة أرسلت إليك من بلاد بعيدة مع أوراق أخرى يخالف لون بعضها بعضًا وأصل شرائها كان من تلك البلاد.» قلت: نعم، ولكن أريد أن أعرف من سرقها؟ قالت: «أين كان مسكنك حين سرقت؟» قلت: في روبلانش، قالت: «نعم في الطبقة الثالثة، وقد سرقها رجل كان كثير الترداد عليك.» قلت: من هو؟ وكيف هو؟ قالت: «ليس هو بفرنساوي، بل غريب مثلك.» قلت: ما زيه؟ قالت: «ليس كزينا ولا كزيك، وإنما يلبس رداء طويلًا.» قلت: ما سنه؟ قالت: «في حد الثلاثين.» قلت: بل أكثر

من ذلك بثماني سنين، ففكرت هنيهة، ثم قالت: «لست أراه إلا كما قلت لك.» فكانت صادقة في كل ما قالت إلا في السن، ويمكن أن يقال إن ذلك الشخص لم يكن يظن فيه ناظره أنه جاوز الثلاثين.

ويقال: إن هؤلاء المنبئات إنما ينبئن كما يضمره السائل، فإني كنت أضمرت شخصًا كان على تلك الصفة، وكان يتردد عليَّ كثيرًا وجزمت بأنه هو الذي فعل الفعلة، ثم تنصتت لحس معدتي، فقالت: «إن هذا الشخص الذي سرق الورق صديق لمطران حاول مرة أن يسمك باطلاع ثلاثة رجال معه.» ثم إني وضعت بيدها خصلة شعر من شعر امرأة، وكانت وقتئذ مريضة بداء الخفقان، وقد قاست من الأوجاع والأطباء ما يطول شرحه، فأخذت الشعر وشمته، وقالت: «هذا شعر امرأة مريضة وأصل مرضها في المعدة والقلب، وقد مس هذا الشعر امرأة أخرى.» قلت: صدقت، ولكن لا أعلم أن امرأة أخرى مسته، قالت: «بلى قد لمسته، وإن صاحبته صارت عرضة للإسقاط والولادة تسع مرات، وهي ذات نشاط وحدة، فإذا غضبت تخرج عن المعقول، ويخشى عليها من اللَّمَم، فينبغي أن تداريها وتحوطها، وتستعمل لها العلاج الفلاني.»

ثم سألها صاحبي القلق بعد أن ناولها أثرًا من المسئول عنه فقالت له: «إنك تقيم في باريس سنتين، بعد ثم تسافر إلى بلادك.» وكذا وقع له، أما الثالث فإنه سألها عما في جيبه، فقالت له: ورق، قال: على أي شيء يشتمل؟ قالت: «أنا لا أحسن القراءة حتى أنبئك بما اشتملت عليه.» قال: منذ كم قدمت إلى باريس وما أشبه ذلك؟ قالت: «قد استحوذ عليَّ صداع.» ولم تجاوبه بأكثر من ذلك، وخرجنا من عندها وهي على تلك الحالة، ثم إني لما رجعت أخبرت المريضة بما وقع فقالت: أما الشعر فقد لمسته الخادمة، وأما الإسقاط والولادة فكما قالت.

ويقال: إنه حين تكثر السؤال على المسئولة تضعف قوتها ويخدر إدراكها، ثم إنه لما كانت هذه الحرفة مضادة للديانة وللطب، كان القسيسون والأطباء أشد الناس مقاومة لها، ولقد عجبت كيف أن الدولة تسوغ معاطاتها إن لم تكن حقًّا؟! فإنا إذا اعتقدنا بصدق ما تقوله هؤلاء النساء لم يكن بينهن وبين الأنبياء من فرق، إلا أن نقول: إن إنباءهن غير وارد في الإلهيات، وإن يكن تدجيلًا وتمويهًا فلِمَ لمْ تمنعهن الدولة من غبن الناس، واختلاس أموالهم، ونحكم بخروجهن من الجماعة أخذًا بنص التوراة؟!

على أن بعض المتفلسفين في باريس يدعون أيضًا بأن في الإنسان خاصية أو جاذبية تسري منه حتى إلى الجماد فينفعل بها فضلًا عن تأثيره في إنسان نظيره، وعلى ذلك

شاعت الأخبار بأن الموائد تميد بلمس عدة رجال لها، وأن الكراسي تمشي، والسكاكين ترقص إلى غير ذلك.

والذي يخطر لي — على قدر ما أدركه — أنه كان ينبغي امتحان هؤلاء النساء، وبعد ذلك إما أن يحظرن أو يقررن على صنعتهن، وقيل إنهن امتحن فوجدن صادقات في أمور كثيرة، حتى لم يمكن حظرهن، وإنه إنما رخص لهن في الإنباء رجاء أن تظهر وسيلة أخرى لإتقان هذه الحرفة، حيث لم يستبعد ذلك على تمادي الزمن.

أما ما قيل عن بوسكو فلم أرَ من شعوذاته ما يصدق كلام الناس فيه، فإن كل ما صنعه أمام الناس لم يصنعه إلا بأدوات، وقد شاع عن روبرت أودن أنه كان عنده زجاجة، وكان يسأل الناس أي شراب يبغون منها، فكان كل يقترح عليه شيئًا فيسقيهم كلهم منها، ثم رأيت هذه القناني تباع بثمن غالٍ، ولا أدري شأنها والله أعلم.

(٢٨) أخلاق الفرنساوية

أما أخلاق الفرنساوية فالكلام عليها يستغرق زمنًا طويلًا؛ لأن الطبيعة البشرية فيهم لحمتها من نوع وسداها من نوع، أما أولًا: فلأن سحنهم وبنية أجسامهم متفاوتة جدًّا، فأهل جنوب فرنسا سمر كأهل البلاد الحارة، وأهل شماليها بيض شقر، والثاني: إن ما يظهر منهم للغريب أولًا إنما هو الأُنس وحسن المعاشرة، فإذا رأى ذلك منهم أول وهلة ظن أنهم يزدادون من مؤانسته وألفته، وأن هذا الأنس لا بد وأن يتبعه كرم وصداقة، ويزيد تعجبه من ذلك على الخصوص ما إذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقته الإنكليز على حالة الانقباض والعبوس، ولكن هيهات فإن أنيسك منهم اليوم إذا رآك غدًا ظننت أن ملاقاتكما إنما كانت حلمًا، وعلى فرض استمرار الألفة بينك وبينه، فلا يدعوك إلى منزله ولا يعرفك بأهله.

ومن ذلك أن أهل البلاد الباردة — كباريس وغيرها — تراهم أخف حركة وأحفد إلى الأشغال من أهل البلاد الحارة أو المعتدلة كمرسيلية ونحوها، فإن الناس هنا لا حركة لهم ولا نبض، فمن قدم إليها من باريس ورأى بلادة أهلها عجب كل العجب، فأين هم من أهل مالطة الذين يبادرون إلى العمل بأدنى إشارة؟

ومن ذلك أن كثيرًا منهم ولا سيما أهل باريس يعيشون مع النساء عيش المتعة، ويأتي لهم بنون وبنات وهم على هذه الحالة، ولا يتزوجونهن زواجًا شرعيًّا، فكيف يحب الرجل امرأة ولا يتزوجها لا سيما وقد ولدت له أولادًا وربتهم؟ وزواجهم الشرعي هو

الذي يعقد في الديوان لا في الكنيسة، ومنهم من يعقده في كلا الموضعين وهم المتدينون العابدون.

ومن ذلك أنهم مائلون بالطبع إلى حب النساء ومخالطتهن ومداراتهن، ومع ذلك فإنهم يدعونهن يعملن الأعمال الشاقة ليكسبن بعض شيء، ويمكن هنا أن يقال: إن نساءهم مائلات بالطبع إلى حب الكسب، وليست الراحة عندهن إلا بتحصيل المال.

ومن هذا القبيل أن الرجال من فرط عشقهم يقتلون أنفسهم ويرتكبون أقصى الأخطار لإرضائهن، ومع ذلك فليسوا يقيمون على ودادهن؛ فتبديلهن عندهم أهون من تبديل اللباس، ومع اعتقادهم بأن نساءهم أكيس النساء وأظرفهن وأحذقهن جميعًا فلا يأنفون من زواج الحبشيات وغيرهن.

ومن ذلك أنك ترى أدباءهم وكَيِّسيهم أبدًا يترددون على الملاهي والملاعب ليسمعوا فيها ويروا ما سمعوه ورأوه مرارًا، وأنت خبير بأنه يكرر في هذه المواضع تمثيل الحوادث كثيرًا؛ إذ لا يمكن اختراع شيء حديث في كل ليلة، ومهما يكن الشيء الممثل بديعًا فإذا أعيد زالت طلاوته.

ومن ذلك أنك لا تزال ترى الخاصة منهم والعامة يتمشون في الحدائق والغياض ومواضع الفرج والغناء حتى تظن أن أهل باريس كلهم سباهلة لا شغل لهم ولا عمل، ومع ذلك فهم يتأنقون في المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش، فلا أدري في أي وقت من الأوقات يكسبون المال.

ومن ذلك أن لهم عناية بتربية أولادهم أكثر من الإنكليز؛ إذ لا يغادرونهم وحدهم في الشوارع والطرق عرضة للأخطار أو يهملون تعليمهم حرفة من الحرف تغنيهم عن المكث في المستشفى، أو عن الطَّرِّ والاختلاس في الشوارع كما هي العادة في لندرة غالبًا، ومع هذا فإنهم عقب ولادهم يبعثونهم إلى الريف ليتربوا عند المراضع، والإنكليز على خلاف ذلك.

ومنها أنهم على بلادهم وجنسهم أغير من الرجل على امرأته، فلا يسلمون بأن في الدنيا بلادًا تشبه بلادهم أو جيلًا يضارعهم، ومع ذلك فإنهم يسافرون عنها لغير موجب، وحيثما ساروا بثوا وسائل التمدن والعلوم، وجادوا بما خصهم الله به من البراعة والحكمة على من لبثوا بينهم، وربما كانوا لهم أعداء، لعمري إني أرى طريقة ملك الصين في منعه مخالطة رعيته بغيرهم أولى، أوليس أن الدولة حين تنصب الحرب لدولة أخرى تمنع إخراج كل ما يتعلق بالمهمات الحربية من بلادها إلى بلاد تلك الدولة فأي الخارجين أنفع لها وأفضل الرجل أم الأداة؟

ومن ذلك أنهم حين يكونون متغربين في بلاد الناس يختلطون بهم ويجانسونهم ويخالقونهم حتى يصيروا كأنهم منهم، وإذا تغرب أحد بينهم لم يختلطوا به، فغاية ما يخصونه به من الإكرام إنما هو أن يسألوه من أين قدمت؟ وأين تقصد؟ وكيف أعجبتك باريس؟

ومن ذلك أنهم لا يزالون ينقرون عن الحقائق ويودون لو يعلمون كل أمر من فصه، وقد حَذَقوا كل علم وبرعوا في كل فن، ومع ذلك فقد عزب عنهم أهم الحقائق؛ وهو ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسود والرئيس والمرءوس، ولو سلم لهم بأن الكيسى وأهل المعارف والأدب غنيون عنه بما فطروا عليه من حسن الأخلاق أو حسنوا به إملاءهم من مطالعة الكتب، لم نسلم بأن الرعاع الذين هم الجمهور الأعظم في كل البلاد غير مفتقرين إلى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي، ويحثهم على فعل الخيرات، ولولا ذلك لأكل القوي الضعيف.

فإن قلت: كيف يأكله والحاكم من ورائه؟ قلت: ليس في كل الأمور يمكن استحضار الحاكم أو الاستغاثة به، ألا ترى أنه إذا اجتمع مثلًا اثنان في مكان خال وبطش القوي منهما بالضعيف، أفيكون لصاحب الحكم عين باصرة أو أذن سامعة للقصص؟ فكم من قضية جرت بين الناس وفاتت اجتهاد أهل السياسة والإيالة! ولكن إذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن ويخافون عقابه، ويرجون ثوابه، كان لهم بذلك أعظم رادع ووازع، فاتصاف أمة بعدم الدين من أعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها، ومن ذلك أنه لم يزل دأبهم تغيير الحكومة وتبديل السياسة وأربابها، ولم يخطر ببالهم قط أن يغيروا هذا الأسلوب السمج الشنيع الذي يجري في عبارات أهل السياسة والأحكام منهم، فإن فيه من التكرار والمواربة والحشو ما يشهد عليهم أمام الله والناس بأنهم لا ذوق لهم ولا إلمام بشيء من الأدب.

ومن ذلك أنهم ينكرون على أهل اللغات المشرقية وخصوصًا اللغة العربية كثرة الاستعارات والكنايات، مع أن لغتهم تطفح بهما طفحًا، ولولاهما لضاقت بهم العبارة عن تأدية أكثر المعاني، وسيأتي الكلام على ذلك بالتفصيل، وإنما أقول هنا: إني لما أردت أن أترجم من قصيدتي التي مدحت بها الإمبراطور نابوليون قولي:

ولا تَخَلَّل وقت توأمي عِدة ‏ ‏ ‏ ‏ له وإنجازها بل قَلَّما سُئِلَا

قال المصحح: إن ذلك لا يكون مفهومًا بلغتهم، ولو جاء بهذه الاستعارة أحد مؤلفيهم لحسبت من البلاغة بمكان، ومن طبعهم في التأليف والكلام أن ينتقوا الألفاظ الجزلة الفخمة يكسون بها سخيف المعاني، فتسمع منهم جَعجعة ولا ترى طحنًا، وهذا داء فاشٍ فيهم أجمعين.

ومن ذلك أن نساء عامة الفرنسيس مع زهوهن وإعجابهن — إذ الزهو صفة عامة لجميع إناث هذا الجيل — تراهن يتعاطين من الأعمال الخسيسة ما تأنف منه أخس نساء الإنكليز، كتكنيس الطرق، وحمل الأحمال، وتنظيف الأحذية، وصيد السمك، والمناظرة على المراحيض، ونحو ذلك، لا بد من أن تخاطب كل واحدة من هؤلاء الخسيسات المبتذلات بلفظة «مادام»، فأما الستات المترفات من هذا الجيل فالعزة لله الواحد القهار، فإن ما نقص من مترفية سادة الإنكليز وجلالهم ومجدهم تلقاه فيهن وافيًا، فهن نساء صورة وشكلًا، ورجال أمرًا ونهيًا، وحيث قد استوفيت الكلام عليهن في كتاب الفارياق، فلا حاجة إلى إعادته.

وإنما أقول هنا: إنهن لا يعترفن بفضل الرجل على المرأة، فإنهن يقلن: إن الله تعالى لم يختص الرجل بمزية إلا وعوض المرأة عنها بأخرى، فجعل بين ذلك توازنًا حتى تستتب الألفة والوفاق بينهما، فمما اختص به الرجل القوة والشدة ليمكنه تحمل المشاق في تحصيل أسباب معيشته، فعوض المرأة عنها بالصبر والتجلد لمصالح بيتها وتربية أولادها، واختص الرجل ببسطة الجسم والمهابة، فعوض المرأة عنها بفتنة الحسن والروع، فمهما يكن الرجل متترعًا إلى السوء تردعه عنه من نظرات المرأة روادع، واختص الرجل بطول النظر والفكر في العواقب، فعوض المرأة عنه بالبديهة العتيدة، وسرعة الجواب المقنع، واختص الرجل بالشهامة وعزة النفس، فعوض المرأة عنه بالتصاون والحياء وهكذا.

ويحكى عن إحدى الخواتين أنها استأجرت مقعدًا في بعض الملاهي، حيث أريد إجراء التمثيلية المعروفة «بالبروفت» أي النبي، وكان الناس يتزاحمون إلى رؤيتها؛ لأنها كانت أول ليلة، فاتفق أن مرض زوجها بغتة، فأقبل إليها بعض أصحابها ليبدوا لها التأسف على حرمانها من الذهاب، وهي في خلال ذلك تتأوه وتفرك يديها، ثم قالت: إن هذا المخلوق لم يأتِ في عمره كله إلا ما يغيظني وسترون الآن أنه يموت عمدًا ليحرمني من الخروج إلى الملهى. ا.هـ. وفي الجملة فإن كل ما تفعله إحدى هؤلاء الخواتين فإنه يعجبها وأهلها وجيرتها، وأهل المملكة أجمعين.

(٢٩) أمة الفرنسيس

ولا شيء يعجبني من أحوال الفرنسيس أكثر من معرفتهم للناس، فإن هؤلاء الذين يخرقون على الإنكليز لو أقاموا بين الفرنسيس سنين لم تكسبهم مخاريقهم خرقة يسترون بها عورتهم أو رغيفًا يفثأ ضجرهم، واعلم أن أمة الفرنسيس أمة قديمة مشهورة مشهود لها بالفضل والتقدم في المعارف والمساعي العظيمة، حتى إن أهل المشرق أطلقوا اسمهم — أعني الإفرنج — على سائر سكان أوروبا، وكما أن بلادهم — ولا سيما باريس — لم تزل مقصدًا للناس في الكياسة والحضارة، كذلك ما برحت الممالك الشرقية منتابًا لهم، ولم تكن دولة من دول الإفرنج قبل استعمال البواخر تذكر بالنسبة إليهم، نعم إن الإنكليز اشتهروا في الهند منذ أكثر من قرنين، إلا أنهم لم يكونوا يجولون في بلادنا ولم يكن يرد إليها منهم غير القناصل، ولكن لم تكد خاصية البخار تعرف عند الكيماويين حتى ملأت سفائنهم البحار، وأمتعتهم وبضاعتهم جميع الحوانيت والأسواق، وحينئذ عرف أنهم ذووا كد واجتهاد، فأدركوا من تقدمهم في متقادم الزمن.

وقد جرت العادة بأن سكان الجزر أبدًا يكونون ناشطين إلى التجارة والأسفار، ضرورة أنهم لا يستغنون عن البرور الفسيحة، إلا أن الإنكليز لا يتطبعون بطباع أهل البلاد التي ينتابونها، ولا يتساهلون فيما يجدونه هناك من الأحوال المغايرة لأحوالهم والمباينة لطباعهم، بخلاف الفرنسيس؛ فإن بلاد الله كلها لهم بلاد.

والذي زاد هؤلاء أيضًا شهرة ونباهة هو أن نبغ أناس منهم تفردوا في عصرهم بمآثر ومزايا لم يشاركهم فيها جيل آخر: فمنهم شارلمان في العز والسطوة، فإنه دانت لعزه إيطاليا وجرمانيا، وكان فيصلًا عند جميع ملوك أوروبا، قيل إنه كان سعيدًا كأغسطوس، ومقدامًا في الحرب كأدريانوس، وهو أول من أنشأ مشيخة للعلوم في باريس، وكان هو من جملة أعضائها.

ومنهم لويس الرابع عشر في المجد والكرم، كان في شهرته بالغرب نظير هارون الرشيد في الشرق، وفي دولته نبغ كثير من العلماء والأدباء والفضلاء — وذلك كفينيلون مؤلف تليماك — خطب في الكنائس وهو ابن خمس عشرة سنة، ولد في ١٦٥١، وبوسوا الشهير في التاريخ والفصاحة، ولد في سنة ١٦٢٧، وموليير الشاعر البارع، ولد في ١٦٢٢، وبوالو وهو أيضًا من الشعراء المفلقين، ولد في سنة ١٦٣٦، وراسين وهو بمنزلة شكسبير عند الإنكليز، ولد في سنة ١٦٣٩، ولافونتين وهو وإن لم يحظَ عند الملك، إلا أنه كان من الفضل والعلم بالمكان الأعلى، ولد في سنة ١٦٢١، والأمير كوندي جعل قائد الجيش،

وهو ابن ٢٢ سنة، وقهر جيوش إسبانيا والنمسا وهولاند، ولد في سنة ١٦٢١ وغيرهم كثيرون.

ونبغ من قبله هنري الرابع الشهير في التدبير والإيالة، وقد مر ذكره، ومنهم فلتير في العلوم ولا سيما في التاريخ والأدب وسعة الاطلاع والعبارة، ولد في سنة ١٦٥٤، وفلني في التاريخ والأدب أيضًا ولد في سنة ١٧٥٧، وبوفون في الطبيعيات ولد في سنة ١٥٩٦، ودكرا في الفلسفة، ولد في سنة ١٧٤٩، ودلامبير في الهندسة، ولد في سنة ١٥٩٦، ومونتيسكيو في الفلسفة والأدب وعموم المعارف، ولد في سنة ١٦٨٩.

ونابوليون الأول، وناهيك باسمه واصفًا على أن الإنكليز الآن يتنافسون في كل شيء يقال فيه إنه فرنساوي، فإذا أرادت التجار منهم ترويج شيء من سلعهم كتبوا عليه فرنساوي، وكذلك أصحاب الملاهي يكتبون في أعلامهم أن مادام كذا تلعب الليلة في الملهى، وموسيو كذا يحكي كذا، وما تكون هذه المادام أو هذا الموسيو إلا منهم وفيهم، ولا تكاد ترى شيئًا في باريس مروجًا باسم الإنكليز.

ويمكن أن يقال: إنه لم تستتب في الدنيا واقعة خطيرة إلا وكان للفرنسيس فيها يد، فإنهم هم كانوا سبب الحرب المعروفة بالصليبية في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وذلك أن بعض ضباط الفرنسيس المسمى ببطرس الأرميت — أي الناسك — كان قد سافر إلى الأرض المقدسة في سنة ١٠٩٣، واجتمع ببطرك أورشليم، فشكا البطرك ما تقاسيه النصارى هناك من جور المسلمين، فلما فصل عن المكان أصحبه بكتاب إلى البابا أوروبان الثاني، فجرده البابا لأن يطوف على ملوك النصارى، ويحرضهم على القتال، فأخذت بقوله، وهاجوا لإرسال الجيوش، ثم قام من بعده راهب بريتاني اسمه أرلوان، ثم صان لويس.

ألا ولولاهم لم تستقل دولة أميريكا بأمورها كما نراها الآن، وتفصيله: أن دولة الإنكليز كانت قد كلفت المستوطنين في أميريكا من المكس والضرائب ما لم يكونوا يعهدونه، وكان الحامل للدولة على ذلك ما ركبها من الدين بسبب الحروب التي تقدمت كما يرد تفصيله، فلما بلغت الأوامر إلى بستان أو بستون تعصب أهلها على أن لا يدفعوا شيئًا مما لم تجرِ به العادة ثم عقدوا مجلسًا عامًّا ورأسوا عليهم جورج واشنطون، وفوضوا إليه التدبير والأمر.

وفي سنة ١٧٧٦ شهروا انفصالهم عن الإنكليز وبعثوا بنيامين فرنكلين إلى ديوان فرنسا ليعرض ما استقر عليه رأي القوم، واستنجدوا بالملك لويس السادس عشر،

فأرسل لهم اثنتي عشرة بارجة من طولون، فتوجهت البوارج إلى رود — وهي جزيرة كانت تدخر الإنكليز فيها جهاز الحرب — فما كادت تصل إلى هناك حتى ثارت عليها الرياح العواصف فبادت عن آخرها، ثم ذهب من فرنسا لإعانة الأميريكانيين كثير ممن شهروا بالبسالة والنجدة أشهرهم لافايت، وكان قد بلغ من العمر عشرين سنة لا غير، فلما وصل إلى هناك حظي عند واشنطون حظوة عظيمة، ووقتئذ اتفقت دولة فرنسا مع دولة إسبانيا بعد ما كان بينهما من المنافرة على إعانة الأميريكانيين، ثم أمدهم الجنرال روشامبو بستة آلاف من العسكر لاستخلاص جزيرة رود، ثم استخلصوا أيضًا مدينة يورك، واستأسروا من الإنكليز ثمانية آلاف، وعندها تم انعقاد الهدنة بين الدول، وجرى تحريرها في باريس سنة ١٧٨٣، انتهى ملخصًا من فلتير.

قلت: ثم اضطرمت الحرب بين الإنكليز والفرنسيس، فقام الأميريكانيون مقام من لا ضلع له مع أحد الفريقين، ثم اشتعلت أيضًا بين الإنكليز والأميريكانيين، وذلك في سنة ١٨١٢، فلم تنتهِ إلا بعد ثلاث سنين، قال في معجم الأوقات: أصل حروب فرنسا التي تغلغلت فيها الإنكليز نحو مائتي سنة نشأ عن أمراء نورماندي وهم ملوك الإنكليز، فإنهم كانوا يضبطون هذا الإقليم كأنه وَقْف لتاج فرنسا، حتى فتح وليم الأول إنكلترة فصارت هذه الولاية ملحقة بها، ولكنها انسلخت عنها في عهد الملك يوحنا، وذلك في سنة ١٢٠٤، قال: وقد تعددت حروبنا مع الفرنسيس ونصرنا عليهم نصرات متعددة.

وفي عهد هنري الرابع طُرد الإنكليز من فرنسا، وبعد أن خرجت من يدهم بقيت الحروب تعاقب المهادنة، والمهادنة تعاقب الحروب مددًا طويلة، فجملة ما وقع من الحروب بيننا وبينهم ثماني عشرة حربًا، وقد قضت الإنكليز ستًّا وخمسين سنة في الحرب، واثنتين وستين في السلم، فصرفوا في حرب سنة ١٦٨٨: ٣٦٠٠٠٠٠٠ ليرة، وفي حرب إسبانيا اثنين وستين مليونًا، وفي الحرب الثانية معهم أربعة وخمسين مليونًا، وفي الحرب التي دامت سبع سنين مائة واثني عشر مليونًا، وفي حرب أميريكا مائة وستة وثلاثين مليونًا، وفي حرب فتنة الفرنسيس أربعمائة وأربعة وستين مليونًا، وفي حرب نابوليون ألفًا ومائة وتسعة وخمسين مليونًا؛ فتكون جملة المصاريف في مدة مائة وسبع وعشرين سنة، وذلك من وقت الفتنة التي جرت في سنة ١٦٨٨ إلى آخر مدة نابوليون في سنة ١٨١٥: ٢٠٢٣٠٠٠٠٠٠.

وقد حسب بعضهم عدد القتلى من الفرنسيس في ست وقائع في حرب جرت بينهم وبين عسكر إسبانيا، فكانت ٦٠٠٠، ومثلها من أهل إسبانيا، وممن كان يتحزب لهم،

وبقيت أقطار البلاد عرضة للتخريب والمصائب من كل وجه. قلت: وقد بلغت مصاريف حرب الهند في هذه الأيام الأخيرة ٩٥٠٠٠٠٠.

أما نابوليون الأول فإنه دان له أكثر ممالك أوروبا، فقهر بروسية والروسية والسويد حين تواطئوا مع الإنكليز على حربه، ودخل مملكة بروسية منصورًا فاجتمعت عليه دول الروسية وأوستريا وبروسية وغيرهم، ثم عنوا لطاعته في مدينة درسدن، وكانت هذه خامس مرة تواطأت فيها الدول على خلعه، ثم لم تمضِ برهة حتى حشد جيشًا عظيمًا وتوجه بهم إلى الروسية، فلم يجد ممانعًا له حتى مدينة المسكوب، فلما أشرف عليها هو وجنده تعجبوا من كثرة ما فيها من الكنائس والقبب المذهبة؛ إذ كان فيها نحو ٨٠٠ كنيسة، فيها ألوف من الأجراس، فقال عند رؤيته ذلك: «هذه مدينة المسكوب، ثمرة تعبكم وجهادكم من زمن طويل، وهي تكون خاتمة مساعيكم وأتعابكم.»

ثم إنهم دخلوها فوجدوها خالية على عروشها، فإن ملكها كان قد أخلاها خدعة، فظن نابليون أن نصرته تحققت، وأن ملكه قد استتب، فلبث فيها أيامًا ثم لم يشعر ذات يوم إلا والنار تضرم في أطرافها، فلحقه من ذلك الفشل واضطر إلى إخلائها، فلحق به جيش الروس، وما كاد يتخلص منهم إلا بعد أخطار شاقة، فلما رجع إلى باريس رأى أهل الشورى قد تغيرت خواطرهم عليه، فاضطر إلى أن يخلع نفسه وسار إلى جزيرة أدلب، فخلفه في الملك لويس الثامن عشر، لكنه أبدى من سوء التدبير ما أمال خاطر بعض رجال الدولة إلى نابوليون، فجرت بينهم المكاتبة والمراسلة، ثم لم يشعر الناس بعد مدة إلا وهو يجول في البلاد، ويحرض حزبه على قتال العدو، وجعل يعدهم ويمنيهم، فمالت قلوب الناس إليه، فما برح سائرًا حتى دخل باريس، ففرحت به رجال الدولة، وفر منه لويس، ثم إنه جمع جيشًا عظيمًا وتوجه لقتال الإنكليز وبروسية عند فلوروس، فانتصر على جيش بروسية، فقتل منهم ٢٢٠٠٠، إلا أن عساكر أعدائه كانت أكثر عددًا من عساكره بأضعاف.

ثم زحف إلى قتال الإنكليز عند واطرلو، وكاد أن يظفر بهم لولا أن تداركتهم جيوش بروسية، فأحدقوا بعساكره، فلم يطيقوا الثبوت، ويومئذ تقطعت به أسباب الآمال، فجعل يتلقى رصاص البنادق والمدافع، وهو كاشف صدره، ومع ذلك فلم ينله ضير، فرجع منكسر الخاطر مهيض الجناح، فحكم أهل الشورى بخلعه، فعرض عليهم أن يقاتل العدو في رتبة أمير لواء، فأبوا فصمم على أن يسير إلى أميريكا، حتى إذا سار بشِرْذِمة من حزبه إلى روشفورت وكانت سفن الإنكليز تطوف هناك، أمسكوه وتوجهوا به إلى جزيرة صانت هيلان، وهناك قضى نحبه.

أما اتحاد بروسية مع الإنكليز، فكان سببه أن نابوليون كان يريد أن يعطي مملكة هنوفر للإنكليز في مقابلة صقلية، فهاجت حمية ملك بروسية على نابوليون، وبلغ من غيظ زوجته أنها كانت تركب وتدور في شوارع المدينة وتحرض الناس على القتال وهي مترديه بلباس الجند، ووقتئذ تواطأت الدولتان ودولتا الروسية وسويد على نابوليون، إلا أنه غلب الجميع، حيث دخل قاعدة مملكة بروسية منصورًا مظفرًا كما تقدم، فأما تواطؤ سائر الدول عليه، فإنما كان خوفًا منه أن يستولي على ممالكهم؛ إذ كان لا يرده شيء عما نواه، ووقتئذ سولت دولة الإنكليز لملك الدانيمرك أن يواطئها عليه، فأبى فأرسلت بوارجها إلى كوبنهاك، فأطلقت النيران عليها فهدمت منها ٣٠٠ بيت، واستولوا على بوارجها، وكانت ٥٣ بارجة، انتهى ملخصًا من فلتير.

ومن أبطال نابوليون المشاهير مورو الذي قهر إمبراطور النمسا وبدد عساكره، حتى اضطر إلى طلب المهادنة، فأجابه بشرط أن تنفصل دولة النمسا عن دولة الإنكليز، فإنهما كانتا متواطئتين على فرنسا، وسيأتي أيضًا ذكر نابوليون عند ذكر الأمير نلسون الإنكليزي وغيره في وصف لندرة.

وممن تفرد في البسالة والحماسة من هذا الجيل — أي الفرنسيس — جان دارك الشهيرة، وكانت في الأصل خادمة في بعض الحانات، وكانت تركب الخيل بلا سرج لجرأتها وقوتها، وتدعي أنها تقدر على استخلاص فرنسا من يد الإنكليز فأحضرت بين يدي دوك دورليان في برج، ثم بعد أن علم أنها بكر، وأنه كان يُوحى إليها، فوض إليها أن تقود جيشًا وتسير بهم لاستخلاص أورليان، وكانت حينئذ تحت حصار الإنكليز، فلما بلغت البلد ألقت خطابًا بليغًا على من معها من الجيش، وحرضتهم على قتال الإنكليز، فأخذتهم الحمية والحماسة، وتقدمتهم إلى القتال وبيدها راية، فلم تمضِ ساعات حتى هزمت جيش الإنكليز، واستنقذت البلدة.

قال في أبجدية الأوقات: لما كانت الإنكليز محاصرين أورليان زعمت جان دارك بأن الله أوحى إليها أن تطردهم منها، فقلدها شارلس الثامن تدبير الجيش، فسارت بهم إلى الموضع المذكور، وذلك في سنة ١٤٢٩ وضايقتهم حتى اضطرتهم إلى ترك الحصار، واستردت منهم عدة مدن كانت تحت يدهم، وهزمتهم في واقعة باتي المشهورة، ولم يكن أحد يجد فيها محلًّا للوم والقذف، فإنها جرحت عدة مرار.

حُكي — والعهدة على الراوي — أنها لما كانت ذات مرة سائرة مع أبيها في بستانه وهي بنت خمس سنين أبصرت حولها نورًا ساطعًا في الهواء فالتفتت فرأت صورة الملك

ميخائيل رئيس الملائكة، فأوعز إليها أن تكون مطيعة لما يجب عليها، وأن الله يحميها، فلما سمع أبوها بذلك وكان رجلًا شرسًا عاملها بالعنف والقساوة، حتى اضطرت إلى أن تفارقه وتخدم عند أرملة صاحبة فندق، وهناك أبدت من صدق السعي والإقدام على الأعمال ما فطرت عليه، فكانت تركب الخيل لتسقيها وتسافر في قضاء حاجة سيدتها من دون خوف، وكانت في الصلاح على أعظم من ذلك، قال المعلم سريس: إنه كان على طلعتها سيماء الحياء والبهجة واللين مع العزم والمضاء، وكان كلامها سديدًا والعفة قرينة أعمالها كلها، ثم إنها رجعت إلى بيت أبيها بعد خمس سنين وعادت إلى رعاية ماشيته حتى بلغت ثماني عشرة سنة، وكانت أمور فرنسا إذ ذاك على شفا جرف هار من البوار والخراب، وكان قد بلغ الجارية ما أصاب أهل بلادها من الضيم وملكهم من الهزيمة والفشل.

وفي غضون ذلك رأت ما ألم بمعارفها من البؤس بسبب الحرب التي وقعت في فرنوي، فكانت تبصر رؤى وتسمع أصواتًا سماوية أكثر مما كانت ترى وتسمع من قبل، إلى أن أرجف الناس بسقوط أورليان في يد الإنكليز إذ كانوا وقتئذ محاصرين لها، قال فأبصرت الملك ميخائيل والقديستين كاترينة ومرغاريت يحرضونها على أن تخصص نفسها لإنقاذ بلادها، فقالت: إني فلاحة مسكينة ولا دراية لي بمثل هذه الخطوب، فأكد لها الملك أنها تُعطى مقدرة وحكمة وأن القديستين تصاحبانها، وأن كل شيء يجري على وفق المراد، ثم ظهرتا لها أيضًا في نور عظيم وعلى رءوسهما تيجان بهية مرصعة ولهما صوت رخيم.

وكانت البنت تذكر رواية جرت بين الناس مجرى النبوة، وهي أنه كما أن خراب فرنسا نشأ عن امرأة شريرة — أعني إيزابلا — من بافاريا، كذلك يكون استردادها على يد بنت غير ذات عيب تتجرد لإنقاذ بلادها، وأن هذه المنقذة تأتي من وجه بواشسنو، ثم كثر توارد الأصوات عليها وكثر حثها لها، حيث كادت أمور فرنسا تختل بالكلية وأوشكت أن تكون في البحران وأشارت إليها أنها هي تلك البكر المعنية، فاستحوذ عليها الكرب والكآبة، وكانت كثيرًا ما تُرى باكية عند مفارقة الرؤيا لها، وكان أبواها لا يصدقان بما ترى، فأرادا أن يزوجاها منعًا لها عن الخروج مع الجند، فأعرضت عن عرضهما؛ حيث كانت قد نذرت البتولية، واتفق وقتئذ أن جماعة من حزب الإنكليز مروا بقريتها فنهبوها وأحرقوا الكنيسة، فاضطرت إلى الفرار مع والديها.

فلما رجعوا ورأت ما نزل بالقرية اشتد غيظها وجأشها فأمرتها الأصوات بأن تذهب إلى بعض الحكام في ذلك الجوار وتطلب منه أن يوصلها إلى الملك، وأنها إن لم

تفعل ذلك تعدم خلاص نفسها، وأنها حين تمثل في حضرته تخبره بأنها أرسلت لكف حصار أورليان ولتتويجه في رام، فقصدت الحاكم وطلبت مقابلته فأبى أولًا أن يراها فما زالت تلح عليه حتى أذن لها، فلما دخلت نظر إليها نظر المزدري وأمر خالها بأن يردها إلى بيت أبيها وأن تجلد، فقالت له: إن ذلك عمل سيدي ولا بد من إنجازه، قال: ومن سيدك؟ قالت: ملك السماء، فأيقن بأنها مجنونة وصرفها، فلبثت في تلك الجهة وكانت تبتهل في كل يوم وتقول: إن الأصوات تلح عليها بإنجاز العمل؛ فشاع خبرها في البلد فكانوا يهرعون إلى رؤيتها ويعجبون من تقواها وحسن سيرتها، فأرسل إليها أحد الأمراء أن تأتيه وتشفيه من داء به، فأرسلت تقول له: إني لم أبعث إليك، وإن الأصوات لم تذكر لي اسمك.

وفي جميع هذه الحوادث كانت أفعالها وكلامها على حد سوى، وكانت مالكة هوى نفسها فلم تكن تبدي شيئًا من الجفاء أو السرف وكان ذهنها يزيد صفاء وتوقدًا، ولم يكن لها مأرب سوى إغاثة أورليان وتتويج الملك، فعرض عليها أحد الرهبان أن يعضدها بامرأة زعم أن لها قدرة علوية فوق الطبيعة؛ فقالت له: لا حاجة لي بها، ثم قالت: من حيث إن الحاكم لم يكترث بي فأنا أذهب إلى الملك وحدي ماشية؛ إذ ليس أحد من الملوك يغيث فرنسا حتى ولا بنت ملك سكوتلاند فما من إغاثة إلا بي، على أني لو خيرت لاخترت المقام بدار أبي والغزل بإزاء أمي، ثم ألح الناس على الحاكم بأن يجيبها إلى ما طلبت.

قال: وبعد أن رش عليها القسيس الماء المبارك واختبرها وعلم أنها ليست بساحرة، أرسل معها بعضًا من خواصه فسافرت في شهر شباط من سنة ١٤٢٩، وكان الملك بعيدًا عن ذلك الموضع مسافة مائة وخمسين فرسخًا في أقطار مشحونة بالحرس والعسس والمخاوف، فركبت الجواد في زي رجل وتقلدت السيف وطمنت قلوب السائرين معها، فجابوا تلك النواحي من دون أن يصادفوا أحدًا من الأعداء، حتى إذا أشرفت على مقر الملك بعثت من يخبره بقدومها، فلما سمع بذلك اندفع في الضحك، وإن كان وقتئذ في حالة يصدق عليها قول من قال إنه يتعلق بحبال الهواء، فأشار عليه بعض وزرائه أن يقابلها، وسخر منها الآخرون.

وظل رجال الديوان ثلاثة أيام في هذه المذاكرة والملك لا يدري بأيها يجزم إلى أن قر الرأي أخيرًا على أن يؤذن لها في الدخول، ولأجل أن يختبرها تزيا بزي رجل من العامة، وجعل أحد خواصه في زيه، فلما دخلت خرقت صفوف الحشم والتبع حتى وصلت إليه وجثت بين يديه، وقالت: ملَّاك الله بالعمر أيها الملك الحليم، فتعجب وقال لها: لست أنا

الملك، وإنما ذاك وأشار إلى الوزير، فقالت: باسم الله ليس الملك إلا أنت أنا جان العذراء أرسلني الله إليك لأغيثك والمملكة، وعن أمره أبين لك أنك تتوج في مدينة رام، فأخذها الملك ناحية وبعد أن ذاكرها هنيهة قال: لقد أطلعتني على أمور لم يكن أحد يعرفها إلا الله تعالى وإلا أنا، وأني أول من صدق بأنها أرسلت لإنقاذ المملكة.

وقال فلتير في كتابه الذي سماه «لابوسل درليان»: إن الملك سألها عما جرى بينه وبين محبوبته في تلك الليلة، ولعل ذلك تهكم منه على عادته. قال الراوي: وفي الغد القابل رآها الناس علانية على جواد تُرَكِّضه وتضبطه أحسن ضبط، وكانت تعتقل الرمح وتبدي من الفروسية ما لم يُعهد لغيرها، وكانت مهفهفة القوام ولها شعر أسود مسترسل على كتفيها، وعمرها في حد سبع عشرة سنة، فعجب الناس لما شاهدوها على هذه الحالة وهتفوا بأصوات عالية تنبئ عن تصديقهم لها.

غير أن الملك لم يستخلص سريرتها فأمر بأن يمتحنها جماعة من الأطباء والمتكلمين، فألقوا عليها مسائل صعبة مدة ثلاثة أسابيع، وحاولوا أن يعرقلوها بالكلام، وكان ذلك عبثًا، فإنها أصرت على قولها الأول وهو أنها إنما أرسلت لكف حصار أورليان وتتويج الملك في رام، وكانت وقتئذ بيد العدو، ولم تزد على هذا شيئًا فاقترحوا عليها آية فقالت: أرسلوني إلى أورليان مع جماعة من العسكر تعلموا حقيقة ما أقول — أعني كف الحصار — وكانت حين تنصرف من عندهم تقضي أوقاتها بالدعاء والخلوة، حتى إذا فرغوا من إلقاء المسائل عليها على أنواعها ونضحت بالماء المبارك عادت متسلحة من الرأس إلى القدم في زي الفرسان الأقدمين، فكانت تركب الجواد ورايتها أمامها والرمح بيدها وتبدي من طرق الفروسية ما يعجب الجيش.

وكان أهل أورليان إذ ذاك في كرب شديد، وكانوا قد سمعوا بخبر الفتاة، فأرسلوا يطلبون مددًا، والتمسوا بأن تكون الجارية على رأس الجيش، فطلبت أن تُعطى سيفًا قديمًا زعمت أنه موضوع في قبر في كنيسة القديسة كاترينة، فبُحث عنه وسلم لها فتقلدته، وسارت مع جماعة من مشاهير ذوي الأمر والنهي بفرنسا، وأول ما بلغت المعسكر طردت منه النساء الدنيئات اللائي كن يصحبنه، وحتمت على كل جندي بأن يعترف ويتناول، ثم سارت بالجيش إلى أورليان، وسار صيتها بين يديها فاستقبلها الإنكليز أولًا بالاستخفاف والاحتقار ثم بالخوف الخفي، وأخيرًا بالرعب الذي تمكن فيهم، فكانت تأمر الجيش بالتقدم على مقتضى تبليغ الأصوات.

واتفق مرة أنها أمرتهم بالزحف على البلد من جهة يمين الشط إلا أن أحد الضباط ممن لم يكن له اعتقاد بها أنزلها في فلك هي والجيش، وأخذ جهة اليسار؛ مخافة أن

يقابل المحاصرين من الإنكليز في الجهة التي رسمت بها، فثارت عليهم ريح عاصفة اضطرتهم إلى الرجوع وإلى أن يأخذوا عين الطريق التي أمرتهم بها، أما أهل البلدة فحيث كان قد بلغ الضنك والجوع منهم كل مبلغ استقبلوها بالمشاعل والإكرام، واحتفلوا بها غاية الاحتفال لاعتقادهم أن نجاتهم تكون على يدها، وصنعوا لها وليمة فاخرة لكنها أبت أن تنال منها، وآثرت أن تتعشى في دار خازن مال الملك على الخبز مبلولًا بالخمر، فاستحوذ الرعب على قلوب الإنكليز، وكانوا قد سمعوا مذ شهرين بأنها قادمة لمحاربتهم حيث كانت كتبت إلى رئيسهم تنذره بأن الله أمرها بطردهم من فرنسا، واختلفت فيها الآراء والمذاهب فاعتقد الفرنسيس بأنها رسول من السماء، واعتقدت الإنكليز بأنها رسول الشيطان، ثم قالوا: إن تكن من البشر فنحن لا نخاف بشرًا، وإن تكن من الشيطان فلا قبل لنا بها، فاجتهد رؤساء عسكرهم في إزالة هذا الوهم الذي أثر في الجيش بقولهم: إنها دنيئة الأصل وجاهلة، وإن هي إلا آلة استعملها الفرنسيس ليهولوا بها عليهم، ولكن كان ذلك عبثًا فإنهم اعتقدوا أنها من أعظم السواحر ورسخ تأثير ذلك فيهم، فكانت حيثما تظهر تفر منها عساكرهم، فجعل الفرنساويون يدخلون ويخرجون بلا مانع.

وزحفت مرة على الإنكليز وهي راكبة جوادها الأبيض، وأمامها رايتها البيضاء، ووراءها جوق من القسيسين يرتلون، فغشيهم من الدهشة والرعب ما غشيهم، ثم نصبت سلالم على برج طورنل، وارتقت فيه ودعت من كان فيه من عسكر الإنكليز إلى أن يخلوه أو يحيق بهم شر، فشتمها أحد الأمراء وعيرها رعايتها البقر، فقالت له: بئس الفارس أنت، إنك غير جائز من هنا، إنما أنت مقتول، ثم أمرت جندها بأن يهجموا هجمة واحدة، وكانوا حينئذ قد نشموا في الحسد لها فواعدوها إلى غد ليكون الفخر كله لهم، فانصرفت لتستريح فما هو إلا أن نزعت درعها حتى نهضت ولبسته، وقالت: قد أمرتني الأصوات بالقتال فالبدار البدار، ثم لما أقدمت رأت الفرنسيس مرتدين على أعقابهم؛ إذ كانوا هجموا من دون علمها وقد هلك منهم كثير، فاشتد غيظها وتقدمت الجند بنفسها، وأخذت تحض على صدق الحملة فاستخلصت ثلاث قلاع ثم سارت إلى برج طورنل وتهددت جميع من يخالفها بالعقاب فواطَئُوها حينئذ مواطأة رجل واحد.

وهجمت عليه فمانعها الإنكليز ممانعة قوية فلم ينقص ذلك من عزيمتها شيئًا، وأعلنت أن الله قد سلم الإنكليز ليد الفرنسيس، ثم أخذت سلمًا وركزته عند حضيض البرج والرمي عليه متواصل، وأخذت في الارتقاء فأصابها سهم نفذ في درعها ما بين صدرها وكتفها، فانطرحت في الخندق، فأهل الإنكليز من فرحهم وظنوا أنها ماتت

ثم حُملت إلى المقدمة وأخرج منها السهم، فأفاقت وجثت تصلي، ثم عاد إليها نشاطها فنهضت، وقالت: ليس ما قطر مني دمًا وإنما هو ظفر، وإن الأصوات تدعوني إلى إتمامه، ثم استأنفت القتال بأشد صولة وأمنع بأس، فلما بصر بها الإنكليز فشلوا وخاروا، فقتل منهم يومئذ ستة آلاف رجل من جملتهم ذلك الأمير وغيره ممن أنبأت بهلاكهم، فعقد أحد قواد الإنكليز المسمى صفولك مجلس مشورة وفاوض أصحابه في الحرب.

فلما رأوا هلع الجند عزموا على كف الحصار، حتى إذا كان اليوم القابل جمع الجند كلهم وعبأهم للقتال، وأوهم أنه يبدي ممانعة ومغالبة وهو في الواقع منسحب بالجيش، ثم بعث إلى الفرنسيس أن ينازلوه بأنثاهم سواء كانت فاجرة أو نبية أو ساحرة، فرسمت الجارية على العسكر بأن لا يفارقوا البلد لأنه كان يوم الأحد، وأن يقضوا النهار بالعبادة لله الذي نصرهم، فانتظر صفولك ساعات فلما لم يأته أحد أحرق البرج وما حوله، وانسل بعسكره فنهت الجارية جندها عن أن يعقبوهم وعند ذلك أسرعت للقاء الملك في بلوى، وكانت في ممرها تزدحم عليها أهل القرى لمس قدمها أو ثيابها أو في الأقل لمس جوادها فاستقبلها رجال الديوان بغاية الإكرام، وأمر لها الملك بمأدبة فقالت له: ليس الآن وقت القصف والرقص واللذات، فإن عليَّ بعد أن أسعى لفرنسا ومدتي قريبة؛ لأن الأصوات أنذرتني بأني أموت بعد سنتين.

ثم دعته ليتقدم معها إلى رام لتتوجه وتترك الإنكليز في يد الله، فتقدم الملك بمن عنده من الجند حتى وصل إلى لوار، ثم ارتأى أن يخرج الأعداء أولًا من المعاقل والحصون ليأمن السير إلى تلك الطية، فسارت بالجيش إلى جارجو حيث كان صفولك مخيمًا بعسكره، فقاتلتهم عشرة أيام حتى استولت على المحل عنوة، وقبضت على صفولك أسيرًا، وكانت هي أول من ارتقى في السلم، وعند بروز رأسها بادرها أحد الجند من داخل الحصن بضربة جندلتها في الخندق فصرعت حتى لم تقدر على النهوض، وأَلِمَتْ جدًّا لكنها كانت تصرخ وتقول: تقدموا يا رجال ولا تخافوا شيئًا فإن الرب سلمهم ليدنا، فدخلت الحمية في قلوب الجند لبسالتها وثقتهم بكلمتها، فهجموا هجمة شديدة واستولوا على البلد؛ فقتل من الإنكليز يومئذ ثلاثمائة رجل.

فلما بلغ الخبر مسامع الأمير طلبو الإنكليزي أخلى جميع البلدان وانصرف إلى باريس، ثم سارت إلى باتي فتلبث جندها هناك ينتظرون مددًا من الفرسان، فقالت لهم: دعوا التلبث وأقدموا فليس عليكم إلا أن تضربوهم، ثم زحفت عليهم فحاق الفشل بالعدو من كل وجه، مع أن رماتهم كانوا من أحذق الرماة ولطالما أثخنوا الفرنسيس،

فقتل منهم في ذلك اليوم ألف ومائتا رجل، وكان حزب كبير من القسيسين ينتظرون الملك والجارية ليوصلوهما إلى البلد.

وفي الخامس عشر من تموز سنة ١٤٢٩ سارا ومعهما رؤساء الضباط والقواد، وبعد يومين توج الملك في الكنيسة ففرح الناس واستبشروا بطيب العيش والراحة، وتمكن اعتقادهم بها فكانوا يرون حول رايتها حيثما سارت أسرابًا كثيرة من الفراش الأبيض البهيج، وبهذه الراية كانت واقفة على رأس الملك عند التتويج، ولما فرغ من تتويجه جثت عند قدميه وعانقتهما وهي باكية، وقالت: الآن تم سعيي وكل ما وعدت به باسم الله فقد أنعم به، فألتمس من الملك أن يُطْلِقني الآن لأذهب إلى بيت أبي وأسير سيرتي الأولى، فأبى الملك ذلك إذ رأى أن خلاص الأمة متوقف عليها، وأنها فعلت في الزمن القصير ما لا يفعله غيرها في الزمن المديد، إلا أنها من تلك الساعة تغيرت أحوالها بالكلية، فإن الروح فارقها وانقطعت عنها الأصوات، وذهب عنها ذلك الرأي الرشيد، واستحوذ عليها الغم والابتئاس؛ فكان إذا طُلب منها أن تقضي أمرًا تضطرب أفكارها فيه، وإذا أمرت بشيء ترتاب وترجع فيه، فأعادت الالتماس من الملك وهي جائشة النفس سكرى العين لأن يأذن لها في الانصراف لأن عملها قد تم.

وكانت قد علقت دروعها في كنيسة رام إشارة إلى أنها قضت ما وجب عليها، فأشار الملك عليها بأن تلبسها فامتثلت أمره، إلا أن ضباط العساكر حينئذ كانوا قد أضمروا لها السوء حسدًا، فصاروا يشنعون عليها ويسيئون معاملتها، وأغروا العساكر بأن تنبذها بالألقاب الذميمة، لا بل حاولوا أن يهتكوا حجابها ليفضحوها بين الناس ويكفوا كلمتها عنهم فردتهم أقبح الرد.

ولم يكن يجالسها سوى النساء العفيفات، ولا تنام إلا ومعها امرأة في الفراش، ثم أشارت على الملك بأن يتوجه إلى باريس فسار، وعنت له بلدان عديدة حتى وصل إليها وأمر بالهجوم على فوبور دو صانت أونري، فجرحت البنت هناك وصرعت مدة ساعات، ثم قامت وعلقت دروعها مرة أخرى، وطلبت من الملك الانصراف فأبى ووعدها بأن يرقيها في رتبة شريفة ويجري عليها وظيفة الأرل، وأن يُعفي قريتها من الخراج أبدًا، فأجابت إلى ذلك، ثم في تلك الأثناء قام راهب اسمه ريشارد ومعه امرأة زعم أنها نبية، وأخذا يحثان الناس على جمع المال إمدادًا للملك، فأبت جان أن تواطئهما، وقالت: إنما النجاح على أسنة الرماح.

وفي سنة ١٤٣٠ سارت بأمر الملك لكف الحصار عن كومبان، وكان عليها دوك برغندي فسارت على عادتها في الإقدام والبسالة، إلا أنها لما أوقعت بالمحاصرين خذلها

أتباعها، فلما قاربت باب المدينة رماها أحد الرماة فوقعت على الأرض واستسلمت للأمير فندوم، فذاع خبر أسرها في جميع الأمصار فوردوا ينظرون إليها، وخذلها الملك لؤمًا منه، ولم يسعَ في افتكاكها، ثم باعها فندوم للكسمبوروغ، وباعها هذا للإنكليز بعشرة آلاف فرنك، وتخلى عنها معارفها، وتواطأ الناس على إحراقها كساحرة، وكان أهل باريس يشمئزون من ذكرها؛ حتى إنهم أحرقوا مرة امرأة لقولها: إن جان رسول من السماء. وفي الثالث عشر من شباط سنة ١٤٣١ أقيمت عليها الدعوى، فأحضرت في الديوان ست عشرة مرة، وألقيت عليها المسائل المعرقلة الرابقة من كثير من القسيسين وفقهاء الشرع والأطباء، وكانوا زهاء مائة، وبذلوا كل ما عندهم من الدهاء في أن يتصيدوها بكلمة تدل على أن فعلها الذي فعلته كان بقوة الشيطان، فلم تنطق بشيء كما توقعوا، ولبثت صابرة متجلدة وهي تقول: إن الله هو الذي قيضها لذلك حتى أفحمت قضاتها غير مرة فسألوها عن الكنيسة، فقالت: إني ما زلت مواظبة على العبادة فيها، ولكني كنت أطيع الأصوات حين كانت تأمرني بشيء مخالف لها، فحكم عليها أهل الديوان بأنها مبتدعة، وصوب ذلك أهل مجلس الشورى والمدارس والأساقفة.

فلما صدر الحكم بسجنها أخذ الرهبان يترددون عليها وينذرونها هول يومها، ثم أخرجت يومًا وجعلوا يقبحون عليها فعلها ويشنعون على الملك، فعند ذلك ثارت حميتها إلى تبرئة الملك والمناضلة عنه، فحكم عليها بالسجن المؤبد، وأن تقتات بالخبز والماء فقط، ثم حكم عليها أن لا تتردى بلباس الرجال، وهُددت بأنها إذا خالفت ذلك يوجب عليها القصاص بالموت، ثم كادوا لها مكيدة، وهي أنهم كانوا ينزعون عنها ثيابها عند النوم ويضعون مكانها ثياب الرجال، فكانت إذا رأتها تلبث في الفراش إلى أن تضطر إلى القيام فتلبسها إذ لم يكن عندها شيء غيرها، وبينما هي كذلك ذات يوم إذ هجم عليها الحراس واستاقوها وهي في هذا الزي إلى الضابط، فحكم عليها بأنها حنثت في يمينها، وأنها جديرة بالإحراق، ثم أعيدت إلى السجن فأقرت لله بذنب ضعفها وفشلها في كونها لم تصرح غاية التصريح بأن قدرة الله هي التي ساقتها لعمل إرادته في إنقاذ فرسا، فعاودتها الأصوات فامتلأت عند ذلك شجاعة ورأت رؤى بهية إلا أنها حين أخرجت ورأت ما أعد لها من العذاب المهول خارت قواها، فسيقت إليه وهي تَئِن وتتأوَّه.

ثم أضرمت النار وأدخلت فيها فجعلت تدعو إلى الله وتبتهل حتى إن عدوها الكردينال بوفور لما شاهدها على هذه الحالة لم يطق بعد أن ينظر إليها، فقام عجلًا هو ومن كان معه من الأساقفة والدموع منحدرة من مآقيهم، وكان إحراقها في الثلاثين من

شهر أيار من السنة المذكورة في موضع يقال له لابلاس دولا بوسل، أي موضع البكر، وذري رمادها في نهر السان، ثم بعد عشرين سنة قام مطران باريس، ومطران رام، فنقضا الحكم الذي جرى عليها وأثبتا براءتها. ا.هـ.

قلت: وقد وجدت هذه القصة المحزنة في تاريخ بلاد الإنكليز، فنقلتها بتمامها لغرابتها، ثم وجدتها في كتاب آخر مروية بعبارات مخالفة لما تقدم بعض الخلاف، ولا غرو فإنه لا يكاد راويان يتفقان على رواية واحدة أو على رأي واحد، وكيفما كان فإن ما جرى على هذه الفتاة التي تفردت بهذه المزايا الحسنة يبقى معرة وخزيًا على أسماء جميع الذين تسببوا في إهلاكها، سواء كانوا من الفرنسيس أو الإنكليز، على أن موتها لم يفد الإنكليز فائدة كبيرة؛ لأن أهل فرنسا إذ ذاك كانوا قد تنشطوا إلى مغالبتهم ومقاواتهم بعد أن ذاقوا طعم الفوز والظفر، وسرى فيهم روح الحمية للذب عن أوطانهم، وبما ذكر تعلم أن الناس في ذلك العصر كانوا متسكعين في ظلام الجهل والوسواس، فكانت الأساقفة وأهل المدارس أقل كياسة من عامة هذا العصر.

قلت: ولولا نابوليون هذا العصر لم يبقَ للبابا كرسي برومية، ولم يقف في وجه الروس واقف، وذلك مستغنٍ عن البيان، ولم يقم أحد في بلاد الإفرنج كلها من برع في اللغتين العربية والفارسية مثل البارون دساسي، ولم تقم امرأة تؤلف الكتب النفيسة مثل مادام جورج ساند، وليس الآن من شاعر في أوروبا يقارب طبقة دولامرتين، ولا من مؤلف ينظر بأوجان سو، أو بألكسندر دوماس.

فهذه بعض دراري جيل الفرنسيس الغابرة والحاضرة التي بزغت في أفق المعالي، ولم يكن لها في عصرها ند ولا مثيل، على أنه لا ينكر أيضًا أن قد نبغ من الإنكليز وغيرهم كثير من الفلاسفة والحكماء والعلماء والأدباء ممن أشرق بهم الزمان ولهج بحمدهم اللسان.

(٣٠) ما يميز باريس عن لندرة

ثم أقول أيضًا: إنه قد ظهر لي على قدر ما أدركته أن كثيرًا من المصالح في باريس أحسن استتبابًا وانتظامًا منها في لندرة.

أما أولًا: فإني مكثت في هذه نحو ثلاثين شهرًا، ولم أسمع عن بيت فيها أنه احترق إلا مرة فقط، وفي لندرة لا تكاد تخمد عن إحراق دار أو دكان أو معمل ونحو ذلك، ففي سنة ١٨٥٦ وقع فيها وفي ضواحيها ٩٥٧ حريقة، منها ٣٩٣ حريقة كانت متلفة جدًّا،

وبلغ عدد الحرائق في فرنسا كلها في مدة ثلاث سنين، وذلك من سنة ١٨٦٤ إلى آخر ١٨٦٦: ٢٢٠٣٨.

نعم، إن ديار باريس هي من الحجر، وديار لندرة من الآَجُرِّ غير أن أثاثهما من جوهر واحد.

والثاني: إنه لا يعرف في باريس تداول نقود زائفة، أو كواغد بنك مزورة، وفي لندرة كثيرًا ما يقع ذلك، وإذا دفعت إلى تاجر فيها قطعة من الفضة أو الذهب فلا بد وأن يختبرها.

الثالث: إن ارتكاب القتل في باريس بالنسبة إلى لندرة نادر جدًّا، لا سيما الآن؛ حيث أجازت دولة إنكلترة للخلعاء والمنفيين أن يرجعوا إلى بلادهم بعد انقضاء مدتهم.

الرابع: ثقب الديار والحوانيت والطر والاختلاس من الديار والمحترفات والدواوين، ولا سيما البوسطة فهو على نسبة القتل.

الخامس: العوارض التي تحدث للمسافرين في الأرتال، فإنها في بلاد الإنكليز كثيرة، وألحق بها أيضًا العوارض التي تقع في طرق المدينة بمرور الحوافل والعواجل وسائر أنواع المراكب.

السادس: المضار التي تحدث من بيع السم والمسبت والمأكولات المنتنة والمشروبات الكريهة، فإنها في لندرة بلية من بلايا الله، وألحق بذلك رخصة العطارين والصنادلة في بيع الأدوية من دون وصف الطبيب، وبيع المفاتيح لأي ما كان.

وفي باريس يجب على المحتسبين أن يسعروا الأصناف، ويختبروا الحليب والخمر والدقيق واللحم والسمك وما أشبه ذلك على حين غفلة من الباعة، فإذا وجدوها مغشوشة أو فاسدة غرموهم وشهروهم في صحف الأخبار، ولا يباح أيضًا بيع الفاكهة فجة، وذلك كله في لندرة موكول إلى إدارة الباعة، فلا تكاد تجد شيئًا خالصًا، حتى إن الجنازة في باريس مسعرة من الديوان، فأقلها خمسة فرنكات، وأغلاها ٣٣٦٨ كذا في غالنياني.

السابع: تولية المراتب من يستحقها، فإن دولة فرنسا لا تولي جاهلًا مرتبة إلا ما ندر، فأما عند الإنكليز فتولية المراتب إما تكون بالمحاباة والاختصاص أو بتعريضها للبيع، وهذا الأخير مستفيض في مراتب العساكر البرية، وما زال الناس يمنون أنفسهم

بإصلاح هذا الخلل، وما برح كتاب الأخبار يندِّدون به وينصحون أرباب الأمر والنهي بتلافيه.

الثامن: ترتيب الشرطة حيث يزدحم الناس كالملاهي والمراقص ومواقف سكة الحديد، فإن أكثر هذه الأماكن في لندرة لا يكون فيها شرطي أو يكون وراء الباب، فترى الناس يضغط بعضهم بعضًا عند دخولهم الملهى، وغير مرة رأيت نساء يغشى عليهن في الزحام، وغير مرة يموت عدة أولاد، ومنهم من يستهزئ، ومنهم من يضحك، وفي داخل الملهى ترى الأوباش يصفرون ويزيطون ولا وازع يردهم، فأما في باريس فلا يخلو مكان من أحد هؤلاء الشرطة، وترى الناس في الملاهي ساكتين منصتين فكأنما هم في الكنيسة، ومع ذلك فإن الإنكليز يفتخرون بقولهم: إن «جون بول» لا حاجة له بالشرطة؛ لأنه مطبوع على الترتيب، وهيهات؛ فإن أوباشهم أرذل خلق الله.

التاسع: تعهد ديوان المدينة بما فيه حفظ الصحة وبسط النفس وراحة العباد، فيدخل في ذلك ترتيب المستشفيات، فهي في باريس أحسن وأنظف، والمقابر فهي هناك لا تكون إلا خارج البلد، وفي لندرة كانوا يدفنون الموتى في ساحات الكنائس، ولم تبطل هذه العادة إلا منذ ثلاث سنين فقط، ثم المناصع — وهي المواضع التي يتخلى فيها الإنسان للبول أو لقضاء الحاجة — فالأولى في لندرة قليلة جدًّا على رداءتها، والثانية معدومة رأسًا، ثم تنظيف الطرق، فإن طرق لندرة عند وقوع الأمطار تكون لكثرة المارين وحلة للغاية، وليس من يرى في ذلك مشقة ولا شيئًا، ثم وجود مقاعد يستراح عليها، ففي باريس كلما أعيا الماشي وجد دكة أو مصطبة يجلس عليها، وفي لندرة لا يمكن للإنسان أن يقعد إلا في بيته أو في محل قهوة، وبئس ذلك مقعدًا، ثم التطريب بآلات الموسيقى ففي باريس تضرب العساكر بهذه الآلات في عدة مواضع، وخصوصًا في الآحاد والأعياد، وفي لندرة لا شيء من ذلك، وقد عزف بها بعض أيام في إحدى الغياض المنتابة، فأبطلها رئيس المطارنة بدعوى أنها مناقضة لنص الإنجيل.

العاشر: وجود دكاكين في باريس في أي موضع كان، سواء كانت للأكل أو الشرب أو غير ذلك، وفي لندرة جميع الحارات التي يسكنها الكبراء والأغنياء خالية من الدكاكين، فإنهم يرسلون خدمتهم إلى الأسواق ليشتروا منها ما يلزم، أو تأتيهم المؤنة مرتبة من عند أصحاب الدكاكين.

الحادي عشر: النظر في أمر المومسات، فإنهن في باريس يمتحن في كل أسبوعين، فإذا رأى الطبيب إحداهن مريضة بالداء المعروف، أرسلها إلى المستشفى لتتداوى هناك؛

فلا تخرج منه إلا بعد أن تشفى، فأما في لندرة فقد تطوف المومسة والداء أفسد آرابها وأحشاءها، فيمكن أنها في ليلة واحدة تعدي جمعًا، ولا جرم أنه حيث كانت هذه المفسدة في المدن الجامعة مما لا يستغنى عنه، وكانت هؤلاء المتهالكات على الدينار وقاية لعرض الحرائر، كان النظر في أحوالهن يعد من المصالح، ولا سيما إذا أبيح لهن التطواف آناء الليل وأطراف النهار كما هو الواقع في لندرة، أما في باريس فلا يباح لهن التطواف في الليل بعد الساعة العاشرة.

الثاني عشر: إباحة استعارة الكتب من المكاتب الملكية في باريس، فإن المعروفين عند ناظر المكتبة يمكن لهم أن يستعيروا كتابًا ليطالعوه في بيوتهم ويستفيدوا منه، وفي لندرة لا يباح ذلك.

الثالث عشر: سهولة تحصيل العلم والصنائع، أما الأول؛ فلكثرة المدارس وحسن ترتيبها ورخصها بالنسبة إلى غيرها، حتى إن الإنكليز يبعثون أولادهم إلى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله في بلادهم، وأما الثاني؛ فلأن الأب إذا شاء أن يعلم ابنه حرفة هنا اتفق مع أحد الصناع على أن يبقيه عنده ثلاث سنين، ففي أول سنة يعطيه شيئًا في مقابلة التعليم، وفي الثانية يكون شغل الولد مقابلًا لتعليمه، وفي الثالثة يبتدئ أن يكسب شيئًا، وفي لندرة يلزم المتعلم أن يبقى عند معلمه سبع سنين ومصروفه في خلال ذلك ثقيل على والده.

الرابع عشر: الحماية الجنسية، فقد أسلفت لك أن حماية الإنكليز لا تفيد إلا لشراء الأملاك، وهناك أمور أخر غير هذه تراها في باريس، على أحسن انتظام، وذلك ككيفية تبليغ البريد الرسائل، وكيفية إيقاد الغاز، وتسعير المأكول والمشروب، وترتيب الحمالين مما هو في لندرة مغفل أو مضيع.

قال بعض الفضلاء: الحاكم في فرنسا هو خصم المذنب، فلا يصح للمُفترَى عليه أن يصفح عن المفترِي، وعند الإنكليز يلزم المصروف أو يطلق الجاني، وعلى كل نوع من الضرب قصاص، وعند الإنكليز يغرم من دون قصاص، وكل بلد هناك له صندوق ينفق منه، وآخر للإيراد، وله ديوان مكس على المأكول خاصة، فلا تتكلف السكان بشيء، وفي لندرة يجب على السكان إصلاح الطرق وتجهيز الماء والنور وغير ذلك، وفي فرنسا معاش القسيسين والقيام بمصاريف الكنائس مرتب من خزنة الدولة، وهنا موكول على الرعية.

وهناك ديوان للتجارة، وآخر للجرائر، وآخر لأحوال متنوعة، وهنا ديوان واحد، وهناك طبع التجار مائل إلى المناقشة والنزاع على أشياء لا طائل تحتها، وهنا جل التجار

متكبرون شيمتهم الضبط والرشد، وهناك ترى الفقراء أعداء الأغنياء، وهنا يهابونهم ويكرمونهم، وهناك ترى القوانين والأحكام أقوم وأعدل، إلا أن الذين يباشرونها ويجرونها هنا أصلح وأفضل، وهناك تقضي الناس سائر أوقاتهم خارج منازلهم، وهنا بعكس ذلك، وهناك يطمع التاجر الكبير في ربح كثير لقلة تجارته، وهنا يجتزئ بالقليل من الكسب لكثرة تجارته، وهناك تختلط الأكابر بالأصاغر، وهنا كل ينحاز إلى شكله ونده، وهناك تفتخر الشبان بالفجور، وهنا يأتونه اضطرارًا، وفي هذا القدر كفاية.

(٣١) رأي في الإنكليز والفرنسيس

قلت: وهنا يحق لي أن أقول في الإنكليز والفرنسيس ما قاله الآمدي في أبي تمام والبحتري، وهو: إن الجيد من الإنكليز خير من الجيد من الفرنسيس، والرديء من هؤلاء خير من الرديء من أولئك، ومآل الكلام أن عامة الفرنسيس أفضل، وأن خاصة الإنكليز أجل وأمثل.

واعلم أن الفتن والمعامع التي وقعت في فرنسا — ولا سيما فتنة سنة ١٧٩٣ — قد غيرت كثيرًا من أخلاق هذا الجيل، فما يقال عنهم من البشاشة والأنس والاحتفاء بالغريب فليس على إطلاقه، كذلك سمعته منهم، نعم هم أبش من الإنكليز.

(٣٢) التوجه إلى لندرة لمشاهدة معرض التحف

هذا؛ ولما كنت ذات يوم مفكرًا في وحشة الغربة ومقاساة تعلم اللغة بعد أن ولى عني نشاط الشباب والأهلية إلى الاحتكال، إذا بالحوري غبرائيل جبارة دخل عليَّ وفي طلعته من البشر والطلاقة ما يترجم عما انطوى عليه من حسن الأخلاق، فإن الخَلْق كثيرًا ما يدل على الخُلُق، ثم بعد أن دارت بيننا كئوس المنافثة، قال لي: إني أود أن أذهب إلى إنكلترة، فهل لك أن تكون لي رفيقًا؟ فإنني أجهل لغة القوم وأحوالهم، والآن يذهب الناس إليها من جميع الأقطار لمشاهدة معرض التحف بلندرة وهو المسمى عند الفرنسيس أكسبوزسيون، فأجبته إلى ذلك، وسافرنا من باريس إلى كالي وذلك في تاسع شهر جون، ومنها إلى دوفر.

ودوفر هذه أول ما نزل فيها يوليوس قيصر حين غزا بريتانيا، وذلك في سنة ٢٦ قبل الميلاد، وفيها قلعة قيل إنها من بنائه، ومدفع يعرف بداغري — من «داغ» طبنجة —

جيب الملكة إليصابت أهدته إليها دولة هولاند، وهو مدفع عظيم من نحاس طوله أربع وعشرون قدمًا، ويومئذ طلب منا إبراز الجواز؛ وذلك لكثرة الذين كانوا يردون إلى بلاد الإنكليز، ثم سرنا إلى لندرة فوجدت أجرة المساكن وثمن المأكول والمشروب على ضعفي ما كنت أعهده، وثاني يوم وصولنا وقع من المطر والبرد ما لا يقع في الشتاء، حتى زعمنا الغزالة من طول المدى خرفت.

ثم توجهنا إلى معرض التحف، وكان سبب إنشائه أن الفرنسيس كانوا عقدوا مجلسًا في باريس لأجل عرض بدائع الصنائع، ثم تكرر ذلك مرارًا حتى أغرى الإنكليز بمحاكاتهم في إنشاء موضع تجلب فيه التحف والغرائب من جميع البلاد، وذلك في سنة ١٨٥١، وكان قد استقر الرأي أولًا على أن يبنوه من الآجُرِّ، ولكن لما كان مقصودهم به إنما هو إلى مدة قصيرة ارتأوا أن يبنوه من الزجاج، فحسبوا أن نفقته تبلغ سبعين ألف ليرة، إذ كان ينقل وينتفع به، وإلا فنحو ١٥٠٠٠٠، فتبرع في العطاء لإنشائه أكثر من ١٠٠٠٠٠ من الإنكليز، بدئ به في جولاي سنة ١٨٥٠، وفتح في أول ماي سنة ٥١، وجعل طوله ١٨٥١ قدمًا على مقدار عدد السنين، وعرضه ٤٠٨ أقدام، وفي أول شهر ماي دخلته الملكة وزوجها، وقد جعل نصفه لبضائع بلاد الإنكليز وإرلاند وسكوتلاند، والنصف الثاني لسائر الدول، وكان يُعطى لكل وكيل دولة موضع.

وهم يعنون بوضع الأَصْوِنَة والمخادع لصون بضائعهم وتحفهم، وإذا اشترى أحد شيئًا منها لم يكن يخرج إلا بعد انقضاء المدة، وكان في بنائه من الحديد ٤٠٠٠ طن، و١٧ من الزجاج في سقفه، ما عدا ١٥٠٠ طاقة، وبعد انقضاء مدته بيع بسبعين ألف ليرة، ونقل إلى سدنام، وجمع لتنظيمه وتركيبه هناك ٥٠٠٠٠٠ ليرة، ثم زادت حتى بلغت ١٠٠٠٠٠٠، وكان يشتغل به من العملة نحو ٦٤٠٠، وكان أحقر موضع فيه الموضع الذي نُضِّدَ فيه ما بعث من أقطار مصر، وسبب ذلك فيما بلغني أن البرنس ألبرت لما أرسل كتبًا إلى جميع الدول يخبرهم بهذا المقصد وطلب إليهم أن يرسلوا من بدائع صنائع بلادهم، ترجمت لخديو مصر لفظة الصنائع بالأرض، إذ كانت صورة الخط فيهما متقاربة تقاربها في النطق، فإن مرادف الصنائع في الإنكليزية «آرتس»، ومرادف الأرض «إرث»، فلذلك لم يبعث من مصر إلا القطاني وبعض أشياء أخرى لا طائل تحتها.

وقد رأيت في هذا المعرض حلي الملكة من جملتها ثلاثة حجارة من الألماس قدر الكبير منها نحو الجوزة، تبلغ قيمته فيما قيل ٣٠٠٠٠٠٠، وكان فيه أيضًا صوان لحلي

ملكة إسبانيا وتحف أخرى بديعة لم يُرَ مثلها قط، من جملتها فرو لقيصر الروس قيمته ٣٠٠٠ ليرة، ومرآة لم يصنع أكبر منها في العالم بأسره، وأول من صنع المرآة كما هي الآن أهل فينيسيا، وذلك في سنة ١٣٠٠، وكانت تصنع قبل ذلك من النحاس، ولم تعرف في إنكلترة إلا في سنة ١٦٧٣، فانظر إلى التمدن كيف يفعل؟ وإلى الأيام كيف يداولها الله بين الناس! وكان فيه آلة تصنع ٢٨٠٠ مغلف للكتب، مصمغة مطوية في ساعة واحدة، وآلة تَصُفُّ حروف الطبع بنفسها، ونحو ١٧٠ نوعًا من التوراة والإنجيل.

وكان يجتمع في هذا المحل كل يوم نحو ٦٠٠٠٠ يؤدي كل شلينًا، وكان يوما الجمعة والسبت مختصين بالكبراء والأعيان، ويقال: إن الملكة دخلته يومًا فأعجبها ثوب مزركش في محل البضائع التركية، فسألت قَيِّمَهُ عن ثمنه، فقال: ٢٠ ليرة، فقالت: هذا غالٍ جدًّا، ويقال أيضًا: إن الفرنسيس أحرزوا قصب السبق في كذا وكذا نوعًا من الصنائع، والمشهور عند الناس عمومًا أن الإنكليز في الأعمال القينية أمهر منهم والله أعلم، وغاية ما أقول إن كل ما يصنعه الفرنسيس يظهر عليه الرشاقة والمشق والطلاوة، وما يصنعه الإنكليز يكون جزلًا متينًا حتى إن هؤلاء في تصويرهم السخري يصورون الفرنسيس نحافًا ضعافًا، وأولئك يصورونهم ضخامًا جسامًا، فأما صنعة الطبع فلا شك أنها عند الإنكليز أتم وأحسن، وهم يقولون: إن الاختراع من شأن الفرنسيس، لكن الإتقان والإحكام من شأننا.

ومن الديار العظيمة التي فتحت للمتفرجين أوان المعرض، دار دوق نرثمبلاند، وهي دار عظيمة البناء والفرش والأثاث، فيها تصاوير نفيسة وتحف غريبة، حتى إن أطر مواقدها كانت من فضة بدل الحديد، ثم إن هذا المعرض لم يفد الإنكليز فائدة مال الغرباء فقط، بل أفاد أيضًا أهل الفظاظة منهم حسن المعاشرة والمجاملة نوعًا ما، فإنهم كانوا قبل ذلك على غاية النفور من لحى الغرباء وشواربهم.

(٣٢-١) المنطاد أو البالون

ثم سرت إلى حديقة فكس هال المشهورة، ورأيت المنطاد وهو المعروف باسم البالون، وهو قبة في كبر الخيمة على شكل الإجاصة، يصنع من الحرير المدهن ببعض الأدهان، ويملأ داخله غازًا، وذلك بأن يجعلوا بأسفله قربة من جلد متصلة بأنبوبة من حديد، يدخل فيها الغاز من موضعه، ويجعلون له مثل الشبكة شاملة له، وبها ينوطون أكياسًا ثقيلة، فكلما امتلأ جانب منه من الغاز خفضوا الأكياس حتى يرتفع، فمتى امتلأ كله

زموا فمه من أسفل وربطوا به نحو ناووس من خشب أو غيره ليقعد عليه من يتولى أمره ومن شاء أن يسافر معه، ثم يزيحون الأكياس ويطلقونه فيندفع صعدًا ومديره تحته، وربما اقتضى لملئه عدة ساعات، فإذا أراد مديره أن يخفضه أداره بحبلين متصلين به هما كالعنان له، فينزله حيث شاء، اللهم إذا كانت الريح عاصفة تغلبه، فربما ألقته على محل غير مقصود، إلا أنهم لا يصعدونه غالبًا إلا في يوم ذي سكون.

وما يقال من أن الناس يصعدون أو يسافرون في البالون، فليس المراد بذلك أنهم يدخلونه، فإن داخله ملآن من الغاز إذا أَلَمَّ به نور أو نار تميز كله فأحرق ما حوله، وإنما المراد أنهم يقعدون تحته، وربما أخذوا معهم حصانًا ونحوه، وقد رأيت منطادًا آخر انبسط تحته امرأتان، وكان رأس إحداهما تحت قدمي الأخرى، وقبل انبساطهما على هذه الحالة حجبوهما عن أعين الناظرين بنحو خيمة، ثم لم نشعر إلا وهما في الجو تشيران بالمناديل، وقد ظهر في باريس من ادعى بأنه يقدر أن يصنع منطادًا من الخشب على شكل سفينة، ليكون أوعب للناس وأسلم عاقبة، وبعد أن تصدى لذلك وركب الألواح، لم تأذن له الدولة في أن يجري ذلك فعلًا بالقرب من باريس، مخافة أن تقع السفينة على الناس فتعطبهم، وحيث لم يكن غاز إلا فيما وليها حبط عمله، وقد رأيت هذه السفينة، وظهر لي ولغيري عدم إمكان إصعادها بالغاز لطولها وضخامتها، غير أن منشئها كان ذا لسان ذلق، فكان يموه على السامعين احتمال ذلك، وأظن أن ما خسره في صنعها ربحه من المتفرجين.

وأصل إنشاء المنطاد كان في فرنسا سنة ١٧٨٣، وكان الناس قد ذكروا من قبل ذلك شيئًا يشبهه، ولكن هذا أول ما عرف، وفي سنة ١٧٨٥ صعد فيه رجلان على أن يسافرا من بولون إلى إنكلترة فاحترق فهلكا، ومن هذه الأدوات ما يصعد في الجو مسافة ٢٣٠٠٠ قدم، ومنها ما يدوم في الهواء ثماني عشرة ساعة، وأول من صنع المنطاد في إنكلترة السنيور لوناردي، وذلك في سنة ١٧٨٤، وكانت مادام بواتيفان تصعد تارة وهي قاعدة على ثور على مثال أوروبا، وتارة على جواد، فكره بعض الناس منها، ذلك لكونه من ظلم الحيوان وهو ممنوع، فكفت عنه.

فأما كيفية إدخال الغاز في أنبوبة المنطاد، وكذا في الأنابيب التي توصل الأنوار في المدن، فهو أن يوقد الفحم في موقد مخصوص، ويجعل فيه قصب من حديد متصلة بالديار والدكاكين، فينحصر روح الفحم في تلك الأنابيب، فإذا أدنيت نارًا من رأسها اشتعلت وبقيت كذلك إلا أن تطفئها، ونورها أشد سطوعًا من نور الزيت والنفط والشمع،

وليس له دخان لكنه قوي مضر بالعين، وقد أرى أن غاز باريس أشد صفاء وبياضًا من غاز لندرة، ويمكن أن يكون ذلك لصفاء جو تلك، وسيأتي الكلام على الغاز ومخترعه وفوائده في وصف لندرة إن شاء الله تعالى.

(٣٢-٢) طلب الحماية الجنسية الإنكليزية

ثم خطر ببالي أن أطلب من وزير الأمور الداخلية بلندرة حماية جنسية، لكوني أقمت في مالطة عدة سنين وفي بلاد الإنكليز بضعها، فكتبت إليه عرضًا فجاء الجواب مؤذنًا بأن أَكِلَ ذلك إلى فقيه من فقهاء الشرع؛ إذ لا يصح معاطاة أمر من الأمور الشرعية إلا بهم، كما أنه لا يصح معاطاة مصلحة كبيرة من المصالح المتجرية إلا بواسطة السماسرة، وكان مما لزمني مباشرته في ذلك أن أخرج للفقيه أربع شهادات ممن لهم بيوت وملك من الإنكليز تؤذن بصحة ما أقول ففعلت.

واعلم أن الحصول على نوع هذه الحماية لا يتوقف عند الإنكليز على عدد سنين يلبثها الغريب في بلادهم، وإنما هي منة من قبل مخولها، ولو أن إنسانًا لبث في بلادهم عشرين سنة ولم يكن حسن التصرف والسيرة لم يستحقها، وجل نفعها إنما هو تأهيل صاحبها لأن يشتري في بلادهم أملاكًا كالدار والعقار والسفينة وما أشبه ذلك، وعليه أن يحلف أن يتخذ دارهم وطنًا له، فإذا استوطن غيرها فللقنصل المقيم هناك أن ينكره، أما حماية فرنسا الجنسية فتتوقف على عشر سنين، ولكنها تكون بعد ذلك حماية ووقاية لصاحبها في كل مكان وزمان.

والتملك في إنكلترة على أربعة أنواع؛ الأول: أن يكون شبيهًا بالإجارة إلى مدة معلومة من السنين، الثاني: أن يكون إلى ٩٩ سنة، الثالث: إلى ٩٩٩ سنة، الرابع: إلى الأبد. والثاني هو الأشهر.

وهذه ترجمة الحماية: إني أشهد أن فلانًا المقيم الآن في طريق كذا، في خط كذا، الكائن في إقليم كذا، في أعمال بريتانيا الكبرى، من حيث إنه عازم على استيطانها، عرض عرضًا لي أنا سر جورج كري بارونت أحد رؤساء كتاب الدولة، مضمونه أنه من بلد كذا، ومن رعية الدولة الفلانية، وله زوجة وأولاد، وحرفته كذا، وأن في عزمه أن يبقى ساكنًا في هذه المملكة، والتمس مني حالة كوني كاتب الدولة هذه الشهادة المذكورة، وحيث إني بحثت عن حقيقة الحال، وأتاني من البينة ما اعتقدته ضروريًّا لإثبات صدق ما أودع في ذلك العرض، فالآن بموجب الأمر الذي فوض إليَّ حالة كوني كاتب الدولة في الحكم

الفلاني، أعطي فلانًا المذكور عند إجراء اليمين المذكور في ذلك الحكم جميع الحقوق والأهلية الخاصة بمن يكون مولودًا من أهل بريتانيا، ما عدا أهلية أن يكون عضوًا من مجلس أهل الديوان الخاص، أو عضوًا من أعضاء مجلس المشورة، وما عدا الحقوق والأهلية المختصة بمن يكون مولودًا بالطبع من أهل بريتانيا خارج الممالك المنسوبة إلى التاج البريتاني وما يليها. ا.هـ.

فقد علمت أن إعطاء هذه الحماية لم يتوقف على سني الإقامة، وإنما هي لنواله كالوسيلة، ثم إني لما رأيت أن الفقيه لا يقدر على إخراجها إلا بعد مدة ولزمني العود إلى باريس، طلبت منه أنه إذا حان إنجاز هذه الطلبة يعلم بها كاتب الجمعية، ورجوت من هذا أن يبعث بها إليَّ في باريس، وسافرت وبعد أيام ورد خبر بقبول ملتمسي، ولزم حضوري لإجراء اليمين، فسافرت إلى مدينة هافر، فبلغتها بعد نحو سبع ساعات، ومنها إلى سوث امبطون، وكانت ليلة مشئومة، فقد ثار علينا النوء حتى كانت السفينة تتقلب في البحر كالسمكة، مع أن الوقت كان في صميم الحر.

وكان من همي قبل كل شيء إجراء اليمين، وهذه ترجمتها: أنا فلان أعد وأقسم صادقًا بأني أكون أمينًا ومخلصًا الطاعة لسعادة الملكة فكطوريا، وأحامي عنها بغاية جهدي وطاقتي ضد جميع من يتحالف عليها، أو يهم بسوء عليها، سواء كان على شخصها أو تاجها أو شرفها، وأبذل غاية جهدي في أن أكشف لسعادتها ولورثتها ولمن يخلفها جميع الخيانات والخائنين والمتغاوين عليها أو عليهم، وأعد بأمانة أني أبذل غاية استطاعتي في أن أحفظ وأسند وأجير خلافة التاج المعبر عنه في الأحكام بحكم كذا ... إلخ.

(٣٣) العودة إلى باريس ومدح الملك

ثم عدت إلى باريس، واتفق حينئذ أن تولى الملك الآني ضبط الأمور السياسية، وهو يومئذ رئيس مجلس الشورى، وقهر مناوئه وحاسده، فأشار عليَّ بعض معارفي أن أمتدحه بقصيدة، فإنه ذو إلمام بالعربية، وله اطلاع على لغات كثيرة فنظمت له هذه القصيدة، وهي:

من شأن أهل الهوى أن يُفْرِطوا الغزلا   قبل المديح وإلا غازلوا الطَّلَلا

أما النسيب فلا حسناءَ تشغلني   إذ قلب ذي الحُسن عن حسن الوفاء خلا
لكن أنا ناسبٌ وَجْدًا بطيف كَرى   ما كنت أعرفه من قبل أن وصلا
أتى على غِرَّة والليل معتكر   من صبغ همي وما جنح له نَصَلا
وَهِمْتُهُ غادةً جاءت تُغَرِّرُني   فحين صحت به مُسْتَنْكِرًا جَفلا
إن لمْ أَنَمْ لم يَزُرْ أيضًا وإن هو لم   يزر فما ناظري بالغُمْض مُكتحِلا
يا حُسنه زائرًا ما شأنه صَلَفٌ   ولا يُرى شانفًا كالخُود أو شكلا
عفٌّ نزيه خفيف اللمس يُبْعِدُه   وكم جميلٌ به خال قد اشتغلا
حُلو الشمائل لا طَرْفًا يملُّ ولا   عتبًا يدل ولا مُستحِقبًا بدلا
لا يَزدهيه رياش حين تَرمُقه   كأنما هو طاووس به رَفَلا
ولا يبوح بسرٍّ إذ يَبينُ ولا   يكون إمَّعة مع كل من بذلا
رقَّت محاسنُه حتى استرَقَّ بها   قلبي وقد جعل التذكار لي شُغْلا
دعني وشأني، فما ذو الجدِّ تَشغلُه   شكوى الهوى إنها شُغْلٌ لمن هَزَلا
من رام مَأْثَرَةً فليمدَحَنَّ رجلًا   بين الرجال يراه وحده الرجلا
لويسُ نابوليونُ الراقِ منزلةً   في المُلك ما إن يرى الرائي لها مَثَلا
من ذا الذي يُثْني في الأنام على   من في المكارم والمجد السَّنِيِّ عَلا؟!
وليت شِعري هل في الكون من لغة   تحوي كلامًا يُوَفِّي حَقَّ ما فعلا؟!
لولاه باتت فرنسا في معامِعَ لا   تكاد تُطفئها حربٌ ونَحْرُ طلى
لما تفرَّقت الآراء واحتدمت   نار الترائي وظُنَّ الخَطْبُ قد عَضلا
تدارَك الأمر لا عِيًّا ولا فشلًا   ومن بالعفو لا عجزًا ولا مللا
وبات بالملك والتدبير مشتغلًا   وبات حاسده باليأس مُشتعلا
حق على الناس أن يَدْعوا له أبدًا   فإن معروفه كُلًّا لقد شَمِلا
وكيف لا وفرنسا دولها سبب   يُديل في غيرها الأملاك والدُّولا
فكان تدبيره للأرض قاطبة   أمنًا وهذا الذي كل الورى أملا
وحرمة الدين لولا عزمه انتهكت   وغرضه صار بعد الصون مبتذلا
فِعَال من تمسَّك الدنيا بساعِده   والدينُ خِيفةَ أن يستقبلا زللا
يرى من الأمر حزمًا في أوائله   ما غيره عنه في صُيوره وهَلا
فما قضى قط إلا وهو ذو ثقة   ولا نوى خطة إلا وقد فصلا

ولا تَخَلَّل وعد توأمي عدة ... له وإنجازُها بل قلما سُئلا
فإنما هو يُوَلِّي العُرْفَ مُبتدِرًا ... والعفوَ مقتدرًا والمَنَّ مرتجلا
فما أنا قائلٌ ما قال بعضهم ... يرتاح عند سؤال المجتدي ثَمِلا
فإن ذي شيمة فيه ملازمة ... له وما أحدٌ عن دأبه انتقلا
مِنْ بِشْرِ طَلْعَتِه بُشرى لناظره ... ومن تَفَوُّهِه توكيدُها حصلا
تلقاه مبتسمًا والحرب دائرة ... ونافلًا وسواه لا يمنُّ بلا
يَزينُ باريسَ مَرْآه وهِمته ... حتى ترى لملوك العصر ذا نزلا
وكل أيامها تغدو مواسم إذ ... لم يَبْقَ حُسن بها إلا وقد كَمَلا
ما لاح من باعث فيه لها دِعَةٌ ... إلا وبادَره من يومه عَجِلا
له الولاية حتمًا لا عَدَالَ بذا ... فإن خير ملوك الأرض من عدلا
لئن مضى عمُّه ذاك الهُمام فقد ... ظلت معاليه في جِيدِ الزمان حُلَى
أَكْرِمْ بفَرْعٍ زَكَا عن دَوْحة بَسَقَتْ ... كلٌّ إلى ظلها الممدود قد وأَلا
لله يومٌ به مَادَت عساكره ... من حوله كجبال تُنبِت الأَسَلا
كأنه البدر قد حَفَّت كواكبُه ... به وما من سها من بينهم ضَؤلا
قد كاد يذهب بالأبصار لَمْعُ سَنَا ... سلاحهم بيد التأييد قد صقلا
ما إن ترى فيهم عيناك إذ برزوا ... إلا فتى فارسًا أو راجلًا بطلا
نالوا من الشرف الأوفى بطاعته ... ما لم يَذَرْ أحدًا عن أثَرة عَطَلا
ولو خلو عن سمات فاسمه لهم ... مُغْنٍ فما أحدٌ إجلالُه جَهِلا
في رأيه النصر لكن فوق موقعه ... من السما رأيه المُرْبى على زُحَلا
قد كان في دارَة المريخ حشدُهم ... لكن لسلم فكل راح ممتثلا
فكنت تسمع من ضرب الطبول ومن ... رعد المدافع ليلًا صاهلًا زَجِلا
وزَهرُ نار من البارود قد طلَعت ... في ليلة ذات دَجْنٍ نَجْمُها أفَلا
يرى المجوسي فيها حُجَّةً وهُدى ... على السجود لها أنى نوى جدَلا
زادتْ زهورًا بجعل اسم الأمير بها ... كأن جُثمانه فيه قد اتصلا
وعاد والخلق قد طابتْ خواطرُهم ... وبالدعاء له كلٌّ قد ابتهلا
والسعد يقدمه والعِزُّ يخدِمه ... والله يعصمه ما سار أو قفلا
فليأتين كلُّ ذي مُلْكٍ يهنئه ... ومن ونَى حسدًا فَلْيَبْعَثَنْ رُسلا

ولْيَعلمِ الناسُ أن ما خاله جَلَلًا — سواه كان عليه هَيِّنًا جللا
كن يا أمير المعالي كيف شئت فمن — يَقصِد رضى الله لم يُحْبط له عملا
ومن تحرَّى سبيلَ الرُّشد فاز ومن — أطاعَ داعيَ الهوى لم يُدرك الأملا
هذي الممالك والأملاك غابطة — هذي التواريخ يَدْريها الذي عقلا
فاقتَدْ شَوَارِدَ أحوالٍ برُمَّتِها — ورِضْ صِعاب أمورٍ تَلْقَها ذَلَلا

وقد يسر الله لي نظم هذه القصيدة في يوم واحد، إلا أنه بقيت الصعوبة في تقديمها لأعتاب الممدوح، حيث لم تجرِ العادة عند ملوك الإفرنج بأن يقرءوا قصائد مدح فيهم ولا غيرها أيضًا مما يخاطبون به، وإنما يقرأ ذلك كله كُتَّاب أسرارهم، وهم يجاوبون عنها المخاطب بحسبما يرونه صوابًا، وفي الجملة فإن نظم القصائد سواء بالعربية أو غيرها أسهل من تقديمها للممدوح من ملوك الإفرنج، وقد كنت مدحت ملكة الإنكليز بقصيدة وقدمتها لضابط البلد، وهو وكَّل بها زوجته لتهديها إلى بعض الخواتين القائمات بخدمتها وترجمتها أيضًا إلى لغتهم، وإلى الآن لم يأتني عنها جواب، ولا أعلم هل وصلت أو لا؟

وكل من تعلم لغات الإفرنج من علية الترك وأشرافهم سلك هذه الطريقة، فإني كنت نظمت قصيدة في و. «ولي» باشا سفير الدولة العلية في باريس وأخرى في ن. «نامق» باشا وأخرى في آخر، ولم تنتج إحداها سلبًا ولا إيجابًا بل ضاعت الأوليان وأضاعا عليَّ كُرَّاسَيْنِ من ديواني، ذهبت كل منهما بالكراس الذي اشتمل عليه، ولم يكن مقصودي بهذا المدح سوى نهمة الشعراء المعدية إلى تحمير دواوينهم بقولهم، وقال يمدح الملك وقال يمدح الأمير، ثم إنه لا شيء أفظع عند الإفرنج من أن يروا في قصائد المدح تغزلًا بامرأة ووصفها بكونها رقيقة الخصر ثقيلة الكَفَل نجلاء العينين سوداء الفرع وما أشبه ذلك، فشعرهم كلهم خصي، وأفظع منه التشبب بغلام، وأقبح من هذا وذاك نسبة شيء من صفات المؤنث إلى المذكر كقول الشاعر: كأن ثدياه حُقَّانِ، فإنهم أول ما يبتدئون المدح يوجهونه إلى المخاطب ويجعلونه ضربًا من التاريخ فيذكرون فيه مساعي الممدوح ومقاصده وفضله على من تقدمه من الملوك بتعديد أسمائهم.

ولما ترجم موسيو دوكان قصيدتي التي مدحت بها المرحوم أحمد باشا والي تونس وطبعها مع الترجمة، كان بعضهم يسألني هل اسم الباشا سعاد؛ وذلك لقولي في مطلعها:

زارت سعاد وثوب الليل مسدول

فكنت أقول: لا بل هو اسم امرأة، فيقول السائل: وما مدخل المرأة بينك وبين الباشا؟ وهو في الحقيقة أسلوب غريب للعرب، قال العلامة الدسوقي: اعلم أنه قد جرت عادة الشعراء أنهم إذا أرادوا مدح إنسان أن يذكروا قبله الغزل لأجل تهييج القريحة وتحريك النفس للشعر والمبالغة في الوصف وترويح النفس ورياضتها. ا.هـ.

قلت: كما أن الإفرنج ينكرون علينا هذه العادة، كذلك ينكرون المبالغة في وصف الممدوح، وأما تشبيهه بالبحر والسحاب والأسد والطود والبدر والسيف، فذلك عندهم من التشبيه المبتذل، ولا يعرضون له بالكرم، وبأن عطاياه تصل إلى البعيد فضلًا عن القريب، فهم إذا مدحوا ملوكهم فإنما يمدحونهم للناس، لا لأن يصل مدحهم إليهم، ومع علمي بهذه الحال لم يمكني مقاومة نزعة النهمة العربية إلى تقديم القصيدة المذكورة، ولا سيما لما سمعت بأن الممدوح يعرف لغتنا، فاجتمعت بالفاضل اللبيب والصديق الأديب الخواجا روفائيل كحلا وطالعته في ذلك، فقال: أنا أعرف وسيلة لتقديمها، ولكن ينبغي أن نترجمها إلى اللغة الفرنساوية، فإن معانيها لا تضيع بالترجمة؛ إذ هي منسوقة على نسقهم لولا التغزل بالطيف، لكنه شيء عدمي، ولا سيما أنك أشرت في مطلع القصيدة إلى إنكار الغزل قبل المديح، فمن ثم ترجمناها وأطلعنا عليها أحد أدبائهم، فقال: بل الأولى أن ترسلوها غير مترجمة، فإن الملك عنده مترجمون يترجمونها له، فقدمت كما هي، وبعد أيام لم نشعر إلا والبريد يطرق الباب، وإذا بيده رسالة من كاتب الملك باسم الخواجا المذكور وباسمي، مضمونها أن القصيدة بلغت جنابه العالي، وحسن موقعها لديه، وأنه يشكرنا على ذلك شكرًا جزيلًا.

ثم إنه في خلال هذه الأوقات استقل السلطان المشار إليه بولاية الملك، ولقب الإمبراطور فنزغني نازغ آخر — من وقال يمدح الأمير — إلى أن أهنئه بقصيدة، وأقدمها على يد رئيس تراجم بابه الكونت دكرانج الذي مر ذكره، فلما فرغت منها، وقرأتها عليه، قال: ليس من هذه الصفات التي نسبتها إلى الملك ما هو مختص به وحده، فإنه يصلح لأن يخاطب به أي ملك كان، وهي مع ذلك عويصة لا يمكن ترجمتها، ولو قدمتها كما هي لما استحسن منها غير الخط والشكل فقط، فلهذا أضربت عن تقديمها وشكرته على نصحه، ولكني لا أضرب عن قيدها هنا حتى ينتفخ بها بطن هذا الكتاب، وهي هذه:

لِلويس نابوليون حَقُّ السُّؤْدَد ... والمُلك إذ هو في المعالي أَوْحَدُ
فلتُقدم الأملاكُ داعيةً له ... بالتهنئات وشأنَه فليحمدوا

بُشرى لذي مُلك يزور نَدِيَّهُ   ولمن يُنبأ عدلُه فيقَلِّدُ
ولمن يُبايعه ويشري نفسه   بولائه فجزاء مَد يدٍ يدُ
نظر الزمان بسعيه إبطاءه   من قبلُ فاستحيا فأقبل يَحفدُ
فجَلا لنا في ظرف عام منه ما   لم يُجْلِه للناس دهرٌ سَرْمَدُ
أَمِنَ الورى في ظله وتنعموا   وإلى التَّرَفُّه والتترف أَخلدوا
حتى خَشُوا أن البلاهة من دوا   عيها بُلَهْنِية وعَيْشٌ أرْغَدُ
يتهجد العافون أمنًا وهو من   شفق على إغفائهم يتهجد
أصحى لهم من بعد أنواء العنا   عيش بطالع سعده لا يجهد
تُنسي الثواكلَ حزنهن فِعالُه   فهي التي ما بينهن تَعَدُّد
ضبط الأمور بحزمه واقْتَدَّها   فبما حبانا اليوم يأتينا غد
قَيد الأوابدِ رأيه ما حادث   عنه يَنِدُّ ولا قديم يَشْرُد
وضجيعُه الفكر المنير يريه إن   أضحى فينهض للأمور يُفَرِّدُ
ما بعد أن ظهرت مكارمه يُرى   أحد يلوم لفائت أو يَكْنُدُ
عن حِلمه تروي الشهود لغائب   وبفضله كل البرية تشهد
هذي المآثر فاهتدوا بمنارها   يا أيها الثَّقَلان ثم به اقتدوا
هذي المفاخر فَأْتِنَا بمثالِها   يا من مديح ملوك عصرك تنشد
يستسهل الراءون مطلع صاعد   شَرَفًا ولكن ما كذا من يصعد
ويَرُوقُ مَخْر المنشآت لناظر   ما خاضَ لُجَّ اليَمِّ وهو يُهَدِّدُ
قل للمشبِّه قد غويت فهاتِنا   بنظيره إن كنت ممن يَرْشُد
لا تدرك الأبصار لولا الشمس ما   جَرَم الهَباء ولا يراها أرْمَد
هَبنا اسمه حتى نُجِلَّ سميَّه   حبًّا به ولنا إليه تَوَدُّدُ
فات الملوكَ فخَارُه فرضوا بأن يدعوا   ببعض صفاته كي يسعدوا
ولربما حاكى السرابُ الماءَ عن   بُعْدٍ وأظمأ من أتاه المَوْرِدُ
يا من تولى عرش عز صانه   ذو العرش وهو بما حَبَاكَ مُؤَيِّدُ
شرَّفْتَ تاجَ المُلك حين رضِيتَه   وازداد وَهْوَ عليك فخرًا يَخْلُد
فَجَلَتْ فرنسا طلعةً كانت لها   أيام عمك عَبْدُه المستَعْبَدُ
ما زال مذ عرف الوَرى أملاكهم   يطأ الممالك من حِماها سيِّد

فاسلم ففي يُمْناك غِبطةُ أهلها ... وبعزها الأرضون طُرًّا تُنْجِدُ
دُمْ آفقًا قَدْرًا ورأيُكَ أَرْشَدُ ... ومُسابقًا فَخْرًا وجَدُّكَ أَسْعَدُ

(٣٤) الشروع في تأليف كتاب الفارياق

وفي غضون ذلك شرعت في تأليف كتاب الفارياق الذي نشر طبعه الخواجا روفائيل كحلا المُومأ إليه، وبعد أن طبع منه عدة صحائف اقتضى لإنجازه سبك حروف جديدة، فانتظرت مدة حتى إذا قَنَطْتُ أو كدت أقنط من ذلك، وكانت نفسي قد تاقت إلى فقع لندرة وفقاعها، سافرت على نَكْظ، فتعرفت حينئذ بالخواجا مخائيل المخلع، فقد كان قدم لمعاطاة التجارة.

ومما أعجبني منه كرمه وسعة اطلاعه، فقلما يرد ذكر شاعر إلا ويروي عنه، أو نكتة أدبية إلا ويسردها، أقام في لندرة عامًا ونيفًا، وسافر وهو يدري جميع أحوالها.

(٣٥) كتاب كلستان

وقد أهداني نسخة من كتاب كلستان الذي ترجمه أخوه من الفارسية إلى العربية فلما تصفحته وتأملته حق التأمل ظهر لي أن أخبره دون مخبره؛ إذ لم أجد فيه من المعاني المبتكرة ما أوجب احتفال العجم به هذا الاحتفال العظيم، فإنه عندهم بمنزلة مقامات الحريري عندنا، غير أن عربيته فصيحة، فلما قابلته المرة الثانية وجرى ذكر هذا الكتاب، قلت له: لقد طالما سمعت بذكر كلستان غير أني لم أجده يستحق هذه الشهرة، وقد حدثتني نفسي بأن أنشئ كتابًا على نسقه لكن التزم فيه الهزل، قال: فافعل، فأنشأت في اليوم القابل هذه الحكايات الآتية، ولما قرأتها عليه وقت الاجتماع، قال: قد أفرطت في محاكاته وهو فوق ذلك، وأبى إلا التنويه به، هذا؛ ولما كان باب الإنشاء قد أُرْتِجَ عليَّ بلندرة لكثرة قعقعة العواجل والحوافل فيها، بحيث لا يمكن لمستمعها آناء الليل وأطراف النهار أن يجمع أفكاره أو يبتكر معنى حسنًا، حق لي أن أثبت هنا ما كتبت محاكيًا لصاحب كلستان:

حكاية: رأيت قومًا يتسابقون حشدًا، ويتزاحمون حفدًا، فمن بين ضاغط جاره، ومُهْطع كأنه يشن الغارة، فقلت تالله ما اجتمعت هذه الجماعة إلا لأمر عظيم، ولا قصدت إلا مقصد خير عميم، ثم قلت في نفسي بعد استصواب حدسي:

انهض إلى المكرُمات مستبقًا ولا يصدَّنك عائق عنها
وإن تجد عُصبة سَعَتْ جهة فاسْعَ إليها ثم استَفِدْ منها

فجاريتهم وأنا أظن أني أكون أول الفائزين، ومقدام البارزين، فلما بلغت حلقة الرجال، وكانوا ما بين حُزُقَّة وطويل وطِوال، خزقت صفهم، وخرقت مُصْطَفَّهُم، وإذا في وسطهم خطيب، كنت أعرفه مذ عهد غير قريب، فأول ما وقع عليه الطرف، وآنست منه الظرف، قلت له: السلام عليك يا خطيب يا إمام، فأجابني بديهًا: وعليك السلام.

حكاية: بينما كنت أطوف في مدينة القاهرة، وأنظر ما فيها من المحاسن الباهرة، وأحدق في وجوه الشوافن، في الرواشن؛ إذ لمحت في روشن غادة فاقت النساء بالظرف والجمال، والصباحة والدلال، فقلت منشدًا وأنا على غير هدى:

بالله رِقِّي لمُغْرَم دَنِفٍ قد أَسلمَتْهُ إلى البِلى عينُه
تَصَدَّقي بالوِصال عَلَّكِ أن تَشفيهِ حَشاه فقد دَنا حِينُهُ

ثم غشي عليَّ من شدة اللوعة، ثم أفقت طمعًا ولم أبرح أسير الهوى وطوعه، وناديتها بلسان مبين، ألا إني إليك من التائقين العاشقين الخاضعين، فقالت: وإني لك لمن السافقين الصافعين.

حكاية: كنت أمشي في أسواق الإسكندرية، وعرضي لألسنة الناظرين إليَّ كالدَّرية، إذ كنت لابسًا نعلًا بالية وثوبًا صفيقًا، وقد انحل حزامي فكان يكنس البلد طريقًا فطريقًا، فصادفت عجوزًا تلحظني، فقلت: علام القوم يضحكون؟! وفيم ينهمكون، فقالت وقد قهقهت، وعن أنيابها المتهتمة جلقت: من مكنستك هذه الحرير، وطورك الذي لم يُرَ له نظير، فقلت:

من أحبَّ المعروفَ فليكرِم الضيفَ بإيناسه وإبلاغ سوله
ليس يبغي قِرًى ولا بَذْلَ مالٍ مُنتهى ما يَؤُمُّ في تَأْهيلِهِ

فقالت أما إن شئت أن نقول لك: أهلًا وسهلًا، فأنت لدينا مؤهل ومسهل وإلا فلا، ثم هرولت عني، وعن عيني اختفت، فأتبعتها اللعنة التي بها التحفت.

حكاية: قصدت الرشيد لما فيها من الحظ العتيد، والحدائق الناضرة، والمسارح السارة، فلما دخلتها لاح لعيني غلام كالقمر، ينخجل الحور بالحَوَر، فتفاءلت بنضرته، وعجبت من عدم شهرته، فأنشدت بمسمع منه:

لبعض الناس فعل دون ما اسم وبعضهم له اسم دون فعل

وأردت أن أفتتح معه الكلام، فاستدللت منه على الحمام، فقال لي بلهجة فصيحة، وعبارة صحيحة: أأنت جُنُب منذ خروجك من البيت أو في الحال؟ فقلت:

إن كان يمكنك اصطناعي عاجلًا فافعل ولا تسأل عن الأسباب
فلربما أخرتَ معروفًا وما قدَّمْتَ غير مَساءة الأصحاب

فدلني عليه، فإذا أبوه قَيِّمٌ فيه، فنوَّه عنده بي، وأثنى على أدبي، فلما خرجت من ذلك النعيم كخروج آدم من الجنة «وهو مليم» بَشَّ بي الرجل، وأدَبَني تلك الليلة إلى طعامه، فلبيت دعوته، وأجزلت له الشكر على إنعامه، وسرت إليه وفي أمعائي وقوب، ولأضراسي رقوب، فلما حظيت بأنسه، وحصلت في مجلسه، وضع الخُوَان، وهو يميد من الطعام بألوان، فأكلنا وشربنا، ولعبنا وطربنا.

حكاية: ما زلت مذ عرفت حلو الاستراط، ومر السراط، أتشوف إلى رؤية دمياط، لما بلغني عنها من كثرة سمكها وأطيارها، ورخص أسعارها، وكان بي نَهَمٌ إلى أكل السمك شديد، وقَرَم إلى العصفور ما عليه من مزيد، وقد قال في الأول من أجاد القول جدًّا وهزل:

ما إن ندمت على شراء الحوت في وقت وإن أفرغت فيه الكيسا
إن كنت أنفق فيه فلسًا واحدًا ألقاه فيه قد استحال فلوسا

فلم أكد أبلغ ساحلها حتى رأيت صيادًا قد ألقى شبكته في البحر، وهو مبتئس وَلِهًا وفي طلعته سمة الضجر، فتقدمت إليه وسلمت عليه، فقلت: اجذب الشبكة باسم الله على بختي، وإن كنت أعهده يمر دائمًا من تحتي، فإن اشتملت على حيتان صغيرة، أديت إليك قيمتها موفورة، وإن حوت الكبيرة، كان لي أن أنال منها مجانًا حصة وفيرة، فرضي بذلك، وقال حسبي الله الولي المالك، فلما أخرجها إذا بها قد استوعبت

من كبار السمك، ما لم يكن عَهِدَ مذ درَج وسلك، فجاد عليَّ بحصة، وقد أجْرَضَه من الشَّرْط غُصَّة، فأوقدت جنبه نارًا، وبعثت إلى السوق من اشترى لي خبزًا وعقارًا، وملحًا وأبزارًا، وما زلت أشوي وألتقم التفافًا، وأشرب اشتفافًا، حتى مُنيت بالهَيْضة والزَّحير، واستحال عليَّ التقدم والتأخر في المآب والمصير.

حكاية: وجدت في صدري ضنكًا من مجالسة الرجال، ومطارحتهم الحديث والأمثال، وقد جبل الإنسان على حب التبدل، والتحول والتنقل، فيسأم النعيم إذا طال، ويرى في المثابرة الثبور والوبال، وفي الإدمان الدمن والوبال، فتحريت مجالسة الصبيان، والخوض معهم في صار وكان، فلم أكد أخرج من غرفتي حتى رأيت زمرة منهم يلعبون بالفئال والأوتاد، ويضجون ضجيج الناس في يوم الجراد، فتوهمت أن بي صممًا أو لممًا؛ إذ لم أسمعهم على قربهم من الغرفة، ولو أني سمعتهم لعظم عليَّ لغطهم على هذه الصفة، فدعوت أحدهم فحشد إليَّ حفزًا، وكلمني ركزًا، فسكن روعي عند سماع نغمته الرخيمة، وأيقنت أن حاسة سمعي بقيت فيَّ سليمة، فحمدت الله — تعالى — على لطفه بي، وزاد في عِشْرة الأولاد إربي. انتهى.

(٣٦) إنجاز كتاب الفارياق

ثم ورد إليَّ كتاب من الخواجا روفائيل كحلا، يؤذن بنجز حروف للفارياق، فسافرت إلى باريس، ولما علمت أن طبعه لا يتم في مدة قصيرة، رجعت إلى لندرة، وكانت صحف الطبع ترسل إليَّ هنا لأصلحها ثم أعيدها، وهكذا نجز الكتاب.

(٣٧) أسفار بين لندرة وباريس

ثم لما فتح معرض التحف في باريس، وذلك في ١٥ آيار سنة ١٨٥٥ سافرت أيضًا لأشاهده، وهو بناء جليل من حجر لكنه ليس في كبر معرض تحف لندرة، ولم يكن يحوي بضائع متنوعة ما حوى ذاك، إلا أن من حذق الفرنسيس أنهم ينضدون الأمتعة بنوع تبدو به للعين رائقة فائقة، وفضلًا عن ذلك فإن الناس كان همهم في تلك السنة اتقاء مضار الحرب وغوائلها، وكان الذين عرضوا بضائعهم فيه خمسة وعشرين ألفًا، منهم عشرة آلاف من الغرباء، وقد رأيت فيه حلي الملكة زوجة الملك، وهي ما يفوق الوصف، ثم عدت إلى لندرة ثم سافرت بعدها مرتين إلى باريس، ثم عدت وكانت عودتي

هذه المتمة للعشرين مرة من زيارتي لندرة، وحيث وجدت نفسي هذه المرة قارًّا فيها، وجب عليَّ أن أصف ما فيها مما يحمد ويذم وصفًا تامًّا وافيًا، وإنما لم أطل الكلام في وصف باريس لما تقدم آنفًا من أن الشيخ رفاعة بك ألف رحلته فيها؛ ولأن البلدة معروفة عند سكان البلاد الشرقية أكثر من لندرة.

ويجب قبل الشروع في الوصف أن تعلم أن ما قيمته من المأكول والمشروب في باريس فرنك، ففي لندرة شلين غالبًا وأن نفقة السفر من لندرة إلى باريس في المحل الثاني من الرَّتَل لا تزيد على أحد وعشرين شلينًا، سواء كان على طريق هافر أو ديان أو بولون أو كالي، وذلك في ظرف خمس عشرة ساعة، بعضها في سكة الحديد، وبعضها في البواخر.

وهذه الباخرة التي تجري ما بين سواحل إنكلترة وفرنسا، ليست كتلك التي تجري في بحر الروم، فإنها قذرة، وقل أن تجد فيها فراشًا للنوم، فإن قصر المسافة بين الأرضين قصرها على أن تكون للتجارة أولى من أن تكون للركاب، وأقصر المسافات هي التي يسافر فيها من دوفر إلى كالي، والأفق لمن يجهل أحوال لندرة إذا سافر من باريس أن يجعل قدومه إليها في النهار؛ لأنه يصعب عليه في الليل وجدان محل يبيت فيه، لما أن الحوانيت والمبايت كلها تقفل في الساعة الثامنة ليلًا، فأما في باريس فلا يعدم أن يصادف مبيتًا في أي وقت وأي منزل شاء.

الكلام على لندن أو لندرة

(١) إحصاءات وأرقام

كان عدد أهل لندن في سنة ١٨٠١: ٩٥٨٨٦٣، وفي ١٨١١: ١١٣٨٨١٥، وفي ١٨٥١: ٢٣٦٢١٣٦ وفي ١٨٥٧: ٢٦٢٥٠٠٠،[١] قال بعض المؤلفين: إن دورتها سبعة وخمسون ميلًا ونصف ميل، وذلك عبارة عن سفر نحو ثلاثة أيام إذا كان يسافر في كل يوم قدر عشرين ميلًا، وتفصيلها من شسويك إلى كنتش تون اثنا عشر ميلًا، ومن كنتش تون إلى ملول سبعة عشر ميلًا ونصف، ومن ملول إلى شسويك ثمانية وعشرون ميلًا، وقال آخر: إن لندن أصح مدن العالم هواء، والدليل على ذلك ما ذكر في إحصائيات الموت من أنه يموت فيها من كل ألف خمسة وعشرون، وفي غيرها يموت من الألف من ثلاثين إلى أربعين.

(٢) لندن، التاريخ والموقع

وقال آخر: إن لندن أغنى مدن العالم وأكبرها، زعم بعضٌ أنها كانت مدينة من قبل الميلاد بألف ومائة وسبع سنين، وقبل تأسيس رومية بثلاثمائة وأربع وخمسين سنة، وأنها كانت مقرًّا للطرينوبنت ولملوكهم قبل الميلاد بأربع وخمسين سنة، وفي سنة ٦١ بعد الميلاد كان الرومانيون يسمونها لندينيوم، وهو اسم لمقر التجار في ذلك العصر

[١] وبلغ عدد سكان لندرة في سنة ١٨٨٠: ٣٧٠٠٠٠٠ ومساحة المدينة وتجارتها وجميع متعلقاتها زادت أيضًا بنسبة ذلك.

ولسوق المعاملات والمبايعات، وزعم بعضٌ أنها مشتقة من لود اسم لملك قديم في بريتانيا، والأصح أنها مشتقة من لين دين، أي بلد على بحيرة، وزعم آخر أنها كانت تسمى في الزمن القديم لندنبورغ كما يقال الآن لقاعدة سكوتلاند إيدنبورغ.

وقال آخر: موقع لندن على نهر التيمس على بعد نحو خمسين ميلًا من فوهته، وقد صدق ما وصفها به ساي بقوله: ليست لندن مدينة واحدة، وإنما هي إقليم مغشى بالبناء، وفي سنة ١٨٤٩ لزم لأهلها من الدقيق ١٦٠٠٠٠٠ كوارتر — نوع من الكيل — ومن الغنم ١٠٠٠٠٠٠، ومن الثيران ٢٤٠٠٠٠، ومن العجول ٢٨٠٠٠، ومن الخنازير ٣٥٠٠٠، وفي أحد أسواقها المسمى «ليدن هل» بِيعَ في سنة واحدة من الطيور ٤٠٢٤٠٠٠، ومن السمك المسمى «سمونًا» ٣٠٠٠٠٠٠، وهذا القدر من المأكول غسل من المشروب بمقدار ٤٣٢٠٠٠٠٠ كالن من المزر، كل كالن يملأ نحو خمس زجاجات من زجاج الخمر المعتاد، وبمقدار ٢٠٠٠٠٠٠ من الأرواح، وبقدار ٦٥٠٠٠ قصبة من الخمر، كل قصبة في عرفهم تسع ستين كالنًا، وفيها ١٣٠٠٠ بقرة للاحتلاب، و٣٦٠٠٠٠ قنديل يشعل بالغاز، ينفد منها في كل أربع وعشرين ساعة ١٣٠٠٠٠٠٠ قدم مكعب من الغاز، وتمد الأهلين من الماء بنحو ٤٤٣٣٨٣٢٨ كالنًا في كل يوم، ويستعمل لأجل اصطلائهم.

ولوازم المعامل أكثر من ألف سفينة لنقل الفحم، فتحمل في العام أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠ طن، وكثيرًا ما رُئي دخان النار منها على بعد ٣٢ ميلًا، وفيها من الخياطين ٢٣٥١٧، ومن الأساكفة ٢٨٥٧٩، ومن الخياطات وصانعات برانيط النساء أكثر من ٤٠٠٠٠، ومن الخدمة ١٦٨٧٠١، وقال آخر: يوجد في لندرة من أهل إرلاند أكثر مما يوجد في دبلين قاعدة بلادهم، ومن أهل سكوتلاند أكثر مما يوجد في إيدنبورغ، ومن اليهود أكثر مما يوجد في فلسطين، ومن الرومانيين ١٠٠٠٠٠، وهو أكثر مما يوجد في رومية، ومن الجرمانيين ٦٠٠٠٠، ومن الفرنسيس ٣٠٠٠٠، ومن الطليانيين ٦٠٠٠.

وقال بعض المؤلفين من الفرنسيس: إن مدينة لندرة في قول أميان مرسلان قديمة جدًّا، واشتقاقها من لفظة لون بمعنى سفينة، ودِيناس أي مدينة، فكأنك قلت: مدينة السفن، وذهب بعضٌ إلى أن اشتقاقها من لون؛ أي غيضة، ودن؛ أي مدينة، فكأنك قلت: مدينة في غيضة، قال: أما موقعها فهو في إقليم مدل سكس على تسعة وستين ألف ذراع من فم نهر التيمس، وعلى ثلاثمائة وتسعة وسبعين ألف ذراع من باريس، وهي أكثر مدن العالم أهلًا، رقعتها مائة ألف ذراع مربع، وأهلها ٢٠١٣٠٠٠، منها ١٠٧٦٩٥٦ ذكور، والباقي — وهو ٩٣٦٠٤٤ — إناث، قلت: وقد تقدم ما زادت به إلى سنة ٥٧،

فينبغي أن تقيس عليه سائر الزيادات، ويولد فيها في العام نحو ٨٥٠٠٠، ويموت نحو ٧٤٠٠٠، والمحسوب أنه يولد فيها في الأسبوع نحو ألف وثمانمائة نفس، منهم ٩٦٠ ذكورًا، و٨٤٠ إناثًا، ويموت فيها نحو ١٣٠٠ نفس.

وممن ولد فيها من المشاهير ملطون وبوب الشاعران، واللورد بيرون الكاتب الشاعر الأديب، ودفن فيها من الشعراء الكبار خمسة وعشرون.

قال: وهي تحتوي على ٢٨٨٠٠٠ دار تغل في العام ٢٢٠٠٠٠٠٠٠ فرنك، وعلى ١٥٠٠٠ شارع وزقاق وتربيعة، وقد اتسعت من مدة خمسين سنة أكثر من ضعفين مما كانت في السابق، وقال مؤلف الهرالد: كانت لندرة في سنة ١٨٣١ تشتمل على نصف ما تشتمل عليه اليوم — أي سنة ٦٢ — أو أكثر فكان فيها من السكان مليون وثلاثة أرباع ومن المساكن ١٦٠٠٠٠ فصار فيها من النوع الأول ٢٨٠٠٠٠٠ ومن الثاني ٣٦٠٠٠٠.

وقال آخر: ويرد إليها ويصدر عنها من السفائن التجارية نحو ٥٠٠٠ سفينة وأربعة آلاف أخرى مستخدمة لثمانية آلاف نوتي وأربعة آلاف صانع، ورأس المال الذي أخرج في عمل الأقنية والمجاري — وغير ذلك مما يختص بالغاز — بلغ ستة وسبعين مليونًا وثلاثمائة وخمسين ألفًا من الفرنك، والمصروف على التنوير في العام يبلغ ستة عشر مليونًا.

وفي لندن ثمانية مواقف لسكة الحديد وست غياض، وثلاثمائة وأربعون كنيسة ومعبدًا للمتأصلة، وربما كان المعبد داخل الكنيسة، وثلاثمائة وسبعون معبدًا للمتفرعة، وثلاثمائة وأربعون مكتبًا للتعليم، وأربعة عشر سجنًا، وثمانية دواوين للشرطة، واثنان وعشرون ملهى؛ أي ثياطرًا، وخمسون سوقًا لبيع المأكولات من اللحم والدجاج والبقول ونحوها، وسوق القمح فيها كلف ٩٠٠٠٠ ليرة، وعدد ما يذبح في العام من البقر لطعام أهلها ١٩٠٠٠٠ رأس، ومن الغنم ٧٧٦٠٠٠ ومن الخرفان الصغار ٢٥٠٠٠٠، ومن العجول قدرها، ومن الخنزير ٢٧٠٠٠٠، يبلغ وزنها في الجملة ثلاثمائة وثلاثة وسبعين مليونًا ومائتين وثمانية آلاف رطل من أرطالهم.

ورطل لندرة قدر رطل تونس وهو عبارة عن ست عشرة أوقية، وثمنه كثمنه، فإذا قوم كل رطل بنصف شلين في إجمال بعضه ببعض، بلغ ثمنها مائة وسبعين مليونًا وسبعمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فرنك، يخص كل إنسان على حدته ١٤١ رطلًا، وهو أكثر مما يخص كل واحد في باريس بضعف مثله، والمصروف من السمك ١٢٠ ألف طن، ومن الزبدة أو السمن ١١٠٠٠ طن، ومن الجبن ١٣٠٠٠، ومن القمح ٣٦ مليونًا

من الكوارتر، ومن الفحم ثلاثة ملايين طن، ومن اللبن ٤٠ مليون زجاجة، ومن الخمر ٦٥ ألف برميل، والبرميل عبارة عن ستة أطنان، ومن الأرواح ٨٠ مليون ليتر، ومن المزر والجعة مليونا برميل، قلت: وفيها ٤٥٥٧ حانة يباع فيها المزر وسائر أنواع الشراب.

قال: وفيها ١٦٥٠٠ إسكاف، و١٤٥٠٠ خياط، و١٣٢٠٠ نجار، و٦٨٣٠ بناء، و٢٣٢٠ صانعًا في الرصاص و٥٠٤٩ جلفاطًا و٢٦٧٠ صانعًا في البرانيط، و٢٦٤٠ في الساعات، و٥٤٠٠ في الخشب، و١٠٩٩ بائع أدوية، و٢١٤٠ صانعًا للبراميل، و٣٧٠٠ طبَّاع، و١٠١٠ صناع لعجلات المراكب، و٢١٠٠ حلاق، و٩١٠ من صناع الحلواء، و٤٣٣٠ جزارًا، و١٥٩٠ تاجرًا في الجبن، و١٠٨٠ في السمك، و١٠٩٠ في التبغ، و٢١٧٠ تاجرًا في العواجل والعجلات، و٥٦٦٠ خبازًا و٤٦٤٠ تاجرًا في الشمع والسكر والصابون ونحوها، و٤٢٠٠ بزازًا، و١٠٤٥٠ بائعًا للحليب، و٢٨١٠ للجواهر، و٧٨٠٠ سائق عاجلة وحافلة، و٧٤٢ باخرة تجري في نهر التيمس كما تجري الحوافل في طرق المدينة، وذلك ما بين رشمند وكرافسند وما حولهما.

(٣) أشهر مواضعها

وأشهر المواضع فيها التربيعة المعروفة باسم ترافلكر — محرفة عن طرف الغرب — فيها عمود نلسون مبنيًّا من المرمر، ارتفاعه ١٧٦ قدمًا وفوق العمود تمثاله، وعلى جانبي الساحة عينان نضاختان، قبالتهما صورة الملك شارلس الأول من نحاس.

قلت: قال بعضٌ: إن عمود نلسون هو من حجر جلب من بورتلاند، وكان نصبه في سنة ١٧٤٣، وعليه شرف من نحاس، صنعت من مدفع أخذ من الفرنسيس، ولخزي الدولة وأهل البلاد بقي غير متمم، وقد بلغت نفقته ٣٣٠٠٠ ليرة، وممن تبرع في العطاء لإنشائه قيصر الروس، فإنه أعطى خمسمائة ليرة، وهو أكثر ما تبرع فيه لهذا الإنشاء، وعنده تمثال كرلوس أو شارلس الأول، صنع في سنة ١٦٣٣. ا.هـ.

واعلم أن نلسون المذكور هو الذي ظفر بمراكب الفرنسيس التي سار فيها نابوليون وجنده إلى مصر فأحرقها عند أبي قير، وذلك في سنة ١٧٩٩، وأتلف أيضًا بوارج فرنسا وإسبانيا في الحرب المعروفة بترافلكر عند رأس فنستير، وذلك في سنة ١٨٠٥، وكانت سفن الإنكليز ٢٨ سفينة، وسفن الدولتين المذكورتين ٣٢، ويومئذ قتل وهو عند الإنكليز معظم الذكر؛ لا يزالون يلهجون بمساعيه البحرية لهجهم بمساعي الدوك ويلنكطون البرية، وكان مولده في سنة ١٧٥٨.

وفي معجم الأوقات أن نصرة الإنكليز في الحرب المذكورة هي أعظم نصرة حازوها، وكان للفرنسيس من البوارج ١٨، وللإسبانيول ١٥، وللإنكليز ٢٧، وبعد قتال شديد أسر أميرال الفرنسيس وغيره، وتلف لهم ١٩ سفينة، غير أن الأميرال نلسون لاقى منيته يومئذ، فقام مقامه كولن وود، وكان اسم سفينته فكطوري؛ أي نصرة، وآخر إشارة صدرت من نلسون قبل الشروع في القتال قوله: إن إنكلترة تتوقع من كل إنسان أن يقضي الواجب عليه، وكان ذلك في الحادي والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨٠٥. قلت: وهذا عندهم من الكلام البليغ، ولذلك كتبت هذه الجملة على العمود الذي تقدم ذكره.

وفي كتاب آخر يسمى تعليقات ومسائل، أن بعض خدم نلسون — وكان به غفلة — قال: كان سيدي إذا باشر الحرب يلبس أحسن لباسه المنصبي، فكنت أنهاه عن ذلك، فيقول لي: مه فإني أقضي الحرب بأفخر لباس لي، فأقول له: بل الأولى أن تلبسه بعد أن تفرغ من الحرب، قال: ولو أني كنت حاضرًا يوم تافلكر لما أصابه ما أصابه بذلك اللباس الذي ترداه.

قال المؤلف الأول: وفيها أيضًا عمود آخر بني تذكرة للحريق الذي وقع في لندرة سنة ١٦٦٦، بلغت نفقته ١٣٧٠٠ ليرة، وارتفاعه مائتا قدم وقدمان، وهو أجوف يشتمل على ٣٤٥ درجة، وارتفاع شرفته ٤٢ قدمًا، وآخر نصب في سنة ١٨٣٣، عليه تمثال ابن الملك جورج الثالث، ارتفاعه ١٢٤ قدمًا، وعلو التمثال ١٤ قدمًا.

قال: وأعظم كنيسة للبروتستانت كنيسة مار بولس في المدينة المذكورة، بنيت على هندسة كنيسة مار بطرس برومية، ابتدئ ببنائها في سنة ١٦٦٦، ونجز في خمس وثلاثين سنة، وبلغ جملة ما أنفق عليها ٣٧٥٠٠٠٠ فرنك، جمع ذلك من طسق جعل على الفحم، وطولها خمسمائة قدم، وارتفاعها أربعمائة وأربع أقدام، ووسعها ٣٠ فدانًا انتهى. قلت: وسيأتي ذكر لهذه الكنيسة.

(٣-١) نهر التيمس وجسوره

ثم إن هذه المدينة شطران يخترقهما نهر التيمس؛ أحدهما: ليس فيه شيء يسر الناظر، فإنه عبارة عن ديار وطرق وحوانيت، والثاني: وهو الذي تقيم فيه الأشراف والأعيان يشتمل على أشياء كثيرة بديعة سيمر ذكرها بك إن شاء الله، وهذا النهر مبني عليه عدة جسور؛ أحدها: وهو أول ما يراه القادم إلى لندرة، الجسر الذي يقال له: جسر لندن، طوله ٩٢٨ قدمًا، وهو مبني من حجر صلب، ويشتمل على خمس قناطر، علو كل منها

٢٨ قدمًا، بدئ به سنة ١٨٢٥، وفتح في سنة ١٨٣١، وأنفق فيه نحو مليوني ليرة، وعليه فوانيس للتنوير، صنعت من مدفع أخذ في حرب إسبانيا ولا يزال مزدحمًا للناس والخيل والحوافل والعواجل، حتى إن من يشاء أن يمر فيه من جهة إلى أخرى يعرض نفسه للخطر، فيلزمه أن يسير على سمت واحد، ومن يرَ ازدحام الناس عنده ولم يكن قد ألف أحوال البلد يظن أن الناس متأهبون للخروج إلى الحرب والقتال؛ إذ يمر عليه في كل دقيقة نحو عشرين مركبًا ما بين عاجلة وحافلة وعجلة وما أشبه ذلك، وعنده عمود شاهق من حجر وتمثال للملك وليم الرابع من رخام.

قال بعضهم: يرد في كل يوم إلى الستي ستون ألفًا من مراكب البر على اختلاف أنواعها في نحو خمسين شارعًا، منها اثنا عشر ألف مركب يمر على جسر لندن في ظرف أربع وعشرين ساعة فإذا حسبت رجوعها عليه كان لكل ساعة ألف مركب. الثاني: الجسر المسمى صوث ورك طوله ٧٠٨ أقدام، وله ثلاث قناطر من حديد، بدئ به سنة ١٨١٥، وفتح في سنة ١٨١٩، وبلغت نفقته ٨٠٠٠ ليرة. الثالث: الجسر المسمى بلاك فرير، بدئ به في سنة ١٧٦٠، وفتح في سنة ١٧٧٠، وهو يشتمل على تسع قناطر، طوله ٩٩٥ قدمًا، وبلغت مصاريفه ١٥٢٨٤٠ ليرة. الرابع: جسر واطرلو، وهو أعظم جسر في المسكونة، بدئ به سنة ١٨١١، وفتح سنة ١٨١٧، وبلغت مصاريفه أكثر من مليون ليرة، ما عدا القرض الذي أخذ من الدولة وقدره ستون ألف ليرة، وهو بديع الصنعة كله من حجر المرمر، يشتمل على تسع قناطر، سعة كل منها ١٢٠ قدمًا، وارتفاعها خمس وثلاثون، وطول الجسر ١٣٨٠ قدمًا، وقد جعل على كل مار به بِنِي فجاء المجموع من ذلك في سنة واحدة ٤٦٧٦ ليرة، وَعَدَّهُ بعضهم من عجائب الدنيا.

قلت: وكانت واقعة واطرلو المشهورة في سنة ١٨١٥، قال بعض المؤلفين: زحف نابوليون على الإنكليز ومعه من الجيش أحد وسبعون ألفًا، وكان يرجو أن يفشلهم بكثرة العدد؛ إذ لم تكن عساكرهم تنيف على ثمانية وخمسين ألفًا، لكنهم صابروا ودافعوا عساكره من الساعة التاسعة صباحًا إلى السابعة ليلًا، فلما رأى منهم الجلادة والثبات ابتدأت عساكره تتراخى، ثم اتصل بالإنكليز بولو ومعه خمسة عشر ألفًا، وحينئذ أمر دوك ويلنكنطون بالإطلاق عليهم، فاحتدمت نار القتال بينهم أي احتدام، فقتل من الإنكليز مائة وعشرون ضابطًا وألف وستمائة وواحد وخمسون نفرًا، وجرح ٤٣٦ ضابطًا، وخمسة آلاف وأربعمائة وستة وخمسون نفرًا، ولكن قتلى الفرنسيس كانوا أكثر، ويومئذ اضطر نابوليون إلى الرجوع إلى باريس ليجند جيشًا آخر، فلم يوافقه أهل

الشورى؛ لأنه كان قد تلف معه أربعة جيوش من قبل، فاضطر إلى أن يخلع نفسه على ما ذكر سابقًا.

الخامس: الجسر الجديد المسمى بالمُعَلَّق؛ لأنه غير مبني على قناطر، له ثلاث فتحات واسعات جدًّا، وهو أعلى جسر في الدنيا من هذا الطراز، بدئ به سنة ١٨١٤، وفتح سنة ١٨١٩، زنة ما فيه من الحديد ٥٥٠٨ أطنان. السادس: جسر وستيمنستر، بدئ به سنة ١٧٣٨، وتم في سنة ١٧٥٠، طوله ١٢٢٨ قدمًا، وعرضه ٤٤، وله ١٥ قنطرة، وبلغت نفقته ٣٨٩٥٠٠ ليرة، ولما شرع في بنائه حسبه المهندسون من أحسن جسور الدنيا. السابع: جسر فكسهال صنع من حديد صلب، بدئ به في سنة ١٨١١، وفتح في سنة ١٨١٦، وطوله ٧٩٨ قدمًا، وهو يشتمل على تسع قناطر. الثامن: جسر همرسميث، طوله مائة واثنتان وثمانون قدمًا، وغير ذلك مما ذكره يطول.

نفق التيمس

ومن أعجب ما بني على هذا النهر — والأحرى تحته — المجاز المعروف بتيمس طنل، وهو موضع أنشئ تحت الماء طوله ١٣٠٠ قدم، ارْتُئِيَ إنشاؤه في سنة ١٨٢٥، ثم أغلق لِطُمُوِّ المياه عليه، ثم استؤنف العمل فيه، وفتح سنة ١٨٤٣، وبلغت نفقته ٦١٤٠٠٠ ليرة، وجملة ما يُؤخذ له من المتفرجين عليه في كل سنة نحو خمسة آلاف ليرة، وينزل إليه في نحو مائة درجة من حديد، ويدفع على ذلك بِني واحد، أنشأته جماعة تعرف بجماعة الطنل، ومعنى الطنل: القبو أو السرب أو النفق، ويقال: إن نقر ذراع واحد منه في بعض المواضع أنفق فيه ألف ومائتا ليرة وبعضه ١٢٠ ليرة، والفائدة من إنشائه مرور الناس فيه من جهة لندرة الأولى إلى جهتها الأخرى، فهو بمنزلة الجسر، إلا أني ذهبت إليه غير مرة، فلم أرَ فيه إلا المتفرجين، وقيل: إن الغرض منه ذكر شرف للدولة.

بواخر التيمس ومراكبه

وترى البواخر تجري منحدرة وصاعدة في هذا النهر مشحونة بالرجال والنساء كما تجري الحوافل والعواجل في الطرق، وحين تمر تحت القناطر تميل قصب الحديد التي هي مداخنها ليمكنها الدخول، فإذا جاوزتها أعادتها كأنها قطعة واحدة، وعدة المراكب المنسوبة إلى هذا النهر بلغت — في سنة ١٨٥٠ — ٢٧٣٥، وعدة البواخر ٣١٨، يستخدم

فيها ٣٥٠٠٠ نفس من الرجال والغلمان، وفي سنة ٤٨ ورد إلى مرساه ٤٢١٤٥ سفينة، ورد من المكس عليها إلى الكمرك ١١٩٣٠٧٧ ليرات، وكانت قيمة الخارج منه ١١٠٠٠ ليرة، وعدة المراكب التي تسير في المدينة ما بين كبيرة وصغيرة نحو سبعة آلاف، وعدة الصنف المسمى هكني كرج ٤٣٥٠، وعلى الكبيرة وهي المعروفة باسم أمنيبوس ترى أسماء الحارات والأماكن التي تسير إليها، ولا بد أن يكون مكتوبًا عليها اسم البنك، فإنها كلها تمر به إلا ما قل، وكل منها يسع اثني عشر شخصًا بداخلها وتسعة بخارجها، ومن هذه الحوافل نحو ستمائة حافلة، اشترتها جمعية واحدة مع لوازمها من الخيل والعدد بأربعمائة ألف ليرة، فتكون كل واحدة منها بنحو سبعمائة ليرة.

(٣-٢) حوافل باريس ولندرة

وهي بالنسبة إلى حوافل باريس معنتة من وجوه؛ أحدها: أنه ليس في داخلها شيء يتمسك به الإنسان، فأول ما يدخلها يستمر سائقها في السير، فيترنح الداخل يَمْنة ويَسْرة وربما وقع على بعض الجلوس، وكثيرًا ما يعجل البواب إلى إطباق الباب على يد الداخل، وكثيرًا ما وردت شكاوى الركاب في هذه إلى القضاة، فمنهم من حصل أرشًا ومنهم من خاب. الثاني: إنه إذا كان بين الستة رجلان سمينان ضاق الموضع بالباقي؛ إذ لا يكاد يسع هذا العدد إلا باللز والتضام، وقد وقع غير مرة نزاع أفضى إلى الشرع ما بين هؤلاء السواق وبين الرجال السمان، فإن السائق يأبى أن يأذن للسمين في أن يتبوأ موضعين ويدفع عليهما أجرة واحد، فأما في باريس فبين كل قاعدين فاصل من قضيب نحاس، فالقاعد فيها مقعدًا لا يكاد يمس جاره وكأنما هو قاعد على كرسي بداره.

الثالث: أنه قد يتفق أن يكون اليوم باردًا ويبتدر أحد الجلوس إلى فتح إحدى الطيقان من دون أن يسأل جاره هل يستطيب ذلك أو لا، فإن كل واحد من الناس عمومًا ومن الإنكليز خصوصًا يرى أن في صلاح نفسه صلاح غيره. الرابع: إن الداخلين لا يدفعون الجُعْل عند الدخول كما يفعل في باريس، بل عند الخروج، فيدفع الخارج الأجرة إلى السائق، ويذهب في خلال ذلك الوقت عبثًا ما بين تصريف الدراهم والقال والقيل، والبواب هنا أبدًا معرض رأسه للمطر والشمس؛ إذ لا جُنَّة تقيه، بخلاف البواب في باريس، ولبوابي حوافل باريس شريط من قصب على أطواق ملابسهم، وصفحة على صدورهم تؤذن بمهنتهم، ومتى وجد أحدهم موضعًا فارغًا عند باب الحافلة قعد فيه وأفاض في الحديث مع جاره، وعد نفسه من جملة الركاب بلا محاشاة.

وهناك فرقان آخران بين حوافل لندرة وباريس، وهو أن حوافل باريس ليس لها مقاعد على ظهرها، فكل ركابها يقعدون في داخلها، فلهذا كانت أطول وأوسع من حوافل لندرة، وهي أشق على الخيل، غير أن الفرنسيس لما كان دأبهم وولعهم التبديل والتغيير صاروا الآن يصنعون حوافلهم كحوافل الإنكليز في الصغر، وفي جعل مقاعد لها على ظهرها.

سُوَّاق العواجل في لندرة وباريس

وسواق العواجل في لندرة ذوو شطط وجفاء؛ فإنهم يتقاضون الغرباء أكثر من المرسوم عليهم من الميري، وحيث إنهم يعلمون أن أصغر القضايا لا تفصل إلا بحضرة القاضي بعد قال وقيل، وأنه ليس كل أحد يروم التشرف بمجلس الأحكام، فلا يألون جهدًا في غبن الراكب، وأخذ شيء منه زائد على المرتب، ومن لؤمهم أيضًا أنهم قلما ينبهون الماشين في الطريق قبل أن يدركوهم، وإذا تكلفوا ذلك نبهوهم بنوع من الشتم، أما في باريس فإن للسواقين شيخًا في كل خط، فمتى حصل بين أحدهم وبين المستأجر نزاع، فصله الشيخ، ومتى دخلت العاجلة أعطاك السائق ورقة مطبوعة فيها عدد عاجلته، لتهديك إلى معرفته عند الاقتضاء.

أجور النقل في لندرة وباريس

والجُعْلُ على المضمار في باريس بعيدًا كان أو قريبًا نحو شلين، ولا فرق في عدد الركاب، فأما في لندرة فعلى كل ميل نصف شلين إذا كان راكب واحد، ولكن إذا كانت المسافة مثلًا ميلين وادعى السائق أنها ثلاثة، لم يفصل بينك وبينه غير البأس والبطش، فإن رآك أضعف منه ألزمك ثلاثة، فأما إذا اكتريت بالساعة فسير ساعة في لندرة جعله شلينان، وفي باريس فرنكان، غير أنه يوجد في هذه عواجل مفتوحة تشبه عواجل الأمراء والكبراء، وربما جرها حصانان، وفي لندرة لا وجود لها، ومن الغريب أن الحوافل التي جعلها في لندرة أغلى تكون أبدًا مشحونة بالركاب، والرخيصة يعرض عنها.

(٤) اختراع العواجل بين الفرنسيس والإنكليز

وعن بعضهم أن هذه العواجل الكبيرة هي من مخترعات الفرنسيس في زمن فرنسوا الأول، ولكن لم يكن منها حينئذ إلا اثنتان، وفي سنة ١٥٥٠ كان منها ثلاث وواحدة لهنري الرابع، ولكن من غير سيور، ولم تتقن إلا في عهد يوحنا دولافال، فإنه لعظم جثته لم يكن يقدر أن يسافر إلا بها، وكانت ملوك فرنسا من قبل ذلك تسافر على الخيل والملكات في محفات والخواتين يركبن وراء الأمراء، وأول عاجلة رئيت في إنكلترة كانت في زمن الملكة ماري، وذلك سنة ١٥٥٣ — وفيه نظر.

(٥) إمداد لندرة بالماء

وفي لندرة تسع جمعيات لإمداد سكانها وما يليها بالماء ينفذ منه كل يوم ستة وأربعون مليون كالن منها عشرون مليونًا من نهر التامس وستة وعشرون مليونًا من النهر الجديد ومن موارد أخرى، وهذا النافد موازٍ لنهر عرضه تسع أقدام وعمقه ثلاث، وجريه في كل ساعة قدر ميلين ومشروب السكان كله من النهر الجديد ومن نهر آخر يسمى «لي لا» من نهر التامس، وطول النهر الذي حفر حديثًا ثمانية وثمانون ميلًا، وقد تم حفره في سنة ١٦٢٠ واسم من نهره سرهف ميدلطون.

(٦) سير الحوافل في إنكلترة

قال: وكان سير مراكب البر في إنكلترة بطيئًا جدًّا حتى إن أحد المؤلفين قال: إن الخوري آدم على ترهله كان يمشي أسرع منها، وكانت كثيرًا ما تنشب في الوحل وتقرقع، وقال آخر: لم تكن الحوافل من قبل سنة ١٨٢٨ معروفة عند الإنكليز، فقدم إليهم في التاريخ المذكور رجل من فرنسا اسمه شليير فاستعملها عندهم، والآن يوجد لها جمعية إيرادها نصف مليون ليرة في العام، ورأس مالها نحو ٣٠٠٠٠٠٠، وعدد الحوافل التي لها رخصة ٣٠٠٠، وكل حافلة في لندرة يلزم لها عشرة رءوس من الخيل، وعلف الحصان يقوم في اليوم بنحو شلينين.

(٧) جمعيات لتأمين لندرة

ويوجد أيضًا في لندرة ٧٦ جمعية لضمان الحريق والغرق والمعيشة وغير ذلك، وقَلَّ أن توجد دار عظيمة أو حانوت كبير أو شيء آخر نفيس من دون ضمان، وصورتها إذا خاف إنسان على داره أو سفينته أو أمتعته من النار أو السرقة ذهب إلى جمعية منها، وألزم نفسه أن يدفع لهم في المائة شيئًا معلومًا إلى أجل مسمى، فإذا هلك ماله غرمت الجمعية قيمته، فأما ضمان المعيشة فهو أن الإنسان يلزم نفسه أن يدفع في كل سنة شيئًا حتى إذا مات قامت الجمعية بمؤنة عياله، ولكل سن مبلغ، فإن القوي المظنون تعميره يدفع أقل مما يدفع الطاعن في السن، وقبل تدوين اسمه في دفتر الضمان يكشف الطبيب عن بدنه ليعلم هل فيه داء خفي أو لا؟ فإن علم أن به علة لم يقبل أو يكلف دفع مبلغ وافر.

وللميري أيضًا شيء مما تأخذه الجمعية؛ إذ لا يصح انعقاد جمعية شرعية أو إحداث شيء شرعي في بلاد الإنكليز من دون غُرْم للخزنة، وفي المحترفات الكبيرة والديار العظيمة يتخذون أصونة من حديد لصون المال والحلي وكواغد المصرف وغيرها.

وعن بعض المؤلفين: لم تعقد جمعية ضمان الحريق من قبل ١٧٠ سنة، فكان من يرزأ بالنار يجمع له مدد من الناس، إلى أن انعقدت الجمعية المسماة اليد باليد في سنة ١٦٩٦، ثم اقتدى بها جمعيتان أخريان، فلما أن نجحت مساعيهما تابعتهما على ذلك أخرى، حتى بلغت الآن في المملكة ٧٤ جمعية، وفي سنة ١٨٠٥ قومت الأملاك التي ضمنت من خطر الحريق بمائة وأحد وثمانين مليون ليرة، وفي سنة ٥٥ بلغت ٩٢٧٠٠٠٠٠٠، وقد أطفئوا في سنة واحدة ٣٩٠ حريقة، وأنجوا سبعين نفسًا.

(٨) محلات الصيارفة في لندرة

وفي لندرة ٨٨ محلًّا للصيارفة، ولكن لا ينبغي أن تفهم من لفظة الصيرفي هنا ما تفهمه منها في البلاد الشرقية، فتظن أنه يصرف الليرة مثلًا بشلينات ويأخذ عليها فلسًا أو فلسين، وإنما الصراف هنا هو من تأتمنه الأغنياء والكبراء على أموالهم فيدفعونها، ويأخذون منه فائدتها في العام، وكل واحد من هؤلاء الصيارفة عنده عِدَّة من الكُتَّاب والحُسَّاب والخَدَمَة، فمحترفه عبارة عن ديوان يدخل فيه الناس أفواجًا أفواجًا.

(٩) المنشآت الخيرية في لندرة

وفي لندرة من المواضع المنشأة للبر وفعل الخير ما يصعب عده ويعسر حده، قال بعض المُطْرِين على الإنكليز — وأظنه أمرصون الأميريكاني المشهور: إن الإنكليز أكثر الخلق فِعْل خيرات، وأظن ذلك يصدق عليهم من دون مراء، وها أنا أبين لك بوجيز من القول عظم ما تفعله هذه الأمة من البر والإحسان، فإذا سمعته فاقضِ لنفسك بما تراه الحق، فأقول: إن في لندرة مستشفيات للمجانين والجذمى وناقصي الأعضاء، وللمرضى والجرحى والسقط والصم والبكم والعُمْي، والمحتاجين والأشقياء ولسائر من حلت به نكبة وفدحته مصيبة، وللمحرومين من الرزق وللعاجزين من الشيوخ، وللأيتام وللنغول وللغرقى والأرامل، ولإرشاد الضالين وتحرير الرقيق والرفق بالحيوان، ما عدا مجال التعليم والعبادة ونشر التوراة والإنجيل وغير ذلك مما يبلغ مئات.

ففي مستشفى صان برثولومي ٥٨٠ فراشًا، وتوزع منه أدوية وغيرها على سبعين ألف شخص في كل سنة، منهم أربعة آلاف بداخله، وفي غير مستشفى آخر ٥٣٠ فراشًا، وتوزع منه أدوية وغيرها قدر ما يوزع من ذاك، وفي مستشفى صانت جورج ٣١٧ فراشًا، ويوزع منه أدوية وغيرها على كثير من المرضى والزَّمْنى، ويوجد مثلها ستة أخرى لشفاء الأمراض والجراح ولتربية النغول، يربى فيه نحو ٤٠٠ ولد، وآخر لأجل تربية أولاد العساكر البحرية وأولاد أهل سكوتلاند، وآخر لتربية أولاد العساكر البرية، فيه ألف ولد، ومحال أخرى للأيتام أكثر من أن تعد.

هذا؛ وللجمعية الإنسانية مساعٍ حميدة لاستنقاذ الغرقى، فإنها تستخدم أناسًا لاستخراج الغارقين بآلات مخصوصة، وتبذل جهدها في مداواتهم وشفائهم، وتجود بالجوائز على كل من ينقذ أخاه في البشرية، وكذلك يوجد جمعية لإغاثة الذين يصابون بالنار، وفي كريست هسبيتال يربى أكثر من ألف ولد، وقل كذلك في الباقي. ا.هـ.

قال صاحب الكتاب الذي منه نقلت: إن جملة المستشفيات والمنشآت الخيرية من عند لندرة وما يليها إلى حد كرينتش، وهي على عشرين دقيقة من لندرة لا تنقص عن أربعمائة وأحد وتسعين محلًّا، وتفصيلها كما يأتي:

مستشفيات عمومية	١٢
موزعات مخصوصة لأدواء كالجدري والسل ونحوهما	٥٠
موزعات عمومية «وهي المواضع يعطى منها الدواء»	٣٥
جمعيات ومنشآت لحفظ الحياة والأدب وحسن السيرة	١٢
جمعيات لمنع الجرائر والشر	١٨
جمعيات لإغاثة الذين هم في الضيق والفاقة على العموم	١٤
جمعيات نظيرها على الخصوص	١٢
جمعيات لمساعدة ذوي الكد والكدح	١٤
جمعيات للصم والبكم والعمي	١١
مدارس ومستشفيات ومحال للصدقة على العاجزين من الهَرَم	١٠٣
جمعيات خيرية تجري أرزاقًا عمومية مما يعرف عند العامة بعلوفة	١٦
جمعيات خيرية خاصة بطبقات من الناس مخصوصة	٧٤
مستشفيات للأيتام ولغيرهم من الأولاد المخذولين	٣١
محال للتربية والتعليم	١٠
محال أخرى مثلها	٤
جمعيات للمدارس والكتب الدينية ومساعدة الكنائس وعيادة المرضى	٤٠
جمعيات للتوراة والإنجيل والمرسلين	٣٥

تبلغ مصاريفها في وجوه مساعيها المتنوعة في كل سنة ١٧٧٤٧٣٣ ليرة، يجمع منها أكثر من مليون من المتطوعين لفعل الخير. ا.هـ. ويقال أيضًا: إن جملة ما فرق على

الفقراء في بلاد الإنكليز من سنة ١٨١٦ إلى سنة ١٨٤٩ بلغ مائتي مليون ليرة، وإيراد المستشفيات الكبار من الوقف وعدتها أربعة عشر يبلغ ١٠٩٦٨٧.

ويقال إن في مستشفى صان برثولومي يصرف كل سنة نحو ثلاثمائة ليرة ثمن خمر تسقى للمرضى، ونحو ٢٠٠٠ رطل من زيت الخروع، و٢٠٠ كالن من الأرواح ثمن الكالن ١٧ شلينًا، و١٢ طنًّا من بزر الكتان، و١٠٠٠ رطل من السنا، و٢٧ قنطارًا من الملح و٥٠٠٠ يارد من البفت للربائط، و٢٩٧٠٠ عُلْقة، وطن ونصف من الرُّب، و٥٠ رطلًا من العشبة في كل أسبوع، وقس على ذلك، ومصروف مستشفى كرينج في السنة عشرون ألف ليرة.

وفي هذه السنة صرف على التعليم في بريتانيا ٥٤١٢٢٣ ليرة، وعلى العلوم والفنون ٧٣٨٥٥ ليرة، ولما سنَّت الإنكليز تحرير الرقيق في سنة ١٨٣٨ تطوعوا بعشرين مليون ليرة تعويضًا لمواليهم، وبلغ ما جمع لهم في لندرة في عام واحد ١٣٦٠٤٦٤ وفي سنة ١٨٤٨ كان منهم في المستشفيات ٥٦٣٢٣، منهم ٩٥٨٨ نغلًا أمهاتهم في المستشفى، و٤١٧٥ أمهاتهم في الخارج، وجميع الجمعيات تنال مددًا من الملكة ومن زوجها، وعلى قدر هذه الجمعيات المتواطئة على البر والإحسان، فإذا رأيت الفقراء في لندرة توهمت أن ليس أحد فيها يعمل الخير، فإنك ترى نساء يمشين على الثلج حافيات بأخلاق ثياب يظهر منها مواضع كثيرة من أبدانهن، وكثيرًا ما تراهن يلتقطن الجذور من الطرق ونفاية ما يرمى به من الطعام من الديار.

ولا يباح للفقير هنا أن يتكفف، وإذا وجد أحد الشرطة إنسانًا مادًّا كفه أخذه وأودعه السجن، غير أن بعضهم لا يتحرج من ذلك ليلًا إذا علم أن الشرطي لن يبصره، وأكثر من يفعل ذلك النساء، وخصوصًا نساء إرلاند، فهن يجرين مع المارين، ويلحفن في الطلب إلحاف الغريم، فإذا لم تنل إحداهن شيئًا من غريمها لعنته وانصرفت، وكذلك لا يباح لأحد أن يكسب مالًا بغير الوجه الذي يؤهله إلى ذلك، فلا يسوغ مثلًا لأحد أن يتعاطى الطب وهو جاهل به، أو صنعة من الصنائع من دون أن يأخذها عن آخر، ويشهد له أستاذه بأنه أتقنها، ولكن هم في ذلك أقل ضبطًا وتحرزًا من الفرنسيين، وأكثر عرضة للتدجيل والمخرقة.

وبقي لي هنا أن أقول: إن زي الأولاد الذين في المدارس والمستشفيات الخيرية بهذه المدينة من أقبح ما يكون، فإن الأولاد الذين في بلوكوت سكول أعني مدرسة الرداء الكحلي، وهي من أشهر المدارس، يلبسون أردية من هذا اللون طويلة إلى أوساط سوقهم،

ويتحزمون بالجلد كالرهبان عندنا، ولهم جوارب صُفْر، ولا تزال رءوسهم مكشوفة صيفًا وشتاء، مع أنهم من أبناء الوسط، فأين هم من أولاد مدارس باريس الذين يلبسون لباس ضباط العسكر، فتحسب كلًّا منهم ضابطًا أو ضويبطًا؟! ويقال: إن اللون الكحلي في بلاد الإنكليز كان في السابق خاصًّا بالخدمة والصبيان، فلم يكن أحد من الخاصة يستليقه لنفسه، حتى استعملته ضباط العساكر البحرية أولًا، فصار مرغوبًا فيه ثم استعمله الوكس وهم فرقة من الأشراف من أهل المجلس، فصار الآن خاصًّا بالعظماء والنبلاء.

وذكر مؤلف أبجدية الأوقات جماعة تعرف بجمعية الببل، قال: من شأن هذه الجمعية في فرنسا وإنكلترة جمع الأموال لمقاصد خيالية على أي وجه من السُّحْت كان، وغير مرة تقع في العنت وسوء العاقبة، وقد انهمكت بإنكلترة في هذه الأيام في رأس مال بلغ ثلاثمائة مليون ليرة. ا.هـ.

والحاصل أن في لندرة جمعيات كثيرة للخير والشر، وكل ما يدار فيها من المصالح الجسيمة والمساعي الجليلة، فإنه يكون بواسطة جماعة لا بواسطة الدولة، بخلاف مصالح باريس كما سبقت الإشارة إليه، وأقدم جمعية للتجارة هي الجمعية المسماة ستيل يارد، كان انعقادها في سنة ١٢٣٢، وأقدمهن في المساعي الدينية جمعية انتشار المعارف المسيحية، كان انعقادها في سنة ١٦٩٨، وفي الستي وحدها إحدى وتسعون لجنة أي كومبانية، لأصناف التجارة والمبايعة، منها اثنتا عشرة لجنة تنعت بالهونورابل أي المكرمة.

(١٠) الشرطة في لندرة وباريس

وفي لندرة نحو سبعة آلاف شرطي، وهم يتناوبون عس المدينة ليلًا ونهارًا، وفي كل طريق شرطيان منهم في كل طرف واحد، وهم على غاية من النظافة والوضاءة ولا يكون مع الشرطي سلاح، بخلاف شرطة باريس، وإنما يكون بيده عصا قصيرة عليها صورة التاج، فإذا عصاه أحد من ذوي الشرور ألقاها عليه إيجابًا للطاعة، فلا يمكن بعدها الخلاف، ويكون معه فانوس مضلع، فإذا أراد أن يتعرف شخصًا عن بعد أداره فوقع النور على وجهه، حتى يراه كأنه بجنبه، ولا يسمح للشرطي بأن يتعاطى الدخان في حال مباشرته الخدمة، خلافًا لشرطة مرسيلية وغيرها، ولا أن يلطا من المطر أو الثلج، ولا أن يرفع فوق رأسه ظلة تقيه منهما أو من الشمس.

ومن هؤلاء الشرطة من يتزيا بزي العامة، حتى لا يكون معروفًا ويسمى الثقاف، ويجب على كل منهم أن يتعهد أبواب الديار والحوانيت ليلًا، ليعلم هل هي محكمة القفل أو لا؟ فإذا رأى أحدها غير مقفل نبه مالكها عليه، وأن ينظر إلى أنوار الغاز في المواضع المذكورة وينبه على إطفائها بعد فوات الوقت، وأن يمنع من رمي المياه القذرة وغيرها من الشبابيك، وييسر المرور في الطرق للماشين والراكبين، وأن يبذل جهده في فض الجموع ومنع الخصام في الطرق، وفي إزالة كل ما يخل بالحياء والأدب.

وليس له أن يدخل البيوت إلا باستدعاء سكانها، وقد يدخلها في بعض الأحوال بأمر رئيس الديوان، وذلك عند التفتيش على أشياء مهمة، وإذا طلب منه أحد أن يدله على طريق أو دار فلا يألو جهدًا في إرشاده، ويجب عليه أن يتعرف أهل الشرور والمساوئ ويراقبهم، ولا سيما إذا اجتمع منهم اثنان أو ثلاثة، وإذا أراد أحد مثلًا أن يشتري شيئًا من حانوت أو يستكري عاجلة فامتنع مالك الشيء من بيعه أو إكرائه، فللشرطي أن يلزمه بذلك نفيًا للمحاباة، ويجب حضور واحد أو أكثر من الشرطة في جميع المحال التي يكثر انتياب الناس إليها منعًا لما عسى أن يحدث من الجلبة والخصام.

أما في باريس فإن الشرطي يتبوأ موضعًا في داخل المحل، وأما في لندرة فإنه يقف خارجًا أو في دهليز المحل، وربما دخل أيضًا للتفرج كآحاد الناس، ولكن حدَّه في ذلك معروف عند المنتابين، ويجب على الشرطي أيضًا أن يمنع الفقراء من التكفف في الطرق، أو من الاضطجاع أمام الأبواب وفي الأماكن المطروقة، وإذا وجد ولدًا تائهًا عن مأواه أرشده إليه، فإن لم يعلم له مأوى آواه في ديوان الشرطة، وكتب اسمه وصفته في صحف الأخبار حتى يأتي من ينشده، وإذا بلغه أحد الأهلين شكوى عن لص أو ذي عدوان تتبع اللص والمتعدي حتى يثقفهما، فإذا وجد المذنب ساقه إلى الديوان برفق، إلا إذا كان شرسًا؛ فحينئذ يستدعي بشرطي آخر لإعانته، ويكون معه آلة يصوت بها لإحضار من استدعى به.

وعليه أيضًا أن يرى الكلاب مقيدة، ولا سيما في زمن الصيف، وأن يمنع الرعية من حمل السلاح ظاهرًا أو خفية، ومن أذى الحيوانات وتحميلها ما لا تطيق، ويجب على كل منهم أن يكون معه كتاب فيه أسماء الطرق المسلوكة، والمواضع المشهورة، وَحَدُّ أجرة العواجل حتى يفصل ما بين الغريمين وأن يعرف قدر المسافة من طريق إلى غيرها، وفي كل يوم صباحًا ينظر رئيس الشرطة في ملبوس المستخدمين في هذا الديوان، وفيما يلزم إبقاؤه نظيفًا فإذا رأى أحدًا منهم قد أهمل نظافة شيء أو تصليحه غرمه على ذلك، وفي

يوم الأربعاء يكون تفتيش عام على الملابس، ومرتب الشرطي في لندرة من ستة عشرة شلينًا في الأسبوع إلى خمسة وثلاثين، وأكثرهم يموت بداء الصدر من طول الوقوف، وهم أنفع طائفة للمدينة والناس.

وفي الجملة فإن شرطة لندرة خير من شرطة باريس؛ فإن جُلَّ هؤلاء من الفلاحين، وهم على غاية من الفظاظة والتكبر، ولا سيما الذين يلبسون برنيطة نابوليون، وفي سنة ١٨٤٨ بلغ عدد الشرطة في إنكلترة ووالس ٢٧١٦، أكثرهم في إنكلترة، وبلغت مصاريفهم ١٦٣٩٤٤ ليرة، منها ١٣١٢٠٢ مرتب وظائف لهم، و٣٢٧٤٤ لدواعٍ اقتضتها الضرورة، وبلغت مصاريفهم في سنة ٥٦: ٤٣٤٠٨١، لكن عددهم زاد على ما تقدم، وفي لندرة ثلاث فرق من المشاة، وكتيبتان من الفرسان، وهؤلاء الفرسان نخبة من جميع المملكة، فهم على غاية من الجمال والاعتدال، فإذا رأيت منهم نفرًا حسبته رئيس عسكر، ولهم سراويل من جلد أبيض وجزم طويلة تفوت ركبهم، وعامة نساء لندرة من السفلة يذهبن معهم مجانًا.

(١١) المقاهي والمطاعم والمسارح والأوبرا في لندرة

وفيها ٦٠٠ موضع للأكل و٩٠٠ موضع للقهوة، و١٨ ملهى — وهو المسمى عندهم ثياطرًا — أعظمها الملهى الكائن في هاي ماركت، يقال: إنه أكبر ملهى في الدنيا، ومثله أو أكبر منه ملهى بميلان في إيطاليا، يسمى «لاسكالا»، كان بناؤه في سنة ١٧٩٠ عن رسم رجل من النمسا، ثم غير بعض التغيير في سنة ١٨١٨، وأكري بعض أكنانه العليا بثمانية آلاف ليرة، وبعض مقاعده في الحضيض بأربعة آلاف، ومن ذلك الأوبرة الطليانية الملوكية في كافن كاردن، أسس في سنة ١٨٠٨، وفتحت في سنة ١٨٠٩، واقتضى لإنشائها وتهيئتها مبالغ وافرة، وبلغ مصروف محل الغناء — في سنة ٤٨: ٣٣٣٥٩ ليرة، ومحل الرقص ٨١٠٥ ليرات، ومحل الموسيقى ١٠٠٤٨، وصرف على الآلاتية ٧٠٠٠ ليرة، وإجارته في العام ٦٠٠٠ ليرة، واستخدمت فيه امرأة لاعبة من الفرنسيس على ثمانية أشهر بمبلغ ١٢٥٠٠ ليرة، وحسب أن نفقته في كل ليلة بلغت ٨٤٥ ليرة، وقد احترق الآن ثم بُني.

وأقدم ملهى بلندرة هو المسمى «دروري لان ثياطر» ولكن بناءه غير قديم، فإنه أُحرق مرتين وهدم مرة واحدة، وأخسُّها المحل المسمى «فيكطوريا ثياطر»، كما أن «فيكطوريا بارك» هو أخس الغياض، «وفيكطوريا كافي هوس» أخس محال القهوة، وأكثر مواضع اللهو هذه تشرف بحضرة الملكة، وحينئذ يمكن للغني والصعلوك أن يراها

وزوجها وأولادها، إلا أن الغالب أنه متى ذهبت إلى ملهى ما، تنافس الناس في الذهاب إليه، فتغلو المقاعد بحيث لا يعود يَتَبَوَّؤُهَا إلا أهل الاستطاعة، وربما أرخيت ستارة المحل الذي تقعد فيه، وليس حضورها بمانع مما ألفه اللاعبون والمتفرجون، فقد شاهدت مرة بحضرة زوجها وأولادها زمرة اللاعبين مقبلين بعصي عليها أصناف كثيرة خسيسة من جملتها زوج نعال.

واعلم أن التمثيل في الملهى يتجاذبه نوعان من التاريخ والأدب وفيه تمثل الحوادث والوقائع الماضية، فتصير كأنها مشاهدة بالعيان، وفيه تنشد الأشعار الرائقة والقصائد البليغة، ويقع من المحاورات الأدبية جدًّا وهزلًا ما يُسَرَّى به عن الثكلى حزنها، وكل ما يقال فيه فهو من الكلام الفصيح الذي تستعمله علماؤهم وأدباؤهم، فإن أعظم شعراء الإفرنج ألفوا فيه، وما من خطيب مِصْقَع أو أديب بارع إلا ودوَّن شيئًا من هذه المحاورات.

ومن طريقة اللاعبين فيه أن يخصصوا كل شخص منهم بحال، فمن كان مديد القامة جهير الصوت أبتع، خصصوه بأن يمثل الأمور التي فيها حماسة ووعيد وتدمير، ومن كان لطيفًا رخصًا خص بما شأنه الاستشفاع والملاطفة والتملق، ومن كان حُزُقَّة خُصَّ بالأمور السخرية المضحكة، وقس على ذلك، ولو عرفت قدر ما يسرده هؤلاء اللاعبون عن ظهر القلب لأعظمته جدًّا، فإن كلًّا منهم يحفظ من القصص والنوادر ما يكون أكبر حجمًا من ديوان المتنبي، ولا يكاد أحدهم يتلعثم في عبارة، وقد يوارون شخصًا بيده الكتاب الذي تحفظ منه تلك الحكايات في مكان، حتى إذا ذَهِلَ المتكلم عن شيء رده، ولكن وقوع ذلك نادر، ويقال: إن هؤلاء الفصحاء في ملعبهم أولو عيٍّ في غيره.

وفي هذه المواضع من الآلات والأدوات والمناظر ما يحير الناظر؛ لأنه على قدر اختلاف الوقائع والحوادث ينبغي أن يكون اختلاف الأدوات اللازمة لتمثيلها، مثال ذلك إذا أريد تمثيل ما جرى بين السَّمَوْأَل وبين الحارث بن ظالم حين طلب منه أن يسلمه الدروع التي كان أودعها عنده امرؤ القيس، نصبوا مكانًا شبيهًا بالقلعة وجاءوا بدروع وسيوف وشخصين مثيلي امرئ القيس والسَّمَوْأَل، فيكون هذا لابسًا لباس الملازم لبيته المشتغل بأمور نفسه، وذاك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر، ويشرع الشخص الممثل لامرئ القيس في أن يخاطب الآخر بأنه قام له هَمٌّ في النفس، اضطره إلى مفارقة الوطن ومباينة السكن، فإن المعالي لا تدرك إلا بجهد النفس والمخاطرة وإزالة المصون من

النفائس والرغائب وما أشبه ذلك من الكلام الحكمي، وينشد في خلال ذلك أبياتًا يتمثل بها كقول المتنبي مثلًا:

تُرِيدينَ إدراك المعالي رخيصةً ولا بد دون الشَّهْد من إبر النحل

أو قول الآخر:

يغوص البحر من طلب اللآلي ومن رام العُلى سهر الليالي

ويتأوه في أثناء الخطاب ويحرك رأسه، وينظر نظر المبتئس الشافن إلى أن يفرغ من الإنشاد، والناس منصتون لا تسمع لأحد منهم نأمة، ثم يأتي بالأدرع والسلاح ويسلمها للسمَوْأَل، فيأخذها منه، وبعد أن يتوادعا وينشد كل منهما أبياتًا دعاء لصاحبه على ما يقتضيه المقام، يدخل السَّمَوْأَل حصنه، ويرخي الحجاب، وبعد قليل يُرْفَع، ويأتي الشخص الممثل به الحارث بلباس فاخر يدل على صفته، ومعه جند وأعوان شاكي السلاح، ويطلب الدروع من السَّمَوْأَل وهو متهدد له ومتوعد، ويتمثل بأبيات تدل على شدة بطشه وسطوته بين أقرانه كقول الفرزدق مثلًا:

وكنا إذا الجبار صَعَّرَ خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع

أو كقول المتنبي:

الخيل والليل والبَيْداء تشهد لي والرمح والسيف والقِرطاس والقلم

فيجيبه السَّمَوْأَل من حصنه بالمنع، وينشد أبياتًا تدل على وفائه وصدق نيته وشرف نفسه، ثم تدور بينهما المحاورة إلى أن يقنط الحارث من أخذ الدروع، فيعمد إلى ابن السَّمَوْأَل فيأخذه ويذبحه بمرأى منه، وهنا يرخي السجف، وبعد قليل يظهر السَّمَوْأَل وبيده الدروع، ويذهب بها إلى أقارب امرئ القيس، ويسلمها لهم، وينشد أبياته المشهورة، وهنا يتم الفصل. وهذا التمثيل يجري في أكثر من ساعة لما يتخلله من المحاورات كما ذكرنا وليس الخبر كالعيان.

ثم إن التمثيل عندهم على نوعين؛ الأول: تمثيل ما يحزن من نحو الحروب وأخذ الثأر، ويقال له عندهم: «تراجيدي»، والثاني: وهو عكسه ويقال له: «كوميدي»، وكلاهما يعدان من الأدبيات غير أن النوع الثاني يكثر فيه التوريات والمواربات والتجنيس، ولغة الإنكليز فيما أظن أطوع على ذلك من غيرها، وإن اللغات في هذه الملاعب وإن اختلفت وفضل بعضها بعضًا إلا أن الحركات والإشارات جميعها واحدة، وأشهر اللاعبين عند الإفرنج أهل إيطاليا، ولعل ذلك بالنظر إلى الإنشاد والغناء، فإن اللغة الطليانية أطوع على الغناء من غيرها؛ لكثرة ما فيها من الحركات.

وهم أول من أحيا طريقة التراجيدي، وذلك في القرن السادس عشر، ولكنهم كانوا يحفظون النغم عن ظهر القلب كما هي العادة عندنا الآن، ثم اقتدى بهم أهل فرنسا، لكن الحلوق وقتئذ كانت مثل العقول غليظة جافية، وأول من ألف في هذا الفن من اليونان أوروبيدوس، وذلك قبل الميلاد بأربعمائة وثمانين سنة، فأما في تمثيل المحزنات ونحوها في خفة الحركات واللباقة، فالمزية لأهل فرنسا والإنكليز تبع لهم، فأما في المضحكات فهؤلاء هم المتبوعون وذلك لسعة لغتهم.

ومن العجب هنا أنه مع ما يظهر في وجوه الإنكليز من العبوس والانقباض، فإن لسانهم أدعى إلى البسط والضحك من ألسنة سائر الإفرنج. ومن الطليانيين من ينشد في هذه المواضع أبياتًا بل قصائد على البديهة بأن يختار أحد الحاضرين لفظة، ويقول للاعب: أنشد أبياتًا على هذا الرَّوِي، فينشده دون توقف، وقد سمعت أحد الإنكليز ينشد أبياتًا زعم أنه مُرْتَجِلُهَا، وذلك بأن يصف مثلًا أحد الحاضرين بأنه لابس لباسًا بلون كذا، أو أن بيده عصا، أو أنه متكئ، وعند التحقيق علم أنه إنما كان راويًا لها فقط، على أن ارتجال الشعر عند أي جيل كان من الإفرنج هين؛ لأن كلامهم كله مجزوم أي خالٍ عن الإعراب، وليس بين الكلام المتعارف عند خاصتهم وبين كلام الكتب من فرق كبير، إلا أن يقال: إن مهابة الجمع تُفْحِم الشاعر، غير أن مَنْ أَلِفَ رؤية الجموع في كل ليلة تساوى عنده قلهم وكثرهم، فمثله كمثل العائم في البحر يستوي عنده قاموسه وضحضاحه.

وعلى كل حال لهم المزية الكبرى في كثرة الحفظ، وفي حسن الأداء، ثم إنه كما يتعلم من هذه المشاهد كثير من المحامد والمكارم والفصاحة والخطابة كذلك يتعلم المترددون عليها ولا سيما النساء كثيرًا من الحيل والأسباب الموصلة إلى الوصال وتبديل البعولة بالعشاق؛ لما يرين من فتور الزوج وحرارة العاشق الممثلين نصب أعينهن، وخصوصًا تكلف العجب والتيه من اللاعبات على الرجال، فإنهن يبدين من هذه الحركات والصفات ما يغري كل امرأة بمحاكاتهن.

وكذلك اللاعبون يبدون من الحماسة والتجبر ما يشوق كل امرأة إلى أن يكون لها بعل أو عاشق نظيره، ولا سيما حين يلبسون الديباج ويتقلدون السيوف ويأمرون وينهون، وأعظم ما يعجب النساء من تلك المناظر هو أن يرين الرجال يتضاربون بالسيوف ونحوها، أو أن يأخذوا ثأرهم ممن افترى على حُرَمِهم، وقد تلبس الرجال في هذه الملاعب ملابس النساء، والنساء ملابس الرجال، وأحسن ما تبدو المرأة به ما إذا لبست لباس الكمي، وعلى رأسها خوذة، وفي الواقع فإن كل ما يلبس هناك يليق بهن.

ومن أعجب ما يرى من أحوال هؤلاء اللاعبين واللاعبات هو أن الشيخ منهم يَتَفَتَّى في زيه وأطواره وكلامه، حتى لا تحسبه إلا فتى، والفتى يتشيخ بحيث تحسبه همًّا هرمًا، فلو ظهرا في المرة الآتية ما عرفت منهم أحدًا، بل يغيرون أيضًا أصواتهم ولهجتهم وسحنتهم وشعورهم، ويتحادبون ويتعارجون ويتمارضون ويتناومون ويتعامون ويتساكرون ويتباكون ويتضاحكون ويتحامقون ويتجانون، ويحاكون الملوك والقضاة والعلماء والأطباء والفقهاء والمتحذلقين والحمقى، وكل صنف من الناس، ومن أعظم ما أضحكني من محاكاة التثاؤب تمثيلهم أميرًا من أمراء باريس، قدم إلى لندرة، واستوخم هواءها، فكان كلما قال كلمة تثاءب وتناعس، إشارة إلى أن هواء البلاد قد ثقل عليه.

وإن جميع الإنكليز ذووا وجوه كالحة، ومن يرهم أول وهلة فربما حسدهم أو تمنى أن يكون في زمرتهم؛ إذ يراهم مغازلين للنساء الحسان، ومتردين باللباس الفاخر، وربما أكلوا في الملعب الطعام القَدِيَّ، وشربوا الشراب اللذيذ، إلا أنه عند التروي يعلم أن حرفتهم لَمِنْ أشقى الحرف؛ لأن اللاعب يلزمه أن يعيد لعبته عدة ليال متتالية كما هي، وكذا المغني والمنشد، والشيء إذا تكرر تكرج، وربما لزمهم في الليالي الباردة أن يلبسوا الثياب الرقيقة، وفي الصيف عكس ذلك، وخصوصًا أنهم يعلمون من أنفسهم أنهم إن هم إلا مستأجرون، وأن إستبرقهم إن هو إلا عارية وَهْي عار.

وحيث قد جرت العادة بأن ابتداء اللعب يكون غالبًا في الساعة السابعة وختامه بعد الحادية عشرة، كان كثير من ألعابهم سخيفًا، فلو قصروا الوقت وأجادوا اللعب لكان أولى، وهذا كالتزام بعض المؤلفين عندهم لنوع يسمى نوفل وهو أن يجعلوا الكتاب ثلاثة مجلدات، فيسفسفون ويدنقون، ويأتون بالغث والسمين، وقد رأيت غير مرة امرأة تبرز في ثياب رثة، ثم تغسل وجهها وتمشط شعرها، والناس يغربون من ذلك في الضحك، وأعرف أناسًا كثيرين يحرمون أنفسهم من لذة الأكل والشرب حتى يمكنهم مشاهدة هذه الملاهي، ولا يملون من أن ينظروا تمثيل واقعة واحدة عدة مرار.

وفي الواقع فإن نصف تمثيلهم إنما هو هزء بالمتزوجين، وكذلك أكره من تمثيلهم أنهم يجعلون المرأة الضعيفة الصوت تنشد أشعارًا فيها حماسة ووعيد، وكذا يجعلون الإنسان مشتركًا، أي يحدث نفسه فيقول المحب مثلًا وقد أعيته الحيلة في وصال محبوبته: «كيف أفعل الآن وقد سُدت عليَّ مذاهب الآمال، فلم يبق لي إلا هذه الوسيلة، وهي كذا وكذا.» أو يقول أنا لا أستحم الليلة قبل أن أنام، وكذلك أستحمق بروز المرأة مثلًا في الملعب وبيدها كنارة أو آلة أخرى للطرب ولا تعزف بها، وإنما يعزف عنها بعض العازفين من تحت الملعب، وهي مع ذلك تمر يدها على الآلة وتوهم الناس أن الصوت خارج من آلتها.

وبودي لو كانت العرب نقلت عن اليونانيين شيئًا من هذه المحاورات كما نقلوا عنهم الفلسفة، أو أنهم ألفوا فيها، ولا يبعد عندي أن شعراء العرب حين كانوا يتناشدون الأشعار في عكاظ كانوا يجرونها على وجه يكسبها حوكًا في النفوس مع اقترانها بالحركات والإشارات، ولا شك أن في هذا التمثيل يكتسب كلام الشاعر رونقًا أكثر مما لو بقي في الكتب أو إنشاد مجرد إنشاد، ولا شك أن مبدأ الملاهي عند اليونانيين كان مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها، فإن جميع العلوم والفنون بل الأديان نفسها تكون في مبدئها ضعيفة.

ومن أنواع هذه الألعاب اللعب الذي يقال له: بنطوميم، وهو لعب بالإشارة والحركة من دون محاورة، ولا يلعب فيه الرجال والنساء إلا بما يضحك ويسر، والواقع أن للإشارات شجونًا وفنونًا أكثر من الكلام، ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهي إلى مدى، وأحسن هذه الأضاحيك ما وقع بعد عيد الميلاد، وصفتها أن يبرز رجلان أو أكثر بلباس سخرية، وآخرون عليهم لباس مذهب في هيئة الجسم، ونساء بأيديهن شبه عصا الساحر، وهن بلباس الرقص، فكلما ضربت المرأة بالعصا على الحائط خرج منه شيء أو انشق، أو على صندوق انفتح واستحال إلى هيئة أخرى، وقد جيء مرة بقفص كبير فيه صورة ديكين، فضربته امرأة بالعصا فإذا هو قد استحال إلى عاجلة مليحة مزخرفة فسارت فيها، وربما انقلب المكان كله بسقفه وحيطانه وأثاثه فاستحال بيتًا بديع الاستحكام، وربما رأيت كل ما فيه يدور ويتحرك أو يصعد في الجو ويغيب عن النظر.

ومن أحسن ما رأيته في هذه المواضع على كثرة ترددي إليها تمثيلهم فتح الإسبانيوليين مدينة بيرو في أميريكا، واجتماع أهلها في هيكل لهم يسمى هيكل الشمس

للاستغاثة بها على العدو، فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس، ولها شعاع بهي، وبين يديها مذبح عليه شعلة نار سنية، وقام كاهنهم يحضهم على القتال، ثم اندفعت الرجال والنساء يرتلون لها ترتيلًا مطربًا، وكانوا جمعًا عظيمًا، حتى كاد المكان يتزلزل لأصواتهم، ثم جعلوا محلًّا يأتي عليه ضوء القمر، وجاء نحو ستين جارية من الحسان بلباس الكماة وعلى رءوسهن أكاليل، وكان يرى لهن ظل في ضوء القمر، ثم اطلعوا شجرة نخل من وسط الملعب، ثم رمت بما كان يرى في جمتها شبيهًا بالسعف، فصارت كالشرائط، فأمسكت كل جارية بشريطة، وجعلن يرقصن بالتقابل والتدابر والتزاوج والانفراد وبكل شكل من الأشكال بما يدهش الناظر.

ومن ذلك أنه برز في الملعب مائة وثلاثون جارية بلباس الرقص الشفاف، وبعد أن رقصن هنيهة أُرخي الحجاب، ثم فتح وإذا بهيكل سنيع يتلألأ بالأنوار الملونة البهيجة الساطعة، وقد وقف عشر جوار من هذا الجانب، وعشر من الجانب الآخر بأثواب من الخز شفافة بلون القرنفل، وبدت رءوس ست جوار من فوق حيز، فصفقت الناس تعجبًا واستحسانًا، ثم أصعدت هؤلاء الست، وظهر صف آخر من فوقهن بثياب من قصب مرصعة بحجارة تلمع، وعدتهن اثنتا عشرة جارية، فزاد تعجب الحاضرين، فلما تكامل الإصعاد إذا بالجواري الست متكئات كل اثنتين منهن متقابلتان، ثم أصعد ثلاث جوارٍ، ووقفن بين الصفين بلباس مذهب، وبأيديهن صوالج تلمع، ثم زادت الأنوار تدبجًا وسنًا، وزاد تعجب الناس ثم أصعدت ثلاث جوار أخر، ووقفن فوق الصف الثاني، وبأيديهن صفائح لماعة، ثم أُدْلي ثمان جوار من كل جانب أربع، فكن يدرن متدليات في الهواء المنير، وبعضهن أعلى من بعض، ثم أصعدت جارية واقفة على شبه قبة مرصعة بقطع من جواهر تتألق كأنها الثريا التي تعلق في السقف وهي في داخل الهيكل، وبيدها صولجان، فكانت أعلى من الجميع، وكانت ثيابها تتألق تألق القبة، وكان على حائط الهيكل صورة امرأتين أيضًا بصفة هؤلاء الجواري، فلم يكن الناظر يميزهما من النساء.

وحينئذ أخذ العجب أقصاه، وأخذ أصحاب البنطوميم يلعبون والنساء على تلك الحالة، وقد يُصعدون النساء والأشجار من أسفل الملعب إصعادًا، وينزلوهن من السقف إنزالًا، ويجعلون جميع الحجب والحيطان تتحرك بنفسها، ويمثلون الشمس والقمر والبحر والشجر والجبال والضباب والثلج والمياه وسائر المخلوقات والمصنوعات.

ومرة أخرى رأيت سفينة في بحر أو شيء شبيه بالبحر ثم أخذت الأمواج ترتفع وتتلاطم حتى علت على السفينة فغرقت فيها أصلًا، ويطلعون قببًا مذهبة محفوفة

بالأنوار المتألقة والبرق يحفها، ثم تنشق عن رءوس نساء، ثم تأخذ في النزول والنساء في الظهور إلى أن تغيب القبب بالكلية، وتبرز النساء في الملعب، ويلبس الرجل هيئة ديك، والمرأة هيئة دجاجة، وترى شيئًا يستحيل طاووسًا يمشي، وآخر بقرة تتحرك، وغير ذلك مما يقصر الوصف عنه.

ومما أعجبني أيضًا تمثيل عرس بعض ملوك الهند، بأن زينوا فيلين أحدهما كبير والآخر صغير، وعلى كل منهما قبة مزخرفة، فدخل الملك في قبة الفيل الأكبر، ودخلت الملكة في قبة الآخر، وأمام الفيلين ووراءهما جمع لا يحصى، ومرة أخرى مثَّلوا حالة المتزوج مع امرأته بعد عقد الزواج بيوم واحد، وذلك أن رجلًا غضوبًا تزوج امرأة مثله، وكل منهما كان يعلم حال صاحبه، وكان في نوبة غضبه يركس من أمتعة البيت ما يمكن ركسه، ويكسر ما يمكن كسره، ثم يدعو خادمه ويعبث به ويؤذيه، وكذلك المرأة كانت تركس وتكسر وتفعل بخادمتها، فلم تأتِ عليهما ليلة إلا وقد أتلفا جميع ما في الدار، فكنا نرى أوراق الكتب تتناثر في الجو، والقماش يمزق، والكراسي والموائد تركس. وكان مرة أخرى يؤتى لرجل آخر غضوب بطبق فيه طعام، فيرمي به في الملعب، فحيث انتهى الطبق يطلع رأس إنسان من كوة في الملعب ويدخل فيه.

واعلم أن الرقص في هذه الملاهي مخالف للرقص المعهود في المراقص، فإنه هنا أكثر خفة وصنعة وموازنة، فقد ترقص المرأة مع رءوس أصابعها عدة دقائق، وتمشي كذلك القهقرى، وقد تتخلع وتتفكك تخلع الراقصات في في بلادنا تقريبًا بحيث لا يبدين شيئًا مخلًّا بالحياء إلا أنه كثيرًا ما يرفعن سيقانهن في وجوه الناس وحين يدرن دورًا متتابعًا يرى الرائي أفخاذهن المستترة تشف من الخز، ومع ذلك فلا يعد هذا مخلًّا بالحياء، وكذا التقبيل فإن الرجل يلثم المرأة في فمها وخديها ولا حرج، وتعلُّم الرقص في بلاد الإنكليز أصله من بلاد إيطاليا، وذلك في سنة ١٥٤١.

ونقلت من كتاب معجم الأوقات أن مبدأ هذه التمثيلات في بلاد الإنكليز كان لأشياء روحية دينية، وأول تمثيلية أجريت متقنة كانت على عهد الملكة إليصابت، وأن أول تمثيلية أجريت منتسقة ومنتظمة كانت في رومية بحضرة البابا ليو العاشر، وذلك سنة ١٥١٥. ا.هـ.

وفي لندرة اثنان وعشرون موضعًا يرى فيها صور البلاد والمدن والأشخاص من وراء الزجاج، ويقال لها بانورامه، أعظمها المحل الذي يسمى كوليسيوم يصعد إلى قبته في درج أو في قبة صغيرة مزخرفة على شكل بيوت الصين، لا تسع أكثر من اثنين، فإذا

استقرا فيها حركت بآلة من تحتها كآلة الباخرة، فتنبعث صعدًا، فإذا بلغ الإنسان القبة وهي ذروة المحل رأى صورة لندرة أو باريس بكل ما فيها من الديار والطرق والأنوار والمواضع المرتفعة والمنخفضة، حتى يظن أن المرئي شيء محسوس، ويخيل إليه أن المسافة التي بينه وبين أطراف المدينة بعيدة كمسافة المصور، ويرى أيضًا القمر يسير والنجوم تنقض وتزمهر، والثلج يتساقط، ويسمع زمزمة الرعد، وغير ذلك مما يذهله.

ومن المواضع الشهيرة دار الاختبارات العلمية وهو موضع يشرح فيه خواص الأشياء، وكيفية العلوم والصنائع ومن أعظم الآلات فيها جرس كبير ينزل الناس فيه في حوض ماء، وهناك ماء رأيت الناس يغمسون فيه أصابعهم وينزعونها بعجلة؛ لأن فيه خاصية الإرجاف الكهربائية.

(١٢) مجلس المشورة في لندرة

وأعظم بناء في لندرة بل في الدنيا كلها مجلس المشورة، أول حجر وضع في أساسه كان في السابع والعشرين من نيسان سنة ١٨٤٠ ودام بناؤه عشرين سنة، ومساحته أكثر من ثمانية جريان، فيه أكثر من ١١٨٠ حجرة، و١٩ ديوانًا و١٢٦ مرقى، وبلغت نفقته ٣٥٠٠٠٠٠ ليرة طول مجلس الأعيان فيه ٩٧ قدمًا وعرضه ٤٥ وارتفاعه كذلك، فيه عرش تجلس عليه الملكة وكرسيان عن يمينه وشماله أحدهما لزوجها، والثاني لولدها وهو يشبه كنيسة صغيرة لكنه من دون كوى، وعلى مدار حيطانه زجاج ملون عليه صور ملوك الإنكليز، وارتفاع مجلس النواب ٤٥ قدمًا وعرضه كذلك، وطوله ٦٢، وهو يفتتح في شهر شباط، ويغلق في تموز، فتكون مدة انعقاده ستة أشهر.

وقبل الشروع في المذاكرة والنظر في المصالح تقام الصلاة، وكذا هي العادة عند الإنكليز قبل كل أمر ذي بال، ولا سيما قبل القتال، وحين تحضر الملكة لفتحه أو لإغلاقه يقدم لها أحد أرباب المناصب العلية خطابًا وهو جاثٍ على ركبتيه، فتأخذه منه وتتلوه إيذانًا بما ذكر، وقبل حضورها بساعتين تفتش أسرابه ودهاليزه جريًا على العادة من سنة ١٦٠٥، وذلك أن أهل مجلس المشورة حين كانوا مجتمعين يومًا وكان دين البروتستانت قد استتب حديثًا، حاول بعض من الكاثوليكيين أن يحرق المجلس وأهله ببارود كان قد خزنه تحت أسسه، فانتبه لهذه المكيدة بعض الحاضرين، وفسدت على الرجل حيلته.

وقد فرضت كنيسة الإنكليز المتأصلة صلاة معينة لذلك اليوم، وهو الخامس من شهر نوفمبر، وفيه يخرج رعاع الناس بتصاوير وتماثيل كثيرة يمثلون بها ذلك الرجل

والبابا وغيرهما ممن يحسبه الإنكليز عدوًّا لهم، وبعد أن يطوفوا بها المدينة بضجة وزأط يحرقونها عند برج لندن، ويسمون هذا اليوم كي فكس، واعلم أن أهل المجلس ينقسمون إلى قسمين: الأول يقال له مجلس الأعيان، والثاني مجلس النواب، أما أعضاء مجلس الأعيان فقد يكونون من أصحاب الوظائف العالية، سواء كانت دينية أو دنيوية، وعدتهم ٤٦٢، منهم ٢٦ من مطارنة إرلاند، و٢٨ من أعيانها، وما حكم به هؤلاء السائدون لا ينقضه أصحاب مجلس النواب إلا في أمور مخصوصة، ولكل منهم أن يَحْتَجَّ عن نفسه حين تقام عليه الدعوى ويبدي الأسباب التي يستصوبها خطأ، وإذا لزم إثبات ما قرره يُكتفى بمجرد قوله: على شرفي، وفي غير ذلك يحلف، وإذا قضى أهل مجلس النواب بشيء فلا بد وأن يعرضوه على مجلس الأعيان، وللملكة أن تبطل حكم المجلسين، ولكن قلما تتجرأ على ذلك.

ولكل من الوزراء ٥٠٠٠ ليرة في السنة، ولأحد الدوكات من رزقه في كل يوم ألف ليرة، ولرئيس المجلس ٨٠٠٠ ليرة ودار يسكنها، وعدة أعضاء مجلس النواب ٦٥٨، ينتخبهم أهل أقاليم إنكلترة، وهي ٥٢ إقليمًا، وأهل المدن والمدارس، ولا بد من أن يكون لنائب الإقليم إيراد ٦٠٠ ليرة في العام من رزقه، ولنائب المدينة ٣٠٠، والحكمة في ذلك أن يكونوا قادرين على التفرغ للنظر في مصالح الرعية. وأول مجلس مشورة عرف للإنكليز كان في عهد هنري الثالث سنة ١٢٦٦، وفي سنة ١٣٤٠ انقسم إلى مجلس الأعيان ومجلس النواب كما تقدم، ومصاريف المجلس تبلغ في السنة نحو ١٦٢٣٢٠ ليرة، منها مصروف الطبع، يبلغ ٧٥٩٥٤، وعروض الحال التي تقدم لمجلس المشورة يبلغ عددها في السنة نحو ١٠١٢٨، وعدد التواقيع أو الإمضاء ١٦٨٧٩٣٣.

(١٣) المتحف البريتاني ومكتبته

ومن المباني العظيمة في لندرة المتحف البريتاني، وهو الموضع الذي فيه التحف الغريبة والأشياء العادية والحجارة المعدنية، ويقال له: بريتش موزيوم، بني من سنة ١٨٢٣ إلى سنة ١٨٥١، وأصل إنشائه أن رجلًا من الأعيان اسمه هانس سلون توفي سنة ١٧٥٣، وأوصى بعشرين ألف ليرة لمشتري تحف توضع في محل مخصوص للتفرج عليها، فأعجب ذلك مجلس المشورة، وفي ذلك التاريخ جمع ٣٠٠٠٠٠ بأمر المجلس لإنشاء ذلك الموضع، وفيه من الغرائب حجر يقال: إنه سقط من الجو في ولاية الساك حين كان الإمبراطور مكسميليان عازمًا على أن يوقع بالفرنسيس، فحفظ في كنيسة انسسهم إلى أوائل فتنة

الفرنسيس، ثم نقل بعد ذلك إلى مكتبة كلمار، زنته ٢٧٠ رطلًا إنكليزيًّا، ويوجد فيه أيضًا حجارة أخرى سقطت من الجو، بعضها سقط في سنة ١٧٩٠، وبعضها بعد ذلك بأربع سنين وبخمس، وفيه جميع الحيوانات مصبرة، وصور تماثيل، وكُسَى أهل البلاد الأجنبية، وآلات طربهم، وأثاثهم والعصافير المصبرة، والطيور، والوزغ، والأسماك، والأصداف، والعظام، والقرون، والجماجم، وأسنان الفيلة، والبيض، ومن هذه الحيوانات ما انقرض نسله من جملتها سلحفاة جلبت من الهند، وقد دفع في ثمنها ١٠٠٠ ليرة، وفيه موضع آخر لجميع أصناف الجواهر المعدنية، وآخر لأصناف الدراهم والدنانير القديمة، رأيت في جملتها دنانير ضربت على عهد هارون الرشيد بالخط الكوفي، وهي كبيرة رقيقة.

وفيه موضع آخر للكتب تبلغ أكثر من ٦٥٠٠٠٠ كتاب، وإذا اعتبرتها بحسب الأجزاء تبلغ أكثر من ٩٠٠٠٠٠، وهذا القدر يساوي مقدار كتب برلين وويانه، ولكن دون القدر الموجود في باريس ومونيش، وهذه الكتب موضوعة على رفوف تشغل مسافة خمسة عشر ميلًا، ومن جملتها الكتب التي كانت لملوك الإنكليز، وتبرعوا بوقفها على المحل المذكور، منها كتب مجلدة بالمخمل كانت للملكة إليصابت ولجامس الأول ولشارلس الأول وغيرهم، وكتب كانت لجورج الثالث، وهي ٨٠٠٠٠، وأعظم موضع في هذه المكتبة هو ما وقفه الملك جورج الرابع يبلغ ثمنه ١٣٠٠٠٠ ليرة، فيه توراة قديمة طبعت في متس سنة ١٤٥٥، وأمثال لقمان الحكيم طبعت في ميلان سنة ١٤٨٠، وأول نسخة طبعت من أشعار أوميروس طبعت في فلورانس سنة ١٤٨٨، ونسخة أشعار فرجيل في فينيسيا سنة ١٥٠١، وفيها صوانان قيمة ما فيهما من الكتب ربع مليون.

وهذه المكتبة يدخلها الناس بإذن من ناظرها لأجل المطالعة والمراجعة، وفي كل نصف سنة يتجدد الإذن، ولا يؤذن للمطالع أن ينسخ كتابًا منها برمته، وإنما ينسخ منه جملًا، ولا أن يستصحبه، ولا أن يطلب كتابين في تذكرة واحدة، وقد بلغ عدد المطالعين في سنة واحدة ٧٠٠٠٠، وعدد كتب الخط ٣٠٠٠٠، وثمن خزانتين منها فقط ٢٥٠٠٠٠، في جملتها كتاب توراة، كتب لشارلمان، وكتاب صلوات الملكة إليصابت غشاؤه من صنع الإبرة عملته بيدها.

وفيها ٣١٧ كتابًا باللغة السريانية، قلت: لم يذكر المؤلف عدد الكتب العربية جريًا على عادة أهل بلاده من عدم المبالاة بلغتنا، وإن يكن قد دون بها من العلوم والفنون ما لم يدون في لغة شرقية قط، وحين كنت أذهب إلى هذا الموضع للمطالعة لم يتهيأ لي أن

أعرف أسماء الكتب العربية بجملتها؛ لأن أكثرها مكتوب بالحروف اللاتينية، ومعلوم أن الاسم العربي لا يظهر بها حق الظهور.

ومما رأيت فيها من الكتب الجليلة: أدب الكاتب لابن قتيبة، والنوابغ للزمخشري، ومدح الشيء وذمه للجاحظ، وديوان أبي تمام، وهذا المتحف هو من بعض ما تمكن رؤيته مجانًا بلندرة، يفتح ثلاثة أيام في الأسبوع، وهي الإثنين والأربعاء والجمعة، من السابع من سبتمبر إلى أول شهر ماي، ولا يدخله من الأولاد من كان سنه دون ثماني سنين، وعند بابه عسكريان بالسلاح اعتبارًا للمحل، وقد ضمن بعض الكتب بلندرة بثلاثة آلاف ليرة وبيعت نسخة من بوكاتشو بألفين ومائتين وستين ليرة، وقومت نسخة من توراة مكلين بخمسمائة وكسور.

(١٣-١) متاحف أخرى

ومن ذلك متحف آخر يعرف بمتحف الخدمة المتحدة، بني في سنة ١٨٣٠، وهو يشتمل على تحف نفيسة، من جملتها سيف كان يتقلده أكرامول المشهور، وجثة الحصان الذي كان يركبه نابوليون الأول في حرب واطرلو، يقال له: مارنغو ذو اللحية، وفيه أيضًا صورة تلك الواقعة، ولوح من وجه السفينة التي انتصر فيها نلسون، وآخر يعرف بمتحف خصائص الجيولوجيا بني في سنة ١٨٣٥، وفتح في سنة ١٨٥١، بلغت نفقته ٣٠٠٠٠ ليرة، وهو يشتمل على الجواهر المعدنية وعلى ما يوجد من أصناف الحجر في بلاد الإنكليز وغيرها من البلاد، وعلى الآلات المتعلقة بهذا العلم.

وآخر يعرف بمتحف المرسلين، يشتمل على أشياء كثيرة مما يتعلق بعلم حياة الحيوان، وعلى مشاهير آلهة الوثنيين وأشياء أخرى عديدة جلبها هؤلاء المرسلون من البلاد التي جالوا فيها، وآخر يعرف بمدرسة الجراحين بني في سنة ١٨٣٥، وبلغت نفقته ٤٠٠٠٠ ليرة، يفتح لأهل المدرسة ولمن يكون له إجازة من أحدهم، وذلك في أيام معلومة من الأسبوع، وهو يشتمل على ٢٣٠٠٠ قطعة من الأجسام المصبرة، ومن الأعضاء والآراب، وعلى جثة جبار من أهل إرلاند طولها ثماني أقدام، مات وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وذلك سنة ١٧٨٣، ولما مات قيست فكانت ثماني أقدام وربعًا، وفيه جثة رجل حزقة من صقلية، طولها عشرون إصبعًا.

قلت: ومن مشاهير القصار فيليطوس الكوسي، كان من صغره إذا خرج يضع في جيبه كرات من الرصاص خيفة أن تطيره الريح، وكان شهيرًا أيضًا في عصره بالعلم

ونظم الشعر. وآخر يسمى إلبيوس الإسكندري، كان طوله قدمًا وخمس أصابع ونصف أصبع، وكان له شهرة أيضًا بالمنطق والفلسفة، قال: وفيه جثة جبار آخر من إرلاند طولها ثمانية أقدام وسبع أصابع ونصف، وقدر ذراع من جثة جبار فرنساوي كان طولها سبع أقدام وأربع أصابع، وجثة فيل جلب من الهند وكان يؤذي الناس لداء اعتراه، فكان لا بد من قتله برشق من الرصاص، ولما أريد قتله أناخ على صوت قائده ليصوب بعض المقاتل في جسمه فلم يمت إلا بعد أن أطلق عليه مائة رصاصة، وثَمَّ جثث أَجِنَّة إسقاط، وأختان توأمان ولدتهما أمهما وهي بنت سبع عشرة سنة من دون مقاساة أَلم، ولم تزل أجسامهما متحدة، وفيه شكل أحشاء نابوليون مظهرة لانتشار الداء الذي أودى به.

وآخر يقال له متحف صون بالقرب منه بني في سنة ١٨١٢، يشتمل على أربع وعشرين مقصورة، فيها تماثيل وتصاوير وحجارة ثمينة وغير ثمينة، وتحف وكتب فن، من جملة تماثيله تمثال أحد آلهة المصريين المسمى إزيس ثمنه ٢٠٠٠ ليرة، وفيه فَرْد مرصع — طبنجة — كان الملك بطرس الأكبر أخذه من قائد الجيوش التركية في بحر الخزر سنة ١٦٩٦، ثم أهداه الملك ألكسندر إلى نابوليون عند الهدنة التي وقعت في نلسيت سنة ١٨٠٧، واستصحبه نابوليون إلى جزيرة صانت هيلان، ثم جاد به على بعض ضباطه، وانتقل أخيرًا إلى لندرة.

ومن ذلك الموضع الذي يقال له: روشن الأمة، بني في سنة ١٨٢٤، وبلغت نفقته ٩٦٠٠٠ ليرة، وهو يشتمل على ٣٩٠ صورة، منها ٣٨ صورة قومت بسبع وخمسين ألفًا وست عشرة ليرة، ثمنها ٧٥٠٠ ليرة وهو دون نظرائه في بلاد أوروبا، ويوجد أيضًا محال أخرى عدتها خمسة عشر محلًّا لجماعات الجغرافية والبناء، ومعرفة المعادن والتصوير، ولإلقاء الخطب وغير ذلك.

(١٤) من المباني الجليلة «البنك»

ومن المباني الجليلة البنك أنشئ في سنة ١٦٩٤، ومرتب ناظره في السنة أربعة آلاف ليرة، وللوكيل ٣٠٠٠ ليرة ولكل من المباشرين وهم ٢٤ رجلًا ٢٠٠٠ ليرة، وعدد المستخدمين فيه ١٠١٦، منهم ٨١٤ كتابًا، وسنويتهم من الخمسين ليرة إلى الألفين، فجملة مرتبهم في السنة ١٩٠٠٠٠ ليرة، وكل كاغد يعاد إليه يلاشى ودين الدولة للبنك يبلغ ١١٠١٥١٠٠ ولا يسمح بأن كواغده تزيد على ١٤٠٠٠٠٠٠ ليرة، وقيمة ما يتداول منها في ثلاثة أشهر تزيد على ثمانية عشر مليونًا.

ومن هذه الكواغد ما تساوي قيمته ألف ليرة، وأظن أن أغلى كواغد فرنسا لا يساوي أكثر من ألف فرنك، وفيه سبائك ذهب منها ما وزنه ستة عشر رطلًا، وقيمته ثمانمائة ليرة، وفيه عدة موازين من جملتها ميزان يزن من سبائك الفضة من خمسين رطلًا إلى ثمانين، وآخر يزن في كل دقيقة ٣٣ ليرة، وقد جعل بحيث يزن الدينار الرائج ويرميه في صندوق، والزائف في صندوق آخر، وفيه آلة لطبع الكواغد ورسم إعدادها من الواحد إلى مائة ألف، بغاية ما يكون من الضبط والإحكام، وبجانب هذا المحل الدار التي تجتمع فيها التجار، فتحتها الملكة في سنة ١٨٤٤، وبلغت نفقتها ١٨٠٠٠٠ ليرة، وفي وسطها تمثال الملكة وعلى حيطانها رواميز ما عند أصحاب الصنائع والتجار من الأدوات والتحف، وأمامها ساحة مبلطة فيها تمثال ويلنكطون من نحاس راكبًا على فرس فوق عمود من المرمر، وقال صاحب المعجم: كواغد البنك التي تداولها الناس في سنة ١٨٥٥ بلغت ١٩٦١٦٦٢٧ ليرة، وفي بعض الأحايين زادت على هذا القدر، وقيمة السبائك التي فيه بلغت في سنة ٥٣: ٢٠٥٢٧٦٦٢، وفي سنة ١٨٢٨ تفرع عنه في المملكة عدة فروع.

(١٤-١) الكمرك والتبغ

ومن ذلك الكمرك، بني من سنة ١٨١٤ إلى سنة ١٨١٧، وفي سنة ١٨٤٩ بلغ عدد المستخدمين فيه ٢٢٢٨ شخصًا، يصرف عليهم من المرتبات ما يبلغ في السنة ٢٧١٢١٣ ليرة، ودونه كمرك ليفربول، كان فيه من المستخدمين في ذلك التاريخ ١١٤١ نفسًا، وإيراد الكمرك الأول وافر جدًّا، وفيه مقصورة طولها ١٩٠ قدمًا، وعرضها ٦٦.

ونقلت من بعض صحف الأخبار أن ما دخل من التبغ في سنة ١٨٤٨ بلغ ٢٧٣٠٥١٣٤ رطلًا، ومقدار ما دفع عليه من المكس ٤٣٦٥٢٣٣ ليرة، وعدد من ثقفوا مدخلي الصنف المذكور من دون مكس ٢١١٥، وفي سنة ١٨٥٠ بلغ المجلوب منه نحو ٤٣٥٠٠٠٠٠ رطل، وأما اسم التبغ فيقال: إنه منقول عن اسم إقليم في إسبانيا الجديدة بأميريكا، وأول ما علم أمره كان في سنة ١٦٩٤، وفي سنة ١٧٢٠ استعملته الإسبنيول في يوكاتان، وأكثروا منه، وفي سنة ١٥٦٥ جلب إلى بلاد الإنكليز، فكان يصنع فيها أولًا لأجل إرساله إلى الخارج، وفي سنة ١٥٨٤ شهر استعماله في أزلنطون، ثم منع، وفي سنة ١٦١٤ ضرب عليه أداء على كل رطل نحو سبعة شلينات، وفي عهد شارلس الثاني منع تنبيته وغرسه، ثم أبيح.

(١٤-٢) مبنى المألك العام «البوسطة»

ومن ذلك المألك العام أي البوسطة، بني من سنة ١٨٢٥ إلى ٢٩، يبلغ عدد المستخدمين فيه ٢٠٠٠، وعدد المستخدمين في ضواحي لندرة ١٢٠٠ وبلغ الصافي من إيراده في سنة ٥٦: ١١٩٤٣٩٨ ليرة.[٢] وبلغ مصروف المحل ١٧٢٠٨١٥ منها للجامكيات ٩٤٨٥٧٣، وللمرتب ٢٩٣٦٧، وللبناء ٤٢٢٩٤٣، ولإرسال المآلك — المكاتيب — في سكك الحديد ١٦٧٨٢٣، ولإرسالها في عجلات ونحوها ١٢٢٩٨، وبلغت كمية المكاتيب التي سلمت لأصحابها في بريتانيا في سنة ٥٧: ٥٠٤٠٠٠٠٠٠، فيكون لكل واحد نحو ١٧ والمحسوب أن كل واحد في إنكلترة يتسلم ٢١ رسالة، وفي سكوتلاند وفي إرلاند ٧، وفي سنة ٥٦ بلغ عدد الجرنالات التي سلمت فيها — أي في بريتانيا — ٧١٠٠٠٠٠٠، وصدر منها حوالات بمبلغ ٦٣٨٩٧٠٢ قيمتها ١٢١٨٠٢٧٢ ليرة، وعدد مراكز البوسطة في المملكة كلها يبلغ ١٨٦٦ منها ٨٤٥ أصول، والباقي فروع، وفي لندن وحدها يوضع في كل يوم نحو ٥٠٠٠٠٠ رسالة.

قال بعضهم: وما يفرق الآن من الرسائل في مسافة ١٢ ميلًا حول عموم مركز البوسطة الأصلي يكون قدر ما كان يوزع منها في الزمن القديم في جميع جهات المملكة، وأجرة المستخدمين في بوسطة صقع لندرة تبلغ في الأسبوع ١٥٠٠٠ ليرة، وعدد المباشرين لهذه المصلحة العظيمة في المملكة كلها سنة ٥٧ — وذلك ما بين رؤساء ونظار ومباشرين وكتاب وحمالين وخدمة — ٢٣٧٣١ منهم ١١١٠١ مدير، و١٦١٠ كتاب، و٢٠٥ حراس، و١٠٥٨٢ لتبليغ الرسائل وغير ذلك.

قال: والمحسوب أنه من كل ٢٠٠ رسالة ترجع واحدة إلى مرسلها لعدم العلم بمقر المرسل إليه، فإذا وقع أمر مثل هذا أبقيت الرسالة في المحل، وفي العام الماضي كان من هذه الرسائل نحو ١٠٠٠٧٠٠، قال: وجملة الرسائل التي سلمت في الروسية في سنة ١٨٥٥ بلغت ١٦٤٠٠٠٠٠ وهو نحو القدر الذي سلم في مدينة منشستر وضواحيها فقط، وجملة الرسائل التي فرقت في فرنسا في سنة ١٨٤٧ بلغت ١٢٧٤٨٠٠٠٠، وفي سنة ٥٦: ٢٥١٩٩٦٧٠٠ ما عدا ٢٨٦٧٩٠٤ رسالات بقيت في البوسطة لعدم بيان عنوانها، وعدد المستخدمين في بوسطة هذه المملكة؛ أي فرنسا، ٢٥٨١٥ نفسًا.

---

[٢] بلغ إيراد نظارة بوسطة إنكلترة في سنة ١٨٨٠ أزيد من ٦٠٠٠٠٠٠ ليرة، والمصاريف بلغت ٣٠٠٠٠٠٠ ليرة.

وأول من رتب البريد لويس الحادي عشر ملك فرنسا، ولكن ليس على هذا المنوال الذي نراه الآن، وإنما كانت الكتب تبلغ إلى أصحابها على يد رسل من الملك من بلد إلى آخر، وبقي هذا الترتيب مجهولًا عند غيره من الملوك مدة طويلة، وهو الذي عدل الميزان والكيل، وأول من نعت بنعت ماجستي — أي عظمة — وأول من اخترع هذا الطابع الذي يلصق بالرسائل، رجل من أهل السويد اسمه تريكنبر وذلك في سنة ١٨٢٢، وبقي أهل هذه البلاد إلى القرن الحادي عشر خالين من المعارف، وكان دأبهم التنقل والترحل إلى البلاد الأجنبية.

(١٤-٣) منتديات لندرة

وفي لندرة ٢٦ منتدى، ويقال لها: الكلوب، وهي ديار رحيبة يجتمع فيها أغنياء الإنكليز للمذاكرة والمعاملة والمطالعة والأكل والشرب، منها ما يجتمع فيه ٣٠٠، ومنها ألف وأكثر، ولا يدخل فيها أحد إلا بشهادة بعض من أهلها، وأداء الدخول من ٩ ليرات إلى ٣٢ ليرة، وفي كل سنة يدفعون أيضًا شيئًا لمصاريف خدمتها وفرشها وأنوارها، وذلك من خمس ليرات إلى اثنتي عشرة ليرة، وكلها حديثة عهد بالبناء، وهذه المحال لا يدخلها النساء، وإذا رضي أحد من أهل هذه المواضع عن أحد من الغرباء أدخله في زمرتها إكرامًا له.

(١٤-٤) كنائسها العظام

وفيها عدة كنائس عظام، أقدمها وستمينسترابي، كانت في الأصل ديرًا للرهبان الباندكتيين، أسست في سنة ٦١٦، ثم وسعت وجددت، وفيها تتوج ملك الإنكليز وملكاتهم من عهد إدورد الملقب بالمعترف إلى الملكة فكطوريا، وقد جلست على الكرسي الذي تتوج عليه الملوك، وهو كرسي عالٍ قديم مُغشى بالجلد ككراسي الكنائس والأديار في الزمن القديم، خالٍ عن الزخرفة مطلقًا، وكثير من ملوك الإنكليز وأعيانهم وعلمائهم قد دفنوا في هذه الكنيسة، من جملتهم هنري الثالث، وماري ملكة سكوتلاند، وكنكراف الشاعر صنع له قبر، فبلغت نفقته عشرة آلاف ليرة صرفت من هانرتة زوجة الدوك «أو دتشس» مالبولور، وفيها قبر لسر إسحاق نيوطون كلف خمسمائة ليرة، وآخر لشكسبير، ولما سئل بوب الشاعر أن يكتب تأبينه، كتب ما ترجمته هكذا: «أهل بريتانيا يحبونني ويحفظون صيتي سالمًا عن اسم بربر أو بنصون.» يعني أن هذين الرجلين كانا لا يحسنان الرثاء والتأبين مع كونهما كانا متعارضين له.

ومن ذلك كنيسة صان بول — أي: مار بولس، وقد تقدم ذكرها — أول حجر وضع في أساسها كان في سنة ١٦٧٥، وآخر حجر في سنة ١٧١٠، وذلك بعد ٣٥ سنة في عهد أسقف واحد وبلغت نفقتها ٧٤٧٩٥٤ ليرة و٢ شلين و٩ بنس، جمعت من مكس جعل على الفحم، ولذلك يقال: إنها تردت بلباس أسود كما تراها الآن، قلت: بل جميع مباني لندرة متردية بهذا الرياش، حتى إن مجلس المشورة مع كون البناء فيه متواصلًا يظنه الناظر قد مضى عليه أحقاب من الدهر، قال: وشكلها على شكل صليب لاتيني، وطولها من الشرق إلى الغرب ٥٠٠ قدم، وعرضها ١٠٠، وطول صومعتها ٢٢٢ قدمًا، وارتفاعها من الحضيض إلى ذروة الصليب ٤٠٤ أقدام، وعدد قضبان درابزينها المحيطة بها ٢٥٠٠، بلغت نفقتها ١١٢٠٢ ليرة ونصف شلين، ودورتها ثلاثة أرباع ميل.

قلت: جميع التربيعات والحدائق والغياض بلندرة ومعظم الديار محاطة بدرابزين من حديد، لعل ثمنها يوازي ثمن مدينة بأسرها، وداخل الكنيسة مبلط بالرخام الأسود والأبيض، وسقفها عقد من دون زخرفة، ولها قبة عظيمة، دورتها من داخل ٣١٦ قدمًا وإذا طلعت إلى أعلاها من داخل الكنيسة خطوت ٦١٦ درجة، ومن شأن هذه القبة أنه إذا وقف رجل في جهة منها، ووقف آخر في جهته المقابلة وأَسَرَّ اليه كلامًا بأن يضع فمه على حائط القبة سمعه الآخر.

وفي داخل الكنيسة تماثيل الملوك والمشاهير من الإنكليز وأبطالهم، عندها تماثيل ملائكة بصورة نساء يقدمون لهم الأكاليل، إشارة إلى أنهم ماتوا في سبيل الله، وثمَّ أيضًا تماثيل نساء بارزة نهودها، ولها أربعة أبواب في كل جهة باب، وقدام الباب الأكبر ١٢ عمودًا من أسفل، و٨ في الطبقة الثانية، ولكل من الباقي ٤ أعمدة، ولها قبتان متقابلتان في كل منها ساعة دقاقة، وفي يوم معلوم من السنة يهيئون موضعًا فيها لترتيل الأولاد، تبلغ نفقته ٣٠٠ ليرة، وفي اليوم الثاني يزاح.

وهذه الكنيسة هي أكبر كنيسة للبروتستانت في الدنيا، ودون كنيسة رومية، وهي تشبه بعض الملاهي في أنها لا تفتح إلا في ساعة معلومة من النهار، ولا يمكن رؤية جميع ما فيها إلا بأداء نحو خمسة شلينات، وإيراد رئيس أساقفة كنتربوري في السنة ٢٥٠٠٠ ليرة، وإيراد رئيس أساقفة يورك ١٥٠٠٠، وليس لمطران باريس من الإيراد ثلث ما لمطران لندرة، وجملة ما يصرف على الكنائس نحو ٥٠٠٠٠٠ ليرة، وإيراد أسقف لندرة في السنة ١٥٠٠٠ ليرة، ولكن خليفته لا يكون له إلا ١٠٠٠٠ فقط، وإيراد باقي الأساقفة من ٤٠٠٠ ليرة فصاعدًا، فهم بمثابة وزراء الدولة، فإن سنوية أول لورد في ديوان نظارة البحرية ٤٥٠٠ ليرة.

ثم إنه كما أن هؤلاء الرعاة المتبتلين إلى الله تعالى ماثلوا الوزراء والأمراء في أخذ الأرزاق والوظائف، كذلك ماثلوهم في الرفعة والشأن والانفراد عن الرعية، فإن مواجهة رئيس أساقفة الإنكليز أصعب من مواجهة البرنس ألبرت زوج الملكة، وقد اضطررت مرة إلى أن أكتب إليه في أمر ما، فورد الجواب منه في رقعة قدر نصف الكف، وكان خطابه بضمير الغائب، ونفى فيه ما لم يكن محله النفي احترازًا من أن أكلفه بخطاب آخر، ولكن أي لوم عليه إذا لم يجاوب أحدًا؛ لأن رئيس الكنيسة الذي إيراده ٢٥٠٠٠ ليرة في السنة ليس عليه أن يجاوب من ليس له صلدي واحد من كل ليرة تدخل خزانته الرسولية.

وقد كان الخوري ميخائيل شاهيات حضر إلى هذا الطرف، وكتب ثلاث رسائل؛ إحداها: إلى البرنس ألبرت، والثانية: إلى اللورد بلمسطون، والثالثة: إلى المطران المشار إليه، فجاءه الجواب من الأولين، ومن الأخير لم يرد سلب ولا إيجاب، وأقسم لو أن يهوديًّا غنيًّا من أمستردام وفد عليه في عاجلة ورُواء لاحتفل به وأكرمه غاية الإكرام، ولكن ليت شعري ما معنى كلام من قال: أما الذين يرومون الغنى فإنهم يقعون في المحنة والفخ وفي شهوات كثيرة سفيهة ضارة، تغرق الناس في العطب والهلاك، لأن حب المال أصل كل شر، وهو الذي اشتهاه قوم فضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم برزايا كثيرة، فأما أنت يا رجل الله فاهرب من هذه الأشياء واقتفِ البر والتقوى والإيمان والمحبة … إلخ، وقال أيضًا: من حيث إن لنا القوت والكسوة، فلنقتنع بهما؟! أما التقوى مع القناعة، فإنها مكسب عظيم.

ورُب معترض هنا يقول: إن الكنيسة الآن ليست كالكنيسة في مبدأ النصرانية؛ إذ لم يكن للنصارى وقتئذ دولة ولا سطوة، فأما الآن فإن عزها يرجع إلى عز الدولة، وإن رئيس الأساقفة الآن يلزمه أن يكون من أهل مجلس المشورة، وأن يزور الوزراء، ويكون مزورًا منهم، وأن يصنع مآدب للأعيان، ويكلف نفقات كثيرة، فلا بد له والحالة هذه من رزق وافر يجري عليه، ومن صرح وعاجلة، وخدم وأواني فضة، ونفيس أثاث، قلت: إذا كان الأسقف تزوره أرباب الدولة، وتدعوه إلى الولائم مع اقتصاد حاله — أو بالحري مع تقشفه — كان ذلك أدعى إلى كرامته وتعظيمه، فأما تكلفه للنفقات والولائم وغير ذلك، فإنه شاغل له عن أداء ما يجب عليه من تعهد الرعية، وتفقد أحوالهم، وهذا هو أصل معنى الأسقف.

فإن قيل: إن أمور الكنيسة الآن قد استتبت وانتظمت، فلم يبقَ حاجة إلى تكليف الأسقف أو رئيس الأساقفة النظر فيها والتعهد لها، قلت: إذن هو إقرار على أنفسهم

بعدم لزومهم، على أني لا أتعرض لمثل هذه المسائل، فإن لكل كنيسة أساقفة ومطارنة، وحيث إن إمامهم قد ذكر اسم الأسقف، فلا بد من وجود مسماه، ولكني أرى شيئًا على من يعير غيره شيئًا وهو متلبس به، فإن الإنكليز ينسبون الكنائس الشرقية إلى العظمة والتبذخ والسرف والشطط، مع أن رؤية بطاركة أنطاكية ممكنة لكل أحد، ولا يخفى أن أنطاكية في الدين أشرف من لندرة.

(١٤-٥) مبنى «بيت الهند»

ومن المباني العظيمة بيت الهند، أي بيت الجماعة التي بيدها تدبير مملكة الهند، بني في سنة ١٧٩٩، وفي سنة ١٨٣٣ حصل فيه تغييرات جمة، وحينئذ صدر أمر من مجلس المشورة بإقرارها على حالها، وفيه متحف وأصنام من فضة وذهب جلبت من تلك البلاد، وكتب وسلاح ودنانير وغير ذلك، ونقلت من بعض الكتب أن جمعية الهند استتبت للتجارة في تلك البلاد سنة ١٦٠٠، ثم صارت تاجرة ومحاربة معًا، فطردت الجمعية الفرنساوية، وذلك سنة ١٧٥٠ حتى تغلبت على أكثر البلاد.

وقال آخر: إن أول سعي أبدته الإنكليز فيما يخص الهند كان تجهيز ثلاث سفائن، وذلك في سنة ١٥٩١، ولكن لم يصل منها إلا واحدة فقط، وبعد سفر ثلاث سنين رجع الربان في سفينة أخرى؛ لأن الملاحين غلبوه على سفينته، فلما أن رجع أخبر الأهلين بما جرى له وبما رأى، فجذبهم الحرص لإرسال سفن أخرى تجارية، وتم انعقاد ذلك في سنة ١٦٠٠، فجمعوا ٧٢٠٠٠ ليرة جهزوا بها أربعة مراكب، ونالوا أربهم، واستمروا يتجارون ويتاجرون هكذا، وفي سنة ١٦٩٨ عقدت جمعية أخرى، ثم التحمت مع الأولى، فصارتا جمعية واحدة، وذلك في سنة ١٧٠٢، ثم بني بيت الهند في سنة ١٧٢٦، وفي سنة ١٧٩٩ وسع وكبر، وفي سنة ١٧٨٤ استقر ديوان جماعة الهند. ا.هـ.

(١٥) براهمة هذا العصر

قال فلتير: إن براهمة هذا العصر ما زالوا على مذهب أسلافهم الذميم من إغراء النساء بإحراق أنفسهن بعد موت بعولتهن، والعجب أن هؤلاء الناس الذين لا يستحلون دم الإنسان أو البهيمة يرون أن أَبَرَّ المناسك هو إحراق نسائهم، ولكن هذا شأن الوساوس والأضاليل أبدًا تأتي بأفعال متناقضة، ومن زعمهم أنهم يقولون: إن برهام هو ابن الله،

نزل إلى الأرض واتخذ أزواجًا كثيرة، فلما مات تطوعت أحب أزواجه له إلى أن تحرق نفسها رجاء أن تلحقه في نعيم السماء، ومذ ذلك الوقت سرت هذه العادة السمجة، ولكن ليت شعري كيف يتأتى للنساء أن يعرفن بعولتهن وقد صار بعضهم خيلًا وبعضهم فيلة وبعضهم بومًا؟! وكيف يمكن لهن أن يميزن الحيوان الذي دخل فيه روح الميت؟!

غير أن هذا الإشكال لا يعسر على هؤلاء الكهان، فإن التناسخ عندهم إنما يكون للعامة فقط، فأما أرواح الخاصة فمن حيث إنها كانت من جملة الملائكة الذين مردوا فلا بد من أنها تسعى في التنقي والتطهر، وكذا أرواح النساء اللائي أحرقن أنفسهن، تنعم بالنعيم السماوي، حتى يجدن بعولتهن على حال الطهارة والغبطة.

وهذا المذهب القبيح قد عرف عندهم منذ أربعة آلاف سنة، مع كونهم قومًا وُدَعاء لا يتجرءون على قتل الجرادة، ولكن لا يمكنهم أن يجبروا الأرملة على الاحتراق؛ لأن سر الشريعة إنما هو أن تتقدم المرأة إلى ذلك عن طيب نفس، والتي تكون أقدم عند زوجها لها أن تأبى الاحتراق؛ وكذا التي بعدها إلى الأخيرة، ويُحكى أن سبع عشرة امرأة دخلن النار مرة بعد موت رجل واحد، وكان من الرجاة، ثم من بعد استيلاء المسلمين على بعض بلادهم قلَّ استعمال هذه العادة، ثم قلَّت أيضًا بمخالطة الإفرنج لهم، إلا أن هذا المنظر السيئ المحزن قَلَّ أن فات واحدًا من حكام مدارس وبنديكري، فقد قال مستر هلول: إن أرملة لم يزد سنها على تسع عشرة سنة أحرقت نفسها بمرأى من زوجة الأميرال رسل، وكانت بديعة في الحسن، ولها ثلاثة أولاد، ولم تلن لدموع الباكين عليها، ولم تقبل طلبتهم، فأقسمت عليها الست المذكورة لتعدلن عما نوته شفقة على أولادها، فما كان منها إلا أن قالت: إن الله الذي خلقهم لا يتركهم، ثم شرعت في تنضيد الحطب بيديها، فلما احتدمت النار دخلت فيها حتى احترقت، وهي صابرة متجلدة.

ورأى أحد الإنكليز مرة أخرى فتاة حسناء سائرة إلى النار، فلما كادت تضرمها اجتذبها قسرًا وساعده على ذلك بعض أصحابه، ثم سار بها إلى منزله وتزوجها، فكان ذلك عند الهنود بمنزلة انتهاك المحارم، ولكني أقول ما بال الرجال لا يحرقون أنفسهم ليلحقوا بأزواجهم؟! ولِمَ وقعت هذه القرعة على هذا الجنس الضعيف الهيوب؟ أفكان ذلك لأن الرواية لم تذكر أن بعض الرجال تزوج ابنة برهام، بل ذكرت أن برهام تزوج امرأة هندية؟! نعم إن قدماء البراهمة كانوا يحرقون أنفسهم، ولكن إنما كان ذلك ليتخلصوا من مضض الهرم وطوله، بل بالحري ليعجب منهم الناس، ولعل كالانوس لم يكن يدنو من النار لولا أن الإسكندر كان ناظرًا إليه، ولو أن شرع البراهمة حكم بأن المرأة لا تحرق نفسها إلا ومعها واحدة من العجائز لبطلت هذه العادة من قبل الآن. ا.هـ.

قلت: زعم الذين لهم معرفة بلغة البراهمة ويسمونها صانسكريت أنها أفصح اللغات وأوسعها أساليب في التعبير، وأنها أم للغة اليونان، فلا يبعد إذن أن تكون محاسن هذه اللغة هي التي مهدت الطريق للبراهمة حتى سادوا على العامة، فإن أهل البلاد الشرقية أبدًا عبيد الفصاحة والبلاغة، فأما قول فلتير: إنهم قوم وُدَعاء لا يتجرءون على قتل الجرادة، فما وقع في هذه الأيام الأخيرة يناقضه، وهو كثيرًا ما يتعصب لهم ولأهل الصين أيضًا، فأما عدد المسلمين في بلاد الهند فقيل: ٣٥٠٠٠٠٠٠ وقيل أكثر.

(١٦) النزاع على الهند

قال في الأبجدية: أول من كشف السفر إلى الهند على طريق الرجاء الصالح فاسكو داكاما، وذلك في سنة ١٤٩٧، وبعد أن استولت عليه دولة هولاند ضبطته دولة الإنكليز، ثم رد، ثم قرَّ الرأي على أنه يبقى في ملكها، وذلك في سنة ١٨١٤، وذكر في تاريخ مصر أنه في حدود العشرين بعد التسعمائة ظهرت الفرنج البورتغال على بلاد الهند، استطرقوا إليها من بحر الظلمات من وراء جبال القمر بمنبع النيل، وغاصوا في أرض الهند، فوصل أذاهم وفسادهم إلى جزيرة العرب وبنادر اليمن وجدة، فلما بلغ ملك مصر ذلك جهز إليهم خمسين غرابًا مع الأمير حسين الكردي، وأرسل معه عسكرًا عظيمًا من الترك والمغاربة، وجعل له جدة إقطاعًا، وأمره بتحصينها، إلى أن قال، ثم توجه بعساكره إلى الهند في حدود إحدى وعشرين وتسعمائة، فهربت الفرنج من البنادر حين سمعوا بوصوله. ا.هـ.

(١٦-١) إحصاءات عن الهند

وعلم من خلاصة حديثه من مجلس المشورة أن مساحة بلاد الهند تبلغ ١٤٦٦٥٧٦ ميلًا مربعًا[٣] لدولة الإنكليز، منها ٨٣٧٤١٢، وللأهلين ٦٢٧٩١٠، ولفرنسا والبورتغال ١٢٢٤، وعدد سكانها ١٨٠٨٨٤٢٩٧ تحت حكومة دولة الإنكليز منهم ١٣١٩٩٠٩٠١، وتحت حكومة الأهلين ٤٨٣٧٦٢٤٧، ولدولتي فرنسا والبورتغال ٥١٧١٤٩.

[٣] في سنة ١٨٧٦ بلغت مساحة الهند التابعة لدولة إنكلترة ٨٩٩٣٤١ ميلًا، وعدد سكانها بلغ ١٩٢٠٠٠٠٠٠ نفس.

وعلم أيضًا من خلاصة أخرى أن عدد ضباط الإنكليز فيها يبلغ ٥٢٤٩، وعدد عساكر الإنكليز وغيرهم من الإفرنج ٤٣١٤٩، وعدد عساكر الأهلين ومن جملتهم الشرطة ٢٨٨٥٩٦، وإذا أضفت إليهم عدد العساكر القائمة التي جرى عليها شروط بين الأهلين والدولة يبلغ العدد ٣٩٧٩١٨، وفي الجملة فكل عسكري واحد من الإنكليز لخمسة عشر من الهنود، ونقلت من صحف الأخبار أن عدد من دخل في طاعة دولة الإنكليز، من الهند وما يليها بلغ ١٦٣٠٠٠٠٠٠ من النفوس وجميع ما فيها من الإنكليز ٥٠٠٠٠، منهم ٣٠٠٠ في الخدمة العسكرية، والعساكر المستخدمة في دولة الهند تنيف على ٢٠٠٠٠٠، وقد زادوا الآن بسبب الغيرة من دولة الروسية، ففي سنة ١٨٢٧ بلغوا ٣٠٠٠٠٠ منهم ١٥٧٨٢ مدافعية، و٢٦٠٩٤ من فرسان الهنود، و٢٣٤٤١٢ من المشاة منهم أيضًا، و٤٥٧٥ مهندسًا، وعدد العساكر الملكي ٢١٩٣٤، فجملة ذلك ٣٠٢٧٩٧، وأن إيراد دولة الهند يبلغ في السنة نحو ١٥٠٠٠٠٠٠ ليرة،[٤] وكل عسكري يبعث من إنكلترة إلى هناك يكلف الدولة خمسمائة ريال، وأن جميع أدوات الحرب وجهاز العسكر تصنع في إنكلترة، وترسل إلى تلك البلاد، وأن حاكم الهند له في السنة ٢٥٠٠٠٠ روبية، ولكل من أهل ديوان المشورة ١٠٠٠٠٠، وللقاضي ٢٥٠٠٠، ولكل من كتاب الديوان ٢٥٠٠٠، ومثلها لناظر الملح. ا.هـ.

ومن العجب أن أهل هذه الدار الذين يحكمون على هذه المبالغ من الناس والبلاد والعساكر ليس يبالون بأن يعينوا عسكريًّا واحدًا أمام الباب كما يفعل لسائر الدواوين الميرية، ولو كانت هذه الدار في باريس لكنت ترى عندها جوقًا من العسكر يحرسونها ليلًا ونهارًا، وفي أخبار العالم أن إيراد الدولة من الهند يبلغ ١٦٠٠٠٠٠٠، ومصاريف العسكر تبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠، وقدرهم نحو ٢٥٠٠٠٠، وأن دولة الإنكليز متسلطة الآن على بر واحد، وعلى ١٠٠ جزيرة متصلة بالأرض، و٥٠٠ قب أو رأس، و١٠٠٠ بحيرة، و٢٠٠٠ نهر، و١٠٠٠٠ بضيع — أي جزيرة غير متصلة بالأرض — وإذا اضطرت إلى الحرب جهزت ٥٠٠٠٠٠ عسكري، و١٠٠٠ سفينة حربية، و١٠٠٠٠٠ بحري، وأن دول الأثوريين والرومانيين والفرس والعرب وقرطاجنة وإسبانيا لم تحصل على هذا العز والبسطة والسعة، وأنه ليس من أطيلة أو إسكندر المقدوني أو نابوليون أو تيمور أو هولاكو من بلغ ما بلغت إليه من الفخر والسطوة.

[٤] في سنة ١٨٧٩ بلغ إيراد الهند ٦٥١٩٩٥٩٢ ليرة والمصروف بلغ ٦٣١٦٣٣٥٦.

قلت: في سنة ١٨٥٠ بلغت البواخر المختصة ببلاد الإنكليز وإرلاند وسكوتلاند ١١٨١ سفينة، وفي سنة ١٨٥٢ بلغ جملة ما دون منها في مراسي تلك البلاد كلها ١٢٢٧ سفينة.[٥]

(١٧) مخترعون ومخترعات

ثم إن أول من فكر في استنباط أداة لإصعاد الماء بواسطة النار كان مركيز ورسستر، وذلك في سنة ١٦٦٣، وهو الذي ينسب إليه إيجاد تبليغ الأخبار من بلد إلى بلد بواسطة خارجية، ولكن الظاهر أن فكره هذا لم يهم أهل عصره لأن يتعلقوا بالأسباب الموصلة إليه.

وقال آخر: لا شك في أن مركيز ورسستر هو مخترع آلة البخار، وذلك في زمن شارلس الأول، وفي سنة ١٦٦٣ ألَّف كتابًا سماه عصر الاختراع، وذكر فيه استنباطات عديدة على سبيل الاختصار والغموض، إلا أن أهل عصره لم يبالوا بذلك، وكذلك ذكر بالتدقيق بعضًا من مخترعاته، وأول تجربة أجراها كانت في مدفع، وذلك بأن ملأ نحو ثلاثة أرباعه ماء، ثم سد خرقه وفمه ثم أدناه من النار أربعًا وعشرين ساعة، فانفلق بدفع شديد، فدله ذلك على أن قوة البخار هي أعظم مما يدركه الإنسان، وروي عنه أنه قال: قد جعلت الماء ينبعث من الجدول ارتفاع أربعين قدمًا، والإناء الذي فيه بخار يرفع أربعين إناء ملئت ماء باردًا، إلا أن الناس لم ينتبهوا لذلك إلا في آخر ذلك القرن.

ثم اخترع القبطان صفري آلة لرفع الماء في سنة ١٦٩٣، فهذان الرجلان هما المخترعان لهذه الطريقة، وقد نسبت الفرنسيس استنباط ذلك إلى أحد فلاسفتهم المسمى دكطر «بابان»، وذلك سنة ١٦٩٥، والحق أن عمليته لم تُجْرَ عندهم إلا بعد مدة طويلة، وأول ما أُجريت عملية القبطان المذكور كان في معادن كورنوال، ثم قام مستر نيو كومن، ومستر كين فتزجرالد هودن بلور ووط وبلطون، وبعد ذلك قام القبطان شانك فأنشأ سفينة لتسافر إلى كندة في مدة حرب الأمير كانيين ونجح، وفي سنة ١٦٨١ اخترع بابان آلة من هذا القبيل، ثم قام صفري فصنع أداة لإصعاد الماء، وذلك سنة ١٦٩٨، وفي سنة ١٧٨١ اخترع واط السكوتلاندي آلة مزوجة، ثم قام غيرهم كثيرون، وكل منهم زاد شيئًا

[٥] في سنة ١٨٧٩ بلغ عدد السفن الشراعية في إنكلترة بأسرها ٢٠٥٣٨، وبلغ عدد بواخرها ٥٠٢٧ باخرة.

أو أتقن آلة، وقال الفاضل لارندر: إنه يمكن إصعاد البخار من طاستي ماء بأوقيتين من الفحم، وفي حال تبخيرها تكثر فتصير ٢١٦ كالونًا من البخار، فيمكن والحالة هذه أن ترفع بقوة آلة معها سبعة وثلاثون طنلاتة ارتفاع قدم واحد.

ويقال: إن جملة القطع التي تركب في آلة النار تبلغ ٥٤١٦ قطعة، وأول تجربة عملت على نهر التامس كانت في سنة ١٨٠١، وأول باخرة أنشئت في إنكلترة كانت في سنة ١٨١٥، وفي إرلاند سنة ١٨٢٠، وأول باخرة سافرت إلى بلاد الهند كانت في سنة ١٨٢٥، وكان إنشاء البواخر الحربية في إنكلترة سنة ١٨٣٣.

واعلم أن أول من عرف فن الإبحار؛ أي ركوب البحر هم أهل فينيقية، وذلك منذ ١٥٠٠ قبل الميلاد، وأول سفر طويل عرف منهم كان سفرهم إلى إفريقية وذلك سنة ٦٠٤ قبل التاريخ المذكور، ثم عرف في الإسكندرية إلى أن صار كأنه من خصائص الرومانيين ثم عبر من أهل فينيسيا وجينوى إلى أهل البورتغال وإسبانيا، ومنهم إلى إنكلترة وهولاند، ولم يكن اليونانيون يعرفون الإبحار في بحارهم الضيقة إلا على الطوف، وهو عبارة عن خشبات يشد بعضها إلى بعض إلى أن عرفوا ركوب البحر في السفائن من داناوس المصري حين قدم عليهم هاربًا من أخيه راماسيس، وذلك سنة ١٤٨٥ قبل الميلاد، وهذا الطوف الذي يستعمله النوتيون الآن، هو دون ما كان يستعمله اليونانيون، فإن ذاك كان مجعولًا بحيث يمكن تدبيره، وإدارته عند هيجان البحر.

وأول ما عرف للإنكليز مراكب حربية ملكية مرتبة تحت ديوان معين كان في عهد هنري الثامن سنة ١٥١٢، وكانت عدة البوارج في زمان الملكة إليصابت ثمانيًا وعشرين، وفي سنة ١٨١٤ كان لبريتانيا الكبرى تسعمائة سفينة، وفي سنة ١٨٣٠ كان لها ٦٢١ سفينة، وفي سنة ١٨٤١ كان مجموع سفائنها الكبيرة والصغيرة ١٨٣، وفي سنة ١٨٥٠ بلغت مراكب الإنكليز الملكية ٥٠٠ من جملتها ١٦١ باخرة، وفي سنة ١٨٥٤ زاد هذا القدر فبلغ ٥٢٦ ما عدا سفائن أخرى كانت تستعمل في مصالح أخرى، وفي سنة ١٨٥٥ بلغ مجموعها ٦٠٢، وعدد ما أتلفت أو غنمت من السفائن في فتنة الفرنسيس إلى غاية سنة ١٨٠٢ كان ٣٤١ من سفن الفرنسيس ومن سفن هولاند ٨٩، ومن سفن إسبانيا ٨٦، ومن دول أخرى ٢٥، فجملتها ٥٤١ سفينة، وعدد ما أتلفته أو غنمته في حربها مع دولة فرنسا إلى غاية سنة ١٨١٤ كان ٥٦٩ سفينة، منها ٣٤٢ لفرنسا و١٢٧ لإسبانيا و٦٤ لهولاند، و١٧ للروسية، و١٩ للأميريكانيين،، فمجموع ذلك كله ١١١٠ سفائن، فأما بوارج فرنسا فيمكن أن يقال: إنها بلغت أعلى شأنها في سنة ١٧٨١، ولكن باد كثير

منها في حربها مع الإنكليز، وفي سنة ١٨٥٤ بلغ مجموعها ٦٩٧ منها ٤٠٧ بواخر، وفي الإحصائيات أن عدد البواخر التي أنشئت من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٥٧ بلغ ١٨٠٥ سفن، وفي سنة ٥٧ كان منها في خدمة البلاد ومصالح البلاد الأجنبية ٨٨٩، ومن سفن الريح ١٨٤٢٩ سفينة.

فأما إحداث البارود فكان سنة ١٣٣٦، وذلك قبل استعمال المدافع بعشر سنين، ولا يعرف محدثه، وإنما يظن أنه من مخترعات راهب من بروسية اسمه مخائيل شوارتز، والحق أنه كان معروفًا عند أهل الصين من قبل تاريخ الميلاد بأحقاب كثيرة، إلا أن استعمالهم له كان للصلاح لا للتدمير، وذلك كتمهيد الطرق ودك التلال وحفر القُنِي، وإن يكن قد ظهر من أدوات سلاحهم ما يحقق أنه مجعول له، إلا أنه لم ينقل عنهم أنهم استعملوه قط في حرب.

قال: وأول ما استعمل في الحروب فيما علمناه كان في الحرب التي وقعت بين الإنكليز والفرنسيس، وذلك في سنة ١٣٤٦.

وقد نبغ في الإنكليز عن قريب ضابط من ضباط العسكر اسمه ورنر، أداه الاجتهاد والتبحر إلى أن اخترع شيئًا يقدر به على إتلاف أي سفينة كانت من مسافة ثلاثة أرباع ميل من دون مماسة البارود إياها، وقد جرب ذلك بحضرة مأمورين من طرف الدولة عند مدينة بريطون، وصحت تجربته، لا بل زعم أنه يتلف المركب من مسافة خمسة أميال، قلت: فلا يبعد إذن ما ذكره لوقيان وغالن عن أرشميدس من أنه أحرق مراكب الرومانيين في حصار سيراقوسة بواسطة الزجاج، وذلك قبل تاريخ الميلاد بمائتين واثنتي عشرة سنة، قال: وقد أراد الضابط المذكور أن يبيع هذا السر للدولة، لكنه أشط في الطلب فلم تشتره منه.

قال: وقد نبغ أيضًا شنبين الكيماوي من برلين في هذا الفن، وأحدث شيئًا يفعل فعل البارود، بل أكثر، وهو أن يغمس القطن في أجزاء متساوية من النطرون والكبريت، ثم ينشف فيأتي كالبارود في الثقل والدفع وهو أسلم عاقبة منه، وقيل: إنه باع هذا السر في بلاد الإنكليز بأربعين ألف ليرة، إلا أن دولتي فرنسا وإنكلترة أبتا استعمال القطن في البنادق بدل البارود، وذلك لكثرة سخونته، فإن البندقية إذا ملئت منه مرات تشتد بها السخونة بحيث إنها تنطلق بنفسها من قبل أن تطلق، ويقال: إنه استعمل أيضًا نوع من النبات يسد مسد البارود.

وفي سنة ١٥٤٤ استعملت فرسان الإنكليز الفرد؛ أي الطبنجة، وزعم بعضٌ أن استعمال المدافع كان في سنة ١٣٣٨، وزعم آخر أنها عرفت في حرب كرسي وذلك في سنة

١٣٤٦، وقيل: إن الإنكليز استعملوها في حصار كالي سنة ١٣٤٧، وقيل: إنها استعملت في الموضع المذكور في سنة ١٣٨٣. ا.هـ.

وقال فلتير: إن برنس والس المعروف بالأسود لسواد درعه وريشته، انتصر على فيليب فلوي ملك فرنسا عند نهر سم وكان من أقوى الأسباب التي أعانته على ذلك استعمال بعض مدافع كانت مع عسكره، فإن المدافع لم يشهر استعمالها قبل تلك الواقعة إلا بنحو ١٢ سنة، ولم يعلم من كان المخترع لها. ا.هـ. قلت: فيليب المشار إليه ولي الملك في سنة ١٣٢٨، وأكبر مدفع في الدنيا فيما عُلم مدفع نحاس صنع في بلاد الهند سنة ١٦٣٥، وفي برج في جرمانيا مدفع طوله ثماني عشرة قدمًا ونصف قدم ووسع قطريه قدم ونصف، ووزن كتلته ١٨٠ رطلًا، وملؤه من البارود ٩٤ رطلًا، ويُعلم من نقش رسم عليه أنه صنع في سنة ١٥٢٩، وكلة المدفع الصغير تذهب مسافة ٤٠٠ يارد، وأبعد ما تذهب إليه من ٥٠٠ إلى ٦٠٠، وهو عبارة عن نصف ميل، ومن المدفع الكبير من ميل ونصف إلى ميلين.

(١٨) مبنى «بيت ضابط البلد»

ومن ذلك — أي من المباني العظيمة — بيت ضابط البلد في الستي، ويقال له منشن هوس، بني في سنة ١٧٣٩، وبلغت مصاريفه ٧١٠٠٠ ليرة، وبعض أثاثه من ١٠٠ سنة وبعضه من ستين، وهذا الضابط تنتخبه الجماعة المنوط بها تدبير هذه المحلة في كل سنة، وذلك في التاسع من تشرين الثاني، ويوم انتخابه يجعل في الطرق حواجز لمنع مرور الحوافل، وتغص المدينة بالزحام، فيضغط الناس بعضهم بعضًا فلا يبقى أحد من أهل البطالة إلا ويخرج للتفرج، أو بالحري للتلزز، فيخرج الضابط من الديوان المسمى كلدهال في موكب عظيم ويجلس في عاجلة مذهبة فاخرة تجرها ستة أفراس، ثمنها في الأصل ١٠٦٥ ليرة، ويصرف على زينتها في كل سنة ١٠٠ ليرة، ويجلس معه رئيس المحاكم بقباء أحمر وهو متقلد سيفه وشعار سلطته، وتقف في ذلك اليوم شرطة الديوان لمحافظة الطرق، وتمشي صفوف شتى وهم يحملون أعلامًا مختلفة، وآخرون يضربون بآلات الطرب، وآخرون ينفخون في الأبواق، وآخرون متكممون بالدروع على منوال المجاهدين الأقدمين وتوضع أمامه آلات الحرث على عجلة مزينة وما تنبت الأرض، وسفينة ذات قلوع تجرها ستة أفراس، ويسير معه أصحاب المراتب السنية والمناصب العلية وضابط البلد المعزول، وعند وصولهم إلى محل معلوم تلاقيه سفراء الدول ووزراء

الدولة ورؤساء المحاكم وأركان مجلس الشورى وغيرهم من ذوي الشأن، حتى إذا رجع إلى مقره دعا أولئك النبلاء إلى وليمة فاخرة تشتمل على ٢٦٣٧ صحفة كبيرة وصغيرة، ولا بد من أن يوضع أمامه صحفة فيها نوع من السمك الصغير، إشارة إلى أنه ضابط نهر التامس الذي هو عند الإنكليز أعز من نهر كنكا عند الهنود.

وعلى ذكر الوليمة يحسن هنا إيراد ما وجدته مكتوبًا في أوراق تسمى تعليقات ومسائل من أن ضابط نوريش من أعمال إنكلترة صنع مأدبة فاخرة في عهد الملكة إليصابت سنة ١٥٦١، ودعا إليها جماعة من أعيان ذلك الصقع وكبرائه، فبلغت مصاريفها ليرتين و١٣ شلينًا و١١ بنسًا، كان ثمن الوزة فيها ثلث شلين، وفخذ الضأن ربعه، وكذا ثمن الدجاجة و١٢ بيضة، وثمن ١٦ رغيفًا ثلث شلين، وثمن برميل من الجعة شلينان، وثمن ٤ أرطال من السكر سدس شلين، وفواكه ولوز ٧ بنس، وقس على ذلك. والولائم التي يصنعها أهل الستي تكون فاخرة جدًّا تشتمل على صحاف من الذهب وأكواب من الفضة.

وسنوية الضابط ٨٠٠٠ ليرة، ولكنه يصرف في مدة ولايته أكثر من هذا القدر، وإيراد تلك الجماعة ١٥٦٠٠٠ ليرة، يستوردونها من ضرائب على الفحم والأسواق والديار والسماسرة، وهذه الجماعة ينتخبهم الأهلون الذين لهم عقار وديار.

ومن خصائص الضابط مدة ولايته أن يتولى أمور المدينة غير معارض، وقد نازع الملك جورج الرابع في هذه السلطة، وحاول إبطالها، غير أن الإنكليز كما ذكرنا سابقًا لا يحبون تغيير العادات القديمة، فمن ثم بقي الحال كما كان، وإذا اتفق موت الملك في أيامه فله أن يجلس في ديوان الشورى الخاص ويوقع قبل أربابه، وله أيضًا أن يغلق باب الموضع المعروف بتمبل بار وهو أول خط المدينة في وجه الملكة حين تذهب إلى المدينة، ولكن ليس بقصد ردها عن الدخول، بل بقصد إدخالها جريًا على العادة، وتفصيل ذلك أن صاحب الملك إذا أراد التوجه إلى المدينة، يصل إلى ذلك الباب فيجده مغلقًا، فينفخ بين يديه رجل في البوق، ويقرع الباب آخر، ويقع بينه وبين الضابط محاورة وكلام هنيهة، ثم ينفتح الباب، ويدنو الضابط من صاحب الملك، ويقدم له سيف المدينة، فيأخذه منه الملك، ثم يعيده إليه، ثم يدخل ومعه الضابط سائرًا بِركَابه.

وهذا الباب مبتدأ خط الستي، بني في سنة ١٦٧٠، وعنده تمثال الملكة إليصابت والملك جامس الأول وكرلوس الأول وكرلوس الثاني، وهو لا يغلق إلا في ذلك اليوم، غير أن توجه صاحب المُلْكِ إلى المدينة لا يقع إلا نادرًا، وذلك كأن يذهب إلى كنيسة ماربولس

ليهدي الشكر لله على فَتْحٍ أو ظَفَرٍ بالعدو أو ليفتح بناء عموميًّا كدار مجتمع التجار أو البنك ونحو ذلك، والحاصل أن تدبير هذا الخط الذي يقال له: ستي — وهو عبارة عن أول ما أنشئ في لندرة من الأبنية والحوانيت والمحترفات — مفوض بالاستقلال إلى الضابط وأولئك المديرين، ومصاريف محكمة هذا الخط تبلغ ١٢٠١٨٢ ليرة في العام، ومصاريف شرطته ١٠١١٨، ومصاريف محل فيه اسمه نيوكات ٩٢٢٣، ومصاريف الحبس فيه ٧٦٠٢، ومصاريف حبس المديونين ٤٩٥٥، ومصاريف النهر ٣١١٧.[٦]

وشعار المدينة هو سيف ماربولس وصليب مار جرجس، وفي العام الماضي كان الضابط يهوديًّا، وقيل: إن الضابط الذي نُصِّبَ في هذه السنة كان نفرًا من العسكر، ومن الغريب هنا أن هذا الضابط يُعْزَلُ في كل سنة، وخَدَمَتُه يبقون إلى ما شاء الله، وسيأتي بقية الكلام على الستي.

(١٩) مبنى «كلدهال»

ومن ذلك كلدهال وقد تقدم ذكره، وهو ديوان أحكام الستي، فيه توقيع بخط شكسبير من شعراء الإنكليز، اشتراه المديرون بمائة وسبع وأربعين ليرة، وبالقرب منه دار عظيمة أيضًا لختم ما يصاغ من الذهب والفضة، فيها الكأس التي شربت بها الملكة إليصابت عند تتويجها.

(٢٠) برج لندن ومحتوياته

ومن ذلك البرج الذي يقال له: تَوَرْأُفْ لندن، أي برج لندن، وهو أعظم برج في بريتانيا، وهو حصن للمدينة، ومقر لصاحب الملك عند عقد هدنة ونحوها، وسجن للمجرمين من أرباب الدولة لا يُعلم متى كان إنشاؤه؟ وإنما يظن أنه بني في سنة ١٠٧٨، فيه امتُحِن كاي فوكس الذي عمل على إحراق مجلس المشورة على ما تقدم ذكره، والملكة مريم ملكة إسكوتلاند ويوحنا ملك فرنسا وكرلوس دوك أورليان وأبو لويس الثاني عشر، والملكة أنة أو حنة بوليان ضرب عنقها سنة ١٥٣٦، والملكة كاثرين هاورد زوجة الملك هنري

[٦] جميع هذه المصاريف زادت الآن أضعافًا.

الثامن، والأميرة رشفورد وسرتوماس مور ورئيس الأساقفة كرانمر، ورئيس الأساقفة لود، وسبعة أساقفة آخرون وغير ذلك، وقتل فيه هنري الخامس وإدورد الخامس وغيرهما.

وهو يشتمل على الدروع وعلى السلاح التي كانت تستعمل في الزمن القديم، وعلى مدافع ثمينة، من جملتها مدفع أخذ من نابوليون الأول، وكان هو قد أخذه من مالطة، وهو بديع الصنعة، ومدفعان عظيمان أخذا من البلاد الإسلامية طول كل ٢٣ شبرًا، وفيه دروع جامس الأول، وهنري الرابع، وإدورد الرابع، والملكة إليصابت وغيرهم، وتاج يقال له تاج صنت إدورد، صنع لتتويج كرلوس الثاني، ثم توارثته جميع الملوك من بعده، وهو التاج الذي يضعه رئيس الأساقفة على رأس صاحب الملك عند المذبح.

وفيه أيضًا تاج جديد صنع للملكة، وهو نحو طربوش من مخمل أحمر، يحيط به إطار من فضة مرصع بالألماس، زنته رطل وثلاثة أرباع، وفي التاج ياقوتة غير مجلوة، يقال: إنها كانت في تاج الملك إدورد الملقب بالأسود، وقيمة التاج كله ١١١٩٠٠ ليرة، وفيه تاج الأمير والس من ذهب غير مرصع بالجواهر، وآخر لزوج الملكة مرصع بالألماس والدر وغيرهما من الجواهر.

وفيه صولجان يسمى صولجان العدل أو صولجان الحمامة؛ لأن فيه حمامة، وطوله ثلاثة أقدام وسبع أصابع، وهو من ذهب مرصع بالألماس وغيره، وآخر للملكة عليه صليب بديع الصنعة مرصع بالألماس، وآخر يسمى صولجان الملك عليه تفاحة مرصعة بالياقوت والزمرد والألماس، طوله قدمان وتسع أصابع، وفيه صليب من ذهب مرصع بالجواهر المتنوعة، وآخر يسمى قضيب صانت إدورد من ذهب مطرق، طوله أربع أقدام وسبع أصابع، في أعلاه دائرة وصليب، ويقال: إن في الدائرة قطعة من صليب المسيح.

وفيه أيضًا سيوف العدل الكنائسية والمدنية ورُكُب — جمع ركاب — من ذهب تستعمل يوم تتويج الملك أو الملكة، ووعاء للماء المبارك في شكل نسر، وملعقة من ذهب للمناولة يوم التتويج، وطست من فضة مذهب يستعمل يوم معمودية ولد صاحب الملك وغير ذلك من التحف مما يطول شرحه، وقيمة ما فيه من السلاح بلغت في سنة ٤٩: ٦٤٠٠٢٣ ليرة، قلت: لما رأيت هذا الموضع أخبرني الدليل بأن الياقوتة الحمراء التي في مقدم تاج الملكة وهي نحو البيضة الصغيرة تساوي ٥٠٠٠٠ ليرة، وثمن التاج كله مليون، وثمن التيجان الأخرى مليونان، والله أعلم. وقد جرت العادة بأن تاج الملكة يودع في هذا الحصن، وعند الحاجة إليه يؤخذ منه ثم يرد إليه، وقد سرق مرة مع سائر

الجواهر، وذلك في سنة ١٦٧٨. وأعجب من جميع ما ذكرت أن هذا البرج الأميري الملكي التاجي لا تمكن رؤيته إلا بعد أداء شلين.

(٢١) قصور صاحب الملك

وفي لندرة أربعة قصور لصاحب الملك أعظمها وهو الذي تسكنه الملكة الآن في الشتاء القصر المسمى باكنهام في إسطبله عاجلة لها تساوي نحو ثمانية آلاف ليرة، وطول حديقة القصر ٣٤٥ قدمًا، قال فيه بعضهم: قد لزم لترميمه وتصليحه ٥٠٠٠٠ ليرة مع أنه لا يصلح لسكنى الملوك، وبني فيه قنطرة من رخام صُرِفَ فيها ثمانون ألف ليرة، مع أنه لا يمكن إبقاؤها حيث هي، وقبلًا صرف على القصر ٧٦٣٢٢٦ ليرة ما عدا ما لزم له من الفرش والأثاث، وكان يمكن أن ينشأ بهذا المبلغ قصر جديد فاخر خير من هذا القصر الذي إن هو إلا عبارة عن مواضع ملفقة.

وبعد أن صرف ذلك المبلغ المذكور على القنطرة لزم الآن صرف مبلغ عظيم والله يعلم إلى أين؟ وصرف أيضًا على قصرها الذي تسكنه في الصيف في ونصر، وهو على مسافة نحو أربع ساعات من لندرة ١٠٠٠٠ ليرة، وذلك لإجراء الماء إليه، وثاني مرة صرف عليه ٦٥٠٠ ليرة لوقايته من النار، وقد تبين من دفاتر المصروف أنه من سنة ١٨٢٥ إلى سنة ١٨٣١ بلغ المصروف على هذا القصر ١٤٩٨٥١٦ ليرة فإذا أضفتها إلى المبلغ اللازم الآن بلغت جملة ذلك ١٥١٥٠٠٠ ما عدا ما يصرف على الغياض والشجر الملحقة به، وبلغ مصروف الأثاث ٢١٦٠٠٠، ومصروف التحف ٣٠٠٠، قال: فهذان مليونان صرفا على قصرين، هما سخرة وهزء لأهل أوروبا جميعًا، ويقال إنه يصرف في السنة على ترميم القصور والمباني الميرية ١٧٠٧٨٠ ليرة.

والقصر الثاني: ويسمى قصر صان جامس أصله مارستان للبرص، ثم صار مقرًّا للملك هنري الثامن، ومنه تصدر الآن الأوامر الملكية، وهو مبنى من الآجُرِّ وما تحته طائل ونحوه الباقي.

(٢٢) ملوك الإنكليز وغيرهم

وفي تاريخ بلاد الهند أنه لما مات هنري الخامس أحبت زوجته الملكة كاثرين رجلًا والسيًّا من العسكر الذين يحرسون الملك اسمه أوين تودور، فتزوجته سرًّا فهو أبو ملوك الإنكليز من بعده، وكانت وفاتها في سنة ١٤٣٧، وأول أولاده قيل له أولًا: أدمند أرل رشموند، ثم عرف باسم هنري السابع، وهذه الملكة الجالسة الآن على كرسي الملك اسمها أليكساندرينا فكطوريا بنت دوك كنت، ولدت في الرابع والعشرين من شهر أيار سنة ١٨١٩، ووَلِيَت الملك في العشرين من حزيران سنة ١٨٣٧، وتوجت في الثامن والعشرين منه سنة ٣٨، وتزوجت ابن عمها البرنس ألبرت من صكس في العاشر من شباط سنة ١٨٤٠.

ويقال: إنه لم يقم قبلها ملكات نلن الملك بالاستحقاق سوى أربع، وكان لأهل هنكاريا كراهة لتمليك النساء زائدة، حتى إنه حين كان يتولى عليهم ملكة كانوا يسمونها ملكًا، وأول ملكة عرف لها الولاية في الدنيا سميراميس ملكة أثور، وذلك في سنة ٢٠١٧ قبل الميلاد، وهي التي حسنت بابل وكبرتها حتى صارت أعظم مدينة في العالم.

وللملكة فكطوريا أخلاق حميدة واحترام ليوم الأحد عظيم، يحكى عنها أن بعض الوزراء ذهب إلى قصرها في ونصر في ليلة السبت متأخرًا وهو عندنا ليلة الأحد، فعرض لها أن معه أوراقًا مهمة تتوقف على مطالعتها، قال: ولكن لا أكلفك الليلة تصفحها، فإنها طويلة وقد فات الوقت، ولكن في صباح غد، فقالت له: كيف في صباح غد وهو يوم الأحد؟ فقال: نعم؛ فإنها من مصالح الحكم، قالت: أجل يجب مداركتها، ولكن سأتصفحها بعد الخروج من الكنيسة، فلما كان الغد ذهبت إلى الكنيسة وذهب الوزير أيضًا، فلما انقضت الصلاة، قالت له: كيف أعجبتك الخطبة، قال: لقد أعجبتني جدًّا، فقالت: لست أكتم عنك الآن أني أوعزت البارحة إلى القسيس في أن يحرر الخطبة على محافظة يوم الأحد، وقد سمعت ما سمعت ولكن تعال غدًا في أي ساعة شئت، قال: في الساعة التاسعة، قالت: من حيث هي أوراق مهمة كما ذكرت تعال في هذه الساعة تجدني مستعدة، وكان كذلك. ا.هـ.

وهذه الساعة باعتبار أيام البلاد هنا باكرة جدًّا، ومن ذلك عدم الإسراف في الملابس والأبهة، فإنها لا تتميز به عن كرائم خوادمها، وإسراف الملابس منع في بلاد الإنكليز في عهد إدورد الرابع سنة ١٤٦٥، ثم في عهد إليصابت في سنة ١٥٧٤، وأشهر من عرف فيه سر ولطر والي، كانت كسوته تساوي ٦٦٠٠ ليرة، وكان له دروع من الفضة، وسيفه مرصع بالألماس والياقوت والدر، وكان دوك باكنهام صفي الملك جامس يلبس حُلَّة مرصعة بالألماس ترصيعًا غير وثيق، بحيث إذا شاء ينفضها فتلتقطها خواتين القصر.

(٢٣) إيراد الممالك وما خصص للملوك

ولا بأس هنا بإيراد جملة من الكلام مفصلة نذكر فيها إيراد الممالك، وما خصص للملوك منها، فنقول: إن إيراد الملكة في السنة ٣٨٠٠٠٠ ليرة، ولكن لا يدخل كيسها من ذلك كله غير ٦٠٠٠٠ ليرة، والباقي يصرف في أبهة الديوان وملاهيه، وإذا لزم لها زيادة مصروف على القدر المذكور أخذ من الخزنة على سبيل القرض إلى إيراد العام القابل وهكذا.

وبلغت وظائف الحشم والخدام وحساب التجار في سنة واحدة ٣٧١٨٠٠ ليرة، وبلغ المكس والضرائب والإتاوة في العام الماضي ٧١٣٤٨٠٦٦، والمصاريف ٨٨٣٠٧٤٧٧، وفي سنة ١٨٤٨ كان إيراد الدولة ٥٢٩٣٣٦٩٢، ومصروفها ٥٢٥٦٣٣٤٠، وخرجت خلاصة من مجلس المشورة في مبلغ ما صرف في عامي الحرب — وذلك من ١٣ آذار سنة ٥٤ إلى غاية آذار سنة ٥٦ — مضمونها أنه في سنة ١٨٥٤ بلغ الإيراد من جميع موارده ٦٤٠٩١٠٠٠، وبلغ المصروف ٧٠٢٣٦٠٠٠، ونقلت من كتاب آخر أنه في سنة ١٨٤٢ بلغ الإيراد من ديوان الكمرك ٢٣٥١٥٣٧٤، ومن التبغ والمسكرات ١٤٦٠٢٨٤٧، ومن المألك أي البوسطة ١٤٩٥٥٤٠، ومن إتاوة الأرض ١٢١٤٤٣٠، ومن أشياء متفرقة ١١٤٢٠٤٠٢، فجملة ذلك نحو ٥٢٢٤٨٦٣٣.

وكانت إتاوة فرنسا على الأرض ٢٣٢٠٠٠٠٠، وسائر الضرائب والمكس ١٧٥٠٠٠٠٠، وإتاوة الروسية ٣٩٩٠٠٠٠، وسائر الضرائب ٣٦٦٧٠٠٠ ليرة وإتاوة أوبيستريا ٨٧٩٥٠٠٠، وسائر الضرائب ٧٧٠٠٠٠٠، ومن ضمن تلك المتفرقات التي وردت إلى خزنة دولة إنكلترة في سنة ١٨٥٦ ما أخذ على التركات وقدره ٢٨٥٠٨٧٣، وعلى الخيل ٣٤٠٨٩٨، وعلى العقود والصكوك ١٢٢٥٢٣٤، وفي سنة ١٨٥٢ أخذ على نحو أحد وسبعين مليون رطل من الشاي ٥٩٠٢٤٣٣، وفي سنة ١٨٥١ أخذ على نحو أربعة وخمسين مليون رطل منه ٥٤٧١٦٤١.

ويصرف في كل سنة على أشخاص مرتزقين لا عمل لهم نحو ٤٠٠٠٠٠٠، وفي بعض الإحصائيات الرسمية أن ضريبة الإيراد وحده تبلغ ١٦٠٠٠٠٠٠، والمراد بالإيراد هنا ما يدخل للناس من كسبهم وسعيهم وأرزاقهم، وكان إيراد ديوان المكس في أيام الملكة إليصابت ٢٠٠٠٠ ليرة، وفي أيام شارلس الثاني ٣٩٠٠٠٠ ليرة، وكان جميع إيراد الملكة إليصابت ٦٠٠٠٠٠ ليرة، وإيراد شارلس الأول ٨٠٠٠٠٠، وكان إيراد دولة الإنكليز في زمان وليم الفاتح ٤٠٠٠٠٠ ليرة، وفي زمان هنري الرابع ٦٤٩٧٦، وفي زمان الملكة ماري ٤٥٠٠٠٠، وفي زمان جامس الأول ٦٠٠٠٠٠، وفي زمان شارلس الأول ٨٩٥٨١٩،

وفي سنة ١٨٥٠ بلغ ٥٢٨١٠٨٠٠، وفي سنة ١٨٥٢: ٦٢٨٧١٣٠٠،[٧] قال فلتير: وكانت أملاك سليمان بن داود تساوي ١١٢٩٥٠٠٠٠٠، فقد رأيت مما تقدم أن إيراد دولة إنكلترة ومصاريفها يأتي على نحو إيراد دولتين أو ثلاث من الدول العظام، فإن إيراد دولة فرنسا كان شأنه أن لا يزيد على ٤٠٠٠٠٠٠٠، وإيراد دولة أوستريا ١٥٥٠٠٠٠٠، ومصروفها يزيد على ١٧٠٠٠٠٠٠، وإيراد الدولة العلية نحو ٨٠٠٠٠٠٠ تقريبًا، إلا أن كثيرًا من إيراد دولة إنكلترة يذهب في فائدة الدين، وجملته ٧٨٠٠٠٠٠٠ ليرة.

(٢٤) مديونية الدول

واعلم هنا أنه إذا قيل إن دولة إنكلترة مديونة فلا تتوهم من ذلك أنها ضعيفة؛ فإن نفع هذا الدين يَئُول إلى رعيتها، حتى إن جُلَّ الدائنين لا يريدون استيفاء دينهم مرة واحدة؛ لأنهم يأخذون فائدته في كل سنة، وهو مأمون لهم ما دامت الدولة قائمة، ومعلوم أن غنى الدولة يكون من غنى رعيتها، وسعادتها من سعادتهم، ولا يخفى أن جميع الدول مديونة، فدين دولة أوستريا يبلغ ١٢٠٠٠٠٠٠٠، وفائدته في كل سنة ٤٥٠٠٠٠٠، ودين الدولة العلية يبلغ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ ليرة، ودين دولة فرنسا لعله زاد الآن عما ذُكر ضعفين.

فأما دولة أميريكا فقد كانت قبل هذه الحرب الأخيرة على غاية من الاقتصاد فكان دينها نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ ليرة ثم لما تهورت في الحرب تمادت في الإسراف المُشِط فصار مصروفها في كل يوم ١٠٠٠٠٠٠ ريال وبلغ دينها ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال.[٨] وهذا الدين على الدول هو من قبيل لجام للرعية، يكبحهم عن المعامع والفتن، فإن الدائنين

[٧] منذ سنة ١٨٨٠ تغيرت أحوال دول أوروبا تغيرًا عظيمًا، فبلغ إيراد دولة فرنسا في سنة ١٨٨٠: ١٢٧١٣٩٢٠٤ ليرات إنكليزية، ومصاريفها بلغت ١٢٢٠٢٤٩٩٣ ليرة، وهذا الإيراد الوافر تسبب من كثرة الضرائب بسبب الديون التي تحتملها دولة فرنسا بعد حربها الأخيرة مع ألمانيا، فإن هذه الحرب كلفتها ٣٧١٥١٥٢٨٠ ليرة، وأما إيراد إنكلترة فإنه بلغ في السنة المذكورة ٧٠٣٥٧٠٧٩ ليرة، والمصاريف بلغت ٧٣١٩٧٨٤٤ ليرة، وأما إيراد أوستريا فإنه بلغ ٣٨٢٧٦٨٩٤ ليرة، والمصاريف بلغت ٤١١٨٢٣٩١ ليرة، وإيراد الدولة العلية بلغ ١٦٠٠٠٠٠٠ وكذلك المصاريف.

[٨] هذا بيان ديون الدول إلى غاية سنة ١٨٨٠ دين فرنسا ١٩٨٦٢٠٣٥٩٨٣ فرنكًا فائدتها السنوية تبلغ ٧٤٨٤٠٤٩٥٢ فرنكًا — كل ٢٥ فرنكًا عبارة عن ليرة إنكليزية — ودين دولة إنكلترة ٧٧٤٠٤٤٢٣٥ ليرة إنكليزية فائدتها السنوية ٢٧٤٨٨١٨٥ ليرة، ودين أوستريا ٢٩٨٧٣١٠٦١ ليرة إنكليزية فائدتها

الذين هم بالضرورة وجوه أهل البلاد وأغنياؤها لا يرضون بانقلاب الدول، مخافة أن يَئُول الحكم إلى الرعاع فيُحرموا منه.

(٢٥) المُلْك عند الإنكليز

ونقلت في بعض الكتب أن ملك الإنكليز وراثة، ولمجلس المشورة أن ينقله من عيلة إلى أخرى، وأنه بعد أن خلع جامس الثاني نفسه عن الملك وذلك في سنة ١٦٨٨ صار الملك محصورًا في الملوك الذين على دين البروتستانت، ولما لم يكن لشارلس الأول خَلَف نُقل المُلْك إلى نَسْل جامس الأول وهم من البروتستانت أيضًا، وهذه العيلة المستولية الآن هي من نسل صوفيا بنت ملك هنوفر.

والواجب على الملك يوم تتويجه أن يحلف على محافظة ثلاثة أمور؛ الأول: سياسته بحسب القوانين والأحكام، والثاني: إجراء الحكم بالرحمة، والثالث: إقراره مذهب الدولة وهو دين البروتستانت، وللملك خصائص ومزايا ينفرد بها عن غيره بحسب ما ارتقى إليه من الشأن والشرف، منها أن له قدرة على أن يأذن بالحرب والصلح، وأن يبعث من قبله سفراء إلى الدول، ويرضى بسفرائها، وأن يعفو عن ذوي الجنايات، وأن يخص من شاء بالشرف والألقاب السنية، وأن ينصب الحكام ويولي الوظائف العسكرية برًّا وبحرًا لمن يراه أهلًا، وأن يرفض ما يقدم له أهل المجلس من الدعاوى والقضايا ليوقع عليها، وهو رأس الكنيسة التي عليها رجال الدولة، وهو الذي يولي الدرجات والمراتب للأساقفة، إلا أنه لا يمكنه تنفيذ هذه الأمور إلا على يد الوزراء، فهم المطالبون بكل ما يصدر عنه من الأوامر، ولهذا يقال: إن الملك لا يخطئ، وله أيضًا خصائص أخرى منها أنه لا يغرم شيئًا فُقِدَ لأحد الأمة، وأن دينه يقدم على دين غيره، ولا تقام عليه دعوى، ولكن لكل من الرعية حق في أن يعرض له على يد وزيره ما يدعي به من الأملاك.

ولعيلة الملك أيضًا مزايا امتازت بها، فيحق لزوجته أن يقال لها: ملكة، وأن يُحْتَرَمَ مقامها ولو بعد وفاة زوجها، ولها استطاعة على أن تشتري وتبيع ما تشاء باسمها، وأن تحيل ما يرد عليها من الدعاوى إلى أي ديوان دولة شاءت، ولابن الملك البِكْر حق من يوم

السنوية نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ ليرة، ودين إيطاليا ٣٩٠٣٠٤٥٣ ليرة إنكليزية ودين الروسية ٣٥٠٠٠٠٠٠ ليرة إنكليزية، ودين الدولة العلية نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ ليرة وقس على ذلك بقية الدول.

ولادته أن يُدْعى أمير والس، ومن منصبه أن يدعى دوك كورن وال وارل شستر، وجميع أولاد الملك ينعتون بالنعت الملكي، فيقال مثلًا: جنابه الملكي أو حضرته الملكية.

(٢٦) حدائق لندرة والهيدبارك

وفي لندرة ست غياض أعظمها الغيضة التي يقال لها: هيدبارك — أي غيضة لهو — وهي فسيحة عظيمة مساحتها من الأرض، عبارة عن ٣٨٧ فدانًا بأسفلها قنطرة، بلغ مصروفها ١٧٠٦٩ ليرة، وبأعلاها قنطرة أخرى أنفق فيها ٨٠٠٠، وكانت أولًا في غيضة صان جامس، فنقلت وبلغت مصاريف نقلها ١١٠٠٠، وفي هذه الغيضة ترى كبراءها وعظماءها في أحسن المركوب والملبوس والحشم، وخصوصًا من شهر نيسان إلى تموز، وأكثر النبلاء يسكنون هناك، قال فيها بعض الفرنسيس: صور لنفسك سهلًا فسيحًا ذا أشجار وبِرَكٍ وحقول ومَرْج تمرح فيه الثيران والشاء سربًا سربًا كأنك في إقليم دوفنشير الأنيق، فتلك صفة هيدبارك، ثم صان جامس بارك وهو المتصل بقصر الملكة، ومع أن المظنون من وضعه وصفته أن يكون منتاب ذوي الفضل والشان، فهو مجمع الخدمة والحرافيش والأولاد، ثم كرين بارك، وريجنت بارك، وباترسي بارك، وفكطوريا بارك، وهو أخسها، كما أن فكطوريا ثياطر هو أخس الملاهي.

وما عدا هذه الغياض فثم حديقتان: إحداهما لتنبيت النباتات كبُستان النباتات في باريس، غير أن دخولها مقصور على أصحابها، أو على من يؤذن له منهم، والثانية للحيوانات الحية والميتة، والأداء على دخولها شلين، وفي ضواحي لندرة أيضًا متنزهات ينتابها الناس في الصيف، وذلك كريتشموند وكير وهمستد وكرافزان وهمبطون كورت، وأحسنها كريستل بالس في سدنام، وهو القصر الذي نقل من غيضة هيدبارك، وهو يعز عن النظير.

(٢٧) أحوال لندرة الخصوصية

وقد حان الآن أن أتكلم على أحوال لندرة الخصوصية ممهدًا لذلك بمقالة قالها بعض الفرنسيس ثم أشرح جميع ما يتعلق بها، قال: أما لندرة فإن كل ما فيها إنما جعل للتمتع به داخل الديار، وأما باريس فإن طيب عيشها إنما هو في الأسواق والشوارع، وإن الأولى تحير الناظر باحْتِتَان حالاتها، وبكثرة ما فيها من الدكاكين، وبترفة الأعيان

والعظماء وإسرافهم، وإن الثانية تسحر بتفنن شئونها واختلاف المشاهد فيها، وبما يتنعم به أهلها من العيش الذي يحكي عيش النَّوَر — الجنكنه — المتنقلين من حال إلى حال، وفي الجملة فإن لندرة تحكي خلية العسل، وباريس تحكي منهلًا عِذابًا لكل وارد، وما أحسب جمود الإنكليز الذي وصفهم به أهل باريس إلا من هذه الحالة التي لا تفاوت فيها. ا.هـ.

وقال آخر: ليس في لندرة مطاعم أنيقة ومحال قهوة فاخرة كما في باريس، فيلزم الغريب أن يأكل في المنزل الذي يسكنه أو في بيوت الأكل، وهي عبارة عن مواضع مظلمة لا تأنق في فرشها ولا في مطابخها، وإذا دخلت أحدها مما يتردد إليه وجوه الناس أحضر لك الخادم في وقت الغداء خمس صحاف مغطاة بأغطية مُفَضَّضة، فتحسب أن فيها شيئًا يفتح منك اللُّهَى، فإذا كشفت عن إحداها ظهر لك الشواء، ويليه البطاطة، ثم الخلر على حدتهما، ثم خسة، وفي الخامسة زبدة مذابة مع آنية الأباريز، وإذا شئت التفنن أحضروا لك سمكًا مسلوقًا، أما الشراب فالجعة؛ لأنك لو أردت أن تشرب الخمر لزم أن يكون دخلك في العام دخل أمير في غيرها. ا.هـ.

قلت: قد أشرت في وصف باريس إلى بعض ما بينها وبين لندرة من الفرق في السكنى والمعيشة، والآن أستوفي ذلك بناء على ما قال الفرنساوي من أن طيب العيش في لندرة إنما هو داخل الأبواب، وفي باريس بخلاف ذلك، فأقول: إن أهل الاستطاعة في لندرة كالتجار وغيرهم، يستأجرون بيوتًا ويستقلون بها، وذلك لصغرها خلافًا لديار باريس، فلهذا كان صاحب العيلة يؤثر التنعم في بيته مع أهله على الخروج، أما الغرباء الذين ينزلون في الديار فيكون لأحدهم حجرة أو حجرتان، فيمكنهم أن ينالوا طعامهم صبحًا ومساء في منزلهم، وذلك بأن يشتروا هم ما يريدون أكله، ويأمروا الخادمة بطبخه ويعطوها شيئًا زهيدًا في مقابلة خدمتها، وذلك أولى من أنهم يأكلون في المطاعم، بل هو أنظف وأرخص، وفي هذه الخطة تفضل لندرة باريس، فإن الغرباء في هذه لا ينزلون إلا في منازل كبيرة مشاعة، فيضطرون وقت الأكل إلى الخروج إلى أحد المطاعم، فإن الأكل في المنازل غالٍ جدًّا.

وهناك مزية أخرى، وهي أن النزيل في لندرة يستأجر الحجرة في الأسبوع، وفي باريس يستأجرها مُشَاهرة، وإن كان مُيَاومة لزم أن يدفع الضعف ضعفين، وأيضًا فإن صاحب الدار في لندرة يعطي النزيل مفتاح داره ليمكنه أن يدخل ويخرج أيان شاء، وفي باريس لا بد من قرع الباب بعد نصف الليل ليفتح له البواب، غير أن النزيل في ديار

لندرة لا يمكنه أن يخلو بالنساء في حجرته، وفي باريس لا حرج في ذلك، فإن طلوع المرأة إلى حجرة النزيل فيها أهون من طلوع رغيف الخبز، كما أن طلوع المرأة في لندرة إليه أصعب من طلوع الفرن بناره، وهذا شذوذ عن الأصل المتقدم إن قلنا بأنه من طيب العيش، إلا أن أكثر المنازل هنا يقوم بخدمتها نساء حسان يغنين النزيل عن الخروج، ولأصحاب هذه المنازل غالبًا عادة ذميمة وهي أنهم يستولون على مفاتيح عديدة متنوعة يفتحون بها صناديق السكان، حتى إذا علموا أن ليس في صناديقهم ما يقوم بأجرة المسكن أنذروهم الخروج.

وهناك طريقة أخرى للسكنى في كلتا المدينتين، وهي أن من شاء أن يمكث طويلًا يستأجر حجرة أو حجرتين في دار من غير أثاث ويؤثثهما كما أحب، ولكن يلزمه في لندرة أن يفتح الباب لقاصده، وينور له في الدرج، وفي باريس لا يلزمه ذلك، هذا؛ ولما كان أرباب الحكومة في لندرة لا يعنون بما فيه تحسين المدن وتنظيم ديارها، كانت ديار لندرة بالنسبة إلى ديار باريس حقيرة جدًّا؛ إذ كل إنسان يبني داره كما تقتضيه حاله، فمنها ما كان مشتملًا على طبقتين فقط، ومنها على ثلاث طبقات من دون مراعاة رونقها وهندمتها ومساواتها، أو يقال: إن الديار هنا لما كانت عرضة للحريق كان همُّ صاحب الملك مجرد الانتفاع بالبناء دون الزخرفة، وناهيك أن في لندرة ٢٢٦٠ دارًا مشرفة على السقوط، وما عدا ذلك فإن من يكون قاعدًا في حجرة يرى مبلطها يهتز به كلما مرت عجلة من تحتها، فمحاسن لندرة كلها مقصورة على الحوانيت، فإذا رفعت نظرك ما فوقها قابلك سواد الحيطان وحقارة الطوب وتفاوت الطيقان وخساسة المداخن البارزة من السطوح من الخزف وضعة البناء وما أشبه ذلك.

وأعظم ما يشعر الناظر بهذا ما إذا قدم من باريس، فإنه يرى الفرق عظيمًا جدًّا وخصوصًا إذا اتفق قدومه في يوم الأحد حين تكون الحوانيت مغلقة، فيحسب نفسه أنه في قرية صغيرة، إلا أن في داخل الديار هنا مرافق لا توجد في باريس، منها حسن المواقد، وقد سبقت الإشارة إليه، وكونها مشتملة على صهاريج للماء على طيبه، وفي باريس يلزم الساكن أن يشتري الماء من السقائين على رداءته، ومنها قلة درجها وذلك نتيجة كونها غير شاهقة، ولعل صاحب العيلة إذا استأجر دارًا من بابها يَهْنَئُه العيش هنا أكثر مما يهنئه في باريس على كثرة ما يوجد في هذه من البدائع، فإن الغيور على عرضه لا يهون عليه إذا كان نازلًا في الدرج ليخرج إلى محترفه أن يرى آخر صاعدًا محاورًا له، ولهذا تقول الإنكليز: إن هناءهم جوي، وإن ديارهم أدعى إلى السكون والهناء من ديار غيرهم،

وإذا سكن هنا في الدار ٢ أو ٣ واتفق تلاقيهما في الدرج فما أحد يكلم صاحبه، وإذا زاره أخوه أو أخته وأطالا المكث عنده إلى نصف الليل فما يدعوهما إلى المبيت عنده.

أما قوله باحْتِتان حالاتها وبكثرة دكاكينها، وبترفه الأعيان والعظماء فيها، فاحتتان حالاتها هو كون جميع الأزمنة والأمكنة فيها متساوية، أما في الأزمنة فليس عند الإنكليز في أيام السنة كلها يوم للحظ واللهو، فلا تعرف فيها رأس السنة من ذَنَبِها، وليس عندهم أيام للبطالة ما عدا أيام الآحاد، سوى عيد الميلاد، ويوم الجمعة الكبيرة، ولكن يوم البطالة هنا هو يوم الانقباض والاكتئاب؛ إذ لا ترى شيئًا يقر العين، فقد أسلفنا أن جميع الحوانيت تكون يومئذ مغلقة.

ومن العجب هنا أنه يؤذن لباعة التبغ في فتح دكاكينهم يوم الأحد، ولا يؤذن لباعة الخبز واللحم، فكأن التبغ ألزم للمعيشة من غيره، ثم لا مثابة للناس ينبسطون بها سوى التردد على تلك الغياض وهي خالية من المطاعم والمشارب وآلات الطرب على قلة ما فيها من المقاعد، وهي في الغالب بعيدة عن سكنى العامة والوسط، وإنما هي مجعولة لحظ الكبراء القاطنين في الديار المجاورة لها، فإن كل شيء هنا مَعنيٌّ به اسم العلية، وقد مرت الإشارة إلى هذا، نعم إن في صباح الأحد في لندرة لذة لا تقدر ولا تنظر بالنسبة إلى نحس الأيام الأُخر، وهي قلة قرقعة العجلات وسائر المراكب، فقد كنت أحسب نفسي في صباح كل أحد أني ساكن في الريف، فأما في سائر الأيام فإن توالي هذه القرقعة داهية من أعظم الدواهي، فمن لم يتعود عليها لن يهنئه نوم ولا قعود، ولن يمكنه أن يجمع أفكاره في رأسه، وإذا مشى اثنان في الطريق لزم المتكلم أن يصرخ بأعلى صوته ليسمعه الآخر، فأعوذ بالله من ذلك.

فأما كثرة الحوانيت فقد تقدم ذكرها في أول الكلام على لندرة، وبقي هنا أن أقول: إنك في جميع حوانيت لندرة تجد ما يلزم للملبوس والمفروش ناجزًا عتيدًا، فإذا دخلت مثلًا حانوت إسكاف وجدت عنده عشرة آلاف زوج نعال معرضة للبيع، فاخترت منها ما شئت، وقس على ذلك سائر أصناف الملبوس، ومن شاء أن يفرش صرحًا في ثلاث ساعات، وجد كل ما يخطر بباله من الأدوات والأواني، ونحو ذلك حوانيت باريس، فأين هذا من البلاد التي لا تجد فيها حاجتك إلا بعد أن توصي عليها، فإذا حضرت وجدتها على غير المراد، فَنَغَّصَك ذلك وأفضى بك إلى القيل والقال؟!

وأعظم طريق في هذه المدينة هي ريجنت سركوس، ويذكر غالبًا باسم ريجنت ستريت، وهو على خط منحنٍ نحو نصف دائرة طوله ١٧٣٠ ذراعًا، وهو يشتمل على

دكاكين فاخرة بهية، أكثرها مشرف بشعار الملك، وذلك أن الملكة إذا اشترت شيئًا من صاحب الدكان، ساغ له أن يضع عليه صورة الأسد ووحيد القرن وأدى إلى الميري شيئًا عليه في كل سنة.

وثَمَّ ترى الثياب الفاخرة من كل صنف ولون ومن كل صقع ومكان، وقد يكون طول لوح الزجاج في عرض الحانوت نحو ست أذرع فأكثر، وعرضه نحو ذراعين، فيكون العرض كله من أعلاه إلى أسفله لوحين أو ثلاثة، وثمن اللوح نحو عشر ليرات، وديار هذه الطريق مبيضة الخارج، أو يقال نصفها أبيض ونصفها أسود.

وثم ترى أجمل نساء لندرة يخطرن بالديباج والثياب الفاخرة ويجررن أذيالهن على الأرض جرًّا، ولا سيما ليلة الأحد وهي ليلة السبت عندهم، فإذا رأيت واحدة منهن جزمت بأنها أجمل من رأيت، ثم ترى أخرى فتجزم بأنها أجمل من تلك، وهلم جرًّا، وكذلك هن في كافن ستريت، وهاي ماركت، والواقع أن هذه الليلة في جميع أسواق لندرة هي ليلة البهجة والقصوف والفرح، وهي أبهج الليالي، أما عند العلية فلعلمهم أن اليوم القابل هو يوم الانقباض، فينصبون فيها إلى اللهو والخلاعة في جميع الأماكن المقصودة، وأما عند السفلة والفعلة فلكونهم يأخذون أجرتهم في مساء كل سبت، فمتى انصرفوا من المشاغل أقبلوا على الحانات والحوانيت لشراء مؤنة يوم الأحد، فترى جميع الدكاكين غاصة بالرجال والنساء، وكثيرًا ما يتفق أن الرجل حين يقبض أجرته يذهب إلى الحانة وينفقها فيها، فيرجع إلى أهله صفر اليدين، فيقوم النقار بينه وبين زوجته، أو أن يعطيها لزوجته فتذهب هي وتنفقها في المسكرات، ففي هذه الليلة ترى النساء يتضاربن بعضهن مع بعض أو مع بعولتهن أو مع غيرهم، وكذا شأن الرجال.

وكثيرًا ما رأيت النساء يغلبن الرجال، ويجررنهم بنواصيهم، وكثيرًا ما ترى امرأة مشرومة الأنف أو مملوقة العين، أو مخلوعة اليد، أو صرعى في الطريق من الخمر والضرب، كل ذلك من بركات هذه الليلة، ولولا أن أصحاب الحانات مشروع عليهم أن يقفلوا حوانيتهم في نصف الليل ومن خالف ذلك يغرم خمس ليرات، لَبَقوا وبَقِينَ على الجَنِّ والرَّوْم والجعة إلى الصباح.

والواقع أن العَمَلَة من الإنكليز وذوي الحرف أقرب إلى مزية الكرم منهم إلى البخل، فإنهم في تلك الليلة ينفقون إنفاق من لا يخاف الفقر، ويشترون قطع لحم كبيرة، ويتخذون حلواء من الفاكهة وغيرها، وفي يوم الأحد يشربون القهوة بفناجين مخصوصة وبالسكر الأبيض المكرر وهلم جرًّا، وأما عند أصحاب الدكاكين فلعلمهم أن يوم الأحد

ليس فيه بيع ولا شراء، فيطيلون المكث في دكاكينهم رجاء أن يكسبوا شيئًا زائدًا يكون عوضًا عن بطالة الأحد، فلهذا ترى للطرق والأسواق في تلك الليلة بهجة لا تراها في سائر الليالي، وكذلك ليلة عيد الميلاد، وبعض ليالٍ قبلها؛ لأن الدكاكين تبقى فيها مفتوحة وبعضها يكون مُزَيَّنًا، وفيها تسمع آلات الطرب من جهات شتى، وترى الناس في إقبال وإدبار ومرح وارتياح.

ودون الطريق الذي مر ذكره في الغنى والرونق طريق أكسفورد، إلا أنه أطول وأقدم، وهو يفضي إلى هيد بارك، وطوله ٢٣٠٤ أذرع، وقد ترى في هذا الطريق وفي غيره عشرين دكانًا للبرانيط، ومثلها للنعال، ومثلها للكتب، ونحوها للخَزِّ، ولا ترى من مطعم واحد أو نصف محل للقهوة.

ثم الطريق الذي يقال له: إستراند طوله ١٣٦٩ ذراعًا، وهو أكثر الطرق ملاهي، فيه فرع من المألك الكبير، عنده جرس ذو مادة كهربائية يدل على أوقات البلدة، وعليه تضبط مواقف سكك الحديد الساعات والأوقات، وفي الساعة الحادية بعد الظهر يهبط عن مركزه بنفسه.

ثم بيكاديلي طوله ١٦٩٤ ذراعًا، ثم نيورود أي الطريق الجديد طوله ٥١١٥، ولكنه ليس من الطرق المنتابة، ونحوه ستي رود، وطوله ١٦٩٠، ثم نيو بون ستريت، فيه دكان جوهري رأس ماله خمسمائة ألف ليرة، وتحت يده من الصاغة والصنائعيين ما يزيد على خمسمائة رجل، وهو أغنى جميع صاغة المملكة، وكثيرًا ما تستخدمه ملوك الإفرنج من جميع الأقطار في صوغ آنية لقصورهم، ثم هوبرن وهو أوسع الطرق، لكنه غير طويل فيه دكانان للبز والحرير لا ينقص عدد المستخدمين في أحدهما عن مائة نفس، ومن هوبرن فصاعدًا نحو الشمال بني في سنة ١٦٠٧.

وفي زمن الملكة إليصابت منع من تكثير البيوت وأمر بأن كل عيلة تسكن في بيت واحد، ثم هلوي ول ستريت، مشهورة بالدكاكين التي يباع فيها كتب الفسق وصور النساء وما أشبه هذا، ثم طرق أخرى حسنة أيضًا ولكنها ليست نظير هذه، وعدد الطرق المبلطة في لندرة يبلغ ٥٠٠٠، وتمتد أكثر من ٢٠٠٠ ميل، ويوجد فيها نحو ٥٠ طريقًا باسم كين ستريت، أي طريق الملك، ومثلها كوين ستريت، أي طريق الملكة، ونحو ٦٠ طريقًا باسم وليام ستريت، ومثلها جون ستريت، وأكثر من ٤٠ طريقًا باسم نيوستريت، وقد تذاكر الناس هذه السنة في إنشاء سكك الحديد في قلب لندرة بدل الحوافل فإن جُعْل هذه يبلغ في السنة ٣٠٠٠٠٠ ليرة، والسير في الأول لا ينفق فيه أكثر من ٣٠٠٠٠ ليرة فقط.

(٢٨) أضواء لندرة

وجميع أسواق لندرة وشوارعها وأزقتها تنور بجمال النساء عامة الليل، وناهيك أنه في محلة واحدة وهي محلة ماري لابن من جملة نحو ٦٠ محلة يوجد ٢٠٠٠٠ مومسة، منهن ٢٢٠٠ لهن بيوت خاصة بهن، وحيثما تكثر أنوار الغاز يكثر ترددهن، ولكثرة الأنوار في الدكاكين والطرق تكون المدينة في الليل شتاء أدفأ منها في النهار، وكذلك مدينة باريس.

والغاز في طرق لندرة يوضع في فوانيس على عُمُد قائمة من حديد، فهي من هذا القبيل أحسن من باريس؛ لأن كثيرًا من فوانيس هذه تجعل في الحائط، إلا أنه ليس في طرق لندرة شجر ولا محال للقهوة على نسق ما في باريس؛ لأن الشرطة لا يأذنون لأحد في أن يضع كرسيًّا في الطريق ويقعد عليه.

(٢٨-١) اختراع الغاز واستخدامه في الإضاءة

ثم إن اختراع الغاز هو من أعظم البركات التي يتنعم بها الإنسان في الليل، ومن أقوى الوسائل المعينة على الأمن والسلامة، ولا سيما في المدن الكبار، فإن لندرة منذ مائة سنة كانت ممنية باللصوص والنهاب في مسالكها بعد العتمة، حتى إن السالك فيها كان يعرض نفسه إما للقتل وإما للسلب، وكانت الأولاد تحمل بأيديهم مشاعيل ويجرون بها بين يدي المارين، ويأخذون منهم شيئًا.

وفي أيام الملكة ماري كان العسس يستصحبون أجراسًا يضربون بها للتنبيه والتحذير؛ وذلك لقلة الأنوار، وفي سنة ١٧٦٢ وضعت الفوانيس وأوقدت بالزيت فقلَّت اللصوص، وأول من جرب استخراج الغاز قسيس اسمه كلاطون، وذلك في سنة ١٧٣٩، إلا أن تجربته هذه لم يُعمل بها، وفي سنة ١٧٩٢ تصدى لهذه العملية رجل من كرنوال اسمه مردوك، وفكر في أنه إذا صان الغاز المستخرج من الفحم أو الحطب في وعاء، ثم أجراه في قصب من الحديد يكون مُغْنِيًا عن المصابيح والشمع، وفي سنة ١٧٩٨ أتم تجربته هذه، وأجراها في بعض المعامل في برمنهام، إلا أنه كان يعرض لها بعض الخلل أحيانًا، وفي سنة ١٨٠٢ انتبه الناس إلى إحكام ذلك وتعميم منفعته، وبعد هذا التاريخ بسنة واحدة نُوِّر ملهى ليسيوم في لندرة بنور الغاز.

وفي سنة ١٨٠٤ وما بعدها وسع مردوك دائرة مشروعه هذا في منشستر، وزعم الفرنسيس أنهم مخترعوه، إلا أن هذا النور لم يعرف عندهم إلا في سنة ١٨٠٢، وكان

ذلك في باريس وقد عرفت أن مردوك صنعه قبل هذا الوقت بعدة سنين، ومن سنة ١٨٠٢ إلى سنة ١٨٢٢ اشتهر استعمال الغاز، وأعجب جميع الناس، حتى إن رأس المال الذي جُمع لتنوير لندرة فقط بلغ أزيد من ١٠٠٠٠٠٠ ليرة، وشغلت قصبات الغاز في إيصال النور إلى محال مختلفة مسافة ١٥٠ ميلًا.

وبعد ذلك بسنين قليلة اشتهر في سائر مدن المملكة لتنوير الطرق والحوانيت والديار، وهو على بقائه وعدم نقصه خلافًا لنور الشمع والزيت أرخص سعرًا، وأخف كلفة، فإن رطل الشمع الدون مثلًا يساوي ثلاثة أرباع الشلين، ومدة اتقاده لا تزيد على أربعين ساعة، وإن غالونًا من الزيت يساوي شلينين، وينير ما تنير ستمائة شمعة في ساعة واحدة، والشمع العال أغلى من الشحمي بثلاثة أضعاف، وألف مكعب من الغاز يساوي تسعة شلينات، فتحصل من ذلك أن ما قيمته مائة من الشحم العال يكون خمسة وعشرين من الشحمي، وما قيمته خمسة من الزيت يكون من الغاز ثلاثة، وبالجملة فإنه من ألزم الأشياء ولا يعلو عليه نور إلا نور الشمس،[٩] وإذا أوقدت نورًا منه فلا ينطفئ إلا إذا أطفأته، وذلك بأن تدير لولبه إلى جهة الشمال، وإذا أردت إيقاده أدرته إلى اليمين، وأدنيت النار من فوهته، فيبقى كذلك إلى ما شاء الله.

وكيفية تنوير الطرق في لندرة هو أن يرتقي الرجل في سلم إلى الفانوس، وفي باريس يجعل الرجل النور في عود طويل، ثم يدنيه من فوهة الفانوس من دون أن يرتقي إليه، ولا يخفى أن ذلك أسهل وأسرع.

(٢٩) منازل الأعيان والأوباش وجحيم لندرة

وأما قوله بترفه الأعيان والعظماء وإسرافهم، فقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام على أخلاقهم وأحوالهم، وإنما نقول هنا: إن هؤلاء الأماجد يسكنون في حارات معلومة من المدينة فرارًا من الزحام ومن اختلاطهم بالأوباش، فترى بقعة فسيحة عظيمة في لندرة ليس فيها سوى ديار متصافة متصاقبة، وهي بالنظر إلى وسط المدينة موحشة؛ إذ ليس فيها حوانيت ولا مطاعم ولا ملاهٍ، لكنها نظيفة سالمة عن تكاثف الأوحال وضغط السائرين وقرقعة العجلات، ومع ما هم فيه من البحبحة فيها والنعيم والانفراد، فلا

[٩] في سنة ١٨٨٠ نُوِّر كثير من طرق باريس ولندرة وغيرهما من طرق مدن أوروبا بالنور الكهربائي.

بد وأن يكون لكل منهم دار في الخلاء يسكنها في الصيف، ففي هذا الصقع الجليل تسطع أنوار السعادة من أبراجهم العلوية، وهناك ترى الخدم والحشم والخيل المطهمة والعواجل النفيسة، وهناك تميد الموائد بما عليها من الأطعمة الفاخرة المجلوبة من جميع البلدان، وهناك تتيه الكلاب على كثير من بني آدم ممن يتضورون جوعًا ويهلكون من الوسخ والبرد والعري ومن أكل اللحوم المنتنة في أزقة لندرة القذرة، فليس بين الجنة والجحيم في هذه المدينة بعد ما بين الجنة والجحيم في الآخرة.

وهاك مثالًا على سقر لندرة، قال في بعض الصحف: إن مائة وثمانين نفسًا ما بين رجل وامرأة وولد يسكنون في أربع وثلاثين حجرة، وفي أخبار الكون كان يمكث في حجرة واحدة من أربعة عشر نفسًا إلى عشرين ليلًا ونهارًا، وكان يسكن في حجرة أخرى رجلان مع زوجيهما وأرملتان وثلاث بنات، وعزب وثلاثة أولاد، فجملتهم أربعة عشر نفسًا قد جعلوا أنفسهم عيلة عيلة كل عيلة تبوأت زاوية من الحجرة، وفي موضع آخر يسمى ساحة فلتشر حجرتان لا تزيدان على سبع أقدام عرضًا في عشر طولًا، وقد اشتملتا على ثمانية وعشرين نفسًا، ما أحد منهم يعرف القراءة، وليس تحتهم وطاء سوى التبن، إلا واحدًا منهم، ولا غطاء لهم في الليل سوى ثيابهم التي يلبسونها في النهار، ومع ذلك فإن هذين المحلين إذا قيسا بغيرهما من البيوت المجاورة لهما كان لهما حرمة واعتبار، فإنه وجد فيها ٢٠٨ أولاد قد أدركوا، ولم يدخل منهم المكتب سوى ثمانية وثلاثين فقط، وهم غارقون في الفساد والخساسة والقذر والوباء، وفي هي هوبرن ثلاثون بيتًا، يسكن فيها مائة وثلاث وثلاثون عيلة، كل ثلاث عيال أو أربع في حجرة واحدة، وقد تناهوا في السكر والسفاهة، وفي كل نوع من الرذائل. ا.هـ.

وكثيرًا ما ترى النساء يمشين في الشتاء حافيات ويلتقطن الجذور وفتات الخبز، وغير مرة رأيت رجلًا على ذراعه طفل وامرأته بجانبه صفراء منجردة على عتبة إحدى الديار في أشد ليالي الشتاء بردًا، وفي كل سنة يبقى ألوف من ذوي الحرف معطلين، ففي سنة ١٨٤٩ كان ١٤٠٠ خياط و٩٠٠ إسكافٍ بلا عمل، وكان ١٧٠٠ إسكافٍ يعملون بنصف الأجرة، وكذا الصاغة وصناع الجلود وقس على ذلك.

وفي لندرة ٢٢٦٠ دارًا مشرفة على السقوط، والحاصل أنه لا فقير أشقى من فقير لندرة، كما أنه لا غني أترف من غنيها، وكما أن طرف لندرة من جهة الشمال موسوم بحضرة الكبراء، كذلك كان طرفها الجنوبي مختصًّا بأهل الضعة والخمول، فلا ترى هناك شيئًا يعجبك غير حسن النساء، فإن الله تعالى جعل لهن هذا النصيب عامًّا.

(٣٠) جهل الإنكليز بصنعة الطبخ

وأما قول الآخر: إنه ليس في لندرة مطاعم أنيقة ... إلخ، فهو في محله، إلا أنه لم يُذكر سبب ذلك، وهو جهل الإنكليز بصنعة الطبخ، أما في البيوت فيمكن للواحد أن يعتذر عنهم بقوله: إنهم لا يتأنقون في الطبخ حرصًا على الوقت أن يضيع في الحشو والتكبيب وما أشبه ذلك، إلا أنه لا يمكن الاعتذار عن أصحاب المطاعم العمومية الذين لا شغل لهم إلا إطعام الناس، وما عدا ذلك فإن المتقدم لم يذكر أنه لا شيء في لندرة مما يُؤكل أو يُشرب إلا وهو مغشوش مخلوط مشوب.

أَوَليس من العار على أهل هذه المدينة مع كونهم أغنى الناس وأقدرهم وأتجرهم أن يرخصوا لواحد من الأجانب في أن يفتح دكانًا في أعظم الطرق ويبيع فيه نحو الجبن ولحم الخنزير والخردل واللبن، ولآخر في أن يبيع المثلوج والحلواء، ولآخر في أن يبيع الخل والزيت، ولآخر في أن يفتح محل قهوة تغني فيه نساء بلده ونحو ذلك مما يمكن لكل أحد أن يصنعه؟ فهل لهذا من تأويل آخر سوى أنكم يا أهل لندرة خرق حمق أو غشاشون غبانون؟

وفي الواقع فإن كل شيء يصنعه أهل فرنسا هو مفخرة للإنكليز، فإن الحرير الفرنساوي للستات من الإنكليز نصف جمالهن، والنصف الآخر من الشريط والجوارب والكفوف والقيطان ونحوه، ونصف أدبهن هو التكلم باللغة الفرنساوية، والنصف الثاني العزف على البيانو، وطباخو أمراء الإنكليز إنما هم فرنسيس، وكذا شرابهم وجل تحفهم، وأهل الحوانيت يكتبون على كل شيء أنه فرنساوي كما مَرَّ ذكر ذلك، فما معنى اتساع لندرة إذن وكثرة دكاكينها وسعة طرقاتها وتعدد مراكبها وزحامها وضجيجها وجلبتها، وليس فيها من يحسن عمل الخردل وليس في مطاعمها مرقة في الشتاء، ولا سلاطة في الصيف، ولا أرز ولا عدس ولا حمص ولا فول ولا مقر، وإنما هو الشواء والبطاطس أو شيء من البقل مسلوق سلقًا؟

ومن الغريب أنهم إذا طبخوا البطاطس مع اللحم سموها إدامًا إرلانديًّا وملئوه من الفلفل والأبازير حتى يحرق اللسان، وإذا جلس أحد فيها للغداء رأى بينه وبين جيرانه حاجزًا من خشب حتى لا يقع التعارف بينهم، وهو أشبه بحاجز الحيوانات التي يجمعونها في بستان النباتات، وترى كلًّا منهم قد جلس للطعام وبيده صحيفة أخبار يطالعها، وإذا أراد أخذ شيء من بين يديك تلقفه من غير أن يستأذنك فيه خلافًا لما تفعل

الفرنسيس وغيرهم، على أن كثيرًا من هذه المطاعم يأكل الناس فيها وهم وقوف، فكأنما هم جماعة يهود يأكلون خروف الفصح.

فأما محال القهوة فأكثرها مجتمع الأرذال، فترى فيها واحدًا راقدًا وآخر سكران، وآخر وسخًا، وإذا طلبت فنجان قهوة خلطوا القهوة بالحليب والسكر في محل لا تراه، وقدموه لك هكذا، فلا تدري ما وضع فيه.

فيا ألفي ألف ونصف ألف ألف من الناس متى تعيشون في هذه الدنيا الصغيرة عيشة مائتين ونصف مائة من سكان القرى في فرنسا وإيطاليا والشام وبر مصر، بأن تأكلوا خبزكم غير مخلوط بالبطاطس والشب وجبس باريس ولحمكم طريئًا سليمًا لا من حيوان أصابه داء فَذُبِح، ولا مما يَرِدُ إليكم من أميركا موضوعًا في الثلج، ولا مما خم وأنتن فتحشون به المصارين والحوايا؟ فلعمر الله إن كان هذا الغش نتيجة التمدن والترقي في العلوم فَلَلْجَهْلُ خير، فإن أهل بلادنا والحمد لله على جهلهم ما يعرفون شيئًا من هذه الفنون الكيماوية والأخلاط الغير المتناهية التي توجب على الشاري أن يستصحب معه مرآة من المرايا المكبرة ليرى بها تلك الأجزاء والمركبات فيما يؤكل ويشرب في وطنكم هذا السعيد.

أَوَما كفي أن هواكم مخلوط بالدخان وشتاءكم يدوم ثمانية أشهر تقضي بالاصطلاء على نار الفحم الحجري؟ وما أدراك ما الفحم الحجري؟ وبخوض الوحول ويستنشق الضباب حتى زدتم على هذا البلاء الطبيعي بلاء صنائعيًّا تعافه الحيوانات؟! فإن الكلاب والسنانير تأبى أكل هذه الجباجب التي تحشونها بلحومهن، ثم أقول أولم يكف أن نسَّاجيكم وخياطيكم وأساكفتكم وصاغتكم وصباغيكم وسائر أهل الصنائع منكم يغشون ويموهون ويلبسون ويشبهون ويضلون ويغوون، فما يُدْرى الحرير عندكم من القطن، ولا الجديد من القديم المصبوغ، ولا المخيط من الملصق؟ وأن المومسات يتطاولن على الرجال ويشممنهم المسبت ثم يسرقنهم.

والمراد بالمسبت هنا: الدواء الذي يقال له كلوروفورم أو أثير، قيل: إن خاصيته كانت معروفة عند الكيماويين الأقدمين وذلك من سنة ١٦٨١، وأول من عثر عليه في التاريخ المذكور كنكل وأول من عرف خاصيته في الإسعاط توماس موطون من بوستان في أميريكا، ثم استعمله دكطر سميصون في أيدنبرغ، ومن بعده دكطر «جامس» روبنصون في إنكلترة، ثم شُهِرَ في سائر الممالك، ونشأ عنه الموت بعض الأحيان، وفائدته تغييب الموجع عن حس ما يؤلمه حتى إنه يمكن للجراح أن يقطع عضوًا منه أو يحرقه ولا يشعر به، وقد استعملته الملكة عند ولادتها غير مرة.

وإن منكم نباشين للقبور يسرقون أكفان الموتى ويبيعونها، وإن الأولاد يختلسون في كل طريق مظلم وفي كل زحام، وإن سفلتكم عارون عن الأدب والحياء، ودأبهم التعدي على الغريب والإساءة إليه، وإن كثيرًا من بيوتكم القديمة وحيطانكم العهيدة تتهدم وتسقط على الناس فتهلكهم! وإنه قد يمكث الإنسان عندكم شهرًا ولا يرى الشمس إلا مرة أو مرتين، وإن ربيعكم أبرد من شتائكم، وصيفكم أمطر من خريفكم، وإن لا فرجة عندكم ولا مشهد ولا موسم ولا ملهى إلا ويغص باللئام الطغام والأوباش والأوغاد والسفلة والأرذال، حتى عمدتم إلى إفساد ما خلقه الله من المأكول والمشروب طيبًا مريئًا؟ أفليست لكم ألسنة تذوق هذا الرجس، وتنطق بالحق، وحلوق تستبشع ذلك الخبيث من الطعام كما تستفظع حروف الحلق؟ فإن كان خلو لغتكم عنها هو مسبب من استطيابكم لهذا الخبيث فناها الله بضعفي ما في لغتنا منها.

أهكذا علمكم أهل الشرق أن تختبزوا الخبز مخلوطًا بأصناف شتى؟ أهكذا علمكم أهل فرنسا أن تطبخوا هذه اللحوم المنتنة في مطاعمكم وتخفوا فسادها بكثرة الفلفل والأفحاء؟ أهكذا علمكم باسكت الرومي في سنة ١٦٥٢ أن تصنعوا القهوة مخلوطة بجميع أنواع الحبوب؟ فما معنى كثرة دكاكين الكتب والمؤلفات التي لا عدد لها عندكم في كل فن وصنعة، وأنتم لا تحسنون أن تطبخوا بُضَيْعَةً من اللحم ببويقة من البقل، فكل لحم مشوي وكل بقل مسلوق؟! ويا ليت كان ذلك اللحم لحمًا وذلك البقل بقلًا.

فاعجب أيها القارئ من أن هؤلاء الناس الذين يملكون ما ينيف على ٥٠٠٠ باخرة منها ما هو أكبر من فُلْك نوح، كما زعموا وعندهم أكثر من ٢٠٠٠ صحيفة للأخبار، منها ما يطبع في كل يوم ومنها في كل أسبوع، لا يعرفون أن يأكلوا، وليس لهم ذوق يعرفون به الطيب من الخبيث من الطعام، ويرضون أن يأتيهم رجل من فرنسا أو إيطاليا ليبيعهم الخردل والخل والجبن مما يجلبه من بلاده، وليس منهم في تلك البلاد أحد يعلم أهلها شيئًا من صنعة الطبخ، فكل شيء دخل في حلوقهم طاب استراطه، وكل ما عرض للبيع في حوانيتهم حل بيعه وشراؤه بحيث يُؤَدَّى عليه مكس للدولة!

وإني لأعجب كيف أنهم لا يختبزون خبزًا من البطاطس وحدها، أو من الشعير وحده، أو من الأسماك كما في إيزلاند؟ وكيف لا يتجرون في طين الأرض القريبة من المسكوب الذي يقال: إنه يختمر مع الدقيق؟ وقد حان لي الآن أن أختم الكلام على لندرة فيما يَئُول إلى المأكول والمشروب، وأذكر ما فاقت به سائر مدن العالم فيما يطبع فيها من صحف الأخبار والكتب.

(٣١) صحف الإنكليز وطبعاتهم

فأقول: إن أول جرنال في الدنيا بأسرها هو الجرنال المسمى تيمس، ومعنى هذه اللفظة الأوقات، ومعنى الجرنال يومية، وهي لفظة فرنساوية، وهذه الصحيفة تحوي جميع أخبار المسكونة إلا أني رأيت فيها عيبًا كبيرًا وهو عدم استقصاء أخبار البلاد الشرقية وسائر الممالك الإسلامية، فإن كان فيها خبر عنها فإنما هو مخصوص بالتجارة، ولها عدة كتَّاب، وكاتب جملها السياسية يعد من أعظم أدباء الإنكليز ومرتبه في السنة أكثر من ألف ليرة، وهذا الجرنال هو لسان الأمة والدولة، ويليه الجرنال المسمى مورنن إدفريتسر ومعناه معلن الصباح، وهو لسان الرعية وكأنه نقيض ذاك.

(٣١-١) حرية الصحافة بين لندرة وباريس

وفي لندرة أكثر من ٣٢٠ جرنالًا للأخبار الطارئة والأدبيات والعلوم، ووزن ما يطبع منها في كل يوم وكل أسبوع يبلغ في الأسبوع ٢٥٠ طنًّا إلى ٣٧٠، وفي باريس ٣٥٠ صحيفة للأخبار، إلا أن كتَّابها مقيدون عن الجري في مضمار الكلام، فليس لهم حرية كما لِكُتَّاب الإنكليز، فإن هؤلاء يشهرون في أخبارهم كل ما استحسنوه واستقبحوه، وليست هذه الرخصة لأصحاب جرنالات فرنسا، وكذلك يشهرون كل ما حدث في مجلس المشورة من المذاكرات والمفاوضات بأن يبعث كل رئيس جرنال كاتبه إلى المجلس، ويكتب ما يقال فيه حرفًا حرفًا، ولهم في ذلك طريقة غريبة يسمونها اليد القصيرة، فإن الكلام يكتب مختصرًا بنوع من الإشارة، ولولا ذلك لم يكن ممكنًا للكاتب أن يستوعب جميع الأقوال، وكلما حدث شيء في قصر الملكة يطبعونه حتى إنهم لا يتحاشون أن يكتبوا أنها حبلى وأنها تلد في الشهر الفلاني.

وفي بعض هذه الصحف أن الملكة أهدت إلى أحد العسكر منديلًا من حرير، وفيه رقعة مضمونها أنه مكفوف بيد ابنتها الكبيرة، ولو كان مثل ذلك يشاع في بلادنا لأصبح مشغلة للألسن، كما سبقت الإشارة إليه، وأفحش ما يكون من تلك الجرنالات الجرنال المسمى بول بري، قرأت فيه في عدد ١٦ ما نصه: «إن كان الله قد قصد أن منحه في هذا الأمر تكون غير مستعملة، فَلِمَ منحنا إياها؟ وإن كان إنما قصد أن تكون مستعملة من المتزوجين فقط فَلِمَ آتاها غير المتزوجين أيضًا؟ أم يقول قائل لا خشية له من الله: إنه إنما أعطانا إياها ليبلونا بها، أفليس هذا يفضي إلى أن نجعله ممتحنًا، إلا أني لا أبرئ المتزوجين في استعمالهم هذه المنح في غير محلها.

أما الاقتران الطبيعي بين الرجل والمرأة وهما غير متزوجين وليسا من عائلة واحدة، فحلال شرعي، والحاصل أن شرائعنا الأدبية حائدة عن الصواب، وأن الفضيلة على ما تفهمها العامة شَيْن وتدليس.» إلى أن قال: «فكل امرأة غير متزوجة يحل لها على مذهبي أن تخالط أيًّا شاءت من الرجال من دون خوف من أن توسم بالعار والفضيحة أو الخروج عن الأدب، ولو جرت العادة بأن تعيش الرجال مع النساء من دون زواج لأغنانا ذلك عن كثير من الشرور التي تحدث بين المتزوجين كالسم والقتل ونحوه، بل عن كثرة المومسات وعما يقاسين من الموبقات والرذائل.»

وفي بعض الجرنالات من بعض العامة إلى كاتب الجرنال ما نصه: اسمح لرجل مسكين أن يقول كلامًا وجيزًا على أمر موجب لشكوى الإنكليز، فأقول: إنا معشر أهل إنكلترة ما برحنا معنيين بما لقينا من مصاريف الحرب الأخيرة، ومن المكوس التي لا تطاق، ومع ذلك فقد خطر الآن ببال بعض أهل الدولة طريقة أخرى لإفقار الرعية، وهي إمداد مملكة أجنبية بمال سُمِّي جهاز ابنة الملكة، وناهيك أن ملكتنا لما تزوجت أحضرت إلى رعيتها رجلًا لا ثروة له، وأن ملك البلجيك رتب له وظيفة تجري عليه من أهل هذه المملكة، وما ذلك إلا لكونه تزوج بنت الملك جورج، فصارت بلادنا موردًا لصيادي البخت والجِدَة، وإنها لتبقى كذلك ما دام جلب المال هينًا على طالبيه.

أوليس لملكتنا من الإيراد الجزيل ما يقدرها على أن تقوم بمؤنة ذريتها، ولو أنها قَتَّرَت على نفسها قليلًا لأمكنها أن تجهزهم إن كان لا يوجد من كرام الناس من يتزوجهم لمجرد المحبة، وكيف كان فمن الظلم الواضح أن يُكلف أهل بلادنا إغناء بلاد أجنبية، ألا ترى أن لي زوجة وعشرة أولاد، وأن إيرادي كله لا يزيد على ١١٠ ليرات أؤدي منها لتنظيف البلدة شيئًا، ولأجل الفقراء شيئًا وللكنيسة شيئًا، ولغيرها شيئًا؟ فهل إذا أردت أن أزوجهم يجهزهم أهل الشورى عني … إلخ. ا.هـ.

(٣١-٢) بدايات الصحف المطبوعة في الغرب

وثمن هذه الجرنالات كلها مع ما فيها من الأخبار والفوائد، ومع حسن طبعها وورقها لا يفي بثمن الورق فقط؛ وإنما يكسب أصحابها من الإعلانات التي يطبعونها للتجار وغيرهم، فعلى كل سطرين أو ثلاثة من هذه الإعلانات خمسة شلينات، وأول طبع بالبخار ظهر في مطبعة التيمس وذلك في سنة ١٨١٤، وأول جرنال طبع في بلاد الإنكليز كان في أكسفورد وذلك في سنة ١٦٦٥، وكان ديوان الملك يومئذ هناك لأجل الطاعون الذي وقع

في لندرة، فلما رجع إلى لندرة سمي ذلك الجرنال كازت، وذلك بعد التاريخ المذكور بسنة واحدة، وبقي هذا الاسم خاصًّا بالجرنال المشتمل على أخبار الدولة والمصالح الملكية، فلا معول في أخبارها إلا عليه، فهو بمنزلة المونيتور في باريس، وأصل اسم الكازت أنه في سنة ١٦٢٠ طبع في صحيفة في فينيسيا أخبار مختلفة، وكانت تُشْرى بقطعة من الدراهم تسمى كازتة، فلزمها هذا الاسم.

وكان اشتهار الجرنال في فرنسا سنة ١٦٣١، وفي جرمانية سنة ١٧١٥، وفي دبلين سنة ١٧٦٧، وأول جرنال اشتهر في هولاند كان في سنة ١٧٣٢، وفي أميريكا سنة ١٧١٩، وعدد جرنالات هذه ٨٠٠، منها ٥٠ جرنالًا تطبع في كل يوم، وجملة نسخها ٦٤ مليونًا، وأول ما يصح تسميته بجرنال لاشتماله على أخبار عمومية في بلاد الإنكليز هو ما طبع في سنة ١٦٦٣، وبقي كذلك نحو ثلاث سنين ثم خفي بظهور الكازت، وفي زمان الملكة إليصابت وذلك سنة ١٥٨٨ شهر أيضًا شيء مثله، ولكنه لم يكن على هذا النسق.

وأعجب العجب كثرة أوراق التعريف والإعلان في هذه المدينة في كل موضع يباح فيه إلصاقها، وقد يستخدم بعض التجار خَدَمَةً مخصوصين ليطوفوا بها ويفرقوها على المارين مجانًا، وما أحد يريد أن يأخذها، ومنها ما يطبع بحروف فاحشة الكبر حتى يمكن قراءتها من مسافة بعيدة.

(٣٢) اختراع الطباعة

أما صناعة الطبع فقد اختلفت الأقوال في مخترعها، فبعض المؤرخين نسبها إلى منتز، وبعضهم إلى استرابورغ وهارلم، وبعضهم إلى فينيسيا ورومية، وبعضهم إلى فلورنسه وباسيل، وفي رواية أدريان جونيوس أن مخترع الطبع هو يوحنا كستر من هارلم، طبع على خشب كتابًا فيه حروف وصور على وجه واحد، وذلك في سنة ١٤٣٨، وفي سنة ١٤٤٢ أنشأ يوحنا فوست مطبعة في منتز، وطبع فيها كتابًا، وزعم بعضٌ أن أول كتاب طبعه كان كتاب المزامير، وقال آخر: لا شك أن الطبع على قطع الخشب كان معروفًا عند أهل الصين وذلك قبل تاريخ النصارى بأحقاب عديدة، وكذلك كان معلومًا عند الرهبان في بلاد الإنكليز وفي غيرها من بلاد أوروبا، فإنهم كانوا ينقلون الكلام من ورقة إلى أخرى على الخشب، ولكن كان ذلك قليلًا، فأما استعمال هذه الحروف مصفوفة واحدًا بعد واحد فلم يعرف إلا في متأخر الزمن.

قال: ولم يكن أحد في الزمن القديم يشتغل بالعلم وبترجمة الكتب والنسخ إلا الرهبان، فهم الذين أدخلوا التمدن والمعارف في بلاد الإفرنج، وكانت رومية وبلاد اليونان

معدن الكتب والعلوم، وكان الصكصونيون آباء الإنكليز يسافرون مسافات بعيدة في طلب العلم وتحصيل بعض تلك الكتب النادرة ويشترونها بثمن غال، وعند رجوعهم يترجمونها إلى اللغة الصكصونية، وكانت الناس تتنافس فيها لندرتها غاية المنافسة، وكان للأسقف ولفريد نسخة من كتاب الإنجيل مكتوبة بحروف من ذهب على ورق أرجواني، فكان يضعها في صوان من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة، وما عدا الرهبان فلم يكن أحد من العامة مَنْ يحسن الكتابة غير أفراد قليلين، وناهيك أن توقيع ويليترد — ملك كنت — على مجلة كان علامة الصليب، وأمر كاتبه بأن يكتب تحتها أن الملك إنما رسم تلك العلامة بدلًا من اسمه لجهله الكتابة.

ولولا تخريب الدانيزيين وتدميرهم لكان العلم بين الصكصونيين قد تقدم كثيرًا، إلا أن ملوك البحر أولئك كانوا على جانب عظيم من الجهل والجفاء، وكانوا وهم على أصنامياتهم ينظرون إلى الصكصونيين المسيحيين كأنهم مرتدة: لأنهم كانوا أولًا مثلهم عبدة أوثان؛ ولهذا كانوا يرون أن فروض دينهم توجب عليهم إبادة أديار الرهبان وكتبهم، وما كانوا يعرفون شيئًا من جهة السماء سوى أنهم يشربون فيها المزر في جماجم أعدائهم، ويأكلون من مأكول لا ينقص الآكل منه شيئًا مهما أكل، فمن ثم أتلفوا كتبًا كثيرة كانت كلفت الصكصونيين أتعابًا عظيمة في تحصيلها، ولو أنها بقيت لنا لكنا ندري منها أمورًا كثيرة نجهلها في تاريخ جميع البلاد.

قال: واتفق في القرن الخامس عشر أن شابًّا اسمه جون غانسفليش ويعرف بغاتنبرغ من صقع سلغيلوش سافر إلى استراسبورغ، وكانت مشهورة حينئذ بأنها سوق الكتب، فأخذ يفكر في إحداث طريقة لتكثيرها، فخطر بباله أنه إذا صنع حروفًا تتركب وتنحل يبلغ بها أربه، ثم رجع إلىماينس واجتمع برجل اسمه فوست، فتواطآ على إبطال نسخ الكتب لما فيه من المشقة بطريقة الطبع بتلك الحروف، فسبكاها كما خطر لهما، وكان ذلك في سنة ١٤٤٠، إلا أن عملهما هذا لم ينتج فائدة إلا بعد عشر سنين، ويظن أن تلك الحروف كانت من رصاص أضيف إليه بعض أجزاء كيمياوية لجعله صلدًا متحملًا للعمل المراد.

ثم دخل في شركتهما بطرس شوفر، ثم طبع غاتنبرغ عدة كتب من جملتها التوراة المعروفة الآن بتوراة مازارين، وقد راج بيعها واشتهارها كثيرًا حتى إنه كان يقال: إن طبعها من عمل الشيطان، وفي سنة ١٨٣٧ نصب له مثال على قبره إكرامًا له، وأُرسلت نواب من جميع دول الإفرنج لتحضر مشهده، ولما تفرق الذين كانوا مستخدمين في

مطبعته ذهب بعضهم إلى سوبياكر في إيطاليا، فاشتهرت هذه الصناعة فيها في سنة ١٤٦٥، ثم سَرَتْ إلى باريس وذلك في سنة ١٤٦٩، وبعد سنة اشتهرت في إسبانيا، وبعد نحو خمسين سنة عَمَّتْ جميع أوروبا.

ويظهر مما قاله بادان أحد مشاهير الطباعين في باريس في أوائل القرن الخامس عشر، وكذا مما قاله شكولوكر الإنكليزي أن الأمهات والأبهات في تلك الحروف لم تختلف كثيرًا عن المستعمل منها الآن، وكانت العادة إذ ذاك أنَّ سبك الحروف مختص بالطباعين فقط، وفي سنة ١٦٣٧ صدر حكم من ديوان الإنكليز بأن لا يزيد عدد الطباعين على أربعة نفر، وأنه إذا مات منهم أحد لا يقوم آخر في محله إلا بإذن رئيس أساقفة كنتربري، وفي سنة ١٦٩٣ — حين صدرت المجلة بإقرار حقوق الأهلين — بَطُلَ هذا الحكم.

(٣٢-١) الرقابة على المطبوعات

وكانت الكتب سابقًا تُفْحَص قبل أن تُطبع، ثم يكتب على صفحة عنوانها تطبع، وفي سنة ١٧٩٥ أطلقت الحرية في الطبع من دون فحص، وأُمِرَ بأن تطبع أسماء الطباعين في أوائل الكتب وأواخرها.

(٣٢-٢) انتشار الطباعة في بلاد الإنكليز

وأول من شهر الطبع في بلاد الإنكليز كاكسطون، وذلك نحو سنة ١٤٧٤، وكان قد سافر إلى البلاد الواطئة وحصَّل معارف كثيرة، وأول كتاب طبعه كان تاريخ طروة ترجمه من اللغة الفرنساوية، وكان جامعًا لثلاث خصال جليلة: وهي كونه مؤلفًا وطباعًا وناشرًا، وبسعيه ومعارفه حصل له في أدب لغة الإنكليز تقدم عظيم.

إلا أن هذه الصناعة الجليلة كانت غير عامة المنفعة عندهم، وخصوصًا أنهم كانوا يشترون الحروف من بلاد أوروبا القارة، ولا سيما من هولاند، إلى أن قام كسلون في أوائل القرن الماضي وسبك حروفًا حسنة، وكثَّر الأدوات، وفي سنة ١٧٢٠ استخدمته الجمعية المعروفة بجمعية انتشار المعارف المسيحية في سبك حروف عربية، ثم اشتهر صيته في الآفاق حتى صار أهل البلاد القارة يستمدون منه، فلما مات باعت زوجته ما كان عنده من الحروف لجمعية العلوم في باريس، فكانوا يطبعون بها أجلَّ المؤلفات في الأدب والعلم، ثم قام دكطر «فري» وسبك حروفًا في جميع اللغات المشرقية، ويقال: إنه

سبك في مسبك برسكيف أربعمائة شكل من الحروف الهجائية، وإن بروبنكاندة رومية مع شهرتها ليس فيها أكثر من ذلك، وسبك أيضًا في معمل ديدو في باريس أبدع ما يمكن صوغه من الحروف في العالم بأسره، حتى إن بعضها لا يمكن قراءته إلا بالزجاجة المكبرة.

وكيفما كان فإن طباعي الإنكليز في عصرنا هذا لا يعلو عليهم أحد، ثم إن أحد النمساويين — واسمه هركونك — رأى أن الطبع بالبخار غير مستبعد، فعرض رأيه على أهل بلاده، فأعرضوا عنه، فقدم إلى بلاد الإنكليز، وأسعفته جماعة منهم لإجراء ما قصده، فصنع آلة صغيرة طبع بها ألف صحيفة في ساعة واحدة بمساعدة ولدين فقط، فلما تحقق صحة استعمالها، عزم على اتخاذ آلة كبيرة لطبع الأخبار، فرآها صاحب جرنال التيمس فواطأه على أن يصنع له آلتين مثل تلك، ولكن أكبر منها، وفي سنة ١٨١٤ طبع في ذلك الجورنال إعلان بأنه مطبوع بقوة البخار، ثم قام جماعة وحسنوا هذه الآلة، فكان يطبع بها على الوجهين في كل ساعة من ثمانمائة صحيفة إلى تسعمائة، وكانت الآلة المفردة تطبع على وجه واحد في كل ساعة ألفًا وأربعمائة صحيفة، ثم قام مستر لتل واخترع آلة مزوجة يطبع بها في الساعة من عشرة آلاف صحيفة إلى اثني عشرة ألفًا، وفي بلاد أميريكا مطبعة تطبع في الساعة عشرين ألف صحيفة ما بين جرنال وغيره.

(٣٢-٣) أهمية اختراع الطباعة والورق

وفي الحقيقة فإن جميع ما اخترع من الصنائع في هذا العام هو دون صناعة الطبع، نعم إن الأقدمين بنوا أهرامًا ونصبوا أعلامًا وشادوا هياكل وحصنوا معاقل، وحفروا خلجانًا وأقنية للماء، ومهدوا مسالك للعساكر، إلا أن صنائعهم تلك بالنسبة إلى صنعة الطبع إن هي إلا درجة ترق فوق درجات الهمجية، فإنه بعد اشتهار الطبع لم يبقَ احتمال لإضافة المعارف التي ذاعت وشاعت، أو لفقد الكتب كما كانت الحال حين كانت تكتب بالقلم، وقد قيل: إن المعرفة قدرة، فإن المتصفين بالمعارف وهم الأقل يتولون الأمور ويسوسون الجمهور وهم الأكثر. ا.هـ.

أما إحداث الورق، فقال فلتير: إنه كان في القرن الحادي عشر، إلا أنه كان مشهورًا في الصين من عهد لا يعلمه إلا الله، وهو أبيض رقيق يتخذونه من البمبو المغلي، أو من قصب السكر، قال: وقد عرف استعمال الزجاج عندهم من ألفي سنة، وقال آخر: إن إحداث الورق في الصين عرف في سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد، وفي سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد

كان يصنع من القطن، وفي سنة ١٣١٩ صار يصنع من الخرق، وأول من صنع الورق الأبيض الخشن في بلاد الإنكليز رجل نمساوي، وذلك في سنة ١٥٩٠، وقبل وليم الثالث كان الإنكليز يشترونه من فرنسا وهولاند، فكانوا يصرفون كل سنة في ثمنه ١٠٠٠٠٠ ليرة، فلما قدم بعض الفرنسيس إلى هذه البلاد للاستئمان علَّموا الإنكليز صنعة الورق، وكانوا من قبل ذلك يصنعون ورقًا خشنًا أسمر.

وفي سنة ١٦٩٠ صنعوا الورق الأبيض باليد، واتخاذه بالآلة كان من مخترعات لويس روبرت، ثم باعها لطباع اسمه ديدو فجاء بها هذا إلى بلاد الإنكليز، ومن ثَمَّ شهر استعمالها، وفي سنة ١٨٣٠ صنع بها طَلْحِيَّة بلغ طولها ١٣٨٠٠ قدم، وعرضها أربع أقدام، أما الورق المنقوش الذي يلصق على الحيطان فكان إحداثه في إسبانيا وهولاند في سنة ١٥٥٥، فأما البابيروس وهو الورق المتخذ من القصب فكان يصنع في مصر والهند إلى أن عمل الرق، وذلك في سنة ١٩٠ قبل الميلاد، وكان بتولومي قد منع إخراجه من مصر، وعليه كتب تاريخ يوسيفوس، وهي نسخة جليلة ثمينة أخذها نابوليون الأول من جملة ما أخذ، وبعث بها إلى باريس، وفي سنة ١٨١٥ رُدَّتْ إلى موضعها.

فصل في الستي

مركز لندرة التجاري

قد تقدم الكلام على هذا الخط من حيث اشتماله على أعظم المباني الكائنة في لندرة، فإن البنك والبوسطة والبورس وديوان الضابط وداره ودار السكة وكنيسة ماربولس جميعها فيه، وهو في الواقع لندرة القديمة، وما بني من بعده فهو حادث، وبقي الآن هنا أن أقول: إن هذا الخط الفريد هو مركز الأشغال العظيمة والمبايعات الجسيمة لأغنياء تجار الإنكليز، فما من بناء فيه إلا وهو مصدر للحركة والعمل، وما أحد يخطو فيه إلا للكسب والشغل، ولا يتحرك به لسان إلا للنفع والفائدة، ولا تطلع عليه شمس ولا يوقد فيه نور إلا للسعي، ولا يخلج صدر مخلوق خاطر إلا للتحصيل والاقتناء؛ فترى كل واحد من أهله فاتحًا عينيه وفمه لأكل الدنيا وما فيها، وكثيرًا ما ترى في مسالكه مصحبين يحدثون أنفسهم فيما هم فيه من المباشرة للأعمال، فهنا تجد الغلام شيخًا في معرفة الإدارة، والشيخ غلامًا في النشاط والاستعداد، والشاب قبيلًا.

مركز عالمي للتجارة

وكيفما توجهت وأينما سلكت رأيت نهم الخلق وحرصهم شاغلًا لحواسهم الباطنة والظاهرة بالحرث والادخار، وليس من قطر في الدنيا إلا ويمده أهل هذا الخط بالبضاعة والمهمات، وهو وإن خلا عن الحوانيت الرحيبة البهيجة مما يرى في سائر شوارع لندرة إلا أن الأرباح التي تُجْنَى هنا في يوم واحد لا تجنى في غيره في شهر؛ لأن العقود الخطيرة والمراسلات الجزيلة إنما تصدر عن هذا المشغل الحافل، ولا يخفى أن التاجر الذي يراسل

تجار البلاد الأجنبية، ويبعث لهم ويجلب من عندهم، يربح أكثر من التاجر الذي يقعد في حانوته وينتظر شاري شقة من الحرير أو ثوب من الخز.

كبار التجار والفرق بين تجارهم وتجارنا

ومن هؤلاء التجار من يكسب في السنة نحو مليون ليرة كذا قيل، ومنهم من له عدة سفن تجري في البحر من بلد إلى بلد، ومنهم من يستخدم في إدارة مصالحه مائة شخص، وقد ذكرنا سابقًا أن واحدًا من هؤلاء له محل في إرلاند فيه أربعة آلاف من الرجال والنساء لعمل القمصان لا غير وأن تاجرًا مات وخلف سبعة ملايين ليرة، ولا بد لكل منهم من أن يكون له كتاب وحساب وصيرفي وما أشبه ذلك، والغالب أن يكون له محترف يشتمل على ثلاث حجرات؛ إحداها: للأشغال الخاصة به، والثانية: للكتاب، والثالثة: مشتركة لهم، ولوضع الرواميز والمتاع ونحوه، ولا شك أن تجار لندرة عمومًا وتجار هذا الصقع خصوصًا أغنى من جميع تجار أوروبا، إلا أنهم دونهم في الظَّرف والكياسة، وعبارتهم ركيكة بخلاف تجار فرنسا، فإنهم مشاركون لذوي العلم والدراية، وعبارتهم وإن تكن دون عبارة علمائهم إلا أنها بالنسبة إلى كلام تجار الإنكليز عالية.

كما أن عبارة هؤلاء بالنسبة إلى عبارة تجار بلادنا في غاية الفصاحة، ولعمري إن تاجرًا يكتب: لق أي لا، وقمضه؛ أي الإمضاء، والسالسي؛ أي الثالثة، ومنقول؛ أي نقول، وأعرض عن هذا الشيء؛ أي عرض هذا الشيء، والخصارة؛ أي الخسارة، ونبتدئ بحساب جديد وبخير وعافية، والساررة، وغث علينا، وحظونا على، وفولابت، ونحو ذلك لجدير بأن يستحي من حرفته.

ومن العجيب هنا أن العالم قد يسهو أحيانًا ويغلط، ومثل هؤلاء التجار لا يغلطون أبدًا في تأدية عبارة واحدة على حقها، فقد قرأت أكثر من ألفي رسالة وردت منهم، فلم أرَ فيها ولا جملة واحدة تدل على فكر لهم وروية، فلمثل هذه الحال يدخر قول الإنكليز في التوبيخ: ألا تستحي من نفسك؟ نعم إن التاجر لا يطلب منه أن يكون شاعرًا أو رئيس ديوان الإنشاء، ولكن عار عليه أن يصرف إدراكه كله في معرفة الثوب الخشن من الرفيع وأن يرتدي بلباس الغفول عن أشرف ما ميز الله به الإنسان عن البهيمة، وهو النطق، بل ليت هؤلاء يكتبون كما ينطقون، فإني لا أحسب عجزهم في الكلام بالغًا إلى هذا الحد، ولعمري إن صاحب الذوق السليم يمكنه أن يكتب عبارة لائقة من دون أن يدرس كتاب سيبويه، أو فقه اللغة للثعالبي، والمتفصح من هؤلاء من يخلط العربية بالتركية أو

الطليانية، فيكتبون: مركب يالكان وعلام مور وبرمق وجنابير وماكنة وبريمو، ويا ليتهم يكتبونها على حقها، فيا ليت شعري ما سبب هذا العدول عن لغتهم إلى لغة العجم؟ وما سبب هذا القصور عن تأدية عبارتهم بألفاظ متعارفة، أو عن سبك معانيهم في كلام معجب مفصح؟ وما عسى أن يقال في تاجر فرنساوي يكتب رسالة ويحشوها بالألفاظ القبيحة والأغلاط الفاحشة في التركيب ورسم الخط، وما يكون قدره عند أقرانه ومعارفه وعند أصحاب الجرنالات، وخصوصًا ما يطبع منها للضحك والتهكم، ألا فليحمدوا البلاد التي خلت عن هذه الصحف وعن رعاية حرمة العلم.

تنافس الإنكليز في خط الستي

ثم إن تنافس الإنكليز في حصولهم في خط الستي سواء كانوا تجارًا فيه أو كتابًا أو غير ذلك، هو كتنافس القبط في استخدامهم في قلعة مصر، وقد ذكرت سابقًا أن جميع الحوافل مكتوب عليها اسم البنك؛ لأنها جميعها ترد إليه إلا ما ندر، وبهذا تعلم ما يكون ثَمَّ من الزحام والتوارد، وفي الحقيقة فإن دَوِي المراكب في مسالك هذه البقعة لِمَّا يذهب بالصبر، وما أظن أحدًا من سكانها أن يمكنه أن يعمل فكره في شيء إلا فيما هو بين يديه من الشغل.

فيه تم تأليف هذا الكتاب

وفي هذا المورد الوخيم قدر الله لي أن أؤلف هذا الكتاب، لا في مروج إيطاليا النضيرة، ولا في رياض الشام الأنيقة، فأخال أن بين كل كلمتين منه دخانًا متصاعدًا وظلامًا متكاثفًا، وكنت كلما خرجت من حجرتي إلى هذا الموضع أوجس أن يصيبني سوء، إما من تزاحم الناس أو البهائم أو من رداءة الطعام الذي يُؤكل في مطاعمها، فإذا عدت إلى منزلي أجد نفسي كأني نجوت من خطر غرق أو نار.

الستي مكان كالحبس

ومن يخرج من هذا الحبس إلى جهة ريجنت ستريت كان كمن خرج من لندرة إلى باريس؛ لأنه يرى هناك بعض الناس يمشي على مهل، فيستشعر أن من الخلق من يخرج للتفرج والتنعم، وبعضهم يدخن بالتبغ وهو ماشٍ، وبعضهم يتكلم وهو ضاحك أو مبتسم، وقد يسمع بعض آلات الطرب، فيأنس بأن هناك ما ينفس عن القلب، ويؤذن بالسرور، وأن من أوقات العمر ما يخصص للراحة واللذة، بخلاف شوارع الستي، فإن الله تعالى لم يخلقها إلا للسعي والشغل، الشغل ليس إلا الشغل، العمل العمل.

إن دين القوم العمل، فهم لا يستريحون منه إلا إذا استراح هو منهم، وناهيك أن فيه دارًا واحدة تشتمل على خمسمائة محترف، وعدة سماسرته تبلغ نحو الألف.

ومع أن موقع هذا الخط سافل بالنسبة إلى سائر أخطاط المدينة، وطرقه ضيقة وبيوته حقيرة، فإن إجلاله عند الإنكليز جعله أرفع وأشرف من غيره، حتى إنهم إذا شخصوا منه إلى محل أعلى منه يقولون: إنا نهبط إلى موقع كذا، وليس في هذا الخط كله ملهًى ولا نزهة ولا شيء آخر يبسط النفس، فلن ترى فيه إلا وجوهًا كالحة، وزحام عواجل وحوافل ومحامل وعجلات مقبلة ومدبرة، وطرقًا ضيقة وحِلة، وجدرانًا سودًا، ومسالك غاصة بالناس.

تمت الطبعة الثانية من هذا الكتاب بحمد الملك العلي ملهم الصواب ومجزل الثواب، أما الطبعة الأولى التي طُبعت في تونس فلم تكن تامة؛ إذ حذف منها بعض أقوال سديدة، وأخبار مفيدة، فلما رأينا ذلك أثبتنا في هذه الطبعة ما حُذف من تلك وأضفنا إليها أيضًا أشياء أخرى من قبيل الإحصائيات التي زادت؛ إذ لا يخفى أن أحوال أوروبا تغيرت بعد تأليف الكتاب، وقد بذلنا الوسع في ضبط هذه النسخة وفي تحريرها وتهذيبها على قدر الإمكان؛ فجاءت بحمده تعالى نموذجًا على الإتقان، وكان الفراغ من طبعها في أواخر شهر محرم الحرام سنة ١٢٩٩ في أيام سلطاننا المعظم الخليفة الأعظم مولانا وسيدنا السلطان ابن السلطان، السلطان الغازي عبد الحميد خان، أيد الله سلطنته وأيد دولته وسلطته، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.